صِفَاتُ عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ

البرنامج الإذاعي الذي أذيع في إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية

على مدى سبع سنوات من عام ١٤٢٦هـ حتى ١٤٣٢هـ

تأليف

أ.د/ فيصل بن سعود بن عبد العزيز الحليبي

أستاذ أصول الفقه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الأحساء

صِفَاتُ عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ

البرنامج الإذاعي الذي أذيع في إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية
على مدى سبع سنوات من عام ١٤٢٦هـ حتى ١٤٣٢هـ

تأليف

أ.د/فَيْصَل بِن سُعُود بِن عَبْدِالعَزِيْز الحُلَيْبِي

أستاذ أصول الفقه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية في الأحساء

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

عنوان الكتاب: (صِفَاتُ عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ).

المؤلف: أ.د/فيصل بن سعود بن عبدالعزيز الحليبي.

رقم الإيداع ١٤٤٣/١٢٧٨٤ وتاريخ ١٤٤٣/١٢/٢١هـ

ردمك ٧-٨٠٠٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

حقوق النشر الإلكتروني لكل من يحب نشر الكلمة الطيبة ابتغاء مرضاة الله تعالى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِهدَاء

أُهْدِي كِتَابِي هَذا إِلى:

فَلَذَاتِ كَبِدِي، وَحُشَاشَةِ فُؤَادِي، وَنُوْرِ عَيْنِي

أبنائي وبناتي

رَاجِيًا رَبِي أَنْ يقرَّ عَينيَّ وَعَينَي والدِتِهِم بِهِم

فيكونوا من عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ.

والدكم المحب

فَيْصَل

مُقَدِّمَة

ربَّنا لك الحمد، ربنا لك الشكر، ربنا لك الفضل، سبحانك أنت الكريم، سبحانك أنت الحليم، كلُّ نعمة هي من فيض نعمك، وكلُّ جودٍ هو من إحسانك:

يا مَنْ يُغيثُ الورَى مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ... ارْحَم عِبَادًا أكفَّ الفَقْرِ قد بَسَطُوا
عوَّدتَهم بَسْطَ أرزاقٍ بلا سَبَبٍ ... سوى جميلِ رجاءٍ نحوه انبَسَطُوا
وعُدْتَ بالفضْلِ في وِرْدٍ وفي صَدَرٍ ... بالجودِ إن أقْسَطُوا والحلمِ إن قَسطوا

أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخليله وحبيبه، اصطفاه الله بأكرم رسالة، وأنزل عليه أفضلَ كتاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام البررة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فيا معاشر القُرَّاء والقارئات: كيف يجد المرء منَّا نفسه حينما يثني عليه حبيبه أو قريبه؟ وكيف هو عندما يمدحه عالمٌ جليل أو مسؤولٌ كبير؟ يذكُره بأجلِّ الصِّفات، ويعلي شأنه بين الناس بأحسن الأخلاق وأكرمها!

هكذا جُبِلَت النفس البشرية على الأُنس بالشُّكر، والسَّعادة بالثناء.

فكيف لو كان من يثني عليك هو الله العظيم الكبير المتعال!

الله القدوس العزيز العظيم!

ينعتك بأعظم النعوت والخِلال، ويخلِّدها في أجلِّ كتابٍ عرفته البشرية! وليس هذا فحسب؛ بل ويضيفك إلى نفسه عز وجل تكريمًا لك، وهو الرحيم الرحمن، الغني الحميد؛

لتكون عبدًا من عباده الذين أحبَّهم وأحبوه، وهداهم فعبدوه، واتبعوا نبيه ﷺ فأجلَّهم وأعلى مقامهم.

هل حدَّثتَ نفسَك أو حدثتْك نفسُك المؤمنةُ أن تكون من هؤلاء؟ فتلحقَ بركبهم؟ وتنتسب إليهم؟ وتستظل بخيمتهم الظليلة؟ لتسعد كم سعدوا؟ وتنعم برضوان الله تعالى كما نعموا؟

مَنْ هؤلاء؟ الذين كم تاقت قلوب الصالحين أن يكونوا منهم؟

مَنْ هؤلاء؟ الذين كم تجافت جنوب الأخيار عن مضاجعهم شفقة ألا ينتسبوا إليهم؟

مَنْ هؤلاء؟ الذين يقود ركابهم النَّبي ﷺ، وفي مقدمة صفوفهم الصحابةُ والسَّلفُ الصالح ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم وأرضاهم؟

مَنْ هؤلاء؟ الذين تشرئب أعناق الصالحين أن يكونوا في زمرتهم؟

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣].

إنهم عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ؛ يا للعبودية الشريفة، والمقام الرفيع، إنها عبودية لم تعرف التذلل للدنيا وشهواتها، بل أنِسَتْ بعبودية الله تعالى، وعرفت مقام ربها سبحانه، فتلذَّذت بالتذلُّل بين يديه سبحانه، فوجدت في الركوع له سعادة، وفي السجود له عزَّة، وفي الاستقامة على دينه النصرَ والكرامة.

أنعم بها من عبوديةٍ للرحمن؛ تتصاغر أمامها عبودية المال التي لا تَعِدُ إلا بالتعاسة والانتكاسة، يقول النَّبي ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ؛ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ) رواه البخاري.

أنعم بها من عبودية للرحمن؛ تتقزم أمامها عبودية الهوى، التي وصفها الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجَاثِيَةِ الآية ٢٣].

إنهم عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ؛ الذين دأبوا على سؤال الله تعالى، والله قد وعدهم بالإجابة؛ لأنَّهم أهل استجابةٍ لله تعالى وإيمانٍ به، حتى أصبحوا من الراشدين، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٨٦] .

وإنهم عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ؛ الذين لم يجعل الله للشيطان عليهم سلطانًا، مهما بذل من وسواس أو إغواء؛ لأنَّهم أصحاب رجوعٍ وإنابةٍ وتوكلٍ على الله تعالى، فهنيئًا لهم ثناء الله تعالى عليهم في قوله سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحِجۡرِ الآية ٤٢].

إنهم عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ؛ الذين أسعدهم الله ببشرى عظيمة انشرحت لها صدورهم، وقويت لها عزائمهم، فإنَّه سبحانه الذي بشرهم بقوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحِجۡرِ الآية ٤٩].

مستوفدين على رحلٍ كأنهمُ ... ركبٌ يريدون أن يمضوا وينتقلوا
عفّتْ جوارحُهم عن كلِ فاحشةٍ ... فالصدقُ مذهبُهم والخوفُ والوجلُ

قصة الكتاب:

إنَّ لهذا الكتاب لقصة بدأت حينما قدَّمتُ فكرة برنامجٍ إذاعيٍ إلى إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية؛ على أن يكون برنامجًا شهريًا بعنوان: (صِفَاتُ عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ)، فاحتجت حينها أن أُعِدَّ ثنتي عشرة حلقة فقط! فأجابوني: بل تعدُّ ثنتين وخمسين حلقة! لأننا نريد البرنامج أسبوعيًا!

فشكرت لهم ثقتهم الكبيرة وتشجيعهم ودعاءهم، ولكني حملتُ همًّا ثقيلاً، لأني ممن يُعنى بالإعداد والتحضير، لا سيما أني لم أعرف حينها أين سأسجل هذه الحلقات الكثيرة! ولو كانت في أستديو الإذاعة في الرياض أو في الدمام فالأمر يحتاج إلى سفرٍ متكررٍ ومستمر!

فسألتُ اللهَ العونَ والتوفيق، فهو سبحانه يعلم ضعفي وقلة حيلتي، وهو القدير على كل شيء.

بعدها قدمتُ خطة البرنامج، ثم أرسلتها إلى الإذاعة، فاستحسنوها، ودعوا لي اللهَ بالتوفيق.

والحقيقة أنَّه كان لي خبرة يسيرة بالتسجيل على بعض الأجهزة الحديثة، فانتقلتْ هذه الخبرة إلى الاستفادة من جهاز الحاسب الآلي، للتسجيل عليه مباشرة، ثم نسخ الحلقة على القرص المدمج، ثم إرساله إلى الإذاعة مع بعض الزملاء الذين يدرسون في الرياض أو يعملون في الإذاعة ويعودون إلى الأحساء أسبوعيًا.

فقمت بعمل المقدمة (الشارة) وأخرجتها بنفسي، وجعلتها على شكل تساؤلات أوردتُ بعضها في ثنايا هذه المقدمة المكتوبة، فلاقت هذه (الشارة) قبولاً لدى الإذاعة، فتمَّ إقرارها.

من هنا بدأتُ أُحضِر الحلقة، وأكتبها، وأسجِّلها، وأُخرجها، ثم أرسلها جاهزة للبث، لا يبقى سوى إجازتها من لجان المراجعة في الإذاعة جزاهم الله خيرًا.

لقد جمعتُ مادة هذه الحلقات من عددٍ من المصادر، كان في طليعتها كتاب الله تعالى، الذي أنار لي دروب معانيها، وكنت أميِّز برنامجي بجعل الآيات الكريمة بصوت القرَّاء المشاهير؛ كأصحاب الفضيلة: محمود خليل الحصري، ومحمد صديق المنشاوي، وعبدالباسط عبد الصمد، وغيرهم، وأحيانًا أرتِّلها بصوتي، فكان لهذا التَّنوع الصوتي أثره في جذب المستمعين والمستمعات وشدِّ انتباههم.

وفي هذا الكتاب جعلت الآيات الكريمة مكتوبة برسم المصحف، وعزوتها إلى مواضعها في المصحف الشريف.

أما الأحاديث النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فقد اكتفيت فيها بالصحيح والحسن فقط، ورأيت فيهما غنيةً عن الضعيف، ولذا أُرْدِف الحديث ببيان حكمه مباشرة بإيجاز، وبذلت جهدي أن تكون مَشَكَّلة؛ حتى تقرأ بشكل صحيح.

وكان من مصادري: التفاسير، والسِّيَر، وكتب الأخلاق، وتزكية النفس، والتربية، والآداب.

وحرصت كل الحرص أن أقترب ممن يسمعني، وفي هذا الكتاب أقترب ممن يقرأ لي، فأُنزل الصفة على الحال القريب؛ لتكون الكلمة أقرب إلى الواقع منها إلى غيره.

كنت أُغلِق على نفسي مكتبتي لأكون أكثر تركيزًا في كتابتي، حيث إني مقيدٌ بصفحات ثلاث وبضعة أسطر؛ لتستغرق فقط عشرَ دقائق، هي مدة الحلقة الواحدة، ثم إني أحتاج إلى حذف ما أتعثر في نطقه أحيانًا؛ ليكون الحديث سلسًا منسابًا إلى أُذُن المستمع والمستمعة، لا يكدرِّ مسمعهما شيء.

وبعدما أُرسل الحلقة إلى الإذاعة، أبقى في ساعات انتظارٍ إلى بثِّها، وخصوصًا في بدايات الأمر، فإذا اقترب بثُّها، كنت أقترب من الأثير، فأصغي إليها كأنها لستُ أنا!! كان لتلك اللحظات شعور خاص، يصعب عليَّ وصفه هنا، فالإذاعة هي إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية، التي يصفها كثيرون بأنَّها جامعة علمية عالمية، والمستمعون هم من العلماء والعامة على مستوى العالم كلِّه ومن كل أقطار الأرض وأصقاعها.

لحظتها كنت أحمد الله تعالى وأثني عليه، ولا زلت، وأسبوع يتلوه أسبوع، حتى غدا البرنامج لديَّ جزءًا من حياتي، بل ليس من حياتي فقط، بل من حياة زوجتي وأولادي الذين كانوا يستبشرون في كل مرَّة أقول لهم: أُبشِّركم؛ قد انتهيت من تسجيل الحلقة!

لقد كان البرنامج في كل أسبوع ينمو ـ بفضل الله تعالى ـ ثم بفضل إدارة الإذاعة والمستمعين والمستمعات الذين كانت اتصالاتهم ورسائلهم عبر برامج التواصل تتسارع إليَّ في نهاية بثِّ كلِّ حلقة، تدعو لي مرَّة، وتذكرني مرَّة، وتوجهني مرَّة، وتشجعني مرَّاتٍ كثيرة، فالشكر لهم موصول؛ إذ كان كل ذلك منهم زادًا طيبًا لي، ووقودًا حقيقيًا لمسيرتي.

إنني حينما بدأت أول حلقة، ما كنت أحسبني أن أقدِّم بعدها عشرات الحلقات، وأنِّي سأبقى أُعِدُّه وأقدمه حوالي سبع سنوات متواصلات، فالشكر أولاً وأخيرًا لربي سبحانه، الذي علمني وقوّاني، ثم الشكر لوالديَّ الكريمين على تشجيعهما الدائم لي، وخصوصًا حينما ينقلان لي مشاعر الناس نحو موضوعات البرنامج وأسلوب طرحه، ثم

يردفان ذلك بدعواتهما التي أراها عيانًا بيانًا في توفيق الله تعالى في مسيرتي في حياتي، فجزاهما الله عني كل خير، وأطال عمريهما على صحة وعافية وطاعة.

والشكر أزجيه لمدراء إذاعة القرآن الكريم وفريق العمل فيها من منفِّذين ومخرجين، الذين ما بخلوا عليَّ بالتوجيه والتشجيع وفسْحِ المجال لاستكمال حلقات البرنامج، ويعلم الله تعالى أنَّهم ما طلبوا مني التوقف أبدًا، بل أنا من طلب التوقف حيث شعرت بعد هذه السنوات أنني لن أستطيع وقتها أن أقدم الجديد، فتوقفت، فأسأل الله تعالى لهما مزيدًا من العطاء والبركة في حياتهم، وأن يتقبل منهم ما قدموه في خدمة دينهم ووطنهم وبلاد المسلمين عامة.

وبكل الحب والود أشكر زوجتي وأولادي على تشجيعهم المستمر وصبرهم الدائم على انشغالي بهذا الطريق من غير تبرُّمٍ ولا تأفُّف، بل ما وجدتُ منهم إلا الدعم والتأييد والتعاون والمساندة، فأرجو من الله لهم حياة السعداء في دنياهم وأخراهم.

ويشهد الله تعالى أنِّي ما أقدمتُ على تحويل هذه الحلقات من مسموعةٍ إلى مكتوبةٍ إلا بعد إلحاحٍ كبير من عددٍ من المستمعين والزملاء والمشايخ الفضلاء؛ حسن ظنٍ منهم في العبد الفقير أن يقدِّمَ لهم مادةً تكون لهم زادًا في طريق دعوتهم وخطبهم ومحاضراتهم.

ولذا حاولت أن أصوغ هذا الكتاب بأسلوبٍ سهلٍ ميسَّر؛ بغية أن ينتفع منه كلُّ من يطَّلع عليه، راجيًا من الله تعالى أن يهدي به القلوب، ويشرح به الصدور، ويجعله نورًا على نور، وأسميته: (صِفَات عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ)، منطلقًا من الصفات الكريمة التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان، إلى صفات أخرى تتفرع عنها، ولا أزعم أنِّي استوفيت كلَّ ما يجب ذكره من الصِّفات، ولكنها محاولة في ذِكر أغلبها بقدر المستطاع، وقد بلغت مئة وأربعين صفة.

وقد قسَّمتها إلى نوعين: الأولى: صفات الأمان، والأخرى: صفات الحذر.

أما صفات الأمان، فقد ذكرت فيها مئة وخمس صفات، وأما صفات الحذر، فقد ذكرت فيها أربعًا وثلاثين صفة.

ثم ختمتها بما أعدَّه الله تعالى في الجنة لعباد الرحمن من النعيم المقيم في الجنة، نسأل الله أن نفوز به مع الفائزين.

وختامًا: أسأل الله سبحانه أن يرزقني فيه نيةً خالصة لوجهه الكريم؛ يرفع به درجتي في جنانه، ويوردني به حوض حبيبنا محمد ﷺ، وأن يعفو عنِّي خطأي وزللي، فإنَّه غفور رحيم.

ولا أعدم أخًا ناصحًا يذكِّرني بخطأٍ أو زلل، عسى أن أتلافاه في طبعة قادمة بإذن الله تعالى.

والآن: دعونا أيها الكرام نسيح معًا في صفاتِ عباد الرحمن؛ وكيف كانوا يتطلعون إلى جنة ربهم حتى استحقوا هذا التكريم من الله الرحمن الرحيم.

وما عليك ـ أيها القارئ الكريم ويا أيتها القارئة الكريمة ـ بعد أن تنتهي من معرفة كل صفة من صفات عباد الرحمن إلا أن تلتفت إلى نفسك برفق وتهمس إليها في حب لتقول لها: يا نفس، كوني من هؤلاء، لتسعدي كما سعدوا، وتفوزي كما فازوا.

واللهَ أسأل أن يجعلنا جميعًا من عباد الرحمن، وأن يحشرنا معهم في زمرة النّبي ﷺ، إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: فيصل بن سعود بن عبدالعزيز الحليبي

دُرُوبُ الأَمَان

(١)

(مُوَحِّدُون)

هكذا يريد الله تعالى لعباد الرحمن أن يكونوا مصبوغين بصبغةٍ واحدة، لونها أجمل الألوان وأحسنها، ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٣٨]، إنها صبغة الدين الحق، والعبادة لله وحده، والتسليم له في كل الأمور، والسير على جادة واضحة لا اضطراب فيها ولا خلل، ولا تبديل فيها ولا تغيير، منهاجها هدي الحبيب ﷺ، وغايتها رضى الله تعالى، ونبراسها القرآن الكريم، وجائزتها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

لقد أثنى الله تعالى على عباد الرحمن فقال عن توحيدهم له: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفُرۡقَان الآية ٦٨].

ولكن يأبى جملة من الخلق إلا البحث عن غير هذه الصبغة الكاملة، ليقع اختيارهم على ألوانٍ موغلةٍ في النقص والبشاعة:

فمنهم: من انسلخ من ملة الحنيفية إلى ملل الكفر أو الشرك، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٣٥]، فياله من ضلال مبين، صار من هؤلاء من يعبد الأصنام والأوثان، وارتضى جملة منهم أن يركع للبقر، أو يسجد للنار، أو يعيش ملحدًا لا يعرف ربًا، ولا

يؤمن برسول ولا كتاب! لسان حالهم كما قال ربنا عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجَاثِيَة الآية ٢٤].

فماذا أعدَّ الله لهؤلاء المتلوِّنين بصبغة الكفر، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٦١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٩٧].

ومنهم: من تلوَّن بلون التوحيد وبطَّنه بالكفر، أو تلوَّن بلون الإخلاص وأخفى به الرياء؛ وما ذاك إلا مخادعةً لله وللمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النِّسَاء الآية ١٤٢].

إنها صبغة النفاق أو الرياء؛ أما النفاق فقد أعدَّ الله لأهله الدرك الأسفل من النار، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النِّسَاء الآية ١٤٥].

وأما الرياء فهو الذي حرَّمه الله على عباده حتى لا تبطل أعمالهم، فقال عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٦٤].

وهو الذي حذَّر النَّبي ﷺ أمته منه فقال: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ) رواه ابن ماجه وحسَّنه الألباني.

ومن المتلونين: من غرَّته ألوان الدنيا الباهرة، وزخارفها الغرَّارة، فانساق يلوِّن نفسه بكل لون، ولو كان على حساب دينه أو خلقه؛ لهثًا خلف سراب الدنيا وحطامها الزائل، لا يهمه أن يخسر شيئًا من دينه ما دام أنَّه سيحصل على مال، ولا يهمُّه أن يخسر شيئًا من خُلُقِه ما دام أنَّه سيحصل على جاه، ولا يهمُّه أن يخسر شيئًا من محبة الله له أو محبة أوليائه ما دام أنَّه سيحصل على دنيا زائلة تنتهي بخروج روحٍ لا يعلم متى ستخرج وأين، فتراه يتنافس في الدنيا كأنما سيُعَمَّر فيها ولن يموت، يقول النَّبي ﷺ: (وَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ؛ وَلَكِنْ أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) رواه البخاري.

وإنَّ من يتلوَّن من أجل بضاعة الدنيا الزهيدة لمن شرِّ الناس صبغةً ولونًا، قد تخلَّى عن سمت الاستقامة والديمومة على صراط الله المستقيم، يقول الرسول ﷺ: (إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ) رواه البخاري.

ومن المتلوِّنين: من أسلم نفسه للناس يلوّنونه كيف شاءوا ومتى ما شاءوا، فأولئك هم الإمَّعة، الذين حذَّر الرسول ﷺ منهم فقال: (لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا) رواه الترمذي وحسَّنه.

وهذه هي الشجاعة في الحق التي أبقت بإذن الله عبادَ الرحمن على صبغة التوحيد، وصبغة السير على سنة النَّبي ﷺ، لا يحيدون عنها ولا يميلون، ولو مال غيرهم أو حاد،

بل حكَّموا دين الله في حياتهم وتركوا أهل الغواية غير مأسـوف عليهم، واسمع بقلبك وقالبك وصية الله لنبيّه ﷺ حيث قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكَهۡف الآية ٢٨].

وإنَّ منهم: من يصـطبغ بصـبغة الإيمان والتقوى، لكنه ما إن يتعرَّض لنار الفتن وبلائها ـ أعاذنا الله منها ـ إلا غيّر صبغته إلى لونٍ ربما يقيه من حر الفتنة في الدنيا، لكنه لا يقيه من حر جهنم في الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العَنكَبُوت الآية ١٠].

وإنَّا لنعلم أن هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان في كل شـيء، فما أجمل أن يبقى المؤمن شـامخًا بعقيدته، معتزًا بدينه، ولا تنطلي عليه صـبغات الفتنة التي سـرعان ما يجلوها الحق ويمحوها، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾

[الإِسۡرَاء الآية ٨١].

ولذا يجب أن نحيي التوحيد في أنفسنا وفي مجتمعنا، ونتأمَّل مواطنه في كتاب الله تعالى، وسنة النَّبي ﷺ، وفي حياة عباد الرحمن وصفاتهم، ولنمتثَّل بها، ولنستقم عليها، ولنميِّز شخصياتنا بالثبات على الحق، ولننبذ التقلب والتلوُّن، ولنسأل الله الثبات على أمره، فهذه هي النجاة.

اللهم أحينا على توحيدك، وأمتنا عليه، وابعثنا عليه، إنَّك سميع مجيب.

٢

(مُخْلِصُون)

إنها صفةٌ من صفات عباد الرحمن، بها تقبل الأعمال، وبها تسمو النفوس، وبها تستلذُّ الأرواح بعبادة ربها سبحانه، إنه الإخلاص لله تعالى في كل عبادة يقدِّمها العبد بين يدي ربه، فإنَّ هذا هو الدين القيم الذي أمرنا الله به، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البَيِّنَة الآية ٥].

هذا قدوة المخلصين ﷺ يعلمنا في حديثٍ عظيم هو من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام فيقول: (إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ) متفق عليه.

عبادُ الرحمن أدركوا مغزى هذا الحديث، وجعلوه نصب أعينهم، تتراءى لهم وعود الرحمن الكريمة لمن جعل عبادته لله وحده، فما أجمل وعده لهم حينما قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النِّسَاء الآية ١٤٦].

لمَّا عرف عباد الرحمن كم للإخلاص من أجر وثواب أرخصوا أنفسهم لله، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البَقَرَة الآية ٢٠٧].

وبذلوا من أجل الله وحده أنفس ما لديهم صبرًا وعبادة وإنفاقًا، فقال عنهم الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ [الرَّعد الآية ٢٢].

ولم لا يتميز عباد الرحمن بالإخلاص وقد علموا أنَّهم يبلغون به إذا حال العذر بينهم وبين العمل ما يبلغه العاملون، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: (كنا مع النَّبي ﷺ في غزاة فقال: إنَّ بالمَدِينَةِ لَرِجَالًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إلَّا كَانُوا معكُمْ، حَبَسَهُمُ المَرَضُ)، وفي رواية: (إلَّا شَرِكُوكُمْ في الأجْرِ) رواهما مسلم.

وحينما يسمو الإخلاص بالعمل فإنَّه لا يؤثِّر الخطأ في محله المعتبر، بل يصل الأجر لصاحبه الذي قصد الحصول عليه، اسمع معي لمعن بن يزيد بن الأخنس رضي الله عنه فإنَّه قال: (بَايَعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ أنَا وأَبِي وجَدِّي، وخطَبَ عَلَيَّ، فأنْكَحَنِي وخَاصَمْتُ إلَيْهِ، وكانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بهَا، فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ في المَسْجِدِ، فَجِئْتُ فأخَذْتُهَا، فأتَيْتُهُ بهَا فَقالَ: واللَّهِ ما إيَّاكَ أرَدْتُ، فَخَاصَمْتُهُ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ: لكَ ما نَوَيْتَ يا يَزِيدُ، ولَكَ ما أَخَذْتَ يا مَعْنُ) رواه البخاري.

وعباد الرحمن أحرص ما يكونون على إخلاصهم؛ وما ذاك إلا لأنَّهم ذاقوا حلاوته وشعروا بلذة مضاعفة الأجر به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: صَلَاةُ الرَّجُلِ في جَمَاعَةٍ تَزِيدُ علَى صَلَاتِهِ في بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ في سُوقِهِ بضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً؛ وَذلكَ أنَّ أَحَدَهُمْ إذَا تَوَضَّأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى المَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إلَّا الصَّلَاةُ، لا يُرِيدُ إلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلَّا رُفِعَ له بهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عنْه بهَا خَطِيئَةٌ حتَّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كانَ في الصَّلَاةِ ما كَانَتِ الصَّلَاةُ هي تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ علَى أَحَدِكُمْ ما دَامَ في مَجْلِسِهِ الذي صَلَّى فيه يقولونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ له، اللَّهُمَّ تُبْ عليه، ما لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، ما لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

بل إن عباد الرحمن وجدوا في الإخلاص نجاةً من الملمات والكروب، ولنا في قصة أصحابِ الغار الذين سَدَّت عليهم الصخرة سبيل الخروج حينما مكثوا فيه عبرةٌ وعظة، فما والله أخرجهم من غمهم بعد الله تعالى إلا إخلاصهم في دعائهم له سبحانه، فهلاَّ تأملنا مليًا في قول كل واحد منهم: (اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيه مِن هذِه الصَّخْرَةِ) متفق عليه، وما هي إلا لحظات إلا وتلك الصخرةُ تنفرج شيئًا فشيئًا ثم خرجوا جميعًا.

والعقاب العظيم ربما عمَّ جملة كبيرة من الناس، ومنهم الصالحون، لكنَّ عباد الرحمن لهم مزية عن الفجار الذين لحقتهم العقوبة، أتعلم كيف؟ تأمَّل حديث النَّبي ﷺ فإنَّه قال: (يَغْزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ، فإذا كانُوا ببَيْداءَ مِنَ الأرْضِ، يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، قالَتْ: قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، كيفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ وفيهم أسْواقُهُمْ ومَن ليسَ منهمْ؟ قالَ: يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ علَى نِيَّاتِهِمْ.) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

ولقد عظَّم سلفنا الصالح شأن الإخلاص في النية، فكان الإخلاص شغلَهم الشاغل، فهذا ابنُ مسعود ﵁ يقول: ((لا ينفع قول إلا بعمل، ولا ينفع قول ولا عمل إلا بنية، ولا ينفع قول ولا عمل ولا نية إلا بما وافق السُّنَّة)).

وعن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((تعلموا النية؛ فإنَّها أبلغ من العمل)).

وعن داودِ الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((رأيت الخير كله إنما يجمعه حسنُ النية، وكفاك بها خيرًا وإن لم تنصب)).

وعن سفيانِ الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((ما عالجت شيئًا أشدَّ عليَّ من نيتي؛ لأنَّها تتقلب عليّ)).

ولا يضر عبادَ الرحمن في إخلاصهم ما يسمعونه من غير قصد من ثناء الناس عليهم، فقد قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: (أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه؟ قالَ: تِلكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ) رواه مسلم.

لكنهم مع هذا يتوارون عن المديح بقدر ما يستطيعون، ولا يذكرون عن أنفسهم شيئًا فيه افتخار بأنفسهم، فعن يحيى بن معين رَحِمَهُ الله قال: ((ما رأيت مثلَ أحمدَ بن حنبل، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير)).

كما أنَّهم لا يضرهم طلب الرزق في الدنيا والمعيشةِ فيها والتنافسِ في طلب العلم والترقي في درجاته ما دام ذلك يأتي ثانيًا بعد إخلاص النية أولاً لله تعالى، بشرط ألا تعود المقاصد التابعة على المقاصد الأصيلة بالبطلان.

بل إنهم يحرصون على النية حتى في المباحات ليجعلوها عباداتٍ يؤجرون عليها، فعن زيد الشامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إني لأحب أن تكون لي نية في كل شيء، حتى في الطعام والشراب)).

وإنك لتراهم لا يتركون العبادة المخلصة لوجه الله تعالى خوفًا من الرياء بل يُقدِمُون عليها بكل إخلاص، ولا يلتفتون لوسواس الشيطان عليهم، قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ الله: ((لو أن رجلين اصطحبا في الطريق فأراد أحدهما أن يصلي ركعتين، فتركهما لأجل صاحبه، كان ذلك رياء، وإن صلاهما من أجل صاحبه فهو شرك)).

ما أمس حاجة مجتمعاتنا اليوم إلى عباد الرحمن المخلصين في كل أعمالهم، فأيُّ تعليم وأي طب وأيُّ هندسة وأيُّ إدارة وأيُّ دعوة وأيُّ تربية وأيُّ عمل أو وظيفة وأيُّ كلمة يرجى نفعها بدون الإخلاص!!

هل راجعت النفوس نفسها مع إحسان النوايا لله تعالى، وأدركت أن الله يعين العبد المخلص في عمله على عمله، ويباركُ له في رزقه، قيل لابن المبارك رَحِمَهُ الله: ((الرجل

يطلب الحديث لله يشتدُّ في سنده؟ قال: إذا كان يطلب الحديث لله، فهو أولى أن يشتدَّ في سنده)).

وقال ابن عجلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة)).

وما أسعد حياة المخلصين؛ ضمائر حية، وعمل متقن، وراحة بال، وعطاء متدفق يملؤه الجد، وأجر من عند الله الكريم، فهنيئًا لعباد الرحمن روضة الإخلاص، جعلنا الله وإياكم ممن عبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، فإنَّه سميع مجيب.

٣

(مُؤْمِنُونَ بِالقُرْآنِ الكَرِيم)

كم هو جميلٌ أن يسير المرء الصالح على منهجٍ واضحٍ في حياته، يوصله بإذن ربه إلى نجاته في الدنيا والآخرة، ويكون به أكثر ثباتًا وفقهًا وعلمًا، لا تعبث به أمواج الفتن، ولا تغريه شهواتها، فما المنهج الذي ارتضاه عباد الرحمن، حتى رفعهم الله به، وأعلى به شأنهم، ونصرهم به على عدوهم، ووعدهم به جنات تجري من تحتها الأنهار؟ إنه القرآن الكريم، كلام رب العالمين، فكيف تعامل عباد الرحمن مع هذا الكتاب العظيم؟ دعونا نلقي نظرة سريعة على علاقة عباد الرحمن بالقرآن في وقفات مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ:

فإنَّ أولها: التصديق به؛ لأنه من أركان الإيمان، ومن صميم الإسلام، فتؤمن بأنَّه من عند الله صدقًا وأنزله على محمد ﷺ حقًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يُونُس الآية ٣٧].

ويقول النَّبي ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ: (أَنْ تُؤْمِنَ: بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) رواه مسلم.

وثانيها: العمل به في كل شؤون الحياة؛ فإن الله قد جعله هدىً للنَّاس، فقال سبحانه: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البَقَرَة الآية ١٨٥].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: ((كنَّا نحفظ العشر آيات فلا ننتقل إلى ما بعدها حتى نعمل بهن))، وروي عنه أنَّه حفظ سورة البقرة في تسع سنين، وذلك ليس للانشغال عن الحفظ أو لضعفه، ولكن بسبب الحرص على العمل بها.

وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: ((إنَّا صعب علينا حفظُ ألفاظ القرآن وسهل علينا العملُ به، وإنّ مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به)).

وثالثها: إتقان القراءة لكلام ربنا سبحانه، ولقد حرص إمام عباد الرحمن ﷺ على أن يقرأه كما أنزله ربه سبحانه، فلقد (كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا أَقْرَأَهُ) رواه البخاري.

وهكذا حرص الصحابة ﷺ من بعده على إتقان القراءة وتجويدِها كما جوَّدها النَّبي ﷺ، ولهذا حثَّ النَّبي ﷺ على أخذه من أهله المجيدين له، فقال ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ؛ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ)؛ يعني: عبدالله بن مسعود ﷺ، رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

وإتقان القراءة لا يأتي باجتهاد الإنسان مع نفسه بحيث يسمعُ القُرَّاء أو يقرأُ كثيرًا أو يحفظُ كثيرًا. وإن كان في ذلك خير كثير بلا ريب. وإنما بتلقي القرآنِ مباشرة ممن يتقنه من أهل العلم والتلاوة، فإنما يؤخذ القرآن بالتلقي كما فعل النَّبي ﷺ مع جبريل عليه السلام.

وهنا يأتي دور حِلَق القرآن الكريم التي أكرم الله هذه الأرض بانتشارها فيها في كل بلد وصقع والحمد لله رب العالمين، ولا يبقى سوى أن نضم أبناءنا وبناتنا إليها ومتابعتهم، وبدعمها المادي أيضًا بما تجود به النفوس وعبر الطرق الرسمية المأمونة، فهذا من المشاركة في تعليم القرآن ونشره.

ورابعها: تحسين الصوت بتلاوته؛ لقد طهَّر الله تعالى أسماع عباد الرحمن من لهو الحديث بكل أشكاله، وأكرمهم بسماع القرآن الكريم، وقد حثَّهم على ترتيله فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل الآية ٤]، بل إن الله تعالى ليستمع لمن كان صوته جميلاً وهو يتلو كتابه، فأيُّ شرفٍ أن يستمع الله تعالى لك وأن تحسِّن تلاوتك بكلامه، فقد قال رسول الله ﷺ: (لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ) متفق عليه، ويأذن أي: يستمع.

وها هو ذا النَّبي ﷺ يستمع لصوت أبي موسى الأشعري ﷺ وكان صاحبَ صوت جميل في تلاوة القرآن فيقول له: (لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ؛ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ) رواه مسلم.

والنَّبي ﷺ يعجبه صوتُ أبي موسى ﷺ في حسنه وجماله وهو عليه الصلاة والسلام ما سُمع أجمل صوتٍ منه وهو يتلو كتاب ربه، فعن البراء بن عازب ﷺ قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ [التين الآية ١] فِي الْعِشَاءِ وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً) رواه البخاري.

وإنَّ النَّبي ﷺ ربما شدَّد على مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ في تلاوته، فقال: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ) رواه البخاري.

وتحسينُ الصوت بالقرآن وتجويدُ التلاوة وإتقانُها مما يزيد القلب خشوعًا وقربًا من الله تعالى؛ بحيث يتفرغ القارئ والمستمع إلى تدبر الآيات وفهمها ومن ثم التأثر بها والاستجابة لندائها.

وخامسها: التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم، وتدبر القرآن منزلة رفيعة لكنها ليست مستحيلة، ومنزلة عالية لكنك تستطيع الوصول إليها بإذن الله تعالى.

فالتدبر هو أن تسيح في كتاب الله لتعرف معانيه، وتفتشَ عن أسرار بلاغته وألفاظه، وتقفَ عند إعجازه مصدِّقًا ومؤمنًا بقدرة الله تعالى وعلمه، معملاً ذهنك في إعجاز سياقه وبلاغة ألفاظه وعمق معانيه وجمال تسلسله، باحثًا عن سرِّ تأثيره في النفوس على الإجمال والتفصيل.

وتأمَّل كيف يرشدنا الله تعالى إلى تدبره؛ لأن تدبره هو سبيل النجاة من قواصم الأزمات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال الآية ٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسراء الآية ٩] .

كم نتمنى أن نصل إلى منزلة عباد الرحمن المتدبرين لكتاب ربهم، وما يمكن لنا أن نصل إليها حتى نزيل الأقفال التي قيدت قلوبنا، وما أكثرها، إنها ربما كانت شهواتٍ من نظر حرام، أو سماع حرام، أو أكل حرام، أو عقوق للوالدين، أو قطع للأرحام، أو ظلم للناس أو افتراء عليهم، ولربما كانت شبهات من عدم تصديق بهذا الكتاب، أو تشكيك في أخباره، أو أوهام ما أنزل الله بها من سلطان، أو رياء وسمعة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النِّساء من الآية ٨٢] .

وقد تسألني ما جزاء من تدبر كتاب ربه؟ والجواب في قول الحبيب ﷺ وهو يبشِّر أهل القرآن فيقول: (مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا: نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ) رواه مسلم.

اللهم أكرمنا بتدبر كتابك والعمل به، وألحقنا بعبادك الصالحين، إنك سميع مجيب.

٤

(مُسْتَقِيمُون)

أيُّ منزلة هذه التي هيأنا الله تعالى أن نتحدث عنها؟ وأيُّ درجة هذه التي تشرئب لها أعناق المتقين؟ أيُّ منزلة هذه التي تاقت لها نفوس عباد الرحمن الصالحين؟ وأيُّ منزلة هذه التي تطلعت لها أنظار المخلصين؟ فزهدوا من أجلها في الدنيا الفانية، وتعلقوا بالآخرة الباقية، إنها منزلة أمرنا الله تعالى أن ندعوه في كل قيام بين يديه سبحانه أن يهدينا إليها، ويوفقنا إلى طريقها، فقال سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾

[الفَاتِحَةِ الآية ٦].

لقد امتلك الشوق قلوب المنيبين من عباد الله لتعرُّف معنى الاستقامة كما عرفه السلف وعملوا به: فها هو ذا أبو بكر ﷺ صدِّيق الأمة وأعظمها بعد نبيها استقامة يُسأل عن الاستقامة فيقول: ((ألا تشرك بالله شيئاً))؛ يريد الاستقامة على التوحيد الخالص.

ويقول الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ: ((الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب)).

ويقول الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ: ((استقاموا: أخلصوا العمل لله)).

ويقول رابع الراشدين عليُّ بن أبي طالب ﷺ: ((استقاموا: أدوا الفرائض)).

ويقول حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ: ((الاستقامة: اتبع ولا تبتدع)).

ويجمعهم الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ((استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته)).

ليست الاستقامة أن نفعل ما نريد، ونترك ما نريد، بل هي أن نحكِّم الله فيما أمر ونهى، بنفس راضية مطمئنة، تحدوها محبة الخالق سبحانه وتعالى، ومحبة نبيه ﷺ، ونسلم لشرعنا الحنيف تسليمًا مطلقًا، ليس فيه شائبة الشرك ولا النفاق ولا الرياء، بدون تلاعب بالشرع ولا تحكيم للهوى، بل السير على الجادة الواضحة النيرة، ولله در شيخ الإسلام ابنِ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما عرَّف الاستقامة بقوله: ((استقاموا على محبته؛ فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة)).

والسؤال الذي يدور في خلدك الآن: لماذا الاستقامة؟ والجواب عن ذلك بأمور:

أولاً: لأن الله تعالى أمرنا بذلك فقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾[فُصِّلَت الآية ٦]، وقال النّبي ﷺ: (قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، ثم اسْتَقِمْ) رواه مسلم.

ثانيًا: لأن في ذلك اقتداء بالنَّبي ﷺ؛ حيث استجاب لأمر الله تعالى بحسن الاستقامة له على دينه، والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[الأَحْزَاب الآية ٢١].

ثالثًا: لأنَّه بدون الاستقامة تعم الفوضى في حياة الفرد، وينتشر الفساد في المجتمع، وتتحول الحياة إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، فلا أمان على النفوس، ولا اطمئنان على الحقوق، ولا حفاظ على الأعراض، وتطغى المادة على العقول، وحينها

تقبر المعاني الفاضلة، فلا تسل حينها عن معاني الحب والإخاء، والبر والوفاء، والبذل والعطاء، والكرم والسخاء؛ لأن القلوب أعرضت عن الاستقامة المطلوبة.

رابعًا: أن الله تعالى أعد جوائز ثمينة لمن استقاموا على الإسلام، وهي جوائز دنيوية، وأخرى أخروية.

أما الجائزة الدنيوية: فقد جعلها الله تعالى فرحة لعباد الرحمن، بها يستبشرون، وبملاذها يتنعمون، فقال سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن الآية ١٦]، فيفتح لهم من بركات السماء والأرض ما تكثر به النعم، وتزداد به الخيرات، وإنه لنداء إلهي يتجدد معناه، وسنة إلهية لا تتبدل ولا تتغير، فأين العالم المتحضر اليوم عن هذه الطريقة الربانية، وقد استصرخ من قلة الماء، الذي هو روح الحياة وسبيلها؟!

وأما الجوائز الأخروية: فما يثلج صدرك في التبشير بها والوعد بالفوز بنعيمها إلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فُصِّلَت الآية ٣٠].

أما تشتاق نفسك إلى جنة عرضها السموات والأرض؟ أما تهفو نفسك إلى ظلال وارفة، وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وفرح لا حزن بعده، وصحة لا سُقم بعدها، ولذة لا تقارن بلذة؟ أما تشتاق إلى جنةٍ فيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ بل قل لي بربك: ألا تشتاق إلى رؤية الرب سبحانه وتعالى؟ بلا والله نشتاق نشتاق، إذًا: فالاستقامة الاستقامة.

ما المطلوب من الاستقامة؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المطلوب من العبد: الاستقامة؛ وهي السداد، فإن لم يقدر عليها، فالمقاربة، فإنْ نزل عنها، فالتفريط

والإضاعة، كما في حديث أبي هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: (لَنْ يُنَجِّيَ أحَدًا مِنكُم عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنْتَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ برَحْمَةٍ، سَدِّدُوا وقارِبُوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا) رواه البخاري ومسلم.

وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التَّغَابُن الآية ١٦].

من هنا عليك أن تحذر من أمرين:

الأول: ألا تستقيم على أمر الله، أولا تحاول ذلك أو تقاربه، فهذا هو التفريط والإضاعة.

الثاني: أن تبذل كل طاقتك في سلوك طريق الاستقامة، فتحس من نفسك أنك أقمتها على أصولها، وتربعت على عرشها، فيلفك الغرور، وتأمن من نفسك على نفسك، فتعتقد أنك ستدخل الجنَّة بما فعلت وقدمت، فلا والله لا تدخلها بعملك، وإنما برحمة الله تعالى.

إذًا: فما المنهج الصحيح في الاستقامة؟

يتمثل هذا المنهج في أمور:

أولاً: الإخلاص لله تعالى؛ لأنه بدون الإخلاص، لا ينفع شيء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البَيِّنَة الآية ٥].

ثانيًا: العمل من أجل الله تعالى وبذل الاجتهاد فيه من دون تكاسل أو تهاون.

ثالثًا: أن تسير على الطريق الوسط؛ فلا إفراط يجرك إلى ظلم نفسك والجور عليها وكدها فيما لا تقدر عليه، ولا تفريط يجرك إلى هجر العبادات، واللعب بالتكاليف، والاستهانة بالدين.

قال بعض السلف: ((ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة؛ وهي الإفراط، ولا يبالي بأيِّهما ظفر: زيادة أو نقصان)).

رابعًا: السير في الاستقامة على العلم الشرعي، وذلك بأن تنهل من مشكاة النبوة الوضَّاء، متبعًا في ذلك النَّبي ﷺ وسلفه الصالح ﵃، متجنبًا البدعة واتباع الهوى، سواء بزيادة أو نقصان.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم، وكذلك الرياء في الأعمال يخرجه عن الاستقامة، والفتور والتواني يخرجه عنها أيضًا)).

والاستقامة تكون على نوعين، لا يستغني أحدهما عن الآخر:

أما النوع الأول: فهو استقامة القلب، وذلك بأن تقصد بعملك وجه الله تعالى، لا شريك له، بلا رياء ولا سمعة، كيف لا وقد أثنى الله على المخلصين في آيات كثيرة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّعْد من الآية ٢٢ الى الآية ٢٤].

والله تعالى يقول لنبيه ﷺ وهو أعظم الناس إخلاصًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزُّمَر الآية ٢].

ألا تذكر معي قول الحبيب ﷺ: (إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى) متفق عليه.

وإن من استقامة القلوب: تطهيرها من دنس التحاسد والتباغض والكراهية والحقد والغل بين المسلمين، قال النَّبي ﷺ إذ قال: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) رواه البخاري.

وأيُّ استقامة هذه التي يدعيها بعضنا، وقد امتلأ قلبه كراهية وكيدًا للمسلمين أو أحد منهم! ألا نكون كذلك الصحابي الجليل الذي بشَّره الرسول ﷺ بالجنَّة، لا لكثرة صلاة أو صدقة، وإنما لأنَّه لا يحمل في قلبه مثقال ذرة من حقد أو بغض على أحد من المسلمين؟

إن الاستقامة جمال الروح، وطهرة النفوس.

وأما النوع الثاني: فهو استقامة الجوارح على دين الله تعالى؛ لأن الإيمان ليس في القلب فحسب، بل لابد أن تصدقه الجوارح، فعلى عبد الرحمن أن يستعملها فيما يرضي الله تعالى، ويجنبها ما يسخطه عز وجل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسۡرَاء الآية ٣٦]، ويقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فُصِّلَت الآية ٢٠].

وبالسعادة مَنْ أعمل جوارحه في الخير: يطلب العلم، ويبر الوالدين، ويساعد المسكين، ويمسح دمعة يتيم، ويصل الرحم، وينعم نظره في كتاب الله تعالى، والتفكر في مخلوقاته، ويشنّف سمعه بالقرآن والذكر الطيب والسُّنَّة الشريفة، قد ارتسمت على محياه علامات القيام بين يدي الجبار، ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفَتْح الآية ٢٩]، أرخى لعينيه زمام الدموع فانهمرت حبًا في جلال الله تعالى، وخوفًا من عقابه، ورجاءً في عفوه وكرمه، كلما سمع آيات ربه اقشعر جلده، ينتفض كالعصفور إذا بلله الماء، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزُّمَر الآية ٢٣].

إذا ما الليلُ أظلمَ كابدوه ... فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأمنِ في الدنيا هجوعُ
لهم تحتَ الظلامِ وهمُ سجودٌ ... أنينٌ منه تنفرجُ الضلوعُ

ولا أنسى أن النصيب الأكبر من هذه الجوارح للسان؛ فهو علامة الاستقامة ودليلها، فاحذر أن تقول به فحشًا، أو زورًا، أو كذبًا، أو بهتانًا، أو غيبة، أو تسعى به في نميمة، أو تجادل به السفهاء، أوتماري به العلماء، أو تطعن به في الأعراض والمقاصد والعقائد، وحسبنا في معرفة خطره حديث الصادق المصدوق ﷺ حينما أَخَذَ بِلِسَانِهِ وقَالَ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فقال معاذ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ؛ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) رواه الترمذي وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

العلمُ زينٌ والسكوتُ سلامةٌ ... فإذا نطقتَ فلا تكن مِكثارا
ما قد ندمتُ على سكوتي مرةً ... ولقد ندمتُ على الكلامِ مرارا

وإن من وسائل الاستقامة: الدعاء، فتضرع لله سبحانه وتعالى أن يرزقك الاستقامة على دينه، ولا تبخل بهذه الدعوة على من تحب من والدين وزوجة وأولاد، فالله قد امتدح الطبقة العالية من أهل الاستقامة في وصفه عباد الرحمن فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرقَان الآية ٧٤]، وإن قرة العين كما يقول المفسرون:بأن ترى أهلك وأولادك على استقامة وصلاح.

ومن وسائلها: التمهيد لها: بالذكر، وقراءة القرآن، والصلاة مع الجماعة في المسجد؛ فإن الله قال عن الصلاة وأثرها في استقامة العبد: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العَنكبُوت الآية ٤٥].

ومن وسائلها: الرفقة الطيبة التي تأخذ بالمسلم إلى قارب النجاة، تمد إليه جسور النصيحة، فتذكره بالله إذا نسي، وتعلمه إذا جهل، صبغتها الوفاء والإخاء، والمحبة والصفاء، فإذا اقترن المرء بالصالحين الأخيار، كان أحرى أن يبتعد عن المعاصي، وأن يحب الطاعات، ويالها من صحبة اجتمعت على الاستقامة في الدنيا، وتتآلف في الآخرة في الجنَّة على منابر من نور يغبطهم النبيّون والشهداء، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن وسائلها: الانشغال بأعمال الخير والبر والإحسان، كالانشغال ببر الوالدين، وتلبية أوامرهما، وخدمة الأهل ومساعدتهم، وإمامة المساجد والأذان فيها وتنظيفها، وتعلم القرآن وتعليمه، وطلب العلم النافع في كل التخصصات النافعة، والعمل التطوعي، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونفع البلاد والعباد جميعًا، فإن ذلك من سنن المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وكل ما يشغل المسلم به وقته وله فيه أجر فإنَّه من وسائل الاستقامة.

ومن وسائلها: محاسبة النفس على ما قالت وما فعلت، والشعور بمراقبة الله تعالى في كل وقت، وفي كل مكان، فتستيقن بأن الله ينظر إليك، ويسمع كلامك، وسوف

يحاســبك على كل ما تقول وتفعل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر الآية ١٨].

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ((حاســبوا أنفســكم قبل أن تحاســبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن لكم)).

ومن وسـائلها: معرفة حال سـلف الأمة من لدن نبيها ﷺ وصـحابته الكرام، وكيف كانت استقامتهم على دين الله تعالى.

ولنتذكر أن الاستقامة: طمأنينة في الدنيا، وفرح في الآخرة.

اللهم ارزقنا الاستقامة على شرعك ما أحييتنا، فإنك سميع مجيب.

٥

(مُحِبُونَ للنَّبِيِّ ﷺ متَّبعُونَ له)

حبٌ عظيم، وسعادة في الدنيا وفوز في الآخرة، فاز به عباد الرحمن فنالوا به أرفع الدرجات، ألا هو حب النَّبي ﷺ، أحب مخلوق تعلقت به قلوبهم، وفطرت عليه عقولهم، ونمت عليه أجسادهم.

ما مدى حبُّك للنبي ﷺ؟ ماذا ستقدم لحبه؟ جاهك، مالك، أولادك، نفسك؟! ما أهون هذه الأشياء على عباد الرحمن وأفضل قرن أحب النَّبي ﷺ وهم أصحابه رضي الله عنهم الذين فدوه بأرواحهم وأهليهم وأموالهم بل ودنياهم كلِها.

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ) رواه البخاري.

من هنا وجب علينا أن نعرف أن حبَّ النَّبي ﷺ به يتحقق إيماننا، وترتفع به دراجاتنا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ)، رواه البخاري.

ولما كان مركز الحبِّ في قلوبنا مركزًا عزيزًا ومرتفعًا، كانت المنافسة في اعتلائه شديدة، فأنياب الدنيا تنهشه، وأهواء النفس تتجاذبه، ويبقى المؤمن الصادق في صراع مع هذه الشواغل التي تريد الفتك بحبه لله ورسوله ﷺ، وتجريد القلب في حبهما، ولكن

ماذا يجري لو اعتلى على عرش الحب في القلب حبُّ شيء من حطام الدنيا حتى تقهقر حبُّ الله ورسوله ﷺ بعده بدرجات، فزاد حبُّ الآباء والزوجة، أو حب التجارة والأموال، أو القصور والدور على حب الله ورسوله ﷺ؟ الجواب في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التَّوْبَة الآية ٢٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا؛ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم))، وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((حتى يأتي الله بأمره: بعقوبة آجلة أو عاجلة)).

هذا ما سيجري لو قصَّر أحدٌ في حبِّ الله ورسوله ﷺ: النكال، والعقوبات المتلاحقة في الدنيا والآخرة، والفسق الذي هو خراب الديار ودمار البشرية.

ولنُعِد السؤال على عكس ما سبق: ماذا يجري لو أحببنا الرسول ﷺ كما أحبَّه عباد الرحمن أو كما يجب أن يكون الحب، لا حب الكاذبين، ولا حب الهيام والغرام، كلا بل حب الشوق إلى رؤيته في الجنَّة، وحب ما جاء به من دين، وحب الاتباع الموصل إلى محبة الله لنا، وغفران الله لذنوبنا، حب نعترف فيه بكل علمٍ بذله بأمانةٍ للأمة، ونذكر فيه جهاده من أجل نجاتها من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وتضحيته بنفسه وماله وأصحابه من أجل إعلاء كلمة الله فوق أرضه، وشفاعته للناس يوم القيامة، ورحمته بأتباعه في تشريعه لهم أحكام الدين، إلى غير ذلك من فضلٍ عميم، وخيرٍ جسيم جعله الله لنبيه ﷺ، ويكفي أننا نحبه ﷺ لحب الله له، وأمرِه لنا بمحبته.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عِمْرَان الآية ٣١].

تذوق ـ يا رعاك الله ـ حلاوة الإيمان في حبِّ النبي ﷺ فإن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) رواه البخاري.

وانتظر صحبة الحبيب ﷺ في الآخرة بحبه في الدنيا، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: (أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قَالَ: وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) رواه البخاري.

ولقد كان الصحابة ﷺ مع صحبتهم وجهادهم مع النَّبي ﷺ في الدنيا يخشون كلَّ الخشية أن تفوتهم صحبته في الآخرة، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: (جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّكَ لَأَحبُّ إليَّ مِن نفْسِي، وإنَّكَ لَأَحبُّ إليَّ مِن ولَدِي، وإنِّي لَأكُونَ في البَيْتِ فأذْكُرُكَ فما أصْبِرُ حتّى آتِيَ فأنْظُرَ إليْكَ، وإذا ذَكَرْتُ مَوْتِي ومَوْتَكَ عَرَفْتُ أنَّكَ إذا دَخَلْتَ الجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وأنِّي إذا دَخَلْتُ الجَنَّةَ خَشِيتُ ألّا أراكَ. فلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا حَتّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النِّسَاء الآية ٦٩] رواه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وهل هناك أجل من أن تذوق حلاوة الإيمان في الدنيا، وتصحب النَّبي ﷺ في الآخرة!

إننا نحاول أن نلخِّص علامات حب النَّبي ﷺ في أربعة أمور جامعة:

أولاً: الحرص على رؤيته وصحبته ﷺ، ويكون فقدهما أشد من فقد أيِّ شيء آخر في الدنيا.

ثانيًا: الاستعداد التام لبذل النفس والمال دونه ﷺ لو كان حيًّا.

ثالثًا: امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﷺ من دون تردد.

رابعًا: نصر سنته والذب عن شريعته ﷺ.

فلنعرض أعمالنا ولنفتش في قلوبنا، ولنمتحن أنفسنا تجاه محبتنا لنبينا ﷺ من خلال هذه الأربعة الأمور.

ولنلاحظ أنَّه يجب أن نتجرد من خداعنا لأنفسنا في ادِّعاء محبة النَّبي ﷺ، فإننا يقينًا لا نسمح لأحد أن يتهمنا بنقصٍ فيه محبتنا له، ولكنَّ بعضنا يستثقل حتى الصلاة عليه ﷺ عند ذكر اسمه الكريم ﷺ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فما بالك بمن يدَّعي حبه ﷺ، ويمتنع عن طاعته، أو يعرض عن سنته، أو يتأول أقواله على حسب هواه وأغراضه، أو يهزأ ببعض أفعاله، أهذا محب؟ كلا:

تَعْصِي الإِله وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ   هذا محالٌ في القياس بديعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعْتَهُ   إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولك أن تسيح في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ لتنظر كيف بنوا صرح المحبة الشامخ في محبتهم له عليه الصلاة والسلام، وكيف فدوه بأرواحهم وأموالهم وقدموا أنفسَ ما يقدمه حبيبٌ لمحبوبه.

اللهم إنا أحببناك، وأحببنا نبيك محمدًا ﷺ، وأحببنا صحابة نبيك ﵃، فاحشرنا في زمرتهم، ومتعنا بصحبتهم في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، واجعل محبتنا لهم سبيلاً لاتباعهم، واقتفاء أثرهم، والسير على منهجهم، فإنَّك سميع مجيب.

٦

(أَصحَابُ سُنَّةٍ لا بِدْعَة)

لم يقف عباد الرحمن موقف المحب من الله تعالى أو من رسوله ﷺ، فالمحبة وإن كانت من أسس الإيمان، إلا أن أعظم نتائجها وثمارها الاتباع لهديهما، والانقياد لأمرهما ونهيهما، من غير زيادةٍ في الدين، ولا ابتداعٍ في الشريعة.

ولا يمكن للمسلم أن يترقَّى في مضمار الفقه أو العبودية لله تعالى إلا من هذا الطريق، واتباع عباد الرحمن ليس تقليدًا أعمى لا يعرف الإنسان فيه ماذا يفعل ولماذا يفعل، بل هي البصيرة التي تُمَيِّز الإنسان عن غيره، وتعلي شأن المؤمن في معرفته بدينه.

ولك أيها المسلم طريقان تكون في نهجهما مُتَّبِعًا:

فالأول: الأخذ بما جاء في القرآن الكريم؛ فإنَّه كتاب يحتوي على منهج كامل لحياتنا، من عقيدة وأخلاق وعقائد وأحكام، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ [القِيَامَة الآية ١٨].

والآخر: السُنَّة النبوية، فقد جاءت مبيِّنة أو مفسِّرة أو مكمِلة للقرآن الكريم، والسُّنَّة أقوال وأفعال وتقريرات، والأصل في الأقوال والتقريرات أنَّها شرعٌ من الله، وأما الأفعال فإنَّ منها ما هو شرع؛ كالصلاة والحج والصيام، وإنَّ منها ما هو خاص بالنَّبي ﷺ لا تشترك معه فيه أمته؛ كإباحة الزواج من أكثر من أربع نساء، وإنَّ منها ما هو من جبلته وطبيعته؛ كطريقة مشيه، فهذا لا يلزم الإنسان به، بل كل إنسان يفعله حسب سجيته.

وعودًا على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، فإنَّ من لوازمها اتباع شرعهما، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عِمۡرَان الآية ٣١].

كثيرة هي الأهواء، ومتعددة هي الطرق، ولربما كانت مغرية ببريقها الزائف، فأوقعت الإنسان في فتنتها، أو من كثرة سالكيها، أو من قوّتهم، من هنا حذّر النّبي ﷺ من سلوك هذه الطريق المضلة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خطًّا ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ ـ قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ ـ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأَنۡعَام الآية ١٥٣])، رواه ابن حبان في صحيحه.

من هنا يكون المتبع أكثر انتفاعًا بالذكرى، وأكثر استجابة للموعظة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ [يس من الآية ١٠ الى الآية ١١].

لقد فاز المتبعون بصحبة السابقين الأولين، وفازوا بالمغفرة والأجر الكريم، فهل اجتهدنا أن نكون منهم؟

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ [يس من الآية ١٠ الى الآية ١١].

إنَّه الفوز العظيم، إنَّها النجاة الحقيقية من نار التقليد البائس للأفكار الضالة، إنها العزة حينما نكون متبعين لهدي الله ورسوله ﷺ، لا نشعر بالتردد أو الخجل كما يشعر به الضعفاء أو المنهزمون، فمَنْ منَّا يريد النجاة؟

عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمْ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ) رواه البخاري.

إن الاتباع شرفٌ يتشرَّف به المسلم، ولذا فإنَّه لا مجال فيه للمحاباة أو المجاملة.

لنتأمَّل هذا الموقف: فعن وَبَرَةَ ﷺ قَالَ: (سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَطُوفُ بالبَيْتِ وَقَدْ أَحْرَمْتُ بالحَجِّ؟ فقالَ: وما يَمْنَعُكَ؟ قالَ: إنِّي رَأَيْتُ ابْنَ فُلَانٍ يَكْرَهُهُ، وَأَنْتَ أَحَبُّ إلَيْنَا منه، رَأَيْنَاهُ قدْ فَتَنَتْهُ الدُّنْيَا، فَقالَ: وَأَيُّنَا –أَوْ أَيُّكُمْ– لَمْ تَفْتِنْهُ الدُّنْيَا؟ ثُمَّ قالَ: رَأَيْنَا رَسولَ اللهِ ﷺ أَحْرَمَ بالحَجِّ، وَطَافَ بالبَيْتِ، وَسَعَى بيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَسُنَّةُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسولِهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ مِن سُنَّةِ فُلَانٍ، إنْ كُنْتَ صَادِقًا) رواه مسلم.

وإنَّ أعظم مصيبة رُزأت بها عدة أقطار في عالمنا الإسلامي هو السقوط في هاوية البدعة النكراء، من الطواف على القبور، وسؤال الموتى، والتعلق بالأولياء بطلب الشفاء والرزق، واتخاذ الطرق المستحدثة في التعبد، والانبهار بالعلمانية، والحمد لله رب العالمين الذي سلَّم هذه البلاد المباركة من هذه الشرور والبدع، وحفظ لها عقيدتها صافية نقية على منهج النَّبي ﷺ وسلفه الأخيار، فليس فيها قبرٌ ولا وثنٌ ولا ضريح ولا شجرة أو غيرها يُعبَدُ من دون الله تعالى، فلله الحمد والمنَّة.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ فَقَالَ: أَلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيهْ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: صَدَقَ وَاللهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، تَرَكَنَا وَاللهِ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ) رواه ابن ماجه وابن أبي عاصم وصحَّحه الألباني.

وعَنْ غُضَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ الثُّمَالِيِّ قَالَ: (بَعَثَ إِلَيَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَقَالَ: يَا أَبَا أَسْمَاءَ، إِنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا النَّاسَ عَلَى أَمْرَيْنِ، قَالَ: وَمَا هُمَا؟ قَالَ: رَفْعُ الْأَيْدِي عَلَى الْمَنَابِرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالْقَصَصُ بَعْدَ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمَا أَمْثَلُ بِدْعَتِكُمْ عِنْدِي، وَلَسْتُ مُجِيبَكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمَا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَا أَحْدَثَ قَوْمٌ بِدْعَةً إِلَّا رُفِعَ مِثْلُهَا مِنَ السُّنَّةِ، فَتَمَسُّكٌ بِسُنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ إِحْدَاثِ بِدْعَةٍ) رواه أحمد وجوَّد إسناده ابن حجر في الفتح.

والشريعة أكبر في أحكامها وأسرارها من أن يحيط بها العقل وإن أدرك جملة من حِكَمها ومقاصدها، ولذا فإنَّ عباد الرحمن كانوا يتلقون هذه التعاليم بكل استسلامٍ وانقيادٍ لله تعالى، عرفوا تفاصيل بعضها، وتعبدوا لله تعالى فيما لم يعرفوه؛ استجابةً لأمره، وطلبًا لجنته.

ولذا قال عَلِيٌّ بن أبي طالب ﷺ: ((لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفَّيْهِ)) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

فما أجمل التمسك بالسُّنَّة، وما أروع أن تكون مستَّنًا بهدي النبي ﷺ، ترى ذلك نورًا في وجهك، وبركة في رزقك، وراحة في فكرك وضميرك، والوعد الحسن للمتبعين يوم القيامة اجعله أملك.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، إنك سميع مجيب.

٧

(مُحِبُونَ لآلِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم)

ماذا عن عباد الرحمن مع آلِ بيت النَّبي ﷺ؟ لقد اعتقد عباد الرحمن أن محبتهم أصل من أصول أهل السُّنَّة والجماعة، لا يتم إيمان المرء إلا به، قال شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ الله: ((وإن من أصول أهلِ السُّنَّة والجماعة أنَّهم يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولَونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ)).

وما ذاك إلا لما وجوده من علاقة وثيقة بين الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم أجمعين، وهي أشهر من أن تعرَّف؛ فهي علاقة مودة ومحبة متبادلة، طاعة لله ولرسوله ﷺ، وهي واضحة وبيّنة.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح الآية ٢٩].

وعلى رأس أحباب أهل البيت كبار الصحابة الخلفاء الراشدون الثلاثة الأُوَل: أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان ﷺ:

فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول: ((أُرْقُبُوا محمدًا ﷺ في أَهْلِ بَيْتِه)) رواه البخاري، فإنَّها وصية مباركة من صدِّيق هذه الأمة في آل بيت النَّبي ﷺ بأن تُحْفَظَ حقوقهم: من

الاحترام والإكرامِ والتقدير، وقد كان هو أول من يحقق هذه الوصية، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بإسنادهما إلى أبي بكرٍ أنَّه قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي)).

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه يحب ويجل الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ويمازِحهما، فقد روى البخاري بسنده إلى عقبة بن الحارث ﷺ قال: ((صلَى أَبو بكر رضي اللَّه عنه العصر ثم خرج يمشي، فرأَى الحسن يلعب مع الصبيان فحملَه على عاتقه وقَال:

بأبي شَبِيهٌ بالنَّبِي ليسَ شَبيهًا بعَلِيّ

وعليٌ يضحك)).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وقد كان الصدِّيق يجله ـ أي الحسن ـ ويعظمه ويكرمه ويحبه ويتفداه، وكذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)).

أما الفاروق ﷺ فقد قال لعليِ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بأن المصطفى ﷺ التحق بالرفيقِ الأعلى وهو عنه راضٍ.

كما شهد له بحمل المعضلات والبراعة في القضاء فكان يقول: ((قضية ولا أبا حسن لها)).

فقد جاء في صحيحِ البخاري أنَّه لما قيل له ﷺ: ((أَوصِ يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أَجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر– أو الرهط– الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمَّى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن)).

ولما وضع عمر ﷺ الديوان بدأ بأهلِ بيت النَّبي ﷺ؛ لبيان فضلهم وعلوِ منزلتهم، فقد أورد الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أَن عمر بن الخطاب ﷺ لما دوَّن الديوان، ألحق الحسن والحسين

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بفريضة أبيهما؛ لقرابتهما من الرسول ﷺ، ففرض لكل منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس ﷺ خمسة آلاف درهم وقيل سبعة.

وقد كانت المحبة والعلاقة بين الفاروقِ عمر وبين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوية وثيقة، وقد روى الطبري وابن كثير والذهبي أن عمر ﷺ تزوّج من أمِ كلثومٍ بنت عليٍ من فاطمة الزهراء ﷺ، وكان الذي دفعه لذلك ما سمعه من الرسول ﷺ، حيث قال: (كُلُّ سَببٍ ونَسَبٍ مُنْقطعٌ يومَ القيامةِ إلا ما كانَ من سَبَبِي ونَسَبِي) رواه الطبراني والحاكم وصحَّحه الألباني بمجموعِ طرقه، قال: ((فأحببت أن يكون بيني وبين رسول الله ﷺ سبب)).

وكان عليٌ ﷺ وزيرًا في زمن خلافة عمر ﷺ، كما كان وزيرًا في زمنِ خلافة أبي بكر ﷺ، فقد كانوا كما ذكرهم الله في القرآن الحكيم: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح الآية ٢٩] رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المحبة التي يكِنُّها عمر بن الخطاب ﷺ لابنِ عمِ رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه كان يدخله في مجلس كبار الصحابة من مشيخة بدر ﷺ وقد كان لهم أبناء في سِنّه ولم يحظ أحد بهذا التكريم سواه.

قال الحافظ بن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ((ولقد كان عمر يدعو ابن عباس ويقرّبه ويقول: إني رأيت رسول الله ﷺ دعاك يوما فمسح رأسك وقال: اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل)) فَفعل عمر ﷺ هذا تقريرًا لجلالة قدرِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وبيان كبيرِ منزلته في العلم والفَهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقد بيّن الفاروق ﷺ للإمة عامة فضل العباس بن عبد المطلب ﷺ عم رسول الله ﷺ ومدى احترامه وتواضعه ومعرفته لحقه، وذلك عندما استسقى به، بل قد أقسم للعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنّ إسلامه أحبَّ إليه من إسلام أبيه ولو أسلم؛ فإن إسلام العباس أحب إلى

رسول الله ﷺ.

أما عثمان ﷺ فقد كان صاحب محبة شديدة للنبي ﷺ وآل بيته عليهم الصلاة والسلام، فقد سعى للمصاهرة مع الرسول ﷺ، فتزوَّج رقيَّة بنت رسول الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا فكان نعم الزوجِ، فلما توفاها الله ورأى الرسول ﷺ أسفه على فقدان هذه المصاهرة ورغبته فيها ووجد فيه الكفاءة والأهلية زوَّجه بابنته الأخرى أمِ كلثوم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، فكان نعم الزوج، فلما توفَّاها الله تعالى، وشعر ﷺ بأسف عثمان ﷺ على تلك المصاهرة قال تطييبًا لقلبه: (لَو كَانَ عِندَنا ثَالِثَةٌ لزوجناها عُثْمان) رواه أحمد في فضائل الصحابة وإسناده حسن، ولذلك سمي ذو النورين، وكان عثمان يكرم الحسن والحسين رضي الله عنهم ويحبهما، ولما أُحصر في الدار، وكان عنده الحسن يدافع عنه خشي عليه، فأقسم عليه ليرجعنَّ إلى منزله.

وروى الذهبي بإسناده عن العيزارِ بنِ حريث قال: بينما عمرو بن العاص رضي الله عنه في ظل الكعبة، إذ رأى الحسن ﷺ فقال: ((هذا أحب أهلِ الأرض إلى السماءِ اليوم)).

وجاء عن الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ أنَّه قال: ((ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله، قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال زيد: أرِني يداك، فأخرج يديه فَقَبَّلهما فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا)) رضي الله عنهم أجمعين.

هذا غيظ من فيض، وهذا شيء يسير من عظيم محبة صحابة رسول الله ﷺ لآل بيته الأطهار، فهل جددنا هذه المحبة، وهل علَّمناها أجيال المسلمين؟ وهل امتلأت بها قلوبنا؟ وهل اشتقنا أن نفتح صفحات التاريخ لنطَّلع على هذه الصفحات المشرقة من التآلف بين أصحاب النَّبي ﷺ وآل بيته الكرام؟ وهل تيقَّظنا لما يدسُّه أعداء الدين من إثارة الأخبار المكذوبة في تشويه الصلة بين القرن المفضل، وبين سلف الأمة الأخيار، إنه لا سبيل إلى النجاة من مصائب هذه الأكاذيب إلا أخذ العلم من أفواه أصحابه، لا الوسائل

العابرة التي ألبستْ على العقول حول هذه القضايا المهمة.

لقد تحدثنا عن محبة الصحابة لآل البيت، والآن أتحدث عن محبة آل البيت لصحابة رسول الله ﷺ.

فلنبدأ بثناء آل البيت على الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد تواتر ذلك عنهم تواترًا قطعيًا، فقد ثبَت عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما لا يدع مجالا للشك القول بتفضيل أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد روى البخاري بإسناده إلى أبي يعلى عن محمد بن الحنفية قال: ((قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد الرسول ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم؟ قال: ثم عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين)).

وروى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قيل لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((ألا تستخلف؟ قال: ما استخلف رسول الله ﷺ حتى أستخلف، وإن يُرِدِ الله تبارك وتعالى بالناس خيرًا فسيجمعهم على خيرهم كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم، يعني أبا بكر)).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (إِنِّي لَوَاقِفٌ فِي قَوْمٍ، فَدَعَوُا اللَّهَ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، وقدْ وُضِعَ علَى سَرِيرِهِ، إذَا رَجُلٌ مِن خَلْفِي قدْ وضَعَ مِرْفَقَهُ علَى مَنْكِبِي، يقولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ، إنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مع صَاحِبَيْكَ؛ لأنِّي كَثِيرًا ما كُنْتُ أسْمَعُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: كُنْتُ وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ، وفَعَلْتُ وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ، وانْطَلَقْتُ وأَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ، فإنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ معهُمَا، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هو عَلِيُّ بنُ أبِي طَالِبٍ) رواه البخاري.

قال ابن حجر: ((وفي هذا الكلام أن عليًّا كان لا يعتقد أن لأحد عملًا في ذلك الوقت أفضل من عمل عمر)).

وروى ابن عبد البر بإسناده إلى النزال بن سبرةَ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر)).

بل إن عليًّا ﵁ قال: ((لا يفضلُني أحدٌ على أبي بكر وعمر إلا جلدتُه حد المفتري)).

ولقد كان عليٌّ ﵁ محباً لرسول الله ﷺ فلما توفَّاه الله ورُزِق بولدٍ سماه محمدًا، وكان محبًّا لأبي بكر ﵁، فلمَّا توفَّاه الله ورُزِق بولدٍ سمَّاه أبا بكر، وكان محبًا لعمر ﵁، فلمَّا توفَّاه الله ورُزِق بولدٍ سماه عمر، وكان محبًّا لعثمان﵁، فلما توفَّاه الله ورزق بولدٍ سمَّاه عثمان، بل عنده عثمان الأكبر وعثمان الأصغر!

كما أنّ الحسن ﵁ له ابنٌ اسمه أبوبكر وآخر اسمه عمر، وللحسين ﵁ مثل ذلك، فللَّه ما أشد ألفة أصحاب النَّبي ﷺ، وما أنجحه في تربية أصحابه ﵃.

ولقد ثَبت عن بقية أهل البيت ﵃ مثل تلك المحبة والتقديرِ لأبي بكر وعمر ﵄ وإليك جملة من أقوالهم:

فقد روى الحاكم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر ﵄ قال: ((ولِيَنا أبو بكر فكان خير خليفة لرسول الله وأرحمه بنا وأحناه علينا)).

وروى الدارقطنِي بإسناده عن ابن حازِمٍ عن أبيه قال: ((قيل لعليِّ بن الحسين: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ قال: كمنزلتهما اليوم وهما ضجيعاه)).

وروى الذهبي بسنده إلى بسام الصيرفي قال: ((سألت أبا جعفرٍ عن أبي بكرٍ وعمر فقال: والله إني لأَتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدا من أهل بيتي إلا ويتولاهما)).

وروى الدارقطني وغيره عن أبي جعفر الباقر أنَّه قال: ((من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهِل السُنَّة)).

ولقد ورد الثناء من أهل البيت على عثمانِ ﵁ حاله كحالِ صاحبيه أبي بكر وعمر ﵄.

فقد كان عليٌ ﵁ وآل البيت يجلِّونه ويعترِفون بِحقه، فكان أولَ من بايعه بعد عبدالرحمنِ بن عوف علي بن أبي طالب ﵁.

وقد شهد له عليٌّ ﵁ بالجنَّة، فعن النزال بنِ سبرةَ قال: ((سألت عليًا عن عثمان فقال: ذاك امرؤ يُدعى في الملأ الأعلى ذو النورين، كان خِتْنُ رسول الله ﷺ على ابنتيه. أي: زوج ابنتيه. ضَمِنَ له رسول الله بيتًا في الجنَّة)).

وكان عليٌ طائعًا لعثمان ﵄ معترفًا بإمامته وخلافته، لا يعصي له أمرًا، فلما جمع عثمان ﵁ الناس على قراءة واحدة، بعد استشارة الصحابة ﵃ وإجماعهم على ذلك، قال عليّ ﵁: ((لو وليتُ الذي وَلِي، لصنعتُ مثل الذي صنع)).

ولما اتُّهِمَ عليٌ بقتل عثمان ﵄ قال. وهو الصادق.: ((من تبرَّأَ من دينِ عثمان فقد تبرَّأَ منَ الإيمان، والله ما أَعَنْتُ على قتله ولا أَمرتُ ولا رضِيت)).

وبهذه النصوص تتبين منزلة أبي بكر وعمر وعثمان عند عليّ وبقية آلِ البيت ﵃، والتي فيها الدليل القاطع والبرهان الساطِع على أنَّهم يعلمون ما لهؤلاء الخلفاء الثلاثة من المنزلة والاختصاص برسول الله ﷺ.

أما محبة آل البيت لبقية الصحابة من غير الخلفاء الثلاثة، فلقد كان عليٌّ ﵁ يعاقب بالجلد والضرب على الكلامِ الذي فيه نيل من أم المؤمنين عائشة ﵂، فقد ذَكر ابن الأثيرِ أن رجلين وقفا على باب الدارِ الذي نزلت فيه أم المؤمنين بالبصرة فقال أحدهما: جُزيتِ عنَّا أُمَّنا عقوقًا، وقال الآخر: يا أمي توبي فقد أخطأتِ، فبلغ ذلك عليًا ﵁، فبعث القعقاع بن عمرٍ إلى الباب فأقبل بِمن كان عليه، فأحالوا على رجلين من أزد الكوفة، فضربهما مِائة سوط وأخرجهما من ثيابِهما.

وروى ابن سعد بإسناده إلى جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال علي ﷺ: ((إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله في حقهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحِجر الآية ٤٧])).

فهذه منزلة طلحة والزبير عند عليّ ﷺ مع ما حصل بينهم؛ إذ لا طريق للحقد إلى قلوبهم، وهذا هو حال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

هكذا كان يعتقد عباد الرحمن الأخيار أن محبة النَّبي ﷺ ومحبة أحبابه دين لا يكمل إيماننا إلا به، ولا تصح عقيدتنا إلا به، لكن ما علامة حبهم؟ وما يجب علينا نحوهم؟

أولاً: اعتقاد أن محبتهم واجب جزمًا لا تردد فيه، والإيمان بكل أوصافهم الثابتة لهم في كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ.

ثانيًا: أن نؤمن أنَّهم أفضل الخلق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ثالثًا: أن نؤمن بأفضلية بعضهم على بعض.

رابعًا: أنَّه لا يجوز الخوض بجهل فيما حصل بينهم من اختلاف، ولا يجوز تصديق أي مصدر غير موثوق في أقوالهم أو أفعالهم، بل لابد أن تُؤْخَذ سيرهم وآثارهم من أهل العلم ومن كتبهم الموثوقة.

خامسًا: أن ندافع عن النَّبي ﷺ وآل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار ﷺ.

سادسًا: أن نربي أبناءنا على حبهم، وأن نتحدث معهم عن سيرهم، وأن نبني فيهم الاقتداء بهم.

سابعًا: خدمة ما ورَّثوه من العلم بالتحقيق والتوثيق والدراسة والنظر والتأمل.

ثامنًا: الإيمان بأن سنتهم من خير السنن بعد سنة النَّبي ﷺ، ولكنهم غير معصومين عن الخطأ.

تاسعًا: أن نتيقظ لما تبثه بعض المصادر من شبهات حول آل بيت النَّبي ﷺ وصحابته، ودور المسلم هنا أن يعرض ما سمعه على عالمٍ مدقق ليبين له ما يُلبس عليه، لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النَّحل الآية ٤٣].

عاشرًا: أن نترضَّى عنهم كلَّما سمعنا أو قرأنا ذكرهم، كما أن من الأدب أن نذكر أسماءهم في رواية الأحاديث التي رووها لنا.

فرضي الله عن آل بيت النَّبي ﷺ وعن أصحابه الكرام البررة، وجزاهم الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء على ما بذلوه من علم وخير وفتوح ونصرة للنبي ﷺ ودين الإسلام، وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى، إنك سميع مجيب.

٨

(مُحِبُّونَ لِصَحَابَةِ النَّبِي ﷺ وَرَضِي اللَّهُ عَنْهُم)

أجمع المسلمون على أنّ الصحابة ﷺ رأسُ الأولياء وصفوة الأتقياء، وخير عبادِ الله بعدَ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، جمَعوا بين العلم بما جاء به رسول الله ﷺ وبين الجهادِ بين يديه، شرَّفهم الله بمشاهدة خاتم أنبيائه ﷺ وصُحبته في السَّراء والضَّرَّاء، وبذلِهم أنفسَهم وأموالهم في سبيل الله، حتّى صاروا خيرةَ الخِيَرة وأفضلَ القرون بشهادة المعصوم ﷺ.

هم خيرُ الأمَم سابقِهم ولاحقهم، أولِّهم وآخرهم، هم الذين قطعوا حبائلَ الشِّرك، وأوصلوا دينَ الإسلام إلى أطرافِ المعمورة، فاتَّسعت رقعةُ الإسلام، وطبَّقت الأرضَ بشرائع الإيمان، فهم أدقُّ النّاس فهمًا وأغزرُهم علمًا وأصدقهم إيمانًا وأحسنهم عملاً؛ كيف لا! وقد تربَّوا على يدَي النّبي ﷺ ونهلوا من ماء معينه الصَّافي، وشاهدوا التنزيل؛ قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ نظرَ في قلوبِ العبادِ، فوجدَ محمَّدٍ ﷺ خيرَ قلوبِ العبادِ، فاصطفاهُ لنفسِهِ فابتعثَهُ برسالتِهِ، ثمَّ نظرَ في قلوبِ العبادِ بعدَ قلبِ محمَّدٍ ﷺ، فوجدَ قلوبَ أصحابِهِ خيرَ قلوبِ العبادِ، فجعلَهُم وزراءَ نبيِّهِ، يقاتلونَ علَى دينِهِ، فما رأى المسلمونَ حسنًا فهوَ عندَ اللَّهِ حسنٌ، وما رآهُ المسلمونَ سيِّئًا فهوَ عندَ اللَّهِ سيِّئٌ)) رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر.

والصحابي هو: مَن آمن بالنَّبي ﷺ وصَحِبَه ومات على ذلك.

قال عزّ وجلّ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ

ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح الآية ٢٩].

ولقد زكَّاهم الله تعالى ورضي عنهم ووعدهم بالجنَّات والفوز العظيم فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة الآية ١٠٠].

عن عمران بن حصين ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) رواه البخاري.

لنعلم أنَّ الخيرَ كلَّ الخير فيما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، هم من حفظ الله بهم كتابَه أمينًا عن أمين، حتّى أدَّوا أمانةَ ربِّهم، ولقد تحمَّلوا أمانة أداء السُنَّة، وذرعوا أقطارَ الأرض لينشروها، وقد بارك الله في حياتهم، وأتمَّ على أيديهم في مئة سنة ما لم يتحقّق لغيرهم.

نصَروا رسولَ الله ﷺ في غزواته وحروبه، وبايَعوه على بذلِ أنفسهم في سبيل الله، فعن أنس ﵁ قال: (خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الخَنْدَقِ، فَإِذَا المُهَاجِرُونَ، والأنْصَارُ يَحْفِرُونَ في غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لهمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذلكَ لهمْ، فَلَمَّا رَأَى ما بهِمْ مِنَ النَّصَبِ والجُوعِ، قَالَ: اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ والمُهَاجِرَهْ، فَقالوا مُجِيبِينَ له: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا...علَى الجِهَادِ ما بَقِينَا أبَدَا) رواه البخاري.

ونال الصحابة ﷺ شرفَ لقاء النَّبي ﷺ، فكان لهم النصيب الأوفى من محبّته وتعظيمه؛ سُئل علي بن أبي طالب ﷺ: ((كيف كان حبُّكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمّهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ)).

وسأل أبو سفيان بن حرب ﷺ وهو على الشِّرك حينذاك زيدَ بن الدّثِنّة ﷺ حينَما أخرجه أهل مكّة من الحرم ليقتلوه وقد كان أسيرًا عندهم: ((أنشدك بالله يا زيد، أتحبُّ أنّ محمّدًا الآن عندنا مكانَك نضرب عنقَه وأنّت في أهلك؟ قال: والله، ما أُحبُّ أن محمّدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وأنّي جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ مِن النّاس أحدًا يحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمَّد محمَّدًا)).

حكَّم الصحابة ﷺ رسولَ الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم فقالوا: ((هذه أموالنا بين يدَيك؛ فاحكُم فيها بما شئت، هذه نفوسنا بين يديك، لو استعرضتَ بنا البحرَ لخضناه نقاتِل بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك)).

وقال عمرو بن العاص ﷺ: (وما كانَ أحَدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ، ولا أجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كُنْتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأَ عَيْنَيَّ منه إجْلالًا له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَهُ ما أطَقْتُ؛ لأَنِّي لَمْ أكُنْ أمْلأُ عَيْنَيَّ منه) رواه مسلم.

والله إنَّا نحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار ولا نفرِّط في حبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرَّأ من أحدٍ منهم، ولا نذكرهم إلا بالخير، ونشهد لجميع المهاجرين والأنصار بالرضوان من الله، قال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح الآية ١٨].

وإنَّ من حقهم علينا أن نترضَّى عنهم جميعًا صغيرهم وكبيرهم أوّلِهم وآخرهم، وأن نذكر محاسنِهم وننشر فضائلهم ونقتدي بهديِهم، ونكفَّ عمَّا شجر بينهم؛ فقد غفر الله لهم، ولا يبغض أحدٌ أصحابَ رسول الله ﷺ وآل بيته إلاّ مفتون القلبِ في دينه، قال ﷺ: (لا يبغضُ الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر) أخرجه مسلم.

ولقد أيقنَ عباد الرحمن بأن الصحابة ﷺ هم خير الناس بعد الأنبياء عليهم السلام، فعظَّموهم واقتفوا أثرهم وانتفعوا بعلمهم وأخذوا بفقههم وتفسيرهم، وحرَّموا السُّخرية بهم واستنقاصهم وسبهم والكذب عليهم وامتهانهم؛ أخذًا بحديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تَسُبُّوا أصْحابِي، لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فَوالذي نَفْسِي بيَدِهِ لو أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدْرَكَ مُدَّ أحَدِهِمْ، ولا نَصِيفَهُ) رواه مسلم.

ولذا يجب علينا أن نربي أجيالنا على محبتهم وإجلالهم والدفاعِ عنهم، وما أجمل أن نحكي لهم مواقفهم النَّبيلة مع حبيبنا محمد ﷺ وكيف فدوه بأرواحهم وأموالهم، ونوصيهم بالاقتداء بهم، والترضِّي عنهم كلما ذُكرت أسماؤهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

اللهم إنا أحببناك وأحببنا نبيك ﷺ وأحببنا أصحابه وآل بيته، فاجمعنا بهم في جنات النعيم، إنك سميع مجيب.

٩

(يُحَافِظُونَ عَلَى صَلاتِهِم)

كم يشقى الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وكم ينصب من متاعبها، ومع هذا فهو يسعى إلى الراحة، فمرة يبحث عنها في الأموال، ومرة يبحث عنها في الأسفار، ومرة يبحث عنها في منادمة الأصحاب، ومرة بإمتاع الأنظار والأسماع والجوارح، غير أنَّه ما يزال يحمل همًا تنوء بحمله الجبال، وغمًا يثقل على الكواهل والنفوس، فجرِّب مرة افتح قلب أخيك، وانظر كيف تنهال عليك أوصابه ومتاعبه، فأين السعادة التي سعى إليها في أمواله وأسفاره وأصحابه!!

نعم، سيظل المرء كذلك ما دام يغفل عن ظل الراحة الحقيقي، ذلك الظل الذي كان يتفيؤه النَّبي ﷺ كلما اغتم أو اهتم، وهو واحة عباد الرحمن الأخيار حينما تلمُّ بهم الشدائد أو تحيط بهم الأكدار، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ رضي الله عنه قَالَ: (انْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبِي إِلَى صِهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ نَعُودُهُ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: يَا جَارِيَةُ، ائْتُونِي بِوَضُوءٍ؛ لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ!! قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ) رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني.

الصلاة، يا للعبادة العظيمة، كم سلى بها قلب الحبيب ﷺ، وكم نصب فيها قدميه، وكم اشتاقت إليها نفسه، وكم هفت إليها جوارحه، وكم ترددت إلى بيت الله من أجلها خطواته، بها ترتاح روحه، وبها يشكر الله، وبها يعظم خالقه، وبها يستنصر ربه.

عَنْ عَائِشَــةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَــةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا) رواه البخاري.

ما أعظم تقصيرنا مع الله تعالى ومع خلقه، وما أجلَّ الصلوات المكتوبات جعلها الله تعالى مكفرات لما نقترفه من الخطايا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟! قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَــيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّــلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا) رواه مسلم.

أيُّ فضــلٍ بعد هذا الفضــل من الله تعالى على عباده الصــالحين؛ يجدد لهم حياتهم الإيمانية كلَّ فرضٍ ليمحو عنهم كل خطيئة ارتكبوها قبله، قال النَّبي ﷺ: (الصَّــلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ) رواه مسلم.

يا لحسرة من فاته هذا الأجر العظيم، يزاحم نفسه بالذنوب، وَيُسَوِّد صفحاته بها، ويتعذَّر عن الصــلاة بأتفه الأســباب، ويقدِّم على نداء (حي على الصــلاة) أمور الدنيا ومشاغلها التي لا تنتهي إلا بالموت، فواعجبًا كيف يغفل عن (حي على الفلاح)، كيف يرتاح ضــميره وقد أدبر عن نداء الإيمان، وأدبر عن بيت الله، وما أقصــر الدنيا، وما أبقى الآخرة.. نوم.. لهو.. تجارة.. تكاسل.. تهاون.. وتجاهل عن أوقات الصلاة باللعب وأنواع الغفلة.. ماذا عســى أن تفعل هذه الأمور حينما يقف المتهاون بين يدي الجبار سبحانه، وبأي شيء سوف يجيب؟!

هل سمع من ترك صلاة الفجر حديث الصادق المصدوق ﷺ: (لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، يَعْنِي: الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ) رواه مسلم.

فأين من يبحثون عن النجاة من النار؟ أين هم من صلاة الفجر والعصر!

وكم ــ يا أحبتي الكرام ــ نبحث عن أسباب السلامة من الفواجع والحوادث، غير أننا ربما لم نتيقظ لأعظم سبيل وأحسن وسيلة، وهي أن تكون يا عبد الله ممن يكرمهم الله تعالى بصلاة الفجر في الجماعة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَيُدْرِكَهُ فَيَكُبَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) رواه مسلم.

هل تنبَّه من يضع المنبِّه على وقت ذهابه إلى عمله متجاهلاً صلاة الفجر إلى حديث نبيه ﷺ هذا!!

ويا لروعة اللقاء في صلاة الفجر، عذوبة وصفاء، وراحة وصحة، وسعادة لا تعدلها والله سعادة، كيف لا! واللقاء فيها مع الملائكة الأبرار، وعباد الله الأخيار، الذين اصطفاهم الله من بين خلق كثير باتوا في فرشهم، وأبى هؤلاء إلا أن يرحلوا إلى الله في صلاة الفجر مع الجماعة، لم تغرهم لذة الفرش ولا لذائذها، ولم يعطوا للشيطان الرجيم أُذُنًا صاغية وهو يدعوهم إلى النوم عن الصلاة، بل انطلقوا بكل فرحة يلبون نداء: (الصلاة خير من النوم..الصلاة خير من النوم)، فهنيئًا للملبين لهذا النداء من عباد الرحمن سعادة النفس وبركة الرزق.

فيا مَنْ قصَّرت في ذلك تأمل حديث النَّبي ﷺ حينما قال: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) رواه البخاري.

لنسأل أنفسنا: هل نحن من هؤلاء الذين يسأل الله العظيم عنهم ملائكته الأبرار؟

بل هل نحن ممن أمَّل نفسه أن يرى ربه في الجنَّة؟ نعم ستراه إذا كنت من أهل صلاة الفجر والعصر بإذنه سبحانه، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ ﷺ قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً ــ يَعْنِي الْبَدْرَــ فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾ [ق الآية ٣٩]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ: افْعَلُوا لَا تَفُوتَنَّكُمْ) متفق عليه.

أيها الأحبة: كم هو أليم على النفس أن يقصِّر المرء في أمر الصلاة، أو يصلي ويترك ذريته لا يأمرهم بها، ولا يحثهم عليها؛ ألم يعلم بإن الله يقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٣٨]، وأنَّه يقول سبحانه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه الآية ١٣٢]، وأنَّ النَّبي ﷺ يقول: (مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

أيُّ صلاحٍ من الذرية ينتظر إن لم تصلح صلاتهم! وأيُّ فلاحٍ يرتجى إن لم نعودهم على الصلاة، ويكمل الخير في الأمر بها والحثِّ عليها بتعلم أركانها وشروطها وسننها حتى تستقيم للولد صلاته فتنفعه في دنياه وآخرته، والسؤال: هل راجعتَ مع أهلك وذويك كتابًا واحدًا عن صفة صلاة النَّبي ﷺ؟ وسألت أهل العلم ما يشكل عليك فيه؟

لقد تعامل عباد الرحمن مع الصلاة بأنَّها من أول خطواتها إلى آخرها عبادة تتلوها عبادة، فمن حين ما يسمع عبد الرحمن الأذان تبدأ لحظات سعادته، أرع سمعك رعاك

الله إلى النَّبي ﷺ وهو يقول: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ) رواه مسلم.

ثم يأتي دور الوضوء ليعطيك الله به الجوائز الكريمة؛ فإن النَّبي ﷺ يقول: (ن تَوضَّأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِن جَسَدِهِ، حتَّى تَخْرُجَ مِن تَحْتِ أَظْفَارِهِ) رواه مسلم.

ويقول النَّبي ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) رواه مسلم، وزاد الترمذي: (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين).

أخي الحبيب: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإنها صلتك بربك، فيها إليه تخشع، وقلبك فيها يخضع، ولسانك فيها يلهج بالدعاء لخالق الأرض والسماء، اطلب فيها حاجتك، واسأل الله فيها من خيري الدنيا والآخرة، واستيقظ من غفلة إهمال صلاة الجماعة؛ فإن صلاة الجماعة نور، ومضاعفة الأجور، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ) رواه مسلم.

اللهم أعنَّا على الصلاة ما أحييتنا على الوجه الذي يرضيك عنَّا، إنك سميع مجيب.

١٠

(قَانِتُونَ لله)

عباد الرحمن قانتون لله رب العالمين؛ حيث لبَّوا نداء ربهم حيث أمرهم فقال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٣٨]، قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع)).

فأن تلزم طاعة ربك، مخلصًا له من قلبك، سائرًا على هدي نبيك محمد ﷺ، وأنت في هذا الطريق تستلذُّ بالخضوع بين يديه، وتسأله وتناجيه وتطلبه، فأنت إذن من القانتين.

ولقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ القنوت في خمسة أنواع، أذكرها على وجه الإيجاز:

أما الأول: فطاعة كل شيءٍ لمشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه، وهذا يشمل كل المخلوقات، قال سبحانه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ [هُود الآية ٥٦].

وأما الثاني: وهو شعور العبد واعترافه بأنَّه مخلوق مدبَّر من ربه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ﴾ [هُود الآية ٥٦].

وأما الثالث: أن العباد مضطرون إليه في نيل حوائجهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢﴾ [يُونُس الآية ١٢].

وأما الرابع: فإنَّهم لابد لهم من الاستجابة لأوامره ونواهيه كلها ولو أعرضوا عن بعضها؛ لأنَّه لا صلاح لهم من دونها، فاستجابتهم له قنوت له سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرَّعد الآية ١٥].

والخامس من أنواع القنوت: خضوعهم لجزائه لهم في الدنيا والآخرة، وكلهم له مستسلمون فيما يقضي بينهم، فإنَّه لا يقضي بينهم إلا بالعدل، لا يقدمون شيئًا ولا يستأخرون، قال سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّوم الآية ٢٦].

وارتبط القنوت في القرآن بالصلاة في عدد من المواضع، وما ذاك إلا لأنَّ القنوت يتمثل في الصلاة كأبرز عبادة يظهر فيها القنوت، حيث الركوع والسجود والدعاء، وهي عبادات يتجلى فيها الخضوع والخشوع والتذلل لله رب العالمين، قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البَقَرة الآية ٢٣٨].

هذا في شأن الفرائض، وهي أعظم ما يتعبد به العبد ربه، وإنه ليزداد منزلة في درجة القنوت حينما يُوفق للنوافل، ويأخذ منها أعلاها وأرفعها كقيام الليل ـ مثلاً ـ الذي لا يطِّلع عليه إلا الله تعالى، فلحظات القنوت يكون لها من الصفاء ما لا يكون في غيرها، قال الكريم سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزُّمَر الآية ٩].

فالقنوت ليس مظهرًا فحسب، إنما هو معنى تَصدُق فيه الجوارح ما يعتقده القلب، ويصدر من القلب ما يعبِّد الجوارح لله تعالى.

إنها صفة الأنبياء الأصفياء، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النَّحل الآية ١٢٠].

وإنها لصفة الصالحين والصالحات الأخيار والخيّرات الذين جمع الله لهم من الصفات ما تعلو به منزلتهم وترتفع به أقدارهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾ [الأَحزَاب الآية ٣٥].

عن أبي هريرة ﷺ (قِيلَ للنبيِّ ﷺ: ما يَعْدِلُ الجِهَادَ في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قالَ: لا تَسْتَطِيعُونَهُ، قالَ: فأعَادُوا عليه مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذلكَ يقولُ: لا تَسْتَطِيعُونَهُ، وَقالَ في الثَّالِثَةِ: مَثَلُ المُجَاهِدِ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بآيَاتِ اللهِ، لا يَفْتُرُ مِن صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، حتَّى يَرْجِعَ المُجَاهِدُ في سَبيلِ اللهِ تَعَالَى) رواه مسلم.

وتأمّل حال النّبي ﷺ في قنوته بين يدي ربه عز وجل كما يصفه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حيث قال: (خَرَجَ مُتَبَذِّلًا مُتَوَاضِعًا مُتضرِّعًا حَتَّى أَتَى الْمُصَلَّى فَلَمْ يَخْطُبْ خُطْبَتَكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَالتَّكْبِيرِ، وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَمَا كَانَ يُصَلِّي فِي الْعِيدِ) رواه الترمذي وحسَّنه، وحسَّنه الألباني.

إنَّ القنوت علامة من علامات الصلاح، والديمومة عليه علامة على الاستقامة، والدعوة إليه علامة على حب الخير للناس وإصلاح أحوالهم.

وهي صفة عزيزة ما أجمل أن نربي النشء عليها، فنعلمهم مع الصلاة الخشوع والخضوع فيها، ونعلمهم مع الدعاء التضرع والتذلل فيه، ونعلمهم مع حب خدمة الدين الإخلاص فيه، وهكذا حتى يقوى بناء الإيمان، فلا تزعزعه الشهوات، ولا تنهشه الشبهات، ويكون المسلم حينها مستنيرًا صالحًا ومصلحًا، يعوَّل عليه في النوائب، ويشتد به ساعد المجتمع المسلم.

إننا فعلاً لن نستطيع أن نبني صرح الأمة على مظهر العبادة إذا لم يوجد مخبرها، ولن نستطيع أن نحقق للأمة سؤددها إذا لم نعزز جانب القنوت لله في دواخلنا، حتى نصل إلى درجة الاعتزاز بالتعبّد لله تعالى، والانتماء إلى ديننا، والتشرف ببلادنا التي تحكم شرع الله في أحوالها العامة والخاصة.

لقد لفت نظرنا عبد الله بن مسعود ﷺ إلى أن القنوت ليس صلاحًا داخليًا فحسب، بل هو أيضًا يرتبط بثمرة هذه الصلاح في العطاء والإثمار، فقال: ((إن معاذ بن جبل ﷺ كان أمة قانتًا لله حنيفًا، فقيل: إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا! فقال: ما نسيت، هل تدري ما الأُمَّة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم، فقال: الأُمَّة: الذي يعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله وللرسول، وكان معاذ يعلم الناس الخير ومطيعًا لله ولرسوله)).

فلنبدأ منذ اليوم نضم إلى صلاتنا وصدقاتنا وإحساننا وتعليمنا نضم إلى ذلك قنوتنا بالخضوع لله تعالى والأنس به والحمد له على هدايته والمصابرة على خدمة دينه وعباده حتى يجعلنا الله من تعالى في سبيل القانتين.

والقنوت وإن كان يطلق ويراد به أحيانًا الدعاء في الصلاة، فهذا من إطلاق الكل على الجزء، ومن ذلك حديث أنس ﷺ: (قَنَتَ رَسولُ اللهِ ﷺ شَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ في صَلَاةِ

الصُّبْحِ يَدْعُو على رِعْلٍ وَذَكْوَانَ، ويقولُ: عُصَيَّةُ عَصَتِ اللَّهَ وَرَسولَهُ) رواه مسلم، ورِعْلٍ وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةُ: أسماء قبائل من العرب.

فاللهم اجعلنا من القانتين، ومن أولئك المقربين، إنك سميع مجيب.

١١

(أَهْلُ دُعَاء)

ما أجمل أن يعرف الإنسان قَدْرَه أمام عظمة الله تعالى، فيدرك بأنَّه ضعيف يحتاج إلى قوة الله، وفقير يحتاج إلى غنى الله، وأنَّه مهما أحاطته الهموم فإنَّه لن يفرِّج عنه همَّه سوى الله، وأن أسباب الدنيا مهما بعدت أو قربت فإنَّها تحت قدرة الله تعالى، من هذه العقيدة الصافية تعلقت قلوب عباد الرحمن بالرحمن، يدعونه ويتضرعون إليه، يستجيبون في هذه العبادة إلى نداء خالقهم سبحانه الذي ناداهم فقال عز وجل: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٥٥]، وكيف لا يستجيبون لهذا النداء والنَّبي ﷺ يقول: (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ) رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فلبت أنفسهم هذا النداء تلبية منقطعة النظير، فهذه جنوبهم تتجافى عن مضاجعهم، وقد امتزج الخوف من عذاب الله بالطمع في رضوانه ومغفرته في دعائهم لله تعالى، حتى قال الله تعالى فيهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السَّجۡدَة الآية ١٦].

لم يكن دعاؤهم مشوبًا بالشرك أو بالرياء، بل جاء مخلَصًا لله رب العالمين، يريدون به وجهه سبحانه، ولهذا أوصى الله عبده محمدًا ﷺ بصحبة المخلصين في دعائهم فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكَهۡف الآية ٢٨].

والله تعالى حينما أمرهم بدعائه، فتح لهم باب الاستجابة، وأخبرهم بأنَّه قريب منهم، يسمع دعاءهم ويلبي حاجتهم، لا تختلف عليه لغاتهم، ولا تصعب عليه أسئلتهم، قال الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٨٦].

وعبدُ الرحمن إذا دعا ربه فهو في مكسب عظيم؛ لأنَّه لا يخلو في دعائه من ثلاث بيَّنها النَّبي ﷺ في قوله: (ما من مسلِمٍ يَدعو، ليسَ بإثمٍ ولا بِقطيعةِ رَحِمٍ إلَّا أَعطَاه إِحدَى ثلاثٍ: إمَّا أن يُعَجِّلَ لهُ دَعوَتَهُ، وإمَّا أن يَدَّخِرَها لهُ في الآخرةِ، وإمَّا أن يَدْفَعَ عنهُ من السُّوءِ مِثْلَها قال: إذًا نُكثِرَ؟ قالَ: اللهُ أَكثَرُ)، رواه البخاري في الأدب المفرد وصحَّحه الألباني.

فإذا كانت هذه هي جوائز الدعاء فلم لا تطمح له نفوس كنفوس عباد الرحمن، قد زكت بالخضوع بين يدي الله تعالى، وأيقنت بأنَّه هو السميع العليم، وطهرت بطونها من أكل الحرام سواء أكان ظلمًا أو سرقة أو غلولاً أو ربًا، قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا،...ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ!) رواه مسلم.

وإنهم حينما دعوا ربهم لم يأتوا بين يديه بقلوب لاهية ساهية، بل بقلوب حاضرة خاشعة موقنة بالإجابة، متذكرة كلام النَّبي ﷺ: (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وإن الله يحب في عباد الرحمن إلحاحهم في دعائهم؛ فإنَّهم قوم لا يملون من الدعاء والتضرع، بل يجدون فيه سلوتهم في أحزانهم وغربتهم، وهم مع إلحاحهم هذا إلا أنَّهم قوم لا يستعجلون الإجابة، ولا يجزعون من تأخرها عليهم، كل هذا مع صيانة لدعائهم من الإثم وقطيعة

الرحم، أو من الدعاء على أنفسهم أو على أولادهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ) رواه مسلم.

وقال ﷺ: (لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ؛ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ) رواه مسلم.

بل إنهم أصحاب دعاء لوالديهم، فهم ممن يستجيب لأمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء الآية ٢٤].

وإنهم ليخصون أزواجهم وذرياتهم بالدعاء الطيب، فقد امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرۡقَان الآية ٧٤].

وكلما روعي في الدعاء آدابه كان أجدر بالإجابة، فحري بالداعي أن يستقبل القبلة في دعائه، وأن يرفع يديه، وألا يرفع صوته فيه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٥٥].

فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ) رواه البخاري.

وأسوة بالنبي ﷺ كان عباد الرحمن يحرصون على الدعاء بجوامع الكلم من غير تطويل أو تكلُّف، ويتحرون أوقات الإجابة، ومن ذلك: أوقات السَّحَر، وما بين الأذان والإقامة، وعند

نزول الغيث، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله، وفي السجود، وفي حالة الاضطرار، والسفر، وفي أدبار الصلوات، ودعوة الوالدين، ودعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة.

أيها الأفاضل: من منا لا يحب أن يبارك له في عمره وأهله وذريته، ويقيه الله سوء العواقب، ويحفظه من كيد الأشرار، هذا الدعاء هو طريقنا إلى هذا كله، ألا نرى كيف ملأ النَّبي ﷺ حياته بكل تفاصيلها بالدعاء! فهو يدعو منذ أن يصحو من نومه، ويدعو عند دخوله الخلاء، وعند خروجه منه، وبعد سماعه الأذان، وعند انتهائه من وضوئه، وعند خروجه من منزله وعند دخوله، وعند دخوله المسجد، وعند خروجه منه، وعند أكله وشربه، وانتهائه منهما، وعند نزول المطر، وعند هبوب الريح، وإذا أراد النوم دعا، وإذا أراد أن يأتي أهله بدأ ذلك بالدعاء.

واليوم نشهد ونسمع شكوى الكثيرين من الناس من الكآبة والقلق وكثرة البلايا وقلة بركة الأموال وسقم الأجساد، فيكثر السؤال، ويبحث الإنسان عن الدواء لدى الأطباء، ولربما صبروا على مُرِّ الدواء وطول فترة العلاج، ولكنهم يقصِّرون في الحفاظ على الأوراد والأذكار، ويملُّون من قراءتها، والمصيبة أكبر إذا قلَّ يقينهم في أثرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا أخفيكم ــ يا أحبتي ــ أن الذي شدني إلى هذه الصفة من صفات عباد الرحمن هي: دعوة عظيمة من دعواتهم حينما توجهوا بها إلى الله تعالى في تضرع وخشوع فقالوا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفُرقَان الآية ٦٥] ، فتساءلت: ما لعباد الرحمن وجهنم يخافون منها؟ هل رأوها؟ هل وقفوا على حافتها؟ هل رأوا أهوالها وسعيرها؟ كلا والله، ولكنَّه قمةُ التصديق والإيمان بما نزل في كتاب الله تعالى، وبما جاء على لسان رسوله ﷺ من وصفها، وما أعده الله للمجرمين فيها، حتى لكأنَّهم يرون ذلك رأي العين، ولك أن تسأل: أين قيامهم وسجودهم؟ لماذا لم يتَّكلوا عليه فيأمنوا به من عذاب جهنم؟ لا، إنهم يعلمون أنَّه لا نجاة بالعمل فحسب، ولكن برحمة الله وفضله وإحسانه، فهاهم أولاء ينطرحون تذللاً بين

يديه طلبًا لعفوه وكرمه أن ينجيهم من العذاب العظيم الذي قال فيه سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٥]؛ أي: دائم لا يتحول عن صاحبه ولا يفارقه، وهذا الذي أقضَّ مضاجع الصالحين، وأشعل في قلوبهم الخوف من الجبار سبحانه، وليس هذا فحسب، بل: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٦]، وهل هناك أسوأ من جهنم مهاد يستقر فيه الإنسان أو يقيم فيه!

دعونا ـ أيها الأحبة في الله ـ نسير في طريق عباد الرحمن حيث تستلذُّ الألسنة بالدعاء، وتُبارك الأعمار والأرزاق بالدعاء، وتنجو النفوس من المهالك في الدنيا والآخرة بالدعاء بإذن الكريم سبحانه.

اللَّهُمَّ أَصْـلِحْ لنا ديننا الَّذِي هُوَ عِصْـمَةُ أَمْرنا، وَأَصْـلِحْ لِي دُنْيَانا الَّتِي فِيهَا مَعَاشـنا، وَأَصْـلِحْ لِي آخِرَتنا الَّتِي فِيهَا مَعَادنا، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لنا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لنا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، إنك سميع مجيب.

١٢

(يُنَادُونَ اللَّهَ فِى الكُرُوبِ)

من منّا لا تنتابه الكُرَب، أو لا تحل به الأزمات، أو لا تضيق به الدنيا لهمومٍ تصيبه أو غمومٍ تؤذيه، ما أضعف الإنسان، وما أحوجه إلى من ينقذه من أوصابه وضوائقه.

وإنَّ تفريج الهموم هو من إحسان الله تعالى على خلقه، فهو سبحانه يفرّج همهم ويكشف كربهم إذا دعوه وتضرعوا إليه، ولربما كانوا مقصرين في حقه؛ لأنَّه الكريم العفو الغني الحليم، يبتلي عباده ويختبرهم، ويحسن إليهم على تقصير منهم، فسبحانه من ربٍ كريم.

ألا تذكر معي قوله سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾ [الأنعام الآية ٦٣].

فمن الذي أنجى نوحًا عليه السلام من الكرب العظيم؟ ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء الآية ٧٦].

ومن الذي أنجى إبراهيم عليه السلام من نارِ قومه؟ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء من الآية ٦٨ الى الآية ٧٠].

ومن الذي أنجى لوطًا عليه السلام من قوم السوء والفحش؟ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبيَاء من الآية ٧٤ الى الآية ٧٥].

ومن الذي أنجى يوسف عليه السلام من كربات الكيد والفتن؟ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يُوسُف من الآية ٥٤ الى الآية ٥٦].

ومن الذي أخرج يونس عليه السلام من ظلمات الحوت لما نادى مفرجَ الكربات فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبيَاء من الآية ٨٧ الى الآية ٨٨].

إنه الله العظيم.. الذي لن يترك صاحب الغم يلوك همومه، بل إنه يبتليه ليمحص ذنوبه ويعفو عنه سيِّئاته، وليدفعه نحو التقرب إليه فيصلح حاله ويصفِّي باله.

وإنك لترى الإنسان يبحث عن سبل النجاة، فيقصر نظره أحيانًا ليرجوها في الدنيا، فإذا لم يجد فيها سبيلاً، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأغلقت دونه الأبواب، وشعر بأنَّه قد سُدَّت في وجهه الطرق، انقطع إلى باريه يرجوه، ويدعوه ويتضرع إليه، ويبكي بين يديه، وهنا تأتي الثمار تباعًا: الإيمان والصدق والخشوع والإنابة، وتأتي بعدها الإجابة

الكريمة من الرب الكريم: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل الآية ٦٢].

هل أدركت أنَّ الله تعالى يراك ويسمعك، ويأمرك بدعائه وسؤاله، وإنَّ لديه الفرج القريب؟ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافِر الآية ٦٠].

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرَّحْمَن الآية ٢٩]، قَالَ: (مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ) رواه ابن ماجه وفي الزوائد: إسناده حسن.

لقد علَّمنا النبي ﷺ كلمات غاليات نقولها في الكرب، فعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: (قال لي رسول الله ﷺ: ألا أعلِّمُكِ كلِماتٍ تَقولينَهُنَّ عندَ الكربِ أو في الكَربِ؟ اللَّهُ ربِّي لا أُشرِكُ بِهِ شيئًا) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) رواه البخاري ومسلم.

وخذ كلمةً ثالثةً تنفعك بإذن الله تعالى في الكروب، حدَّث بحديثها طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ ﷺ رَآهُ كَئِيبًا فَقَالَ: (مَا لَكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ كَئِيبًا؟ لَعَلَّهُ سَاءَتْكَ إِمْرَةُ ابْنِ عَمِّكَ ـ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ـ؟ قَالَ: لَا، وَأَثْنَى عَلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: كَلِمَةٌ لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ وَأَشْرَقَ لَوْنُهُ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا إِلَّا الْقُدْرَةُ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُهَا، فَقَالَ لَهُ طَلْحَةُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: هَلْ تَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَعْظَمَ مِنْ كَلِمَةٍ أَمَرَ بِهَا عَمَّهُ: لَا

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ طَلْحَةُ هِيَ وَاللَّهِ هِيَ) رواه أحمد وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

أما عائشة ﵂ فقد حدَّثت تقول: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرْقِي يَقُولُ: امْسَحْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ؛ لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ) رواه البخاري ومسلم، وعند أحمد: (لا يكشف الكرب إلا أنت).

وعن أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

وتمجيد الله تعالى والثناء عليه من خير ما ينفع المكروب؛ لأنَّه يدل على يقين المؤمن بقدرة الله تعالى على كشف كربه، وإزالة همه، فعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ قَالَ: (عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا نَزَلَ بِي كَرْبٌ أَنْ أَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ، وَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) رواه أحمد، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ولعلي أختم بهذا الحديث الذي سيجد فيه المكروب سلوته ونجاته بإذن ربه: عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى؛ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا) رواه أحمد، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

أرجو أن يكون كلَّ ذي هَمٍّ أن يكون قد اتسع صدره بهذه الدعوات الكريمات، وانجلى همه بدعاء ربه الحليم الرحيم.

اللهم فرِّج همومنا وهموم المسلمين، واكشف كروبنا وكروب المسلمين، فإنك سميع مجيب.

١٣

(أَهْلُ تَضَرُّعٍ وَخُشُوع)

نحن اليوم على موعد مع الخشوع، ولقاء مع الخضوع، ولكن لمن يستحق هذا تعظيمًا لجلاله، وشكرًا على نعمائه، واعترافًا بالذل بين يديه سبحانه، والجولة ما زالت مع مَنْ يحلو الحديث عنهم، إنهم عباد الرحمن من لدن نبينا محمد ﷺ إلى كل مَنْ نهل من ينبوعه الصافي، واغترف من مشربه العذب.

فإن كان معنى الخشوع في اللغة: الانخفاض والذل والسكون كما قال سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه الآية ١٠٨]، فما أشدَّ سكون نفس العبد المؤمن وذلته وخضوعه بين يدي خالقه سبحانه، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون من الآية ١ الى الآية ٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه)).

ويا له من معنى تحيا به العبادات، فالعبادات لم يشرعها الله تعالى لتكون صورًا جوفاء، يعيش فيها المرء ببدنه دون روحه، أو ليؤديها وكأنَّها ثقلٌ عليه يريد التخلص منه! بل لتشعر بأنَّها الزاد المبارك لسفر الحياة الطويل، منه تستعيد النفس قوتها، وتسترجع عافيتها، وتنسى كثيرًا من همومها وغمومها، وتحصل على الفلاح المطلق الذي لا تحده الدنيا القصيرة مهما طالت، بل يتعداها إلى عمر الآخرة الذي لا نهاية له: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾ [المؤمنون من الآية ١ الى الآية ٢].

لقد تمثَّل عباد الرحمن الخشوع في صلاتهم فاستحقوا هذا الثناء من رب الأرض والسماء، حتى غدت صلاتهم واحة إيمان، واستراحة يتظللون بها من نصب الحياة ومتاعبها، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ ﵁ قَالَ: (انْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبِي إِلَى صِهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ نَعُودُهُ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: يَا جَارِيَةُ، ائْتُونِي بِوَضُوءٍ لَعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ، قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

لماذا لا نسأل أنفسنا، كيف كان النَّبي ﷺ يخشع في صلاته، يقول أبو ذر ﵁: (قام النَّبي ﷺ بآيةٍ حتى أَصبحَ يُرَدِّدُها، والآية قول الله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المَائـِدَة الآية ١١٨])، رواه ابن ماجه، وحسَّنه الألباني.

وتقول عائشة ﵂: (مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي) متفق عليه.

قال الإمام النووي ﵀: ((هن في نهاية من كمال الحسن والطول، مستغنيات بظهور حسنهن وطولهن عن السؤال عنه والوصف)).

وعن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ﵁ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ ﵂: (أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي قَالَ: "يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي، قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قالت: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُه

بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البَقَرَة الآية ١٦٤]) رواه ابن حبان في صحيحه وصحّحه الألباني.

ومن أثر الخشوع والبكاء كان في وجه عمر بن الخطاب ﷺ خطان أسودان، وكان يمرُّ بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى مريضًا في البيت حتى يعاد للمرض.

وماذا عسانا نقول في الخشوع والخضوع للواحد القهار بعد وصف ضرار بن ضمرة الكناني لعلي بن أبي طالب ﷺ حينما طلب ذلك منه معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فإنَّه قال فيه: ((يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا ـ يتضرع إليه ـ ثم يقول للدنيا: إليّ تغررت، إليّ تشوفت، هيهات هيهات، غُرِّي غيري، قد بِنْتُكِ ثلاثًا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آهٍ آهٍ من قلة الزاد ووحْشَةُ الطريق))، فوكفتْ دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل يُنَشِّفها بكُمّه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذا كان أبو الحسن، كيف وَجْدُك عليه يا ضرار؟ ـ أي كيف حزنك ـ قال: وَجْدُ من ذُبح واحدها في حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها)).

أيها الكرام: هذا غيضٌ من فيض، وقطرةٌ من بحر.

هكذا يسمو القلب بالخشوع بين يدي الله تعالى، فلا تبقى في قلبه مثاقيل الكبر ولا ذراته، ولا يترسَّب فيه داء الحسد، ولا تسكنه البغضاء ولا الشحناء على المؤمنين.

وإن سلفنا الصالح حينما ضربوا أروع الأمثلة في الخشوع، نبَّهوا الأمة على خشوع من نوعٍ آخر، يخرج فيه المؤمن من دائرة الاستقامة إلى حفر المخادعة والكذب، فهذا حذيفة ﷺ يقول: ((إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع!)).

ورأى عمر ﷺ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة، فقال له: ((يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب)).

وقال حذيفة ﷺ أيضًا: ((أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، وَرُبَّ مصلٍ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا)).

وإنَّا لسنا في حاجة إلى غلوٍ لا يتفق مع سُنَّة، ولا تفريطٍ تُنسى به السُنَّة، ولا خشوعٍ كاذبٍ لا يمُتُّ إلى الحقيقة بصلة، إنما نحن بحاجة إلى خشوعٍ ممزوجٍ بتعظيم الله تعالى، مصحوبٍ بمتابعة للحبيب ﷺ وسلفه الصالح، يترك بعده أثره على النفس المؤمنة، حبًا لله ولرسوله ﷺ ولكل مؤمن، وإشراقةً إيمانية في الوجه، وإحسانًا في التعامل مع الآخرين، إنه الخشوع الذي يحمل صاحبه على التواضع، ويحثه على المزيد من الخير، التفت ـ يا رعاك الله ـ إلى جزاء الخاشعين من رب العالمين، فإنَّه قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ

لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ٢٩﴾ [الفتح الآية ٢٩].

فما أجمل هذه الوعود، وما أجمل حياة الخاشعين، جعلنا الله وإياك منهم، إنه سميع مجيب.

١٤

(يَخْشَونَ رَبَّهَم سُبْحَانَه)

امتلأت قلوب عباد الرحمن خشية من ربهم، وخشية من عقابه، وخشية من غضبه؛ لأنَّهم وقفوا على صفات العظمة فيه سبحانه، وعرفوا تفاصيل كثيرة لأليم عقابه، فعاشوا حياتهم في خشية ربهم سبحانه.

وإنما تميَّز العلماء بالخشية؛ لأن الخشية خوف مقرون بإجلال الله تعالى، وبمعرفة جلاله وهيبته، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر الآية ٢٨].

كما أن الخشية أيضًا تقع ممن كثرت جنايته، وعرف عقابه، فخشي من سطوة الجبار وشديد عذابه، فراح يداوي علته بخشيته عز وجل.

فعن حذيفة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ المَوْتُ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الحَياةِ أوْصَى أهْلَهُ: إذا أنا مُتُّ فاجْمَعُوا لي حَطَبًا كَثِيرًا، وأَوْقِدُوا فيه نارًا، حتَّى إذا أكَلَتْ لَحْمِي وخَلَصَتْ إلى عَظْمِي فامْتُحِشَتْ، فَخُذُوها فاطْحَنُوها، ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا راحًا فاذْرُوهُ في اليَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعهُ اللَّهُ، فقالَ له: لِمَ فَعَلْتَ ذلكَ؟ قالَ: مِن خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللَّهُ له[(١)])) رواه البخاري.

(١) قال ابن حجر تعليقًا على هذا الحديث: ((أظهَرُ الأقوالِ أنَّه قال ذلك في حالِ دَهشتِه وغَلَبةِ الخوفِ عليه، حتى ذهب بعَقْلِه لما يقولُ، ولم يَقُلْه قاصدًا لحقيقةِ معناه، بل في حالةٍ كان فيها كالغافِلِ والذَّاهِلِ والنَّاسي الذي لا يُؤاخَذُ بما يصدُرُ منه))، انظر: فتح الباري ٦/٥٢٣.

وقد تسأل: كيف أنال درجة أهل الخشية فأفوز معهم؟ إن الجواب واضح جلي مبيّن في كتاب الله تعالى، فقد أنزل الله تعالى كتابه العزيز ليدرك الناس خشية ربهم، قال سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه من الآية ١ الى الآية ٤].

فأنت في سيرك في طريق الخشية لست بتائه، بل معالم الطريق لك واضحة جلية، منهاجها القرآن الكريم، وقائد مسيرتها الحبيب ﷺ، فهو أخشى الناس لرب العالمين، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((أنَّ رَجُلًا جاءَ إلى النَّبي ﷺ يَسْتَفْتِيهِ، وَهي تَسْمَعُ مِن وَرَاءِ البَابِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ، أَفَأَصُومُ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فأصُومُ، فَقالَ: لَسْتَ مِثْلَنَا يا رَسولَ اللهِ؛ قدْ غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، فَقالَ: وَاللهِ، إنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بما أَتَّقِي)) رواه مسلم.

ولقد سار السلف الصالح على هذا الطريق المستنير، من لدن صحابة رسول الله ﷺ حتى أنزل الله تعالى فيهم قرآنًا يتلى، فهل تشتاق إلى هذا الوصف الرباني لهذه الثلة المؤمنة في خشيتهم ربهم؟ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزُّمَر الآية ٢٣].

وإن من أعظم الغبن للنفس أن تضع خشية الله تعالى في كفة موازية لخشية الناس، فالأمر ليست فيه أدنى موازنة، فكيف يساوي العاقل بين القادر سبحانه، والضعيف الهزيل الذي لا حول له ولا طول أمام قدرة الجبار عز وجل، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ

مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النِّسَاء الآية ٧٧].

إن من أعظم الخشية أن يخشى العبد ربه في الغيب، حينما يستر نفسه بالستر، ويبتعد عن أعين الناس، ويرى نفسه قد خلا بالمعصية لا قدر الله، ويخدعه الشيطان فيوسوس له بأنَّه ليس هناك من يطلع عليه أو يراه، هنا يأتي دور الخشية من الله تعالى، فيتذكر العبد عظمة الله وجلاله وحلمه وإمهاله ونعمه عليه وأنَّه شديد العقاب، وأنَّه إذا استغفر العبد غفر له، وأدخله الجنَّة مع المتقين.

قال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ [ق من الآية ٣٣ الى الآية ٣٥].

عن أبي اليسر ﵁ قال: (أَتَتْنِي امرأةٌ تَبْتَاعُ تَمْرًا، فقلتُ: إنَّ في البيتِ تَمْرًا أطيَبَ منه، فدَخلَتْ مَعِيَ في البيتِ، فأَهْوَيْتُ إليها، فقبَّلْتُها، فأَتَيْتُ أبا بكرٍ، فذَكَرْتُ ذلك له؟ قال: استُرْ على نَفْسِكَ وتُبْ، ولا تُخْبِرْ أحدًا، فلم أَصْبِرْ، فأَتَيْتُ عمرَ، فذَكَرْتُ ذلك له؟ فقال: استُرْ على نَفْسِكَ وتُبْ، ولا تُخْبِرْ أحدًا، فلم أَصْبِرْ، فأَتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فذَكَرْتُ له، فقال: أَخلَفْتَ غازِيًا في سبيلِ اللهِ في أهلِه بمِثْلِ هذا!! حتى تَمَنَّى أنَّه لم يَكُنْ أَسْلَمَ إلا تلك الساعةَ، حتى ظَنَّ أنَّه من أهلِ النارِ، قال: وأَطْرَقَ رسولُ اللهِ ﷺ طويلًا حتى أُوحِيَ إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود الآية ١١٤]، قال أَبُو الْيَسَرِ: فأَتَيْتُهُ، فقرأها عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ، فقال أصحابُه: يا رسولَ اللهِ، أَلِهَذَا خاصَّةً أم للناسِ عامَّةً؟ قال: بل للناسِ عامَّةً) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وأصله في البخاري ومسلم.

وحتى تكون ممن يخشون ربهم سبحانه: عليك بالعلم، فالخشية والعلم قرينان متصافيان، قال ابن مسعود ﷺ: ((ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية)).

ولا تستحقر ذنوبك، وتذكَّر بأن الله تعالى يعلم بها، وهو غفور رحيم، قال ابن مسعود ﷺ أيضًا: ((إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا، قالَ أبو شِهابٍ: بيَدِهِ فَوْقَ أنْفِهِ) أورده البخاري.

وإن تقوى الله تعالى والابتعاد عن الشبهات من أجلّ ما يوصل إلى خشية الله تعالى، فقد قال أبو الدرداء ﷺ: ((تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنَّه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام)).

وإن من أجمل ما تعبِّر عنه الخشية تلك الدمعات الحارة التي يسكبها العبد بين يدي ربه سبحانه، يستشعر فيها خشيته وعظمته ومقدرته على مغفرة ذنبه وتجاوز خطيئته، فما تتوقف إلا والغفور سبحانه يكرمه بالعفو ويسدل عليه ستره وكرمه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عَينانِ لا تَمَسُّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وعن أبي أمامة ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: (ليس شيءٌ أحبَّ إلى اللهِ من قطرتَيْن وأثرَيْن: قطرةُ دموعٍ من خشيةِ اللهِ، وقطرةُ دمٍ تُهراقُ في سبيلِ اللهِ، وأمَّا الأثران: فأثرٌ في سبيلِ اللهِ، وأثرٌ في فريضةٍ من فرائضِ اللهِ عزَّ وجلَّ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

فلنعلم أخيرًا: أن الخشية طمأنينة للنفس في الدنيا، وأمنٌ من الفزع الأكبر يوم

القيامة، وفوز بالجنَّة، ونجاة من النار، فهنيئًا لأهل الخشية سعادة الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يهدينا إلى خشيته، وأن يتقبل منا ومنكم صالح القول والعمل، إنه سميع مجيب.

١٥

(أَهْلُ بُكَاءٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالى)

الحديث عن بكاء عباد الرحمن حديث ذو شجون، ولست بحاجة إلى تفسير البكاء لكم أو تعريفه، فهو أول عمل قام به الإنسان حينما وُلِد من بطنه أمِّه، لكننا لا نقصد بالطبع ذلك البكاء الذي لم يشعر به ولم يعرف سببه.

إنما البكاء المقصود هنا: هو إراقة الدموع من أثر الخوف من الله تعالى أو التعبير عن حزنٍ في الفؤاد.

وأسباب البكاء كثيرة، من أفضلها: الخشية من الله تعالى، والرغبة في فضله، والخوف من عقابه، وكلَّما كان العبد أعلم بالله تعالى وبعظمته كان أقرب إلى خشيته، قال الكريم سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإِسْرَاء من الآية ١٠٧ الى الآية ١٠٩].

ولقد حرَّم الله تعالى العين الباكية من خشيته على النار فقال رسول الله ﷺ: (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) رواه الترمذي وإسناده حسن، وصحَّحه الألباني.

وإنَّ البكاء من خشية الله لنعمة من نعمه سبحانه يهديها لمن يشاء، ويجتبي إليها من يشاء، قال سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ

﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مَرْيَم الآية ٥٨].

وهكذا كان النَّبي ﷺ عند سماعه للقرآن الكريم، يستشعر معانيه ويعيش أسراره، ويقع في قلبه من الخشوع ما يدمع عينيه ولربما بلَّ لحيته، فعَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ! قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النِّسَاء الآية ٤١]، رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ) رواه مسلم.

إنها دمعات يحبها الله تعالى منك أيها المؤمن فلا تبخل بهذه المحبة على نفسك، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عَنْ النَّبِي ﷺ قَالَ: (لَيسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ، وَقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ: فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

وقد حكى عبد الله بن الشخير ﷺ كيف كان وقوف النَّبي ﷺ الباكي بين يدي ربه عزَّ وجل فقال: (رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يُصلِّي وفي صدرِه أزيزٌ كأزيزِ الرَّحى مِنَ البكاءِ ﷺ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ويبكي المؤمن للمعاني النبيلة التي تشفُّ عن نفس محبة للخير ولأهل الخير، وتكشف عن روح رحيمة بالخلق، سواء أكان ذلك في فَقْد حبيب أو مصاب جلل، ولمثل هذا هلت دمعات النَّبي ﷺ،فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: (دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام [ابن النَّبي ﷺ]، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ) رواه البخاري.

وإنَّ من فُرَص البكاء حينما يستمع المسلم إلى الموعظة التي تذكِّره بخالقه وتحاسبه على خطيئته؛ فإن البكاء هنا يغسل أدران القلوب، ويزيل عنها رانها، وهذا شأن صحابة رسول الله ﷺ حينما يتوجهون بمجامع قلوبهم إلى موعظة النَّبي ﷺ، ولعلنا نتذكَّر حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: (وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ)، رواه الترمذي وقال: حسنٌ صحيح.

والقلب الحيُّ المتعلق بالله والعارف لأسمائه وصفاته تؤثِّر فيه كلُّ موعظةٍ صادقة، سواء صدرت من كبير أو صغير، رجل أو امرأة، ومن ذلك: ((أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يومًا إلى السوق ومعه الجارود بشر بن عمرو القيسي، فإذا امرأة عجوز فسلَّم عليها عمر، فردت عليه، وقالت: هيه يا عمير؛ عهدتك وأنت تُسمى (عُميرًا) في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سمعتُ (عمر)، ثم قليلٌ سمعت (أمير المؤمنين)، فاتق الله في الرعية، واعلم أنَّه من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر، فقال الجارود: لقد اجترأتِ على أمير المؤمنين وأبكيته، فأشار إليه عمر أنْ دعها، فلمَّا فرغ قال: أما تعرف هذه؟ قال: لا، قال هذه خولة ابنة حكيم التي سمع الله قولها، فعمر أحرى أن يسمع كلامها، أشار إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾[المُجادلَة الآية ١]، وهي خولة هذه)) أورده ابن الجوزي في الشفاء.

وإذا ثبت أن البكاء من خشية رب العالمين من هدي خير المرسلين وسلفه الصالحين، فعلى المؤمن أن يسأل الله تعالى إياه، وأن يسلك كل ما يرقق قلبه إذا وقف بين يدي

خالقه، أو استمع إلى كتابه، أو تذكَّر الآخرة، قال أبو بكر الصديق ﷺ: ((من استطاع منكم أن يبكي فليبكِ، ومن لم يستطع فليتباك)).

وتأمل كيف يبكي أبو هريرة ﷺ نفسَه، فقد بكى في مرضه فقيل له ما يبكيك؟ فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بُعْدِ سفري وقلة زادي، وإني أمسيت في صعود على جنةٍ أو نار، لا أدري إلى أيتهما يؤخذ بي) أورده البغوي في شرح السُّنَّة.

وثمة بكاء للمؤمن من الفرح، ولعلنا نلحظه كثيرًا حينما نزور بيت الله تعالى فنرى بعض المعتمرين وخصوصًا الذين يأتون من كل فجٍ عميق، قد انتظروا العقود من أعمارهم، وبذلوا أثمن أموالهم، ليتشرفوا بالعمرة أو الحج، حتى إذا أبصرت أعينهم ذلك البيت المعظم، أو أدَّوا مناسكهم سكبوا الدموع الغزار فرحةً بهذا اللقاء الإيماني الكريم؛ شكرًا لله تعالى على إحسانه وفضله.

ويبكي العبد الرحيم فرحًا بعودة الأحباب من طول سفر أو غياب، ويبكي القلب الشفوق في لحظات النعمة أو تحقق الآمال أو شفاء المريض بعد طول انتظار.

فاللهم اجعلنا ممن يبكون من خشيتك وتحقق نعمك، فتظلهم تحت ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، فإنك سميع مجيب.

١٦

(يَفِرّونَ إلى اللَّهِ تَعَالَى)

إن القارئ في حياة عباد الرحمن يجد أنَّهم في كل لحظاتهم كأنَّهم يركضـون في ميدان فسيح، كأنَّهم يستمعون إلى نداء لا يستريبون في صدقه، وهم في استجابتهم إلى هذا النداء لا يتوقفون عند من يشغلهم عنه، وهم في هذا وذاك يشعرون بالسعادة في كل خطواتهم الواثقة، قد امتلأت قلوبهم يقينًا بوعد صاحب النداء، بأنَّه سيعطيهم كل ما يرغبون ويشتهون، ويبعدهم عن كل ما يحذرون ويرهبون.

فهلاَّ قرأنا هذا النداء الذي كلَّما تلوناه أخذ بلباب قلوبنا، قال سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾ [الذَّارِيَات من الآية ٥٠ الى الآية ٥١].

أي: فروا من معاصيه إلى طاعته، وذكر عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: ((فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم))، وروي كذلك: ((فروا منه إليه واعملوا بطاعته))، وقال بعضهم: ((فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن))، وقيل: ((فروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان))، وقيل: ((فروا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم)).

وهذا الفرار له أنواع:

منها: فرار العامة من الجهل إلى العلم، بتحصيل العلم اعتقادًا ومعرفة وبصيرة.

كيف وقد تيسَّرت السبل اليوم في تحصيل العلم والمعرفة، فما بقي إلا أن يفر المرء من مجالس البطالة إلى مجالس الذكر والتعلم؛ ينهل من معينها، ويستفيد من علمائها،

ويستفيد من كل تقنية حديثة في رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، يسأل نفسه كل يوم ماذا تعلمت؟ وماذا أفدت؟

ومن الفرار إلى الله: فرار من جهل العمل إلى السعي النافع، والعمل الصالح، قصدًا وسعيًا، فكم هم المتعلمون اليوم؟ وكم هم العالمون؟ ولكن كم هم العاملون؛ الذين يبذلون من أوقاتهم وصحتهم وأموالهم ما يضحون به من أجل دينهم وبلادهم وأمتهم، يعملون عقولهم بالفكر النيِّر، وأبدانهم في العمل الصالح المصلح، قد أدوا الحقوق، وزادوا على ذلك بفروض الكفايات، وسعدوا بالسنن والتضحيات، لا يبالون بساعات النوم كم هي، بل يرقبون عقارب الساعة كم ينجزون فيها لبلادهم ولأمتهم من الخير والعطاء المثمر.

ومن الفرار إلى الله: الفرار من الكسل والتسويف إلى التشمير جدًا وعزمًا، فيفر إلى داعي الصدق في العمل، وإخلاصه من شوائب الفتور ووعود التهاون، فهي أضرُّ شيء على العبد، وهي شجرةٌ ثمرها الخسران والندامة.

فجملة من الناس يحمل في قلبه الأفكار المتميزة، ولكنه يَعِدُ نفسه بتنفيذها بـ(سوف) و (غدًا) وهكذا تمضي الأعمار من دون إنجاز.

ومن الفرار إلى الله: الفرار من الضيق سعيًا ورجاءً، فيهرب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار، فيهرب إلى سعة رحمة الله تعالى واليقين به، وصدق التوكل عليه، وحسن الرجاء لجميل صنعه به، وتوقع المرجو من لطفه وبره.

فما أروع إذا ضاقت بك الأحوال، وتكالبت الهموم، أن تفر إلى الله تعالى، تتضرع بين يديه أن يكشف ما بك من السوء، وأن يرفع عنك الغموم، فما ألذ لحظات الفرار هذه، يجد المؤمن فيها أنسه، وراحة ضميره، وهدوء جوارحه.

والله تعالى لا يخيّب من رجاه وفرَّ إليه: ليطلب علمًا، أو عملاً صالحًا، أو سعة ورزقًا، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف الآية ٣٠].

إن عباد الرحمن في فرارهم إلى الله لا يطمئن أحدهم إلا لرضاء الله عنه، ولا يطمئن لعمل وهو ليس مقبلاً على الله عزَّ وجل، ولا يستغني برتبةٍ شريفة وإن عظمت عنده أو عند الناس؛ لأنَّه لا يستغني إلا بالله، ولا يفتقر إلا لله، ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله، ولا يخاف إلا من سخط الله.

فكم هم الذين قيدتهم قيود المعاصي، وأوثقتهم الخطايا، ورزحوا تحت ثقل الذنوب، فهلاّ فروا منها ومن أصحابها ومن مجالسها ومن وسائلها إلى الله تعالى؟ ليجدوا لذة الحياة الحقيقية التي يتلذذ بها عباد الرحمن بين تلاوة القرآن، والوقوف بين يدي الرحمن، ومساعدة اللهفان، وبر الأهل والذرية والجيران، والبناء المتماسك للأوطان.

لنعش لحظة فرار إلى الله تعالى في قصة قصَّها النبي ﷺ فقال: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ

وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ) رواه مسلم.

ولنعلم أن من يفر إلى خالقه يكون محبوبًا بين خلقه، لأنَّه يزهد فيما بين أيديهم، ولا يركض إلى مناصب الدنيا التي يلهث خلفها ضعاف النفوس، بل تجد أسعد لحظاته إذا تولاها فأسعد بها الناس، وإذا تركها خفَّ ظهره من حمل المسؤولية الثقيل؛ فإنَّه يستشعر مساءلة الله تعالى في كل لحظة.

وليس أعظم أجرًا للمتقين من جنة عرضها السموات والأرض، فهنيئًا لهم الفوز بالرضا، والسلامة في الوصول، والنجاة من المرهوب، ونيل المرغوب.

اللهم اجعلنا من الفارِّين إليك، السبَّاقين إلى الخيرات، إنه سميع مجيب.

١٧

(أَهْلُ تَسْبِيحٍ لِلَّهِ تَعَالَى)

ما أروع أن تكون ألسـنتنا رطبة بذكر الله تعالى، تملأ صـفحاتنا بمزيد نور وهداية في الدنيا، وبهجة وفرحة في الآخرة.

وهذا منهج عباد الرحمن، الذين تميَّزوا باللهج الدائم بذكر الله تعالى، ولعل من أبرز أنواع هذا الذكر هو تسبيح الله تعالى.

والذي نعني به كما يقول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((التســـبيح يعني قول: ســـبحان الله، ومعناه: تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم نفي الشـــريك والصـــاحبة والولد وجميع الرذائل، ويطلق التسبيح ويراد به جميع ألفاظ الذكر)).

ولقد شرُفت جميع الأشياء بهذا التسبيح، ألا تذكر معي قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ [الإسراء الآية ٤٤].

بل هي العبادة التي تعبَّد بها الملائكة المقربون وحملة العرش والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يفتر عنها عباد الرحمن الأخيار.

قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ [الحِجر الآية ٩٨]، وتأمَّل الأمر الرباني الذي يوجهك إلى أن تستفتح يومك وتختمه بالتسبيح لتكون البداية طيبة والخاتمة مثلها، قال الكريم ســبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ

لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ [غَافِر الآية ٥٥].

ويتميَّز الصالحون بتسبيحهم في جنح الليل البهيم؛ حيث يتلذَّذ جملة من الناس بالنوم، وبعضهم يقطعه في الغفلة؛ ليلهج لسان هؤلاء المتفوقين بالتسبيح؛ استجابة لقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ [الإنسَان الآية ٢٦].

فبالتسبيح تُطلبُ المغفرة من الله تعالى، ويتمهد الدعاء بين يدي الخالق عز وجل، وتحلو المناجاة له سبحانه وتعالى، وتُستجلب التوبة من التواب الرحيم: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ [النَّصر الآية ٣].

بل هو من المنجيات من العذاب الأليم، ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عِمرَان الآية ١٩١].

ألم تر كيف يحلو التذلل بين يدي الله تعالى في الركوع بقولك: سبحان ربي العظيم، وفي السجود وأنت تلهج بقولك: سبحان ربي الأعلى، فما ألذَّ هذا الذكر على ألسنة الخاشعين، لا ينطقون به كما ينطقون بأيِّ كلامٍ أو حديث، إنهم يستشعرون حقًا بكمال الله تعالى، وتنزيهه عن كل نقص، كيف لا وهو الذي سبَّح نفسه فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ [النَّحل الآية ١].

كثير ذلك الكلام الذي نملأ به أجواء مجالسنا، لكنَّ النبيه منّا من ذكَّرنا فيها بالتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد؛ لتصعد هذه الأنفاس الخيِّرة إلى الله تعالى، فيُذكر هذا المجلس بخير ما يُذكر، ويُغفر لأهلها، ويُعطون ما سألوه فيها، ويُجيرهم مما استجاروا، فأيُّ مكافأة أجزل من هذه المكافأة! وهل سيجزي أحدٌ كجزاء الله تعالى!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا أَيْ رَبِّ، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي! قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ؛ هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ) رواه مسلم.

فيالها من نعمة عظيمة يمنُّها الله تعالى على مجالس الأخيار، كلّما جلسوا لذكر الله تعالى غفر الله لهم، وهو الغفور الرحيم سبحانه.

ويالمصيبة المضيّعين، كثيرةٌ جلساتهم، ولكنّها وبالٌ عليهم، قد شحنوها باللغو والغيبة والسخرية والكلام المحرَّم الذي لا نفع فيه في الدنيا ولا في الآخرة.

ولا غرابة إذا علمنا بأنَّ التسبيح بجميع أنواع الذِّكر فيه يعطي قوةً للبدن بإذن الله تعالى، وعونًا منه سبحانه على أداء الالتزامات اليومية المناطة بالإنسان، نعم هو شيء معنوي، لكن له أثر حسي يجده من جرَّبه، وقد دلَّ على ذلك حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ: (أنها شَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ أَثَرِ الرَّحَا...قالت: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ لِأَقُومَ، فَقَالَ: عَلَى مَكَانِكُمَا، فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، وَقَالَ: أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَانِي؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا:

تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ) رواه البخاري.

ولقد اتَّخذ عباد الرحمن التسبيح طريقًا للاستزادة من معين الحسنات ورفعة الدرجات؛ ليُسْر التسبيح وسهولته على ألسنتهم، فلم يفرِّطوا ـ مثلاً ـ في ألف حسنة، ينالها أحدهم من غير نصب ولا وقت طويل ولا مشقة بدن، فعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ) رواه مسلم.

وكلَّما تعوَّد المؤمن على التسبيح خفَّ على لسانه أكثر، وكلَّما تذكَّر فضله، استعذبه أكثر، وكلَّما استزاد منه ثقَّل ميزانه أكثر، ويوم القيامة يرى صحيفته قد امتلأت بالتسبيح، فيفرح مع عباد الرحمن ويسعد مع المسبحين، قال النَّبي ﷺ: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ) رواه البخاري.

وتبقى مسيرة التسبيح حتى يغدو عبادالرحمن من أهل الجنَّة، فيلهمون التسبيح كما يلهمون النَّفس؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إنَّ أهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فيها ويَشْرَبُونَ، ولا يَتْفُلُونَ ولا يَبُولونَ ولا يَتَغَوَّطُونَ ولا يَمْتَخِطُونَ، قالوا: فَما بالُ الطَّعامِ؟ قالَ: جُشاءٌ ورَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ) رواه مسلم.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسبحين، وأن يتقبل منا صالح القول والعمل، إنه سميع مجيب.

١٨

(مُؤْمِنُونَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه)

مَنْ منَّا لم يفقد حبيب؟ ومنا من لم يفارق قريب؟ ومن منَّا لم يصبه مرض؟ أو نغَّصت على سعادته مصيبة؟

نعم إنها هموم ربما فتت في عضد الإنسان، وربما سيطرت على تفكيره حتى توقعه في الحيرة أو القنوط ـ لا قدر الله ـ، لكنَّ عباد الرحمن فطنوا لسلاح عظيم، به بعد الله تعالى يتقوون على أمثال هذه المقادير التي لابد أن يواجهوها في هذه الحياة الدنيا؛ ألا هو الإيمان بالقدر، سبيلهم إلى السعادة مهما تكالبت عليهم الهموم، وطريقهم إلى الرضا مهما أحاطتهم الغموم، فهل أدركنا معناه؟ وهل آمنا بحقيقته وفحواه؟

أخي الكريم: الإيمان بالقدر: هو أن تؤمن أن الله قدَّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها.

ولقد ورد الأمر بالإيمان به في أعظم حديث في الإسلام، وهو حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حينما قال للنبي ﷺ: (أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ)، ثم قال النَّبي ﷺ: (إِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ) رواه مسلم.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القَمَر الآية ٤٩].

لقد أيقن عباد الرحمن أنَّه ما من شيء يقع في ملك الله تعالى إلا تحت قَدَرِه وإحاطة علمه، قدَّره قبل وقوعه، وقضاه حين وقوعه، فإذا علمت أن ما وقع إنما هو من أمر الله تعالى، إما أن تراه خيرًا، وإما أن تراه غير ذلك.

فإن رأيته خيرًا لك: فاحذر أن تغويك الشياطين كما أغوت قارون، حينما أسبغ الله عليه النعم، وأغدق عليه الكنوز، واجه نعمة الله بالكفر، وقابلها بالجحود، فقال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القَصَص الآية ٧٨].

فتأمَّل كيف جعل الله هلاكه مع أمواله: صورة تهز القلوب وترعد النفوس، ولك أن تطلق لفكرك العنان لترى في مخيلتك قصرًا مشيدًا عاليًا، مملوءاً بالكنوز، ترفرف عليه الرفاهية، ويلونه الثراء، وهو يُخسف به في الأرض، فيتجلجل في طبقاتها المحرقة، أمام ناظر المؤمنين الصابرين الشاكرين، لم تمنعه أمواله، ولم ينقذه سلطانه: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القَصَص الآية ٨١].

أيها الكريم، أيتها الكريمة: أرجعا الفضل إلى خالقكما الذي قدر لكما الخير، وكونا من الشاكرين، يكن خيرًا لكما في الدنيا والآخرة، فما أجمل شكر العبد المؤمن ربه على لطيف أقداره، يزيد في الإيمان، ويبارك في الأرزاق، ويملأ جوانح المؤمن سعادة لا تعدلها سعادة، ورضاً لا يقابله رضا، والله إنه ليرى إيمانه بخير القدر ينقله من خير إلى خير، ومن نعمة إلى نعمة، يحدوه في ذلك شكره لخالقه، ويحفه في ذلك يقينه برحمة خالقه الرحيم الودود.

في أجمل الأقدار فرحة: تراه شاكرًا لله، وفي أكثرها سعادة: تسمعه مثنيًا عليه، ولسانه لا يفتر عن تهليل خالقه قائلاً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يحيي ويموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

لَمّا دَخَلَ زكريا على مريم عليهما السلام المحراب: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عِمْرَان الآية ٣٧].

ولما اعتلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عرش الحكم، بعد أن تتابعت عليه المصائب شكر ربه قدرَ الخير: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يُوسُف الآية ١٠٠].

ولما أراد نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يُؤْتى بعرش ملكة سبأ بين يديه، ذلك العرش الذي وصفه الله بالعظمة، تسابق جنوده لإحضاره، أقرَّ نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام بنعمة الله عليه، وجليل أقداره عليه، وأدرك أنَّه في ابتلاء عظيم أمام قَدَر الله الذي جعله نبيًا من أنبيائه، وملِكًا من أعظم ملوك الدنيا، فلم يقابل ذلك إلا بالشكر لمن يستحق الشكر سبحانه، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النَّمل من الآية ٣٩ الى الآية ٤٠].

كل ما سبق فيما إذا رأى المؤمن القدر خيرًا له، فما باله إذا رآه غير ذلك؟

هنا، وفي هذه اللحظة الحاسمة، تتمحص النفوس عند نزول البلاء، ويمتحن إيمانها، ليميز الله الخبيث من الطيب، ولتستبين النفوس المؤمنة من النفوس الضعيفة، فيغد من حلَّ عليه قضاء الله وقدره كغريق في بحر مظلم، لا يدري إلى أين السبيل، ولا كيف النجاة، قد ألجمته المصيبة، فتراه يتلمس المخرج من ضائقته، فيا حسرته إذا ضمَّه الشيطان إلى حزبه الخاسر، فانقلب على عقبيه، وتخلى عن إيمانه، وراح يعترض على قدر الله تعالى، يلطم خديه، ويندب حظه، ويمزِّق ثيابه، وينقم على خالقه، يملأ قلبه بالجزع، ويركبه الهلع، ثم يصرخ في أعماق نفسه: ماذا فعلتُ يا ربي لكي تفعل بي هذا؟! ثم يدعو على نفسه بالويل والنكبات!!

فما والله يزيده جزعه إلا جزعًا، فيزيد على ظلمته ظلمات، وعلى حسرته حسرات، وكأني به يركض في صحراء مقفرة بلا دليل، ويركب سفينة من غير قائد.

هوّن عليك فكلُّ الأمر منقطعٌ ... وخلِّ عنك عنانَ الهمِّ يندفعُ
فكلُّ هَمٍ له من بعده فَرَجٌ ... وكلُّ أمرٍ إذا ما ضاقَ يتَّسعُ
إنَّ البلاء وإن طالَ الزمانُ بهِ ... فالموتُ يقطعُه أو سوفَ ينقطعُ

فسبحان الله، كيف يغفل الإنسان عن سر نجاته، ومصدر سعادته ورضاه؟! أليس الأولى به أن يُسعِدَ قلبه بالإيمان بقدر الله سبحانه؟ فيقول: قدَّر الله وما شاء فعل، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، فيزهر الإيمان بالقدر في قلبه وورود الصبر، وترضى نفسه بما قسم الله لها من بلاء، ليرجع من مصيبته بعد الجزع بالرضا، وبعد القنوط بالرجاء:

اصْبِرْ على الدَّهرِ إنْ أصْبَحتَ مُنْغَمِسًا ... بالضيقِ في لُجٍ تهوي إلى لُجِ
فما تجرَّع كأسَ الصبرِ معتصمٌ ... باللهِ إلا أَتاهُ اللهُ بالفَرَجِ

يقول الرســـول ﷺ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) رواه مسلم.

اللهم ثبتنا على الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، إنك سميع مجيب.

١٩

(يَسْتَعِيذُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى)

حينما تنتاب العبد حالات من الخوف، أو مواقف من الارتباك، أو شعور بتسلط غيره عليه، سواء من شياطين الإنس أو الجن وعلى رأسهم الشيطان الرجيم، أو يشعر بالقنوط أو اليأس، أو رغبة في فعل الشر أو نحو ذلك، فإنَّه أحوج ما يكون إلى أن يعتصم بالله تعالى ويلتجئ إليه ويتمسك بحبله، تلك هي الاستعاذة بالله من كل شرٍّ معلوم أو غير معلوم، صفة من صفات عباد الرحمن، وملجؤهم عند الله تعالى القوي العزيز.

ولذا أرشدنا الله تعالى إلى الطريق الصحيح والسريع في النجاة من نزغات الشياطين، فقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٢٠٠].

الله سبحانه هو الوحيد الذي يجب أن تصرف له هذه العبادة، وهل هناك أحد يستطيع أن يجيرك من كل ما يؤذيك سواه سبحانه!

كل شيء سوى الله ضعيف أمام قدرته عز وجل، فلا تتمسك إلا بحبل حقيقي يعصمك من المكروه الذي تخاف الوقوع فيه.

تأكد أنَّه لن يزيدك لجوؤك إلى غير الله تعالى إلا ضعفًا ووهنًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجن الآية ٦].

لقد استعاذ عباد الرحمن بالله تعالى من شر المخلوقات، وشر الغاسق إذا وقب، وشر النفاثات في العقد، ومن شر الحاسد إذا حسد، ومن شرور النفس ووسوسة الشيطان، ومن الجهل والفحش والظلم وتكبر الكافرين، وشر السمع والبصر، وشر اللسان والقلب والفرج، ومن الشر كلِّه عاجله وآجله، ومن عذاب القبر وعذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، ومن شر الرياح وما أُرْسِلَت به، ومن جار السوء في دار المقام، ومن ضيق المقام يوم القيامة ومن شرِّ عمل الإنسان، ومن الذنوب والمعاصي، ومن الهمِّ والحزن، والعجز والكسل والبخل، والجبن، وثِقَل الدَّين وغلبة الرجال، ومن زوال النعمة وتحول العافية.

هكذا استعاذ عباد الرحمن بالله تعالى؛ لأنَّهم علموا أنَّه قدير سبحانه أن يعيذهم من شرور كل مَنْ فيه شر، ومن كيد الشيطان وبأسه، بل حتى من الهوام والحيوانات وغيرها.

وهكذا علَّم الله نبيه ﷺ فقال له: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفَلَق من الآية ١ الى الآية ٥].

إنَّ آفاتٍ كثيرة ومصائب كبيرة كانت بسبب الغضب الذي يطفئه عباد الرحمن بالاستعاذة بالله من الشيطان، فعن سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ ﷺ قَالَ: (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا، قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) رواه البخاري.

قف معي هذه الوقفة الرائعة مع الحسن بن علي ﷺ، فإنَّ عصام بن المصطلق قال: ((دخلت المدينة، فرأيت الحسن بن علي عليهما السلام، فأعجبني سمته وحسن روائه،

فأثار مني الحسد ما كان يجنه صدري لأبيه من البغض، فقلت: أنت ابن أبي طالب! قال: نعم، فبالغت في شتمه وشتم أبيه، فنظر إليَّ نظرةَ عاطف رؤوف، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأَعۡرَاف الآية ١٩٩]، فقرأ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٢٠١]، ثم قال لي: خفِّض عليك، أستغفر الله لي ولك، إنك لو استعنتنا أعناك، ولو استرفدتنا أرفدناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، فتوسم فيَّ الندم على ما فرط مني، فقال: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يُوسُف الآية ٩٢]، أمن أهل الشام أنت؟ قلت: نعم، فقال: شنشنة أعرفها من أخزم، حياك الله وبيّاك، وعافاك وآواك، ابسط إلينا في حوائجك وما يعرض لك، تجدنا عند أفضل ظنك إن شاء الله، قال عصام: فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، ووددت أنَّها ساخت بي، ثم تسللت منه لواذًا، وما على وجه الأرض أحب إليَّ منه ومن أبيه)).

الله أكبر، ماذا أبقى لنا حفيدُ النَّبي ﷺ!

هل نستغرب عليه هذا اللجوء إلى الله تعالى، وهو ممن استقى من نبع النبوة الصافي!

أحبتي: هل يجهل أحد من المسلمين كلمات الاستعاذة؟ لا أعتقد ذلك!

غير أني أظن أن المشكلة هي غياب العقل حالة فورة الغضب عنها، فما أروع أن يهمس أحد من الراشدين إلى هذا الغضوب ليذكره بها بكل رفق وحكمة، لينطق بها موقنًا بأثرها، فتأتي ثمارها عليه سكينة وطمأنينة وراحة بال.

أما المريض، فعليه ألا يغفل عن نفسه في شأن الانتفاع من الاستعاذة، وليتأمل حديث عائشة ﵂ أنَّها قالت: (كَانَ إِذَا اشْتَكَى النَّبي ﷺ نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ،

وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ) رواه البخاري.

وإن كانت الجَنَّة هي خير ما يسأل، فإن النار هي أشنع ما يستعاذ بالله منه، فعن أُمّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّها قالت: (اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ) رواه مسلم.

عوِّد لسانك أن تستعيذ بالله تعالى من كل شر ومكروه في الدنيا أو في الآخرة، ولا تنس أن تعوِّذ حتى أولادك، فإنَّها سنة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ) رواه البخاري.

والأخذ بالأسباب لا يتعارض مع الاستعاذة بالله تعالى؛ فإن الاستعاذة تعني أن تلجأ إلى الله وتعتصم به، متخذًا في سبيل ذلك كل السبل التي شرعها الله تعالى أو أباحها، ومن ذلك الرُّقية التي شرعها لنا النَّبي ﷺ، فعن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: (كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ) رواه مسلم.

وأمرنا بالتداوي، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ ﷺ قَالَ: (قَالَتْ الْأَعْرَابُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَدَاوَى؟ قَالَ: نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ، تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً، أَوْ قَالَ: دَوَاءً، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْهَرَمُ) رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

والمتمعِّن في أذكار النَّبي ﷺ يجدها ثرية بتعوذ النَّبي ﷺ بالله تعالى من كل ما يكره المرء أو ما يؤذيه، ومن هنا تأتي الرعاية الإلهية لمن رطَّب لسانه بذكر الله تعالى، ليحفظه الله من كل مكروه، فلماذا يثقل بعضنا عن هذه الأذكار! ونحن في أمس الحاجة إليها!

اجعل لها وقتها كما تجعل لحوائجك الأخرى أوقاتها؛ فإنك إليها أحوج، وسترى أثرها: سعادة، وراحة، وطمأنينة بإذن الله تعالى.

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، فإنك سميع مجيب.

٢٠

(يَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ العَظِيم)

إنه عون الله تعالى الذي يتعبَّد عبد الرحمن بسؤاله وطلبه من الله القوي العزيز في كل ركعة فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَةِ الآية ٥]، فالله هو الذي يمده بعونه ليكون قادرًا على أداء عمله وطلب رزقه، وكشف همومه وغمومه، وعلى التفكير في مصالحه ومصالح أحبابه.

أرعِ سمعك لكلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: ((العبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلِّها في الدنيا، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كلِّه أعانه الله، ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وَكَلَه الله إلى من استعان به فصار مخذولاً، وهو كذلك في أمور الدنيا؛ لأنَّه عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه جميعًا إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول، وهذا هو تحقيق معنى قول العبد: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، والمعنى أن العبد لا يتحول حاله من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله عز وجل)).

وإن آفةً تصيب القلب في حالة الاستعانة، حينما توافي قلبًا غير موقن بهذه المعاني التي أشار إليها ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك حينما لا يشعر المسلم بحقيقة هذه الاستعانة ويظن أنَّها قد لا تفي بغرضه، أو يشعر بأن غرضه أكبر من أن يقضى بمثل هذه العبادة العظيمة: عبادة الاستعانة، وهذا مزلق خطير، وضعف في الإيمان.

فما أروع ما صنعه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما قاله حينما استعان بالله تعالى في أشد الظروف حلكة وقسوة، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُوسف الآية ١٨].

نعم، لقد استعان بالله تعالى، ونِعْمَ بمَن استعان به، وقد كفاه أمره، وأقرَّ عينه بولده يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ملكًا معزَّزًا مكرَّمًا بعد طول فراق وشدة حزن.

فقد تسألني: ما معنى الاستعانة التي يجب أن أعتقدها وتنفعني في الدنيا والآخرة؟

والجواب كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ((الاستعانة: حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق، والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتمادًا عليه واستعانة به، وتفويضًا إليه وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه واستعان به عليه، وأنَّه مليّء به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاء الناس ذلك أم أبوه)).

ولقد كان النَّبي ﷺ يقول في أول خُطبِه: (الْحَمْدُ للهِ نَحْمَدُه ونستعينُه، ونستغفرُه) رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني.

وكان يُعَلِّم ﷺ أصحابه الاستعانة فيقول: (وإذا استعَنت فاستَعِن باللَّهِ)، ويعلّمهم اليقينَ فيها فيقول: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

والاستعانة وإن كانت من أعمال القلوب، إلا أن لها أسبابًا تساعدك بعد الله تعالى على الحصول على آثارها من القوة والنجاح والفلاح وتخطي الأخطار والمصاعب، ومن

ذلك: الصبر والصلاة والخشوع، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة الآية ٤٥].

ومن ذلك عونك لأخيك؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) رواه مسلم.

وكذا المجاهد في سبيل الله تعالى، وصاحب الدَّيْن يريد أداء ما عليه، ومن تزوَّج يريد أن يعفَّ نفسه، فإن النَّبي ﷺ قال: (ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ومن العون كذلك اتخاذ الأسباب الدنيوية التي بينها النَّبي ﷺ لأمته، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (اسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) رواه البخاري.

وإن من أخطر ما يقع العبد فيه هو الاغترار بالنفس وبقوتها؛ فإن النفس مهما بلغت ضعيفة، ويبدو ذلك فيمن يطلب الولاية من دون حاجة إليه، فعن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا) رواه البخاري.

وحينما يجثم العجز على المرء، فإن خير ما ينتزعه من هذا الخندق المميت هو الاستعانة بالكريم سبحانه، فتيقَّظ أن يحيطك العجز بسياجه الشائك، وتذكَّر وصية نبيك ﷺ حينما قال: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) رواه مسلم.

وكم هو جميل أن تمعن النظر في سيرة الحبيب ﷺ، وتتأمل كيف أدّى أمانة الرسالة في خضم الأحداث الجسيمة التي واجهها عليه الصلاة والسلام، حتى أسعده الله تعالى بأمته منتصرة فاتحة قوية، ولم يكن ذلك إلا بعد عون الله تعالى.

وما أروع هذا الوثاق الذي تجعله بينك وبين ربك، لا تركن فيه إلى أحد من خلقه، بل تتجه إليه وتستعين به، قال بعض حكماء السلف: ((يا رب، عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك)).

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فإنك سميع مجيب.

□

٢١

(يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى)

سبحان الذي فتح لنا باب الرجاء، يدلف منه عباد الرحمن الذين وفقهم الله تعالى للطاعات فيرجون قبولها، وهو الباب الذي يدلف منه المقصرون فيرجون غفران ذنوبهم، الرجاء عموده إحسان الظن بالحليم سبحانه، وطريقه معرفته بأسمائه وصفاته، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((قوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله بأسمائه وصفاته، وغلبت رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، بل لولا روح الله الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرَت سفن الأعمال في بحر الإرادات، ثم أنشد قائلاً:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت ... نفس المحب تحسّرًا وتمزقا
لولا الرجا يحدو المَطيّ لما سرت ... بحمولها لديارهم ترجو اللقا))

ويقول ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((المقصود من الرجاء أن مَنْ وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا غرور)).

ما أروع قول الباري سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البَقَرَة الآية ٢١٨].

فإنَّهم آمنوا وهاجروا وزادوا على ذلك بالجهاد في سبيل الله الذي يضحي الإنسان فيه بنفسه وماله وأهله وحياته من أجل الحفاظ على دينه وأرضه وعرضه ومقدسات

المسلمين، ومع ذلك فهو في رجاء دائم أن يرحَمَهُ الله تعالى ويتقبل منه، لم يأخذه الغرور، ولم يلفه الكبرياء، بل لا يزيده ذلك إلا تذللاً لله تعالى، وخضوعًا بين يديه سبحانه.

وتأمّل أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، والمتعلقة قلوبهم بالصلاة والمساجد، وأهل السخاء والكرم الذين تمتد أيديهم للفقراء والمساكين إحسانًا وبذلا، تأمل كيف ربطوا أنفسهم برجاء الله تعالى أن يتقبل منهم، وليزيدهم من فضله، فقال سبحانه في وصفهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فَاطِر الآية ٢٩].

حتى الصالحين الذين قاموا بالفرائض وجاهدوا أنفسهم بالنوافل، ما انقطعت أرواحهم عن رجاء الباري، ولم يغرهم طول القنوت والتبتل، بل هم في سياحة مع الرجاء لا تنقطع، أما تذكر معي قول الله تعالى ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزُّمَر الآية ٩].

فإذا عملت العمل الصالح فاملأ قلبك بالرجاء أن يدخلك الله به الجنَّة برحمة منه وإحسان، لا تستحقر عملاً صالحًا مهما كان، هذا هو النَّبي ﷺ يلتفت إلى بلال رضي الله عنه عند صلاة الفجر. وما أحلى صلاة الفجر فما بالك إذا كان معها بشرى كريمة من نبي كريم يزفها إلى مؤذن الإسلام. ليقول له: (يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ) رواه البخاري.

إنها ركعات بعد وضوء كانت له الطريق إلى الجنَّة بعد رجاء الله تعالى بذلك.

حتى في أمور الدنيا إذا رجي بها وجه الله تعالى تكون فوزًا ونجاة، فعن حُذَيْفَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا قَالُوا: تَذَكَّرْ، قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْهُ) رواه مسلم.

إنها الاستجابة الكريمة لنداء الرب سبحانه حينما دعانا إلى رجائه فقال: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) رواه الترمذي وحسَّنه.

وفي ساعة الاحتضار الرهيبة، تلك الساعة التي يودِّع فيها المرء الحياة بكل زهرتها وفتنتها، ويستقبل الآخرة؛ ليعود شريط الذكريات في باله، إن خيرًا وإن شرًا، يذكر بعضًا وينسى بعضًا، يوفق الله تعالى عباده الأخيار إلى الرجاء والخوف منه؛ ليكون كالطائر الذي يحلق بجناحيه إلى الجنان، قف معي موقف الرسول الأعظم ﷺ فإنَّه (دخلَ على شابٍّ وَهوَ في الموتِ فقالَ: كيفَ تجدُكَ؟ قالَ: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ، إنِّي أرجو اللَّهَ وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: لا يجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ اللَّهُ ما يرجو وآمنَهُ ممَّا يخافُ) رواه الترمذي وحسنه الألباني.

وحتى عندما توضع الجنازة بين يدي الصلاة عليها يترك الرجاءُ في قلب المؤمن بصمة الأمل الكبير في المغفرة والإنابة، يقول البشير النذير ﷺ: (مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ) رواه مسلم.

والعبد المؤمن مهما بلغت ذنوبه فإنَّه إذا أتى مخبتًا خاشعًا تائبًا نادمًا باكيًا على ما قصر، فإن الله يغفر له ما أذنب.

قال أبو ذر ﷺ: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدِ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ الإمام البخاري بعد روايته للحديث: هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ قَبْلَهُ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غُفِرَ لَهُ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) رواه البخاري.

فشمِّر عن ساعد الجد، ودرِّب نفسك من الآن على السباق في مضمار الصالحات، واعزم ألا يسبقك أحد، فإن لك ربًا كريمًا توابًا حليمًا يجزي على المعروف بالأضعاف.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:(يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) رواه البخاري.

اللهم ألهمنا رجاءك، وأكرمنا بالقبول، ويسِّر لنا العمل الصالح، إنك سميع مجيب.

٢٢

(يَطْمَعُونَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الخَيْر)

عباد الرحمن يطمعون، لكن طمعهم ليس في دنيا زائلة، أو لذة فانية، وإنما في طاعة باقية، وأخرى آتية، فترى أحدهم كلما يسر الله له طاعة تطلَّع إلى غيرها، وكأنَّه يرى نفسه يصعد في درجات الجنَّة، فلا تنتهي همته من ذلك حتى يجد نفسه بين يدي الله تعالى في مستقر رحمته.

ذلك هو الطمع المحمود، الذي يتصف به الأخيار من عباد الله، فيطمعون في المغفرة من الذنوب، والذي قال فيه نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء الآية ٨٢].

ولذا امتدح الله عباده الطيبين بهذا الطمع فقال عز وجل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجۡدَة الآية ١٦].

يا له من طمعٍ كريمٍ يحث على مرافقة الصالحين لنيل ما ينالون من الخير والكرم من رب العالمين، تشوَّفت له الأنفس الطموحة حتى تقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المَائـِدَة من الآية ٨٣ إلى الآية ٨٥].

وهو بغية مَنْ آمن من قوم فرعون الذين قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشُّعَرَاء الآية ٥١].

فبهذا الطمع النبيل تتسامى الروح عن دنايا الأمور، وتعلو عن أسافلها، ولا تلتفت إلى المشغلات التافهة عن عظام الأحوال ومهماتها، بل تشعر بأن زمن الحياة قصير جدًا لا يكفي لهذا وذاك، فلا تلحظ عباد الرحمن إلا يسابقون الزمن، ويرقبون عقارب ساعاتهم خشية الفوات من غير طائل، حتى في ساعات الانتظار يعمرونها بالاستغفار، والتفكر في آلاء الغفَّار.

أما طمع أهل الدنيا الذين لا يبتغون إلا هي، فهو الذي يحثهم على التسابق في مضمار حطامها الزائل من مال عارض أو منصب زائل، وهذا شأن من قال الله فيهم:
﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشُّورَى الآية ٢٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التَّوْبَة الآية ٥٨]: ((وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو ثروة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي وإن لم يحصل سَخِط، فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له إذا لم يحصل، والعبودية في الحقيقة هي رق القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبد لهذا، ولهذا يقال:

العبدُ حُرٌ ما قَنِع   والحُرُ عَبْدٌ ما طَمِع

وقال قائل:

أطعتُ مطامعي فاستعْبَدتنِي ولو أنيّ قَنعْتُ لكنتُ حُرًّا)).

ويكشف النَّبي ﷺ عن حقيقة نفس الإنسان في طمعه في المال فيقول: (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ) رواه البخاري.

والطمع في الدنيا يكبر مع الإنسان فلا يبرح يغرُّه، يقول النَّبي ﷺ: (لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ) رواه البخاري.

لقد أدرك عباد الرحمن أن الطمع في الدنيا مفسد للعقل ومضيعة للوقت وقاتل للهمم، كان عمر ﷺ يقول في خطبته على المنبر: ((إنَّ الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه)).

وقال عليٌّ ﷺ: ((أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع)).

بل عدَّه السلف من مذهبات العلم من صدور العلماء، تأمَّل هذا الحوار النافع، حيث اجتمع كعب وعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال له كعب: ((مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه؟ قال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس)).

ويضع النَّبي ﷺ العلاج الناجع لهذه النفس في شأن المال فيقول: (إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ) رواه البخاري.

فماذا سيجني صاحب الطمع المذموم سوى قلة الإيمان ونقص الثقة في الله تعالى، والشعور بالفقر الدائم، واللهث والتعب المستمر في هذه الدنيا، واحتقار الآخرين له!!

قد شاب رأسي ورأسُ الدهر لم يَشِبِ إنَّ الحريصَ على الدنيا لفي تَعَبِ

لقد تعوَّذ النَّبي ﷺ من تلك النفس الطماعة من زهرة الدنيا فهي لا تشبع منها فقال عليه الصلاة والسلام: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم.

وتأمَّل الاستجابة السريعة من صحابة رسول الله ﷺ في علاج هذه النفس لصدها عن الطمع في الدنيا، فهذا حَكِيمُ ابْنُ حِزَامٍ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تُوُفِّيَ) رواه البخاري.

فأيُّ حكمة أعظم من حكمة عباد الرحمن؛ عرفوا الحق فطمعوا فيه، وتذوقوا زاد التقوى فاستزادوا منه، وأيقنوا بأن بزوال الدنيا فتخففوا منها.

اللهم احشرنا في زمرة حبيبك محمد ﷺ وعباد الرحمن الطيبين الطامعين في رضاك، إنك سميع مجيب.

٢٣

(يَعْتَرِفُونَ بِالفَضْلِ لِصَاحِبِ الفَضْل)

كلنا ذلك الذي يعيش في ظلال فضل الله تعالى، ويتقلب في نعمه، هذه النعم التي لا يريد منا ربنا سوى أن نحمده علينا، لا لأنَّه محتاج إلى ذلك سبحانه، فهو الغني الحميد، بل لأنَّه مستحق لهذا الحمد، ولأنَّه أرشدنا أنَّه بالشكر يزيدنا من نعمه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبْرَاهِيم الآية ٧]، وفي ذلك تربية لنفوسنا على الاعتراف بالفضل لصاحب الفضل.

فالاعتراف بالفضل هو: أن يقر المتفضَّل عليه من الناس بفضل من يصدر عنه الفضل ولا يجحده أو يتناساه، ولا شك أن المولى سبحانه هو صاحب الفضل في الأولى والآخرة؛ إذ هو المتفضل على أهل الدنيا مسلمهم وكافرهم بنعمه التي لا تحصى، وفي الآخرة يدخل عباده الصالحين الجنَّة ويورثهم دار المقامة من فضله ويرضى عنهم.

وفضل الله تعالى بهدايتنا إليه بالتوحيد والدين الحق فضل عظيم، اعترف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له سبحانه من قبلنا، فقال تعالى ـ حكاية عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨﴾ [يُوسُف الآية ٣٨].

والحقيقة أن نعم الله تعالى ابتلاء يبتلينا بها، هل نحن فيها من الشاكرين أو ضد ذلك؟

الشُّكرُ للهِ كنزٌ لا نفادَ له   مَنْ يلزمِ الشُّكرَ لم يكسبْ بهِ ندما

تأمَّل هذا من كلام الله تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النَّمل الآية ٤٠].

والاعتراف بالفضل لصاحب الفضل خلق كريم؛ فإن المرء جُبِل على الارتياح النفسي حينما ينسب إليه فضله وجميله، وبالاعتراف بالفضل تُسترضَى النفوس الغضبى، ويُستدعَى منهم الاستمرار على الخير الذي فعلوه، وإنه لمدعاة إلى شكر الله تعالى فقد قال النَّبي ﷺ: (من لا يُشكر الناسَ لا يشكرُ الله) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

ويتأكد الاعتراف بالفضل بين من تكون بينه وبينه عشرة وحياة؛ إذ كيف ينسى الإنسان من جالس من زوج أو أهل أو أصحاب مهما وقع بينهم من الخصام والفرقة، ولقد نهى الله تعالى عن نسيان الفضل بينهم، فقال سبحانه من ربٍ رحيم: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٧﴾ [البَقَرَة الآية ٢٣٧].

فلتعجب مثلي من أناس جمعتهم المحبة يومًا من الأيام، وألَّفت بينهم الألفةُ بعد الله تعالى، ثم لمَّا حصل بينهم ما يحصل بين البشر من اختلاف وجهات النظر، أو الطلاق إذا كانا زوجين، أخذ كل منهم يذكر الآخر بالسوء، أو يتصيَّد عليه الأخطاء، أو يكثر عليه اللوم والعتاب، ولربما جعله حديث المجالس، ووصفه بالناكر للجميل، وهكذا يجعل نفسه ألعوبة بيد الشيطان، الذي أنساه فضل صاحبه عليه.

تعال معي لنطوف مع عباد الرحمن في اعترافهم بفضل أصحابهم عليهم، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: ((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا مَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ، وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ) رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وليس هذا بمستغرب على صحابة رسول الله ﷺ، كيف وهم يسمعون هذا التوجيه النبوي الكريم الذي يقول فيه النّبي ﷺ: (مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ولقد ضرب النّبي ﷺ في الاعتراف في الفضل بين الزوجين في ذكره لأم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﷺ، حيث قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (مَا غِرْتُ عَلَى نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا عَلَى خَدِيجَةَ، وَإِنِّي لَمْ أُدْرِكْهَا، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ فَيَقُولُ: أَرْسِلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ، قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا) رواه مسلم.

أخي الكريم: الاعتراف بالفضل لا يكلفك الكثير، فربما كانت المسألة لا تحتاج منك أكثر من بضع كلمات جميلة، تقدمها بين يدي صاحب الجميل عليك، فالنّبي ﷺ يقول: (مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

واحذر كل الحذر في طريق الاعتراف بالفضل أن يأتيك الشيطان ليطفئ في عينيك نور الحسنات من صاحبك؛ ليشعل نار السيئات والأخطاء، فتراها تعلو في خاطرك، ثم ينفخ فيها حتى تكبر في نفسك، فلا ترى فيه إلا كل قبيح وسيء!

فمَنْ منَّا لا يخطئ، ومَنْ منَّا لا يقصِّر في حق الآخرين، فإذا لم يتغافل بعضنا عن بعض، ويشكر بعضنا بعضًا، تكدَّرت الحياة، وتنغَّصت المعيشة، وتولَّد الحقد، وزادت الكراهية.

وما أجمل أن يصحب الاعتراف بالفضل شيء من الهدايا؛ فإن الهدية عنوان الصفاء، وعربون محبة ووفاء.

فكُنْ شاكرًا للمُنْعِمينَ لفَضْلِهم　　　وأفضِلْ عليهم إنْ قدِرْتَ وأنعمِ

وربما ينسى صاحب المعروف إحسانه، فيذكِّره من يشكره عليه به، فيكون له دافعًا على العمل به دومًا، فاحتسب شكرك لمن أحسن إليك دعوة إلى الخير، وترغيبًا في المعروف.

اللهم اجعلنا من عبادك الشكورين لك، المعترفين بفضلك، فإنَّك سميع مجيب.

٢٤

(يُطِيعُونَ وَلِيَّ أَمْرِهِم فِي المَعْرُوف)

من الاحتياجات الفطرية للبشرية: (الأمن والإيمان)، بهما تسعد النفوس، وتطمئن القلوب، ويتاح للمرء في ظلهما من العبادة والعطاء والنماء ما لا يتاح عند فقدهما، ولذلك أسباب عظيمة، وعوامل جليلة، من أعظمها: توحيد الله واستغفاره، ووجود النَّبي ﷺ بين أصحابه، فقد كان أمنة لأمته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأَنفال الآية ٣٣].

ووجود الصحابة الكرام ﷺ أمنةٌ بعد الحبيب ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ) رواه مسلم.

أما وقد توفي النَّبي ﷺ وأصحابه ﷺ، فقد بقي لنا الاستغفار، وبقيت لنا ـ بعد الله تعالى ـ ما دلنا الله تعالى إليه من طاعته وطاعة رسوله ﷺ وطاعة ولي أمر المسلمين في المعروف، فبذلك يأمن الناس، وتتوحد صفوفهم، وتجتمع كلمتهم، ويتولى الشيطان عن طريقهم، كيف وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النِّسَاء الآية ٥٩].

والله تعالى هو الذي خلق الخلق، وهو أعرف بطبائعهم، وأعلمُ بحاجاتهم، وما يصلح لهم وما يفسد عليهم حياتهم، فجعل الخيرَ كل الخيرِ في طاعته، والسعادةَ كل السعادة في منهج النَّبي ﷺ، فمن سار على هديهما ربح ونجح، ومن تنكب عنهما خسر وضاع.

قال سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه من الآية ١٢٣ الى الآية ١٢٤].

وإن من حكمة الله تعالى ورحمته، أن جعل لكل أمة من الناس سلطانًا يسيّر أمورهم، ويراعي مصالحهم، ويقودهم نحو ما ينفعهم، وأمر بالاجتماع عليه وعقد بيعته بالمعروف، ونهى عن التفرق أو شق العصا عن أمره ونهيه؛ عصمةً للأمة عن الفرقة الشيطانية المذمومة، وحفاظًا لها عن التحزب المقيت، الذي يوري نار النكبات والحروب والدماء.

والكلام في ذلك جاءت به النصوص الصحاح، وعليه اتفق جماهير السلف والخلف من علماء الأمة الربانيين، وعلى هذا سار عباد الرحمن الأخيار.

ومن هذه النصوص: حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أنَّه قال: (بَايَعَنا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ) رواه البخاري ومسلم.

وحرَّص الحريص على أمته ﷺ ألا يخرج المرء عن طريق الجماعة الآمن، ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النَّبي ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: (مَن خرج من الطاعةِ، وفارق الجماعةَ، فمات، مات مِيتةً جاهليةً، ومن قاتل تحت رايةٍ عِمِيَّةٍ، يغضبُ لعَصَبيةٍ، أو يَدْعُو إلى عَصَبِيَّةٍ، أو ينصرُ عَصَبِيَّةً، فقُتِلَ، فقَتْلُه جاهليةٌ، ومَن خرج على أمتي يَضْرِبُ بَرَّها وفاجرَها، ولا يَتَحاشَا من مؤمنِها، ولا يَفِي لِذِي عُهْدَةٍ عَهْدَه، فليس مِنِّي، ولستُ منه) أخرجه مسلم.

والخارجون عن بيعة الإمام لا حجة لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقد جاء في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (مَن خَلَعَ يَدًا مِن طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يومَ القِيَامَةِ لا حُجَّةَ له، وَمَن مَاتَ وَليسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) رواه مسلم.

فيا ويح أولئك الجهلة الذين ينزعون من رقابهم بيعة إمامهم المسلم، الذي أقام التوحيد، وعظَّم الشعائر، وأقام الحدود، وأظهر العبادات وأركانَ الإسلام، وأمَّن الناس في بيوتهم وأعمالهم وأرزاقهم، وعبَّد لهم الطرق، وعلمهم أمور دينهم ودنياهم، وبذل الوسع في صحتهم وعافيتهم، وجميعِ ضروراتهم وحاجياتهم وكمالياتهم، وتعلق أولئك الخارجون في ذلك كله بأمور واهية، وبمرجعيات مغرضة، بعيدةٍ كل البعد عن أدلة الشرع وأصول الإيمان.

أما سمع هؤلاء حديث رسول الله ﷺ: (إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أثَرَةً وأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا، قالوا: فَما تَأْمُرُنا يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: أدُّوا إليهِم حَقَّهُمْ، وسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ) رواه البخاري.

ويربط النَّبي ﷺ طاعة الله وطاعتَه بطاعة الأمير؛ تعظيمًا لشأن هذه الطاعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: (مَن أطاعَنِي فقَدْ أطاعَ اللَّهَ، ومَن يَعْصِنِي فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومَن يُطِعِ الأمِيرَ فقَدْ أطاعَنِي، ومَن يَعْصِ الأمِيرَ فقَدْ عَصانِي) رواه مسلم.

أما النصح للإمام فهذا أمر واجب على كبار أهل العلم الربانيين وذلك بالمنهج النبوي الكريم، الذي جاء في حديث عياض بن غنيم ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (مَن أرادَ أنْ ينصَحَ لذي سُلْطانٍ بأَمْرٍ فلا يُبْدِ له علانِيةً، ولكنْ ليأخُذْ بيَدِه؛ فيخلُوَ به، فإنْ قبِلَ منه فذاكَ، وإلَّا كانَ قد أدَّى الذي عليه) رواه أحمد وصحَّحه الألباني.

وإن تكريم وليِّ الأمرِ سبيلٌ لتكريم الله للعبد، فعن أبي بكرة ﵁ قال: قال رسول الله: (السلطانُ ظِلُّ الله في الأرض، فمَن أكرَمَه أكرمَه اللهُ، ومَن أهانَه أهانه اللهُ) رواه ابن أبي عاصم في السُّنَّة، وحسنه الألباني.

إذن فلنعلم أنَّ: الاستغفارَ، والسمع والطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ ولإمام المسلمين في المعروف، صماماتُ الأمن والإيمان، فلتجتمع القلوب عليها، فهي سبيل الجماعة الآمن، ومن حاد عنها ضل وهلك، وإنَّ يد الله مع الجماعة.

ولهذا أجمع المسلمون جميعًا على وجوب طاعة ولي أمر المسلمين، وتحريمِ الخروج عليه، لما في الخروج عليه بكل أشكال الخروج من مفاسد عظيمة، ومصائب جسيمة، تهلك دونها الأرواح، وتنقص بسببها الأرزاق، وتنتهك من أجلها الحرمات.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين)).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((طاعة الله ورسولِهِ واجبةٌ على كل أحد، وطاعة ولاة الأمور واجبةٌ لأمر الله بطاعتهم، فمن أطاع الله ورسوله بطاعة ولاة الأمر لله، فأجره على الله، ومن كان لا يطيعهم إلا لما يأخذه من الولاية والمال، فإن أعطوه أطاعهم وإن منعوه عصاهم، فماله في الآخرة من خلاق)).

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ليس من منهج السلف التشهيرُ بعيوب الولاة وذكرُ ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفوضى وعدمِ السمع والطاعة في المعروف،

ويفضي إلى الخوض الذي يضر ولا ينفع، ولكن الطريقة المتبعةَ عند السلف النصيحةُ فيما بينهم وبين السلطان، والكتابةُ إليه، أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يوجه إلى الخير)).

وبهذا المعنى تجتمع قلوب عباد الرحمن على إمامها؛ ليمنحها اللهُ القوةَ والمكانة والهيبة، وليطمئن الناسُ على صلاتهم، ولييسر الله لهم عمرتهم وحجهم، وليأمنوا على أموالهم وممتلكاتهم وأعراضهم، وليبوء العدو بالخذلان، وتخرس ألسنة الفئةِ الباغية، وإن هذا دينٌ يدينون الله به، وعقيدةٌ يتعبدون الله بها، ويرجون بها رضاه.

هكذا يتمثلون الجسد الواحد وبالصف الواحد، الذي لا تجد شياطينُ الإنس والجن إليه منفذًا، فيبقى للدين عزمه وقوته ومكانته.

فاللهم لك الحمد على فضلك وكرمك، ولك الحمد كله، ولك الشكر كله، اللهم متعنا بالطاعة ما أحييتنا، ودلنا إلى ما يرضيك عنا، إنك سميع مجيب.

٢٥

(يَبُرُّونَ الوَالِدَيْن)

هكذا جُبِلَت نفوس عباد الرحمن على حب من أحسن إليها، وتعلقت قلوبهم بمن كان له فضل عليها، وليس أعظم إحساناً من الوالدين؛ لله نعمة الخلق والإيجاد، وللوالدين بإذنه نعمة التربية والإيلاد، قرن الله حقهما بحقه، وشكرهما بشكره، وأوصى بهما إحساناً بعد الأمر بعبادته فقال عز وجل: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦].

تذكر ــ يا عبدالرحمن ــ ضعف طفولتك وصغرك؛ حملتك أمك في أحشائها تسعة أشهر، وهناً على وهن، كرهاً بعد كره، يزداد نموك، فترهقها ثقلاً وضعفا، تبصر الموت عند وضعك، لكنها ترى الحياة حينما تراك، فسرعان ما نسيت كل آلامها، وعلقت فيك جميع آمالها، ثم شغلت بخدمتك ليلها ونهارها، تغذيك بصحتها، بيتك حجرها، ومركبك يداها، تحيطك وترعاك، تجوع لتشبع أنت، وتسهر لتنام أنت، فهي بك رحيمة، وعليك شفيقة، إذا غابت عنك دعوتها، وإذا أعرضت عنك ناجيتها، وإذا أصابك مكروه لجأت إليها، تحسب كل الخير عندها، وتظن أن الشر لا يصل إليك إذا ضمتك إلى صدرها أو لحظتك بعينها.

أما أبوك فإنَّه يكد ويسعى، ويدفع عنك صنوف الأذى، ينتقل في الأسفار، يجوب الفيافي والقفار، ويتحمل الأخطار بحثاً عن لقمة العيش، ينفق عليك ويصلحك ويربيك، إذا دخلت عليه ابتهج، وإذا أقبلت عليه أنس بك وفرح، وإذا خرج تعلقت به، وإذا حضر احتضنت حجره وصدره، يرمقك بعين العناية، ويرى فيك الأمل بعد

بلوغ الغاية، يا الله، كم للوالدين من فضل عظيم تتنافس الكلمات في وصفه، ثم تعجز عن التعبير عنه.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ). رواه البخاري.

وأَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ، قَالَ: فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا)، رواه مسلم.

أيها الكرام: ماذا عسانا أن نقول عن بر عباد الرحمن لوالديهم، محبةً وتقديرا، طاعةً وتوقيرا، تأدباً وصدقاً في الحديث معهما، إنفاقاً عليهما قدر الاستطاعة، دفعاً للأذى عنهما، خفضاً لجناح الذل رحمة وعطفاً وحسن أدب، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٢٣].

رأى ابن عمر ﷺ رجلاً قد حمل أمه على رقبته يطوف بها حول الكعبة، فقال: ((يا ابن عمر، أتراني جزيتها؟ قال: ولا بطلقة واحدة من طلقاتها ـ عند ولادتك ـ ولكن قد أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيرا)).

لنعلم أن جملة من الناس اليوم غرتهم دنياهم وأموالهم وصحتهم، فنسوا أصحاب الجميل عليهم، وتنكروا أشد التنكر لمن له حق البر عليهم، فأخذوا يتلونون في عقوقهم كالثعابين الماكرة، والثعالب الخداعة، متغافلين عن الخالق الذي بيده مقاليد كل شيء.

فأصبح من بيننا من لا يرضى من عقوق والديه إلا أن يُبكي والديه قهراً منه وفجورا، يا حسرتاه! كانا يتطلعان للإحسان، ويؤملان الصلة بالمعروف، فإذا بهذا المخذول قد تناسى ضعفه وطفولته، وأعجب بشبابه وفتوته، وغره تعليمه وثقافته، وترفَّع بجاهه ومرتبته، يؤذيهما بالتأفف والتبرم، ويجاهرهما بالسوء وفحش القول، يقهرهما وينهرهما، بل قد يزيد الأمر على ذلك، فيصل إلى اللطم والضرب، يريدان حياته، ويتمنى موتهما، وكأني بهما وقد تمنيا أن لو كانا عقيمين، تئن لهما الفضيلة وتبكي من أجلهما المروءة.

ولعل تسأل معي من يعق والديه فتقول: هل حينما كبرا فاحتاجا إليك جعلتهما أهون الأشياء عليك؟ قدمت غيرهما بالإحسان، وقابلت جميلهما بالنسيان، شق عليك أمرهما، وطال عليك عمرهما، أما علمت أن من برَّ بوالديه برّ به بنوه، ومن عقَّهما عقوه، ولسوف تكون محتاجاً إلى برِّ أولادك، وربما فعلوا بك كما فعلت مع والديك، وكما تدين تدان، يقول الرسول ﷺ (كلُّ ذنوبٍ يؤخِرُ اللهُ منها ما شاءَ إلى يومِ القيامةِ إلَّا البَغيَ وعقوقَ الوالدَينِ، أو قطيعةَ الرَّحِمِ، يُعجِلُ لصاحبِها في الدُّنيا قبلَ الموتِ) رواه البخاري في الأدب المفرد وصحَّحه الألباني.

نعم إن جملة من الشباب لا يعرفون ما مدى الرحمة والمحبة التي وضعها الله عز وجل في قلب الوالدين نحو أبنائهما قلوا أو كثروا، إنها محبةٌ لا توصف، وعطفٌ لا يدرك، ووالله ما ابيضَّت عينا يعقوب عليه السلام إلا حزنًا على ابنه يوسف عليه السلام، فما فتأ يذكره ويقول بعد مرور السنوات الطوال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف الآية ٨٧]، ولما اقتربت رؤياه لابنه بعد أن افتقده صغيرًا وغدا ملكًا معظمًا قال: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف الآية ٩٤].

إنه قلب الوالدين الذي حدا بنوح عليه السلام ينادي ربه في تذلل وخضوع لينقذ ابنه من طوفان العذاب وقد كان مشركًا فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود الآية ٤٥]، إنها الرحمة التي أدمعت أشرف عينين بكت على وجه الأرض، عيني رسول الله ﷺ وذلك حينما دخل النَّبي ﷺ على ابنه إبراهيم وهو يحتضر، فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، قال الراوي: (ثم دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِي اللَّه عَنْه: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ) رواه البخاري.

فيا مَنْ أبكى أبويه وأحزنهما وأسهر ليلهما وحمَّلهما أعباء الهموم، وجرَّعهما غُصص الفراق ووحشة البعاد، هل أحسنت إليهما وتجملت في معاملتهما، صغيراً يبكيان عليك إشفاقاً وحذرا، وكبيراً يبكيان منك خوفاً وفراقا! فهما أليفا حزن، وحليفا همّ وغم!! فلما بلغت موضع الأمل ومحل الرجاء، قابلتهما بالجفوة والإعراض والتأفف، تمر عليك الأيام والليالي لا تسأل عنهما، ولا يأخذان من فكرك وقلبك مثقال ذرة من حب أو حنان!

لطالما بكيا وحزنا إن تأخرت حين الرواح وحين المساء، فكيف إذا أغلقت بابك دونهما، وأبصرا خلو مكانك، ففقدا أنسك، ولم يجدا ظلك، هنالك تسكب العبرات، وتتضاعف الحسرات.

ولنعلم أن عباد الرحمن لا يحد موتُ والديهم برَّهم فيهم، بل إنهم يبرون فيهم حتى بعد وفاتهم، فقد قال ﷺ: (إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ) رواه مسلم.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: (هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ بَعْدَ مَوْتِهِمَا أَبَرُّهُمَا بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، خِصَالٌ أَرْبَعَةٌ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَ، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا رَحِمَ لَكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ بِرِّهِمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا) أخرجه أحمد وابن ماجه.

وأعجب الأشياء ـ أيها الأحبة ـ أن نتأثر بالجفاة من الغربيين وأتباعهم فنجعل للأم يومًا، قالوا: تقديرًا لها!! ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهل حق الأم يوم واحد فقط!! ووردة نقدمها إليها في هذا اليوم!! أو طبق من الأكل نهديه إليها!! والله لو فتقنا عن صدورنا، وانتزعنا قلوبنا من أجلها ما وفيناها حقها، فلا والله نقبل لأنفسنا أو نربي أبناءنا على برها في يوم واحد في السَّنَة لننساها طيلة السنة، ولسنا بحاجة إلى شرع غير شرع الله يأمرنا ببرِّ والدينا أعظم من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

سُئِل عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجل أقسمتْ عليه أمه ألا يصلي إلا الفريضة، ولا يصوم إلا شهر رمضان، فقال: يطيعها.

فالبِرُّ بجميع وجوهه وفي كل أوقاته زيادة في العمر، وكثرة في الرزق، وصلاح في الأبناء، والعقوق خيبة وخسران.

أيها البارُّ بوالديه: عليك بوصية الله تعالى من فوق سبع سموات، ووصية نبينا محمد ﷺ بوالديك، ألن جانبك لهما، وارع حقهما، وقبِّل رأسيهما، واسكب الدمعة في الدعاء لهما؛ لعل الله يرحمهما كما ربياك صغيرا.

اللهم إنا نبتهل إليك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تغفر لوالدينا، وتحسن عاقبتهما في الأمور كلها، اللهم امنن علينا وعليهم بعفوك ورضاك، وبارك اللهم في أعمارهم، وصحتهم، وامنن عليهم من جودك وفضلك العميم، واغفر لمن توفيته منهما،

وارحمهما كما ربونا صـــغارًا، اللهم إنَّا في حقك وحقهم مقصـــرون، وما لنا أحد غيرك نرجوه العفو والصـفح، فاللهم مالك الملك، يا ذا الجلال والإكرام، يا واسـع المغفرة، يا قابل التوب، تقبل منا توبتنا، واستر حوبتنا، واجعلنا من الراشدين؛ إنك سميع مجيب.

٢٦

(يَوَدُّونَ أَزْوَاجَهُم)

اسمحوا لي أن أنقلكم في هذا الدرب إلى عالم الورود والأزهار، وكيف سَعِدَ بها عباد الرحمن الأخيار.

فكم هي الوردة جميلة في منظرها، ساحرة في لونها، أخّاذة في عطرها، تشدك إليها في صمت، وتأخذ لباب عقلك في حياء، حتى تغدو أمام غيرك شاردًا وادعًا، وما هي إلا لحظات وتجد نفسك هادئ النفس، واسع الصدر، تتمنى حينها أن تبقى هذه الوردة، لتدوم هذه النظرة، لتستمر هذه السعادة.

فإن مثل هذه الوردة كمَثَلِ الحياة الزوجية السعيدة، المملوءة بالمودة والصفاء، الممزوجة بالمحبة والوفاء، ألا يتمنى الزوجان من عباد الرحمن فيها أن تبقى حياتهما كذلك، لا في الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضًا؟ الجواب: نعم.

إذاً، فإنَّها تحتاج إلى أن تسقى بالإيمان، وترعى بالخشية من الرحمن، وتصفو بمحبة الله ورسوله ﷺ، وتتآلف على القرآن، وتتعاهد على نبذ المعاصي، وتتعاون على البر والتقوى، وتنذر نفسها للدعوة إلى الله في نفسها وبين الذرية والأهل والأصحاب، وتتراحم بقيام الليل، وتتزكى بصيام النهار، وتسمو بالجود والكرم، وتجتمع قلوبها على النصح بالحكمة والموعظة الحسنة، وتتحد صفوفها أمام إغراءات المنكر، وتسارع في الخيرات، وتقنع برزقها، وتصبر في شدائدها، وتهفو نفوسها إلى إعداد جيل صادق مع ربه، باذل لدينه، عامل لوطنه.

كم تشدني تلك الصورة الزوجية الحانية التي يتصف بها الأزواج من عباد الرحمن ويصفها الرسول ﷺ بقوله: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، ثُمَّ أَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه النسائي وصحَّحه السيوطي.

ألا ما أسعدها من ساعة إيمان، وما أرقَّه من نضحٍ وفيّ، وما أعذبه من ماء مخلص.

ألا تستحق حياة هذين الزوجين الصالحين أن تمتد إلى الدار الآخر في جنان الله تعالى! والله تعالى يقول: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرَّعْد الآية ٢٣].

ألا تشتاق نفسك أيها الزوج المؤمن بربه، الحاني على زوجته، أن تكون أنت وزوجتك من أصحاب الجنَّة هؤلاء، فكهين بالمتع، متكئين على الأرائك، ألا تحب أن تكون أنت وزوجتك وأولادك ممن يسبغ الله عليهم رضاه، ويكشف لهم وجهه في يوم لا يرضي فيه الله إلا المتقين الأبرار، ألا هنيئًا لكما أيها الزوجان الكريمان حياتكما الصالحة السعيدة، وألَّف الله بينكما في خير في الدنيا، وفي الجنَّة في الآخرة.

فإلى كل زوجين سعدا بالإيمان في زواجهما في شهورهم الأولى: إننا لا نريد أن تكون شهور العسل كما نسميها ذكرى جميلة في واقع مرير، أو روتينًا لابد أن نمر به لنصل به إلى مستقبل سمته النفرة والتعاسة، كلا بل ينبغي أن تكون أيام الزواج الأولى عبرة نعتبر بها، وأملاً نطلبه دائمًا.

ولذا: فإن الذي يجب علمه وتطبيقه هو ألا يصغي الأزواج لأولئك الناعقين في أبواق الفشل والخذلان حينما يوسوسون لهم بأن ما يشعر به الزوجان من سعادة سرعان

ما تتهاوى مع زحمة الحياة ومشاغلها، وتقادم الزمن وكثرة الأعباء وتعدد المسؤولية، فإن هذا الكلام وراءه ما وراءه من حب الإفساد، وتشويه صورة الزواج، وترهيب الشباب من الدخول في خيمته الظليلة.

وإلا فإن الله حينما شرع الزواج قال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور الآية ٣٢]، وجعل بينهما ميثاقًا غليظا فقال: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء الآية ٢١].

وشَرَطَ بينهم شرطًا على أساسه تقوم حياتهم، فالمسلمون على شروطهم فقال سبحانه: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [البقرة الآية ٢٣١].

وجاء النَّبي ﷺ ليرسم للأزواج بسنته الفعلية والقولية امتدادًا واضحًا لحياتهم الزوجية، ليجعلها أكثر أنسًا وسعادة، فمن توخاها وسار على نهجها سَعِدَ وربح، ومن تنكَّب عنها خاب وخسر، فعلى الزوج أن يعلم ما يجب عليه من حقوق تجاه زوجته؛ ليوفيها حقها من غير نقص، وعلى الزوجة أن تعرف حقوق زوجها؛ لتراعها له من دون نقص؛ لتؤتي الحياة ثمارها، ويبارك الله فيها في الدنيا والآخرة.

وحتى تدوم السعادة لابد أن تعلم يا عبدَالرحمن، ويا أمَةَ الرحمن: أن الحياة الزوجية تفتقر إلى تجديد في أساليب الصلة بين الزوجين، تلك الصلة التي وصفها الله تعالى بالسكن والمودة والرحمة في قوله سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم الآية ٢١].

وما ذاك إلا خشية أن تصابَ تلك الصلة بالفتور، أو تدبَّ فيها الرتابة المملة، والسآمة القاتلة، فيتناسى الزوجان معاني الحب والألفة بالمعنى الذي كانا يطربان له في أول زواجهما، وليس معنى هذا أنهما قد تخليا عن هذه المعاني بالكلية، بل هي موجودة بلا ريب، ولكنها تحتاج إلى تنشيط وتجديد.

وأتصور أن الأقدر من الزوجين على بعث روح المحبة في حياتهما من جديد هو الزوج؛ لأن المرأة كالمرآة تعكس على الرجل ما تجده منه من تلك المحبة أو ضدها، فإذا ما أحسَّت الزوجة من زوجها تلك العودة الحميدة للحياة السعيدة، مدَّت جسور وصلها له، ورعت نبتةَ الحب بكل شوق وحنان.

وعليه، فإن الزوج الذي يحب أن تقابله زوجته بابتسامة جميلة، فليبدأها بها، والرجل الذي يرغب في سماع الشكر على المعروف، فليعودها الثناء على ما تبذله من حسن المعاشرة وطيب السكن، والزوج الذي يفتقر إلى حنان في وقت التعب أو المرض، فعليه أن يبادلها ذلك في حال تعبها ونصبها.

وقل مثل ذلك في كل أمرٍ يؤلف بين القلوب، ويجمع الشتات، من: التزينِ في الملبس، والنظافة في البدن، وعذوبة الكلام، وغض الطرف عن الزلل، وحسن الاستقبال، وجمال التوديع، والبهجة عند الفرح، والمواساة عند المصيبة، والإيثار عند الخصاصة، والهدية بين الحين والآخر، وإسقاط الكلفة، وإبقاء الاحترام، والاتزان عند بدء الخلاف، والتودد في آخره، وحصره في نقطة واحدة دون تشقيقها، ومحاولة العلاج دون البحث عن الأخطاء أو التذكير بها، وجعل كل منهما محل شكوى الآخر، فالشكوى بينهما ملح الحياة، إن تعدت إلى غيرهما صارت حنظلها وغصتها، والمعاشرة رحمة، والمداعبة مودة، والستر جميل، والعفو أجمل، والتعاون على البر والتقوى سرّ الهناء والسعادة لزوجين صالحين.

تلك هي السعادة التي تقر بها عين الزوج بزوجته، وعين الزوجة بزوجها، وعيناهما بذريتهما، هي قرة العين التي تعبَّد عباد الرحمن أن يتضرعوا لربهم أن يرزقهم إياها، فيقولون: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرۡقَان الآية ٧٤].

أسأل الله تعالى أن يمن علينا جميعًا بحياة سعيدة كحياة عباد الرحمن مع أهلينا وذرياتنا إنه سميع مجيب.

٢٧

(يَرْعَونَ أَوْلادَهَم)

كلنا يطمح أن تقر عينه بأولاده في الدنيا والآخرة كما أحب ذلك عباد الرحمن لأنفسهم، فسألوا الله تعالى فقالوا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرْقان الآية ٧٤]، غير أن الوصول إلى هذا الطموح طريقه طويل، الزاد فيه الصبر، والتوكل على الله، والعلم بما يجب على المربي من حقوق تجاه ذريته، ليؤتي الزرع الطيب أُكُلَه، وتُسَّر العين الساهرة بالرعاية ببزوغ فجر النجاح في تربية الأولاد، ولحظات الفلاح في الأولاد هي من أعذب ساعات الحياة، ترجع بمزيد فرحة لقلب الوالدين، ومزيد بذل وعطاء.

لقد أدرك عباد الرحمن أن الأولاد واستقامتهم هو الاستثمار المبارك لسويعات الحياة القصيرة، والامتداد الحقيقي لذكر الإنسان وإحسانه، فأولوا حبات قلوبهم أعذب مواردهم، ومنحوهم أصفى ينابيعهم.

فماذا عسى أن يكون على الوالد الذي يؤمِّل الخير في عقبه من الحقوق تجاه أولاده ليجني منهم البرَّ والصلاح ونفع أنفسهم وبلادهم وأمتهم؟

هذه إلماحة سريعة حول هذه الحقوق، وأخص منها ما له تأثير في بناء شخصية الأولاد منذ صغرهم وحتى حياتهم الآخرة، أتوخى فيها الإيجاز ما استطعت إلى ذلك سبيلا، فإن من حقوق الولد على أبيه ما يأتي:

أولاً: اختيار الزوجة الصالحة؛ وذلك لنعلم أن أول خطوة يخطوها الرجل في الإحسان لذريته أن يختار لهم أمًا صالحة من بيت صالح عرف بالخير والصلاح والهدى، فإن رسول الله ﷺ قال: (فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ) رواه البخاري، وما ذاك إلا لتعينه على نفسه أولاً، ثم على تربية أولاده التربية الصالحة القويمة، ولعلك تذكر قول الشاعر:

الأمُ مدرسةٌ إذا أعددتَها　　　أعددتَ شعبًا طيبَ الأعراقِ

ثانيًا: حسن التسمية: فإن الأسماء لها أثر في نفسية الشاب، فكلَّما كان اسم الشاب مائلاً إلى الرجولة والصلاح والعبودية لله تعالى، كان ذلك أدعى لتنشئته عليها، وسلوكه دربها، وكلما كان اسم الفتاة فيه نوع من المحاكاة لأسماء الصحابيات الجليلات، كان هذا أدعى للتشبه بهنَّ في أخلاقهنَّ وسترهنَّ، فالأسماء بحسب ما فيها من معان، وما تدل عليه من أحداث وأحوال توحي لصاحبها بالقوة أو الضعف، أو العزة أو الذلة، أو الجد أو الهزل، ولهذا قيل:

وقلَّما أبصرتْ عيناك ذا لقبٍ　　　إلا ومعناه إن فكرتَ في لقبِهِ

ثالثًا: العقيقة، وهي أن يُذْبَح عن الغلام يوم السابع من ولادته شاتان، وعن الفتاة شاة واحدة، فإن ذلك من السنن المؤكدة، يقول النَّبي ﷺ: (كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقتِهِ تذبحُ عنْهُ يومَ السَّابعِ ويُحلَقُ رأسُهُ ويُسمَّى) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني، وفي الحكمة من مشروعية العقيقة أقوال منها: أن العقيقة سبب لفك رهان الشيطان وحبسه، أو أن عدم ذبحها سبب في حرمان شفاعة الولد في والده يوم القيامة وقيل غير ذلك.

رابعًا: التعليم والأدب، فنحن ـ أيها الأحبة ـ أمة الأخلاق الفاضلة، والقراءة والعلم، فإن أول آية أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ هي قوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق الآية ١]، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: (مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ) رواه أحمد وإسناده حسن.

قال عبد الله بن عمر ﵄: ((أدّب ابنك؛ فإنك مسؤول عنه، ماذا أدبته، وماذا علمته؟ وهو مسؤول عن برّك وطواعيته لك))، وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ينبغي للرجل أن يكره ولده على طلب الحديث؛ فإنَّه مسؤول عنه)).

وقال سعيد بن منصور حدثنا حزم قال: ((سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفُرْقَان الآية ٧٤]، فقال: يا أبا سعيد: ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا، أم في الآخرة؟ قال: لا، بل والله في الدنيا، قال وما هي؟ قال: والله أن يُرِيَ الله العبد من زوجته من أخيه من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا، أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله عز وجل)).

وإن أول ما ينبغي تعليمه هو معرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دينه، فهذه أصول العلم النافع وأبواب العمل الصالح، ثم يحرص على تعليمه كتاب ربه قراءة وحفظاً، ويبذل غاية وسعه في هذا الشأن، وإني لأذكر عددًا من الآباء قد جلبوا المعلمين إلى بيوتهم ليعلموا أبناءهم كتاب الله تعالى مع حداثة أسنانهم، بل بلغ ببعضهم الحرص أن يقوم بنفسه بمهمة تحفيظه الآيات والسور الكريمة، ثم يذهب معه إلى حلقة القرآن الكريم فينتظره حتى يتم قراءته على الشيخ، ثم يعود إلى بيته، وذلك شأنه كل يوم، يفعل ذلك من دون سآمة أو ملل، وقد وقفت على مثل هذه النماذج الفريدة بنفسي.

ثم يغرس في نفسه ولاءه لولي أمره، ووطنه، وأمته، فيعظمهم، ويجلُّهم، ويطيع أميره في المعروف.

ثم يتوخَّى له من العلوم النافعة ما تميل إليه نفسه وتتقنه مداركه، ويؤمل أن يكون فيها نابغًا وحاذقًا، سواء كان ذلك من علوم الشريعة أو غيرها من العلوم والفنون النافعة، من طب وهندسة وتجارة ولغة وأدب ونحوها.

وعليه كذلك أن يعلمه محاسن الأخلاق وكريم العادات، ويفقهه في احترام حقوق الآخرين من الأرحام والجيران والمعلمين والأصدقاء والفقراء والممتلكات.

وقد جمع بعض هذه الحقوق ما ورد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه جاءه رجل يشكو إليه عقوق ابنه، فأحضر عمر الولد وأنّبه على عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه، فقال الولد: ((يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه، قال: بلى، قال: فما هي يا أمير المؤمنين، قال عمر: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن، قال الولد: يا أمير المؤمنين: إن أبي لم يفعل شيئًا من ذلك؛ أما أمي؛ فإنَّها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني جعلاً أي خنفساء، ولم يعلمني من القرآن حرفًا واحدًا، فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: جئت إليّ تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل أن يعقك، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك؟)).

خامسًا: تهيئة العوامل الملازمة والمساعدة لتربيته على الصلاح، كاختيار المسكن القريب من المسجد وحلقة القرآن الكريم، وتوفير أسباب الصلاح في منزله من كتب مفيدة، وقصص مشوقة هادفة، وبالمقابل يقطع عنه وسائل الفساد من مواقع مشبوهة متضمنة لأنواع من الفساد المبطن، والمؤدية لانحرافه عن سبيل جماعة المسلمين الآمن، أو التي تعطِّل ذهنه أو تمرض عينيه وسائر جسده.

سادسًا: الرحمة والرأفة بما لا يؤدي إلى انحرافه؛ فإن الرحمة مجلبة للمحبة، والمحبة سبيل للطاعة والانقياد للتربية، وإن من أعظم مظاهر المحبة: تقبيل الأولاد؛ فقد كان النَّبي ﷺ يقبل الأولاد ذكورًا وإناثًا، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ) رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا) رواه البخاري ومسلم.

ومن مظاهر الرحمة أيضًا عدم إيذائهم بالضرب أو نحوه، فإنك لابد أن تعلم أن عقولهم لا تعي الترهيب والترغيب كما يفهم الكبار، فعليك أن تجنب التقبيح واللعن، وإذا ضاقت نفسك من تصرفات ولدك حتى وجدت نفسك في حالة غضب شديدة، وأنك سوف تضربه ضربًا يهينه ويشينه، ويقلل من كرامته وإنسانيته، فتذكَّر ضعف ولدك أمام قوتك وسلطتك، وتذكَّر أيضًا قدرة الله عليك، وأنَّه سبحانه ما وهبك الأولاد لتضربهم وتهينهم، بل لتربيهم وتحسن معاملتهم، وكم هو جميل أن تبذل عدة سبل جادة ومختلفة لتستغني بها عن العقاب بالضرب، كمنعه من بعض المحبوبات لديهم لفترة محدودة أو نحو ذلك.

سابعًا: إن من حقوق الولد على الوالد أيضًا التوسط في إظهار المحبة له؛ لأن إظهار الشغف به يؤدي إلى زهو الولد بنفسه، والتكبر على مربيه، وهذا وذاك بداية طريق الانحراف عن طريق الجادة في تربيته، وقد نبَّه ابن الجوزي في خواطره على هذا فقال: ((ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد؛ لأنَّه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال، ويمتنع عن التعلم والتأدب)).

ثامنًا: العدل بين الأولاد في العطاء والمنع والرأفة والرحمة الظاهرة؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (فَاتَّقُوا اللَّهَ واعْدِلُوا بيْنَ أوْلَادِكُمْ) رواه البخاري.

وعن أنس ﷺ أنه قال: (كان رجلٌ جالسٌ مع النبيِّ ﷺ، فجاء ابنٌ لهُ فَقَبَّلَهُ ثم أجلسَهُ في حِجْرِهِ، وجاءتْ ابنةٌ لهُ فأخذها إلى جَنْبِهِ، فقال النبيُّ ﷺ: ألا عَدَلْتَ بينهما)، رواه البيهقي وصحَّحه الألباني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في القُبْلة)).

فلنعلم ـ أيها الأحبة ـ أن أخطر شيء على الأسرة أن يميّز الأبوان بعض الأولاد على بعض في الحب والإغضاء عن الزلات، وأخطر من ذلك: أن يعلنا كرههما للواحد وحبهما للآخر، فتلك هي بذرة العداء بين الإخوة والأخوات، تثمر بعد رشدهم واستقلالهم بشؤون أنفسهم جفاءً وخصومة قد ينتهيان حتى إلى الجريمة أحيانًا.

تاسعًا: الدعاء له؛ فإن الشارع الحكيم من حرصه على هذا الحق شرع الدعاء للولد قبل أن يخرج من صلب أبيه، وذلك حينما سنَّ الدعاء الذي يقوله الرجل قبل أن يأتي أهله، فقال النَّبي ﷺ: (أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ) رواه البخاري.

ثم إن الله تعالى امتدح عباد الرحمن الذين نسبهم لنفسه تكريمًا لهم بأنَّهم يدعون لأزواجهم وذرياتهم بأن تقر أعينهم بصلاحهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرۡقَان الآية ٧٤].

ومن العجيب حقًا أن يستبدل الجفاة من الآباء الدعاء للأبناء بالخير والتوفيق، الدعاء لهم بالشر والخيبة والخسران، ثم ينتظرون منهم فلاحًا ونجاحًا، ذكر الإمام الغزالي

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوتَ عليه؟ قال: نعم، قال: أنتَ أفسدته)).

إن التربية لا تعني تجمير الأعين في وجوه الأبناء، ولا الصراخ عند وقوع الخطأ والزلل، وإنما هي حرص ورعاية، ومحبة ووفاء، وعطف وتيقظ، وتعليم وإرشاد، وتوجيه وإعداد، وحزم وعطاء.

عاشرًا: اختيار الرفقة الصالحة للولد؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يُخالِلُ)، رواه أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه الألباني.

الحادي عشر والأخير: هو أن تسعى في تزويج ولدك من امرأة صالحة تعينه على إتمام درب الاستقامة الذي شققته له، ودللته عليه، وذلك إذا بلغ مبلغ الرجال من العقل وتحمل المسؤولية؛ لتعفُّه عن أنواع الفتن ما ظهر منا وما بطن، واجعل هذا هدفًا لك، تجمع له، ولو ضيقت قليلاً على نفسك وعليه أيضًا، فكم تهون الوسائل في ابتغاء الغايات.

وأخيرًا: ألا نحب أن نكون من أهل الجنَّة، وأن تلحقنا ذرياتنا إلى ذلك النعيم، فلندع بهذا الدعاء، ولنعمل على مقتضاه، ولنحرص على مبتغاه، ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرْقَان الآية ٧٤].

ولنضع أمامنا نتيجته السعيدة التي حكاها الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطُّور الآية ٢١].

فاللهم اهدنا لتربية أولادنا، وأعنَّا عليها، وأقرَّ أعيينا بأولادنا في الدنيا والآخرة، وارحم والدينا كما ربونا صغارًا، وجازهم بالحسنات إحسانًا، وبالسيئات عفوًا وغفرانًا، إنك سميع مجيب.

٢٨

(يَصِلُونَ أَرْحَامَهُم)

كلَّما كان المجتمع أكثر تواصلاً، كان أكثر قوة، وكلما اجتمعت القلوب مع القلوب، كانت الألفة أكثر امتدادًا وبقاءً، فما بالك إذا كانت الصلة بالأرحام! دعونا نعيش في هذه الأسطر نسائم الصلة ونتنفس عبيرها.

فإن الرحم التي يجب وصلها كما يقول الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل رحم مُحرَّم، بحيث لو كان أحدهما أنثى والآخر ذكرًا حرمت مناكحتهما، وقيل: هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث يستوي فيه المحْرَّم وغيره، وهذا هو الصحيح لقوله ﷺ: (إنَّ أبرَّ البرِّ صلةُ المرءِ أهلَ ودِّ أبيه بعد أن يوليَ)» رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وماذا تعني صلة الرحم؟ إنها تعني الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة تكون بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك.

وهي واجبة بالإجماع، قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا، ولو قصَّر عما يقدر عليه وينبغي له، لا يسمى واصلاً».

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ

ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ [النِّساء الآية ١].

ولعل من أبرز ما يعين الإنسان على صلة الرحم معرفته لأرحامه، والسؤال عما يتفق معه في نسب، بقصد وصله أو الإحسان إليه، قربت هذه الرحم أو بعدت، فإن النَّبي ﷺ يقول: (كلُّ رحِمٍ آتيةٌ يومَ القيامةِ أمامَ صاحبِها تشهدُ له بصِلةٍ إن كان وصَلَها، وعليه بقطيعةٍ إن كان قطعَها) رواه البخاري في الأدب المفرد، ورجاله ثقات.

بل إنَّ الرحم لها لسان فصيح، ولها موقف رهيب ستطالب بحقها بين يدي الرحيم سبحانه، فمن أدَّى هذا الحق فاز، ومن أهمله خاب، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الرَّحِمُ شِجْنةٌ متمسِّكةٌ بالعرشِ تَكلَّمُ بلسانٍ ذلِقٍ: اللَّهمَّ صِلْ من وصلني، واقطَعْ من قطعني، فيقولُ اللهُ تبارك وتعالَى: أنا الرَّحمنُ الرَّحيمُ، وإنِّي شققتُ للرَّحِمِ من اسمي؛ فمن وصَلها وصلتُه، ومن بتَكها بَتكْتُه) رواه البزار وإسناده حسن وأصله في البخاري.

إن مما يخفى على جملة من الناس أن صلة الأرحام من أسس هذا الدين، ومن القواعد التي انطلق بها خير المرسلين، فهي قرينة التوحيد، ونبذ الشرك بالله تعالى، تأمَّل ـ يا رعاك الله ـ إلى هذا الحديث، فعن عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه قال: (رَغِبْتُ عن آلهةِ قَوْمي في الجاهليَّةِ –فذكَرَ الحديثَ–، قال: فسأَلْتُ عنه فوجَدْتُه مُستخفيًا بشأْنِه، فتَلطَّفْتُ له حتى دخَلْتُ عليه، فسلَّمْتُ عليه، فقلْتُ له: ما أنت؟ فقال: نَبِيٌّ، فقلْتُ: وما النَّبيُّ؟ فقال: رسولُ اللهِ، فقلْتُ: ومَن أرسَلَك؟ قال: اللهُ عزَّ وجلَّ، قلْتُ: بماذا

أَرسَلَكَ؟ فقال: بأنْ تُوصَلَ الأرحامُ، وتُحْقَنَ الدِّماءُ، وتؤْمَنَ السُّبُلُ، وتُكْسَرَ الأَوْثانُ، ويُعبَدَ اللهُ وحْدَه لا يُشرَكُ به شَيءٌ) رواه أحمد، وصحَّحه الأرناؤوط.

ويعظم شأن الصلة فيمن يحتاج إليها، ويعظم حينئذٍ أجرها، فقد قال ﷺ: (الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ) رواه الترمذي وهو حديث حسن.

ولا أحد يشك أن مبتغى المسلم التقي النقي هو رضا الله تعالى وجنة عرضها السموات والأرض، وهذه الغاية من أكرم سبلها: صلة الأرحام، فهذا رجل يسأل النَّبي ﷺ عن عمل يدخله الجنَّة، فقال: (تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ) رواه البخاري ومسلم.

لماذا لا نجدد الصلة بأرحامنا لنحظى بالصلة بربنا وما نتوق إليه من الجنان؟ ولنتذكر في طريق ذلك حديث أبي هريرة ﵁ أنَّه أتى النَّبي ﷺ فقال: (أَنبِئْني عن أَمرٍ إذا أخَذتُ به دخَلتُ الجنَّةَ، قال: أَفشِ السَّلامَ، وأَطعِمِ الطَّعامَ، وصِلِ الأَرحامَ، وقُم باللَّيلِ والنَّاسُ نِيامٌ، ثم ادخُلِ الجنَّةَ بِسَلامٍ) رواه أحمد والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وصلة الرحم ليس وصلها فحسب فيه الأجر، بل إن قطعها فيه الشؤم والبلايا، ووقوع الخسارة والرزايا، فليتفطن كل منا نفسه في صلته لأرحامه، وليعلم أن للصلة بركة عاجلة، وأجرًا أخرويًا، وأن للقطيعة بوارًا عاجلاً وإثمًا باقيًا، فعن أبي هريرة ﵁ أنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس شيءٌ أطيعَ اللَّهُ تعالى فيهِ أعجلَ ثوابًا من صلةِ الرَّحِمِ، وليسَ شيءٌ أعجلَ عقابًا منَ البغيِ، وقطيعةِ الرَّحِمِ، واليمينِ الفاجرةِ تدعُ الدِّيارَ بلاقع) رواه البيهقي، وصحَّحه الألباني.

وأطلق عنانك في خيرات الله تعالى التي جعلها صلة الرحم في الدنيا، حيث امتداد

العمر، والتوسعة في الرزق، ودفع البلاء، يبشُّر بذلك البشير الحبيب ﷺ حيث يقول: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَيُوَسِّعَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيَدْفَعَ عَنْهُ مِيْتَةَ السُّوءِ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح.

وتأخذ صلة الرحم بيد المقصرين؛ لتكون كفارة لذنوبهم، وتمحيصًا لخطاياهم، فعن ابن عمر رضي الله عنه أنَّ رجلا أتى النَّبي ﷺ فقال: (إنِّي أذنبتُ ذنبًا عظيمًا فهل لي من توبةٍ؟ فقال: هل لك أمٌّ؟ قال: لا، قال: فهل لك من خالةٍ؟ قال: نعم، قال: فبِرَّها) رواه الترمذي والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

فلماذا بعد هذا كله نتشاغل بمهمات أقل شأنًا عن صلة أرحامنا، ونجعل الأرحام على هوامش الحياة؟ إننا بحاجة ماسة لنحاسب أنفسنا في تقصيرنا مع أهلينا، فالبرُّ دَيْن، فلنصلهم بالكلمة الطيبة في زيارة كريمة، ولنقدم لهم ما يحتاجونه من نفقة أو إحسان أو زيارة مصحوبة بابتسامة وحديث طيِّب شيِّق.

أسأل الله تعالى أن يعيننا على صلة أرحامنا، وأن يجعلها لوجهه الكريم، فإنَّه سميع مجيب.

٢٩

(يُبَشَّرُونَ ويُبِشِّرِون)

يسير عباد الرحمن على هدى البشارة السعيدة بالفلاح في الأولى والأخرى، يتذكرون بشارة ربهم لهم حينما أنابوا إليه واهتدوا بهديه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزُّمَر من الآية ١٧ الى الآية ١٨].

وهم الذين بشَّرهم حينما آمنوا به فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التَّوبَة الآية ١١٢].

وحينما أخبتوا إليه وأخلصوا له الدين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج الآية ٣٤].

وحينما بشَّرهم بالجنَّة لاستقامتهم على ولايتهم لله تعالى وعلى دينه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فُصِّلَت الآية ٣٠].

وحينما بشَّرهم بالمغفرة والأجر الكريم لخوفهم من ربهم وخشيتهم له في الغيب والشهادة، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ [يس الآية ١١].

وحينما بشَّرهم برحمته ورضوانه لبذلهم مهج نفوسهم وأموالهم في سبيله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التَّوبَة من الآية ٢٠ الى الآية ٢٢].

وحينما بشَّرهم بلقائه ورؤيته في الجنَّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧﴾ [الأَحزَاب الآية ٤٧].

وحينما بشَّرهم بالشَّفاعة يوم يقوم الأشهاد: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يُونُس الآية ٢].

لقد بشّر النَّبي ﷺ عددًا من أصحابه بالجنَّة حينما كانوا في مقدمة ركب الصالحين، وكانت التضحية منهم أبلغ وأعظم، وكان على رأسهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين.

وسرت البشارة لكل من سار على هديهم واتَّبع نهجهم إلى يوم القيامة، حتى جاءت البشارة في بعض الأعمال الصالحة التي يتميَّز فيها العبد عن غيره، فقال ﷺ: (بشِّرِ المشَّائينَ في الظُّلمِ إلى المساجدِ بالنُّورِ التَّامّ يومَ القيامةِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ وَ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولَانِ: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ . ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . ثُمَّ أَكَبَّ فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَبْكِي لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فِي وَجْهِهِ الْبُشْرَى فَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، ثُمَّ قَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ، إِلَّا فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَقِيلَ لَهُ ادْخُلْ بِسَلَامٍ) رواه النسائي وهو حسن.

واتخذ النَّبي ﷺ أسلوب التبشير هذا ليغرس في النفوس الأمل، ويشدَّ من العزيمة، وتتوق إلى ما بشّرتْ به من الخير والسعادة، فقال النَّبي ﷺ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ

الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ) رواه البخاري.

بل بشَّر الأمة بالرفعة والتمكين ما دامت متمسكة بدينها وثوابتها فقال ﷺ: (بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ...فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ) رواه أحمد وصحَّحه الحاكم.

وإن من بشارات المؤمن في الدنيا قبل الآخرة حمد الناس له وذكرهم له بالخير والصلاح ما دام عمله في الخير، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنْ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) رواه مسلم.

كما أن بشارات الصالحين الرؤيا الصالحة، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَمْ يَبْقَ مِنْ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ) رواه البخاري.

والعبد المؤمن يؤمِّل في الله تعالى الأمل الكبير، ويحسن الظن في ربه، وتشتاق نفسه للبشرى الكريمة بالأجر العظيم والفوز الكريم بالنعيم المقيم، ولا تكون نفسه قنوطة أو محبَطة، بل مشرقة مؤمِّلة، تفرح بالبشرى، وتسعد بها، وتتمناها، وتعمل من أجلها، وتتوخى سبيلها الصحيح.

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: (كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَازِلٌ بِالْجِعْرَانَةِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: أَلَا تُنْجِزُ لِي مَا وَعَدْتَنِي؟ فَقَالَ لَهُ: أَبْشِرْ، فَقَالَ: قَدْ أَكْثَرْتَ عَلَيَّ مِنْ: أَبْشِرْ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي مُوسَى وَبِلَالٍ كَهَيْئَةِ الْغَضْبَانِ فَقَالَ: رَدَّ الْبُشْرَى فَاقْبَلَا أَنْتُمَا، قَالَا: قَبِلْنَا، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ فِيهِ مَاءٌ فَغَسَلَ يَدَيْهِ

وَوَجْهَهُ فِيهِ وَمَجَّ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: اشْرَبَا مِنْهُ وَأَفْرِغَا عَلَى وُجُوهِكُمَا وَنُحُورِكُمَا وَأَبْشِرَا، فَأَخَذَا الْقَدَحَ فَفَعَلَا، فَنَادَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ: أَنْ أَفْضِلَا لِأُمِّكُمَا، فَأَفْضَلَا لَهَا مِنْهُ طَائِفَةً) رواه مسلم.

والبشارة خلقٌ نبويٌ كريم، يدل على الأنس بالآخرين، ومحبة الخير لهم، وإدخال السرور عليهم، ومشاركتهم فرحتهم، وبه تُعزَّز القيم، وتُشَجَّع النفوس على فعل الصالحات، والتمسك بالطاعات.

وإنَّ البشارة تدل على كرم النفس وجود اليد وسخاء الطبع، كما يدل قبولها على التواضع والأخوَّة الصادقة، ولا أدلّ على ذلك من قصة كعب بن مالك ﵁ حينما بشَّره البشير بعفو الله عنه حينما تخَلَّف عن غزوة تبوك حيث قال كعب ﵁: (فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ... يقولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبَ بنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، قالَ: فَآذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا، حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِن أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى الجَبَلَ، فَكانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، فَنَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُما إيَّاهُ ببِشَارَتِهِ، وَاللَّهِ ما أَمْلِكُ غيرَهُما يومَئذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنِّئُونِي بالتَّوْبَةِ ويقولونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ) رواه البخاري.

فما أروع أن نستلذ ببشارات الله ورسوله ﷺ لنا بالفلاح، فتطيب الحياة لنا بالصلاح.

نسأل الله تعالى أن نكون مما يبشَّرون بروْحٍ وريحان ورب راضٍ غير غضبان، إنه سميع مجيب.

٣٠

(يُفْشُونَ السَّلاَم)

((السلام عليكم ورحمة الله وبركاته))، تحية طيبة من عند الله مباركة، يُفْرِحُ بعضُنا بعضًا بها، وتُسْعدُنا بها الملائكة يوم نلقى ربنا بإذنه سبحانه.

إنَّ عباد الرحمن يبذلون من مساعي الخير لإرساء دعائم الحب في المجتمع كل جهد مشكور، لا يستحقرون من ذلك شيئًا ولو بدا يسيرًا، وهم في هذا يسيرون على هدي الحبيب ﷺ الذي أوصى بالسلام وأمر بإفشائه بين الناس وذلك في أول وصاياه حينما قدم المدينة، فقال ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وبين الحب والسلام علاقة وثيقة؛ فالسلام بذرة الحب وخطوته الأولى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) رواه مسلم.

السلام: تلك العبارة الرشيقة التي يطلقها عباد الرحمن لمن يلتقونه من المسلمين، لا يميّزون في إفشائها بين كبير وصغير ولا غني ولا فقير ولا من يعرفون ومن لا يعرفون، عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهم عَنْهمَا: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) رواه البخاري.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ (أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ) رواه البخاري.

أحبتي: هل استشعرنا أننا نسلم على عباد الله الصالحين في يومنا عددًا من المرات في فرضنا ونفلنا، فيبلغ سلامنا كل عبد صالح في الأرض وفي السماء؟ يا لعظمة هذا الدين، دين السلام والأمان!

فقد قال النَّبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) رواه البخاري.

وابتداء السلام عنوان الإخاء، بل علامة التواضع واللين، فهو سنة كريمة تصدر من امرئ كريم، وردُّه حق على المسلم لا ينبغي التخلف عنه.

أما نذكر قول الرسول ﷺ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ) رواه البخاري.

وهنا تستوقفني تلك الأنفس المتعالية التي تأنف أن تبدأ بالسلام على من تجهله أو تزدريه، أو تراه أقلَّ منها شأنًا، والأمر أشد ألا تسلِّم إلا على من لها معه مصلحة دنيوية، أما بلغها ماذا كان ابن عمر ﷺ يصنع بالسلام!

فقد أخبر الطفيل بن أبي كعب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه ((كان يأتي عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيغدو معه إلى السوق، قال: فإذا غدونا إلى السوق لم يمر عبد الله بن عمر على أحد إلا وسلم عليه، فقلت: ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع ولا تسأل عن السلع ولا تسوم بها ولا تجلس في المجالس؟ فقال له: إنما نغدو من أجل السلام، فسِّلم على من لقيت)).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النِّساء الآية ٨٦].

هكذا ينبغي أن يكون التنافس بين المؤمنين في اكتساب الأجر والمثوبة في السلام.

أخي الكريم، إنك حينما ترى المرء يمر بما لا يعرف من الناس، وربما توجَّس منه خيفة، وبمجرد ما تنطلق هذه العبارة العظيمة: ((السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)) من لسان أحدهما فيرد الآخر، إلا وتستريح الأنفس، وينبسط المحيا، وتنشرح الصدور.

أيُّ سرٍ لهذه الكلمات المعدودة تُلقي بنسائمها على المتصافحين ابتداءً، فإذا ما ودَّع أحدهما الآخر، تركت لهما ذكرى جميلة، تحتل من قلبيهما مكان الحب والصفاء، والود والاحترام.

عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قوله: (السلام عليكم) يقول: أنت مني سالم، وأنا منك سالم، ثم يدعو له ويقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فلا ينبغي لهذين إذا سلَّم بعضهما على بعض أن يذكره من خلفه بما لا ينبغي له من غيبة أو غيرها.

وإنَّ السلام مفتاح البداية الجديدة بعد الخلافات البغيضة، فإنَّ من يبدأ أخاه بالسلام يكسب بذلك الخيرية الربانية؛ ولم يُقِم لوساوس الشيطان في تحريشه بينه وبين أخيه وزنًا، فاستحق هذا التكريم، قال النبي ﷺ: ((لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ) رواه مسلم.

قال شريح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما التقى رجلان إلا كان أولاهما بالله الذي يبدأ بالسلام)).

وإن من أهم آداب السلام التي جاءت في السُّنَّة النبوية المطهرة أن يُسَلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وإذا أراد أن يدخل بيتًا يُسلِّم على أهله قبل الدخول، وله إعادة السلام كلَّما ذهب وعاد إلى صاحبه، أو قطع مسيره مع صاحبه شجرةٌ أو جدارٌ أو غير ذلك، وإذا أراد أن يقوم من

المجلس فعليه السلام، فليست الأولى أحق من الثانية، ويسلِّم الرجل على النساء بشرط ألا تقع فتنة بذلك كما فعل النَّبي ﷺ ذلك من دون مصافحة.

وإن مما يقصِّر فيه الكثير من الناس السلام على أهل بيته من والدين أو زوجة أو أولاد، وقد نبَّه النَّبي ﷺ إلى سرِّ هذا السلام الذي نغفل عنه؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ؛ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النُّور الآية ٦١].

ورد السلام ـ يا أحبتي ـ من آداب الطريق، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) رواه مسلم.

اللهم اشرح صدورنا بالإسلام، فإنك أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم دلَّنا على ما يرضيك عنَّا ويسعدنا، إنك سميع مجيب.

٣١

(أَهْلُ بَشَاشَة)

أدرك عباد الرحمن أنَّ ثمة أعمالًا يسيرة ينالون عليها الأجر الوفير، وهي لا تكلِّفهم شيئًا ألبتة لا مال ولا جهد، بل تزداد منه فضلاً وإحسانًا وصحة وعافية، كما تنال به رضا الله تعالى ورضا خلقه، وتكون به متبعًا لهدي النَّبي ﷺ، وتتجمَّل فيه بمحيا كريم ووجهٍ مشرق، ونفسٍ محبوبة وخفيفة ظلٍ على الآخرين.

أيها الحبيب: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ)، هكذا حثَّنا النَّبي ﷺ على البشاشة في وجوه الناس كبارًا وصغارًا، فما أروع بداية اللقاء حينما تشرق بابتسامة تمهّد طريق التواصل، وتفتح القلوب، وتتفاءل بها النفوس، وتنسي الفؤاد مرارة المآسي، وتمحو الكدر من الخواطر، فما أجمل الابتسامة تختصر مئات الكلمات، وتعبِّر عن آلاف المعاني.

وانتبه ـ يا رعاك الله ـ أن تحقر هذه الابتسامة فتجدها في نفسك حقيرة لا تقدِّم ولا تؤخِّر، فإن النَّبيَّ ﷺ يقول: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ) رواه مسلم.

وإيَّاك أن تشوّه هذه الابتسامة بدنو المصالح الدنيوية، فتبغي بها جاهًا أو مالاً أو تزلُّفًا، بل ارسمها على محياك حبًا وتقديرًا وصفاءً ونقاءً، وصدقني أنك بهذه الابتسامة الصادقة تُعَلِّم كثيرين الحب وتدربهم على البشاشة، وإنَّك سترى من حولك يستمدون منك معنى التفاؤل، وإنَّك لو قصَّرت في حق أحدهم، فسيغلب على ذاكرته وجهك الباسم، فيكون ذلك طريقًا إلى الصفح والعفو.

الله أكبر، أيعجز أحدنا أن يَبُشَّ في وجه أخيه، ربما من أمِّه وأبيه، أو في الدين والعقيدة، والنَّبي ﷺ يَبُشُّ حتى في وجوه أعدائه لحكمة! فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: (أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ، قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عَائِشَةُ، مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؛ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ) رواه البخاري.

وماذا عن شأن الابتسامة للأهل من والدين وزوجة وأولاد، أليس هؤلاء أحق بالابتسامة من كل الناس، ولا مشاحَّة، فالأمر أيسرُ أن تكون هناك مشاحَّة، غير أن بعضنا كريم بهذه البشاشة على أصحابه وزملاء عمله، بينما يبخل بها على أهله وذويه!

أحَرَامٌ على بَلابلِه الدَّوْح | حلالٌ للطَّيرِ مِنْ كلِّ جِنْسِ!

بادِلْ والديك الابتسامة، بل حاول أنْ ترسمَها على محياهما، فهي ساعة من خير الساعات أن يسعدا بسببك، وأبهج زوجتك وأولادك بطلاقة وجهك وأنت داخل عليهم، ابتعد ـ جزيت خيرًا ـ عن التجهُّم والعُبوس، فإلى متى هذا التعقيد لحاجبيك؟ ابسطهما، وأقبل على ذويك مسرورًا.

لقد كان النَّبي ﷺ كثير التبسم، لا يبخل بذلك على أحد من المسلمين، فكيف بقرابته وآله! فقد قال عليه الصلاة والسلام: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

أتدري ماذا تصنع الابتسامة بك بإذن الله تعالى؟ إنها تساعدك على التماثل إلى الشفاء من الأمراض، وتساعد على الهضم، وتحفظ فتوتك وشبابك، وتزيد من نشاط الذهن ونتاجه، وتقوِّي القدرة على تثبيت الذكريات وتوسيع ساحة الانتباه والتعمق الفكري، وبالتالي يصبح المرء أقدر على التخيل والإبداع ودقة التفكير، وتبعث الابتسامة فينا السعادة الداخلية وبالتالي تزداد إشراقة الوجه من جديد بالحيوية والنشاط، بل إنها تساعد على توسعة الشرايين والأوردة، وتنشِّط الدورة الدموية، وتعمِّق التنفس، وتحمل الأكسجين إلى أبعد أطراف الجسم.

وتؤدي بنفس الوقت إلى زيادة إفرازات الغدد الصماء بكل أنواعها، وتعين المرء بعد الله تعالى على النوم الهانئ المطمئن، أما تأثير الابتسامة على القلب فشأنه أظنه لا يخفى على ذي لب.

لقد كان النَّبي ﷺ يتبسَّم عند كل ما يدعوه إلى الفرح، فها هو ذا يبتسَّم من قبول توبة كعب بن مالك رضي الله عنه ويبرق وجهه من السرور، وكان ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه فغدا كأنَّه قطعة قمر عليه الصلاة والسلام.

بل كان يتبسَّم من المواقف الطريفة في أسئلة الناس، ومن ذلك ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْتُ! قَالَ: وَمَا أَهْلَكَكَ؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ، قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: اجْلِسْ، فَجَلَسَ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ الضَّخْمُ، قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ، فَقَالَ: مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَحَدٌ أَفْقَرَ مِنَّا، قَالَ: فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، قَالَ: فَخُذْهُ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ) رواه مسلم.

قال إيليا أبو ماضي:

قال: السماءُ كئيبةٌ، وتجهَّما   قلتُ: ابتسم يكفي التجهمُ في السَّما
قال: الصِّبا ولَّى، فقلتُ له: ابتسم   لن يرجع الأسفُ الصِّبا المتصرما
قال: التجارةُ في صراعٍ هائلٍ   مثلُ المسافرِ كادَ يقتلُه الظما
أيكونُ غيرُك مجرمًا وتبيتُ في   وجَلٍ كأنك أنتَ صرتَ المجرما!
قال: العِدى حولي علَتْ صيحاتُهم   أأُسَرُّ والأعداءُ حولَيَ في الحمى؟
قلتُ: ابتسم لم يطلبوك بذمةٍ   لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما
قال: الليالي جرعتني علقمًا   قلتُ: ابتسم ولئن جرَعت العلقما
فلعلَّ غيرَك إن رآك مرنمًّا   طرحَ الكآبةَ جانبًا وترنما
أتُراك تَغْنَمُ بالتبرُّم درهمًا   أم أنتَ تخسرُ بالبشاشةِ مغنما!
يا صاحِ لا خطر على شفتيك أن   تتثلما والوجه أن يتحطَّما
فاضحك فإن الشهبَ تضحكُ والدجى   متلاطمٌ ولذا نحب الأنجما

آمل أن أكون بذكر الابتسامة قد رسمتُها على شفاهكم، فتبسَّموا وتفاءلوا وأبشروا وأمِّلوا، فإن الله كريم يحب عباده الطيبين، فاللهم أسعدنا بفضلك، إنك سميع مجيب.

٣٢

(يُصْلِحُونَ ذَاتَ بَينِهِم)

جبلت النفوس على الأثرة، وربما زادت أثرتها وطغى جشعها وتولَّدت بينها مشاعر الحسد والحقد على النعم وألوانها، وربما تسلَّلت الوساوس الشيطانية إليها؛ لتحيل تلك المشاعر المنحرفة إلى وقائع خلاف بين الأحبة والأقارب، ويجد الشيطان له محلاً بين القلوب حينما يضعف فيها الإيمان، وتبرز فيها الأنانية، ويتخلف عنها الحلم، وتقصر عنها الأناة، فتندفع إلى التشفي والانتقام، أو المناداة بأخذ الحقوق كاملة من الإخوة والأصدقاء حينما يقع بينهم الشقاق والخلاف، وهنا تأتي عبادة عظيمة من أعظم العبادات وأجلها، يتقدم إليها عباد الرحمن، أصحاب النفوس الكريمة والعقول الراجحة والقلوب المفعمة بالحب للآخرين، إنها عبادة إصلاح ذات البين؛ شعبة إيمانية، تُستل بها السخائم، وتصفو بها القلوب، وتخمد بها نيران الفتن.

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النِّسَاء الآية ١١٤].

ولكنَّ هذه القربة العظيمة تحتاج إلى ممارسة ودُرْبَة، وحكمة وحنكة، كما تحتاج إلى نية صالحة وقدرة على حسن الأخذ بالأسباب، ومعرفة لدخول البيوت من الأبواب.

فإنَّ على المصلح أن يحتسب الأجر والثواب عند الله تعالى فإنَّه يقول: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن

يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّسَاء الآية ١١٤]، فما بالك بالله العظيم يصف أجر المصلحين بالعظيم!

وعلى المصلح كذلك أن يستحضر أنَّ جهده هذا إنما هو استجابة لأمر الله القائل في محكم التنزيل: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ [الأنفال الآية ١]، وأن يستحضر كذلك أنَّه سبب لقوة الأمة: لأن الأمة المتصارعة توشك أن تنهار، وأن تلتهمها أمم أخرى؛ فإصلاح ذات البين سبب لقوتها وصلابتها وهيبة أعدائها لها.

وليعلم المصلح أن ما يقوم به هو من نعمة الله عليه؛ إذ شرح الله له صدره لذلك العمل، وسخَّر الناس لتقبُّله منه، فهم يتركون حظوظ أنفسهم، وربما تنازلوا عن بعض حقوقهم؛ ثقة في رأيه، واستجابة لنصحه، وهذا فضل عظيم يستحق من المصلح أن يشكر ربه عليه، فالشكر لله رب العالمين.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الناسُ بالناسِ ما دامَ الوفاءُ بهم ... والسَّعدُ لا شكَ تاراتٌ وهبَّاتُ
وأفضلُ الناسِ ما بين الورى رجلٌ ... تقضى على يدِهِ للناسِ حاجاتُ
لا تمنعنَّ يدَ المعروفِ من أحدٍ ... ما دمتَ مقتدراً فالسَّعدُ تاراتُ
واشكرْ فضائلَ صنع الله إذ جُعِلَتْ ... إليك لا لك عندَ الناسِ حاجاتُ

وإن من أهم صفات المصلح أن يكون ذا حلمٍ وطول بال؛ لأنَّه سيدخل بين أطرافٍ متشاحنين؛ كلٌ يدَّعي أنَّ الحق له، وأنَّ الطرف الآخر معتدٍ عليه، فيحتاج المصلح بينهم إلى الحيادية، وسعة الصدر، واحتمال ما يصدر من سفهٍ وتطاول، وترديد كلام، وإطالةٍ في المقدمات، واسترجاع للماضي، وخروجٍ عن الموضوع، فلا يحسن به أن يكون ضيِّق

الصدر، قليل الصبر، بل هادئ النفس، ليِّن الجانب، يقابل الإساءة بالإحسان؛ فإن تلك الصفات هي الحكمة المنشودة التي عظَّم الله أثرها بالأجر العظيم.

ثم إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فعليه أن يتصوَّر القضية بتمامها؛ فلا بد من تصور القضية، ومعرفة أطرافها، وأحوال أصحابها، وما يكتنفها من غموض وظروف، فلربما أدرك أنَّه لا يستطيع حلَّها بنفسه، وأنَّ عليه أن يستشير غيره أو يفكر فيها مليًا، وربما استخار ربه، ولربما علم أن دخوله لا جدوى منه، أو ربما لحقه ضرر دون أدنى فائدة، ومن هنا كان التروي وحسن النظر قبل الدخول في القضية.

وعلى المصلح أن يستعين بالله تعالى، فينطرح بين يديه بالدعاء بأن يسدد خطاه، ويشرح له قلوب المتخاصمين؛ ليهدي قلوبهم، ويأخذ بأيديهم إلى العفو والصفح، فإن ذلك من الافتقار إلى الله تعالى الذي نتيجته الإعانة والنجاح بإذن الله تعالى.

وإنَّ من أهم صفات المصلح أن يكون كاتمًا لأسرار الناس، ولا يفشي لأصحاب المشكلة سرًا إلا لمن يعينه على أمره بعد الله تعالى، أو لمن يمكن الإفادة من رأيه، فذلك داخل في الإصلاح، والشورى كلُّها خير إذا كانت من أهلها الحكماء وذوي الألباب.

وليحذر المصلح ـ وفقه الله ـ من اليأس: فربما حاول المحاولة الأولى، وبذل وسعه في معالجة المشكلة فأخفق؛ فإن كان قصير النَّفس، ضيِّقَ الصدر أيس من العلاج، وترك المحاولة إلى غير رجعة، أما إذا أخذ بسياسة النَّفَس الطويل، وتدرَّج في مراحل العلاج مرحلة مرحلة أوشك أن يصل إلى مبتغاه؛ وليعلم أنَّه ليس كل الطرق مسدودة، وإن سُدَّ بعضها، فليبحث عن الطريق المفتوحة، فلربما كانت قريبة جدًا.

وما أمسَّ حاجة المصلح أن يعرف عادات وتقاليد من سيصلح بينهم؛ ليتخذ معهم الأساليب الأسرع والأنفع، فهناك من تؤثِّر فيه الابتسامة والدعاء، وهناك من تؤثِّر فيه

استثارة النخوة، وهناك من يؤثِّر فيه التخويف من العواقب، وهناك من تؤثِّر فيه نتائج الصفح والتذكير بثمار العفو، واختيار ما يناسب هو من حكمة المصلح وفطنته.

ولعل من أيسر طرق الإصلاح وأهمها حسن الاستماع: لأن كلَّ طرف من الأطراف يزعم أنَّه على حق، وأن صاحبه على باطل؛ فيحتاج كلُّ واحد منهما إلى مَنْ يَستمع إليه، ويرفق به، ويأخذ ويعطي معه، بل إن بعض الخصوم يكفيه أن يفرِّغ ما في نفسه من غيظٍ أو كلام؛ فيشعر بعد ذلك بالراحة، ويكون مستعداً لما يراد منه من تنازل.

وإن من مهمات المصلح أن ينفرد بكل خصم على حدة في اللقاء الأولي للإصلاح حتى يفرغ شحناتهم؛ حيث إن اللقاء الأول يكون مشحونًا بالغيظ والحنق، فإذا فرغت نفوسهم غدت النفوس أكثر تهيُّأً من ذي قبل للحديث والحوار الأكثر هدوءًا، وفي هذا اللقاء عليه أن يرفع من قيمة المتخاصمين: وذلك بإنزالهم منازلهم، ومناداتهم بأحب أسمائهم إليهم، والحذر من انتقاصهم، أو الحط من أقدارهم، وخطأ كبير يقترفه بعض المصلحين أن ينال من أحد الخصمين عند الآخر بالنقيصة، فهذا فضلاً أن يكون من الغيبة المحرمة فإنَّه ربما تصالح الخصمان فأخبر كل واحد منهما بما قال في صاحبه؛ فيحصل عليه من الضرر ما لا يحتسب، وقديماً قيل:

كَمْ صَاحِبٍ عَادَيتَه في صَاحِبٍ   فتصَالحا وبَقِيتَ في الأعْدَاءِ

وليكن المصلح صادقًا في حديثه ووعوده، ولا مانع إذا تأكَّد من أن الكذب أحيانًا سينفع ولا يضر فلا بأس في ذلك من غير مبالغة؛ لقول النَّبي ﷺ: (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا) رواه البخاري.

والحمد لله القائل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحُجُرَات الآية ٩].

وكم هو جميل أن يذكِّر مريد الإصلاح الخصوم بالعاقبة: فيذكرهم بعاقبة الخصومة، وما تجلبه من الشقاق، وتوارث العداوات، واشتغال القلوب وغفلتها عن مصالحها.

ويذكِّرهم كذلك بالعاقبة الحميدة للصلح في الدنيا والآخرة، ويورد لهم الآثار الواردة في ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٣٧]، وكقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٣٤]، وكقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشُّورَى الآية ٤٠]، ويسوق لهم مواقف نبيلة لأناسٍ عفوا، فحصل لهم من العزِّ والخير ما حصل.

وعلى كل من وقع بينه وبين أخيه مشاحنة أن يتقي الله تعالى، وليرجع إليه، وليستجب للمصلح في إصلاحه؛ فإن الدنيا أقصر مما يتصوَّر، ولا تبقى منها إلا الأعمال، فاجعلها صالحة، ولله خالصة، واترك لك فيها ذِكْرًا حسنًا تُذكرُ به ويُدعى لك من أجله.

اللهم اجمع قلوب المسلمين على دينك، وألِّف على الخير قلوبهم، وأبعد عنهم الشحناء والبغضاء، إنك سميع مجيب.

٣٣

(يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُون)

عباد الرحمن قومٌ يألفون ويؤلفون، يأنس بعضهم ببعض، لا يشعر من يجالسهم بوحشةٍ أو ضيق نَفْس، بل يرى فيهم انشراح الصدر، وبشاشة المحيا، والتودد والمحبة، حتى لا يمل مجالستهم، ولا يطول الوقت معهم.

وما أمس حاجة الإنسان إلى الألفة، فبها يتعايش مع كل مَنْ حوله، من أهلٍ وجيرانٍ وأصدقاء وزملاء، بل هي الطريق إلى انسجام هذه الأرواح.

وأمر الانسجام أمرٌ ليس بالهين؛ حيث اختلاف الآراء، وتنوع وجهات النظر، وتلوُّن النفوس وطبائعها المتغيرة، فمنهم أهل الصفاء، ومن هم الحاسدون، ولم أجد مثل الألفة تستطيع بها بعد الله تعالى أن تجمع ـ بإذن الله تعالى ـ هذه المختلفات، وتؤلف بينها في نسق منسجم، يبعث بالراحة والسعادة.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إنَّ الألفة الجامعة هي إحدى القواعد المهمة التي يصلح بها حال الإنسان؛ وذلك أن الإنسان مقصودٌ بالأذية، محسودٌ بالنعمة، فإذا لم يكن آلفًا مألوفًا تخطفته أيدي حاسديه، وتحكَّمت فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تصفُ له معيشته، فإذا كان آلفًا مألوفًا انتصر بالألفة على أعاديه، وامتنع من حاسديه، فسلمت نعمته منهم، وصفتْ له معيشته معهم، وإن كان صفو الزمان عَسِرًا وسلمه خَطِرا)).

والألفة ـ بلا ريب ـ توفيقٌ من الله تعالى؛ لأنَّه الذي بيده القلوب سبحانه، ويشهد على ذلك أعظم ألفةٍ في التاريخ، حينما ألَّف الله تعالى للنبي ﷺ بين أصحابه رضي الله عنهم فقد امتن

الله تعالى على حبيبه ﷺ فقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال الآية ٦٣].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال ﷺ: (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) متفق عليه.

ولا أخفيك ـ أيها الكريم ويا أيتها الكريمة ـ أن الألفة تحتاج منك إلى شيء من الجهد والتضحية، والتنازل عن بعض الحقوق، وعدم الاكتراث ببعض المواجهات ولو كانت شديدة أحيانًا، وتاجُ ذلك كله نيةٌ صالحة، وقول جميل، فمثل هذا هو الذي يستطيع أن يتآلف مع الناس، أما من يتباهى بقوة المجادلة، والانتصار في النقاش، ويعدُّ التنازل عن بعض الحقوق إهدارًا لكرامته، فهذا أبعد ما يكون عن الألفة، وعليه أن يتأمل هذا الموقف النبوي الكريم الذي ينم عن حكمة النّبي ﷺ وطيب نفسه ومحبته لأصحابه جميعًا وحرصه على تأليف قلوبهم:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ رضي الله عنه قَالَ: (لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ) رواه البخاري.

أخي الحبيب: إن تآلفك مع أحبابك وانسجامك معهم لن تجد منه محبةً من حولك فقط، بل هو طريق إلى الخيرية التي قال عنها النَّبي ﷺ: (المؤمن يألَف ويُؤْلَف، ولا خير فيمن لا يأْلَف ولا يُؤْلَف) رواه أحمد وحسَّنه الذهبي والألباني.

ولا يليق أن تقيم صلب الألفة على الحاجات الدنيوية الزائلة؛ فإنَّها سرعان ما تزول أو تنهار فجأة، حينما تبرز الروحان على حد المنافسة في أيِّ شأن، بعكس من تقاربت روحهما حتى التقت على محبة الرحمن؛ فإنك ترى كل معاني الإخاء تتخذ مكانها من نفسيهما، فالحب، والإيثار، والنصرة، وصنع المعروف، تراها ماثلة في حياتهما، هذا التأليف الحقيقي بين القلوب.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الناس أشكال كأجناس الطير، الحَمَام مع الحَمَام، والغُراب مع الغُراب، والبط مع البط، وكل إنسان مع شكله).

وتأمَّل كلام أبي حاتم البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: ((إنَّ من الناس من إذا رآه المرء يُعْجبُ به، فإذا ازداد به علمًا ازداد به عجبًا، ومنهم من يُبغض حين يراه، ثم لا يزداد به علمًا إلا إذا ازداد له مقتًا، فاتفاقهما يكون باتفاق الروحين قديمًا، وافتراقهما يكون بافتراقهما، وإذا ائتلفا ثم افترقا فراق حياة من غير بغضٍ حادث، أو فراقِ ممات، فهنالك الموت الفظيع، والأسف الوجيع، ولا يكون موقفٌ أطول غُمَّة، وأظهر حسرة، وأدوم كآبة، وأشد تأسُّفًا، وأكثر تلهفًا، من موقف الفراق بين المتواخيين، وما ذاق طعمًا أمرَّ من فراق الخلين، وانصرام القرينين)).

وإني لأتساءل: كيف يعيش من لا يذوق لذة الألفة مع الآخرين؟ كيف يبتسم؟ كيف يقوم بعمله؟ كيف يستلذ بطعم الأكل والشرب والمنام وهو يشعر بثقله على الآخرين؟ أو لا يشعر لكن الآخرين يشعرون بذلك؟!

ربما حال الكِبْر دون الألفة، وربما البطر، وربما النَّسَب أو الحسب، أو الجاه أو المنصب، وهو لا يعلم أن العمل الصالح والذِكر الحسن هما اللذان سيتبعان جنازته وسيتخلَّى عنه كل شيء.

قال أبو نواس:

إِنَّ الْقُلوبَ لَأَجنادٌ مُجَنَّدَةٌ لِلَّهِ في الأَرضِ بِالأَهواءِ تَختَلِفُ
فَما تَعارَفَ مِنها فَهوَ مُؤتَلِفٌ وَما تَناكَرَ مِنها فَهوَ مُخْتَلِفُ

وإذا كنا نتكلم عن ألفةِ المرء مع عموم الناس، ونذكِّر بأثرها وفضلها، فما بالك بمن يفقدها بين أفراد أسرته بسبب غلظته وبطشه، أو بهجرانه لهم، أو نفرته منهم، أو بخله عليهم، وماذا سنقول عمن لا يسعى حتى في تآلفه مع زوجه، قد أعرض أو أعرضتْ بوجهها عنه، فأي نجاح نحققه على مستوى الأسرة والوطن والأمة؟! وما أسرع ما يتربص العدو أو الحاقد كثُر أو قَلَّ، كبر أو صغر، بلبناتٍ هشّة ضعُفت ألفتُها وتلاشت محبتها!

لنكن كما قال النَّبي ﷺ: (لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ) متفق عليه.

فمَا تُبْصِرُ العينانِ والقلبُ آلفٌ ولا القلبُ والعينانِ منطبقانِ
ولكنْ هما روحانِ تعرضُ ذِي لذِي فيعرفُ هذا ذي فيلتقيانِ

اللهم ألِّف على الخير قلوب المسلمين، إنك سميع مجيب.

٣٤

(يُحْسِنُونَ العِشْرَة)

إننا لا بد لنا من مخالطة الناس، ولهذه الخلطة آداب وحسن في العشرة، نتألف فيها الناس ويتألفوننا، نأنس بهم ويأنسون بنا، فماذا نعني بحسن العشرة بيننا وبين الناس؟

إنها استعمال أحسن الأخلاق في التعامل مع الآخرين: من طلاقة الوجه، وعدم الاستكبار عليهم، ولين الجانب لهم، والحلم على أخطائهم، وعدم الاستنقاص منهم أو النيل من أعراضهم، والتغافل عن زلاتهم، والستر على عوراتهم الحسيَّة والمعنويَّة، مع تبادل الاحترام والتقدير لكبيرهم، والرحمة بصغيرهم، وغض البصر عن حرماتهم، وعدم الممازحة الثقيلة معهم، ومساعدتهم فيما يحتاجون من دون مَنٍّ ولا أذى، ونصحهم بالخير، ونهيهم عن المنكر بالموعظة الحسنة، والدعاء لهم في وجوههم وظهر الغيب، والتعاون معهم في المعروف.

كل هذا يكون في: حسن أدبٍ، وجميل خلقٍ، وكريم سمتٍ، ويدٍ بيضاء، ووجهٍ مشرق، ومحيا باسم، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة الآية ٨٣].

ولعل من هم أقرب إليك هم أولى الناس بحسن المعاشرة؛ من والدين وزوجةٍ وأبناء وخدم، فإن الله تعالى قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦]، وقال سبحانه في حق النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النِّسَاء الآية ١٩]، وقال ﷺ في حق الخدم: (إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ) رواه البخاري.

وتأمَّل ــ يا رعاك الله ــ كيف كان النَّبي ﷺ طيِّب المعشر خفيف الظل على من حوله، محبوبًا حُبًا لا يجعل من يحبه إلا في شوق إليه حتى يراه، تصف أم المؤمنين عائشة خلق النَّبي ﷺ فتقول: (لم يَكُن فاحِشًا ولا مُتفحِّشًا، ولا صخَّابًا في الأسواقِ، ولا يجزي بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِن يَعفو ويَصفَحُ) رواه الترمذي وصحَّحه، وصحَّحه الألباني.

وحسن المعاشرة تحتاج منا إلى صبر على الطرف الآخر، ولو أنَّه أخطأ علينا بكلمة أو فعل أو تجاوز في حقنا بشيء، فما أرى حسن المعشر إلا رادًّا له إلى صوابه، ومذكِّرًا له إلى الطريق الحق.

أما تقديم الخدمة إلى الآخرين فمقام ذلك رفيع؛ لأنَّه علامة التواضع والحب والكرم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: (خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ فِي سَفَرٍ فَكَانَ يَخْدُمُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ) رواه مسلم.

وحينما يحصل سوء التفاهم بين الأقارب ونحوهم، فإن حسن العشرة ينهض بتطييب الخاطر، ثم النصح والتوجيه وجمع الكلمة والاعتذار للآخرين، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفصةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّكِ لَابْنَةُ نَبِيٍّ وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ! ثُمَّ قَالَ: اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

أما حسن العشرة مع الأولاد ذكورًا كانوا أو إناثًا، فلقد ضرب النَّبي ﷺ المثل الأعلى مع ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَكَانَتْ

إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا) رواه الترمذي وحسنه.

ولقد سار سلف الأمة الأخيار على نفس المسار، فهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: ((لجليسي عليّ ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسّع له إذا جلس، وأصغي له إذا حدَّث)).

وتبدو العشرة أجمل حينما يكون فيها التبسُّم عنوانًا، والتماسك بالأيدي بين الفترة والأخرى وسيلةً للتواصل النفسي، يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: ((إن المسلمَين إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتَتْ ذنوبهما كتحات ورق الشجر)).

وتتضح العشرة المبنية على الحب الحقيقي في الأزمات والخلافات، فلا ينبغي أن يعرف المرء من يحب في الرخاء وينصرف عنه حينما تطل بوجهها الأحداث الأليمة أو المشكلات المعتادة.

قال الحريري رَحِمَهُ اللَّهُ:

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط
وتجاف عن تعنيفه ... إن زاغ يومًا أو قسط
واحفظ صنيعك عنده ... شكر الصنيعة أو غمط
وأطعه إن عاصى وهُنْ ... إن عزّ وادن إذا شحط
واقض الوفاء ولو أخلّ ... بما اشترطت وما اشترط
واعلم بأنك إن طلبت ... مهذبًا رمت الشطط
من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

فكلنا ذاك الذي يقصِّر، فإذا لم يعذر بعضنا بعضًا لم نجد من نحظى برفقته، ولم نجد وقتًا للابتسامة والفرحة، ولم نجد من يخفف عنا لأواء الحياة بعد الله تعالى.

قال بشَّار بن بُرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إِذا كُنتَ في كُلِّ الذُنوبِ مُعاتِباً   صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه
إِذا أَنتَ لَم تَشرَب مِراراً عَلى القَذى   ظَمِئتَ وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُه

أما من يضع نفسه في مهب ريح النقد اللاذع بسوء عشرته للآخرين، فلا يلومنَّ إلا نفسه، حتمًا سيجد نفسه ثقيلاً على النفوس، غير محبب في المجالسة، لا يأنس به صديق، ولا تفرح به زوجة، ولا يأمن منه ذو حاجة، فلماذا هذا كلِّه، وبيدك كنز التواصل مع المسلمين فاستثمره وأنت الرابح في الدنيا والآخرة.

كم أتمنى أن تكون لنا أهدافًا كريمة في عشرتنا للآخرين، من أهل وأولاد وجيران وأصحاب، تسمو عن الماديات والمصالح الزائفة، ونغادر الدنيا بذكر حسن، ونلقى الله تعالى وقد أرضيناه بإرضاء الصالحين من خلقه، فكم يحب الله منا حسن العشرة وتأليف القلوب على الصلاح.

اللهم إنا نسألك حبك، وحب من يحبك، إنك سميع مجيب.

٣٥

(مُحْسِنُونَ لِخَدَمِهِم)

ما شأن عباد الرحمن مع من سخَّرهم الله لخدمتهم لفقرٍ أو مسكنةٍ أو حاجة، تلك هي شريحة الخدم من المجتمع، التي أعطاها الإسلام حقوقًا تحفظ لها كرامتها، هذه الكرامة التي نالتها بكونها من بني آدم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٧٠]، فكيف إذا أضفت على هذا التكريم كرامة الإسلام التي لا تعلوها كرامة! فإن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجُرَات الآية ١٣].

دعونا نمرُّ سويًا ببيوت عباد الرحمن لنطلع على سمو معاملتهم لخدمهم، ولنتعرف على الحقوق التي رعوها فيهم.

فإن أول هذه الحقوق: الرحمة، فإن الرحمة سمة الكرماء، والقسوة قرينة الأشقياء، وربنا أرحم الراحمين فهو القائل في حق نفسه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ [فُصِّلَت الآية ٢]، ونبينا الرؤوف الرحيم الذي قال الله في وصفه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التَّوۡبَة الآية ١٢٨].

ولذا فإن راعية البيت يجب عليها أن تراقب الله تعالى في معاملتها لخادمتها، فلا تنهرها على خطأٍ لم تقصده، أو تقصيرٍ خارج عن إرادتها، فهي تظل إنسانة يعتريها ما يعترينا من خطأ أو نسيانٍ أو تقصير، والذي يرى غير ذلك فيستكبر على خدمه، ولا يرعى لهم ذمة، فقد عرض نفسه لمقت الله تعالى، وخالف بذلك هدي الحبيب ﷺ، الذي بلغ قمة الرحمة والرأفة بالمماليك والخدم، وهو الأسوة في فعله وقوله ﷺ.

وتذكَّر – وفقك الله – هذه الوصية النبوية الخالدة في الخدم حيث يقول فيها الرسول ﷺ: (هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفُهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ، فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ) رواه البخاري.

ويقول النَّبِيّ ﷺ: (إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ) رواه البخاري.

واحذر كل الحذر أن يمكِّن الله هذا الخادم منك يوم القيامة ليأخذ حقه منك بقوة أعدل العادلين، فإن من ظَلَمَ خادمه بشيء لا يظن أن الأمر فائت، وأن ضعفه ليس وراءه قوة تأخذ الحق لصاحبه، يقول الرسول ﷺ: (مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ) رواه البخاري.

ولقد أعطى النَّبي ﷺ القدوة الحسنة في الرحمة بالخدم، فقد خدمه أنس ﷺ عشر سنين، فكيف وصفه يا تُرى؟ يقول أنس ﷺ: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتَ، وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ) رواه البخاري.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (ما ضَرَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبيلِ اللهِ) رواه مسلم.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلاً أتى النَّبي ﷺ فقال: (يا رسولَ اللهِ، كم نعفو عن الخادمِ؟ فصمَتَ، ثم أعادَ عليه الكلامَ، فصَمَتَ، فلما كان في الثالثةِ قال: اعفُوا عنه في كل يومٍ سبعين مرةً)، رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ودعني بعد هذا أذكِّرُك ببعض مواقف سلفنا الصالح ﵃ في معاملتهم مع خدمهم، فقد كان الفاروق عمر ﵁، يذهب إلى العوالي في كل سبت، فإذا وجد عبدًا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه.

ولما عزم عمر ﵁ على السفر إلى بيت المقدس ليتسلَّم مفاتحه بعد أن فتحه الله عليه، اتفق مع خادمه أن يركب هو على الفرس ساعة، ويركب الخادم عليه ساعة، دون زيادة أو نقصان، وهو من؟ أمير المؤمنين، وفاتح المشرق والمغرب، حتى إذا دنت ساعة الوصول أمام قساوسة النصارى، كانت ساعة ركوب الفرس من حق الخادم، فأمره عمر ﵁ بالركوب، وسار خليفة رسول ﷺ على قدميه أمام النصارى، الذين دهشوا من هذا المنظر الغريب، الأمير على قدميه يسير، والخادم على الفرس! فأيقنوا أنَّه بهذا الدين وتلك الأخلاق كان أهلاً لئن يكون فاتحاً لبيت المقدس.

وذُكِر أن رجلاً دخل على سلمان الفارسي ﵁ فوجده يعجن، فقال له: ((يا أبا عبد الله، ما هذا؟ فقال: بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين)).

ويروى أن علياً ﵁ أعطى غلامه دراهم ليشتري بها ثوبين متفاوتي القيمة، فلما أحضرهما، أعطاه أرقهما نسيجاً، وأغلاهما ثمناً وأخذ الآخر لنفسه، وقال له: ((أنت أحق مني بأجودهما؛ لأنك شاب تميل نفسك للتجمل، أما أنا فيكفيني هذا))، وأخذ عليٌّ ﵁ أقلَّهما قيمةً وجودة.

وَاغْتَاظَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عَلَى خَادِمٍ لَهَا ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَتْ: ((لِلَّهِ دَرُّ التَّقْوَى مَا تَرَكَتْ لِذِي غَيْظٍ شِفَاءً)).

وقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا، وفي رواية: أنَّه قال: يا رسول الله، هو حر لوجه الله، قال رسول ﷺ: لو لم تفعل للفحتك النار) رواه مسلم.

وقيل للأحنف بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ممن تعلمت الحِلْمَ؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذا أتته خادمة له بسفود عليه شواء، فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك)).

وكان عون بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا عصاه خادمه قال: ((ما أشبهك بسيِّدِك، سيِّدُك يعصي سيِّدَه، وأنت تعصي سيِّدَك، فأغضبه يومًا فقال: إنما تريد أن أضربك، اذهب فأنت حر)).

وكان عند ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء، فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون، فقال: يا جارية أحرقتني! قالت: يا معلم الخير، ومؤدب الناس، ارجع إلى ما قال الله تعالى، قال: وما قال الله تعالى؟ قالت: قال: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٣٤]، قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٣٤]، قال: قد عفوتِ عنك، قالت:

زد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٣٤]، قال: أنت حرّة لوجه الله تعالى.

هكذا كان عباد الرحمن رحماء بخدمهم، وهم كذلك أهل عدلٍ معهم في معاملتهم.

وثاني هذه الحقوق: العدل؛ فإن العدل في كل الأمور واجب بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النَّحل الآية ٩٠].

وفي المقابل فإن الظلم حرام، حرّمه الله على نفسه وجعله بيننا محرَّمًا؛ فإنَّه قال سبحانه في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا) رواه مسلم.

وإذا كان العدل واجبًا في كل الأحوال، فهو في حق هؤلاء الضعفاء والمساكين أوجب، فاحذر كل الحذر أن تجعل هذه الخادمة بينكم وبينها الله سبحانه وتعالى؛ فتشكو إليه ظلمكم وقسوتكم، تشكو إليه بثقة المظلوم فيمن يقدر على نصره ودفع المظلمة عنه، فإنَّ دعوة المظلوم لا ترد.

لا تَظلِمَنَّ إِذا ما كُنتَ مُقتَدِراً ... فَالظُلمُ مَرتَعُهُ يُفضي إِلى النَدَمِ
تَنامُ عَينُكَ وَالمَظلومُ مُنتَبِهٌ ... يَدعو عَلَيكَ وَعَينُ اللَهِ لَم تَنَمِ

وإن من ألوان ظلم الخدم والعمّال ما يأتي:

أولاً: ما انتشر عند جملة من الناس من تعمد تأخير أجرهم الشهري إلى مدة تصل أحياناً أكثر من ستة أشهر أو أكثر، وما علم هذا الكفيل – هداه الله – أن هذه المئات المعدودة ليست مصروف هذا الخادم فقط، بل هي مصروفه ومصروف والديه

وأولاده وجملة من أقاربه، وإني لأسائل هذا الرجل: هل يرضى أن يتأخر عنه راتبه يوماً واحداً، مع أنَّه يتقلَّب في النعم، وينعم بعيش رغيد، أتأبى هذا لنفسك، وترضاه لغيرك! إذاً استجب لأمر النَّبي ﷺ حينما قال: (أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ)، رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

ثانيًا: من أنواع الظلم أيضًا اتهام الخادمة بكل خطأٍ يقع في البيت، أو نقصٍ في حاجاته، فإن الاتهام الذي ليست له قرينة في حق الخادمة وغيرها لا يجوز، أما إذا وجدت قرائن تدل عليه، فإنَّه يمكن التحقق من ذلك بالسؤال والاستفسار المجردين عن الغضب أو الاستخفاف أو التخويف، بل يجب أن يسبق ذلك كله بطمأنتها أنَّه لن يلحقها عقاب على ما بدر منها، وكن صادقًا في وعدك، وهذا لا يعني أنَّها تترك من دون نصيحة أو توجيه، بل توجَّه وتنصح بالتي هي أحسن حتى لا تقع في الخطأ نفسه.

ثالثًا: أن تجعل الأم الحق دائمًا في جانب أولادها في الحكم في مشاجرة وقعت بينهم وبين الخادمة، فهذا من الظلم الظاهر، بل يجب أن تحكم بينهم بالعدل وتقسط في ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النِّسَاء الآية ٥٨].

وليس هذا فحسب بل يجب على الوالدين أن يعلما أولادهما حال هذه الخادمة الفقيرة، ليكونوا أكثر رأفة بها واحترامًا لمشاعرها، وهذا سيجعلها تبادلهم هذه المعاملة، فتصدق في خدمتها لهم، وإسداء النصح لهم.

رابعًا: أن تُظْلم الخادمة باستخدامها ساعات أكثر من الساعات المطلوبة منها من غير رغبة منها في ذلك، ولا زيادة في مرتبها، أو أن تعمل في غير الأعمال التي تم العقد

على الخدمة فيها، فهذا فيه مخالفة للعقود التي أمر الله بوفائها فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المَائـِدَة الآية ١]، وقد امتدح الله أهل الفلاح من المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المُؤۡمِنُون الآية ٨].

ويحسن التنبيه هنا على أنَّه ليس من أعمال الخادمة تربية الأولاد، فذاك شأن الأم، وإنك لتعجب حقًا من بعض الأمهات التي تعتبر تربية الأولاد همًا بغيضًا على نفسها، فما إن تشعر بأن الخادمة عندها نوع تحمل للأطفال، إلا وألقت صغارها بين يديها، تؤكلهم وتنومهم وتلبسهم وتلعبهم، حتى يشعر كثير من الأطفال بأمومتها لهم، فيحنون إليها حنانًا ينافس حنان أمهم!

ولا تسل بعد هذا عن شخصية هذا الطفل الذي سوف تتغير عليه الأمهات كل سنتين، وتلعب بلغته الرطنات المختلفة، أما لغته العربية فقد أصبحت على لسانه أساليب مهلهلة، وتراكيب مكسرة، ثم نأتي فنشكو من آثار ذلك كلِّه!

هذه بعض أنواع الظلم التي تقع على الخادمة في بعض بيوت المسلمين هدانا الله وإياهم.

أما ثالث حقوق الخدم: فهو القيام على تلبية حاجاتها الخارجية التي تحتاج إليها أي امرأة، وخصوصًا ما يخصها كغريبة في وطن ليس بوطن لها، ولعل من أبرز ذلك تيسير وسائل التواصل مع أهلها، وإنما يحصل التفريط في هذا الحق ـ أحيانًا ـ بنوعٍ من التعمد، وذلك خشية أن يكون التواصل سببًا في تكدير صفو خاطرها، فيؤثر ذلك على عملها! أو الشعور بأنَّه قد يؤدي ذلك إلى الرغبة في العودة إلى بلادها، وهذا فيه ضرر ظاهر على أهل المنزل لا يخفى!

واسمحوا لي أن أتساءل: لماذا ننسى دائمًا أن هذه المرأة المسكينة لها زوج وأهل وصبية صغار تتقرح أكبادهم من البكاء حزنًا على فراق والدتهم، لماذا ننظر إلى مصالحنا فقط ونهمل مشاعرها وظروفها، جرّبي أيتها الأم الحنون فابتعدي عن أحد أطفالك وليس كلهم يومًا واحدًا، أو أسبوعًا واحدًا، ماذا سيحدث لقلبك إن كان قد فُطِر على رحمة الأم الشفوق، هذا إذا كان البعد مقرونًا بمعرفة حال هؤلاء الأطفال، فكيف بمن لا تعرف حالهم، أهم الآن جوعى، أهم الآن مرضى، أهم الآن في سراء أو ضراء، ماذا فعلوا في دراستهم، وهل نسوا أمهم أم مازالوا يذكرونها؟

إنني أكاد أجزم أنَّه ما من يوم يمر وإلا وصور أطفالها تتراءى أمام ناظرها، وأن طيف والديها لا يغادر مخيلتها، وأن نظرات توديع زوجها لها ما زالت محفورة في ذاكرتها، ألا يرق قلبك لها حينما تسمعها تناجيهم وغربتها تأسر لسانها، وتكبت مشاعرها، وهي تقول:

إِنّي لأَنْظُرُكُم فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ... عَلَى الأَرائِكِ مِنْ حَولِي وَجُدْرَانِ
إِذَا الصِّغَارُ تنَادَوا: (أُمّنَا) هَتَفَتْ ... فِي القَلْبِ مِنكُم نِدَاءاتٍ كَأَلْحَانِ
وإِنْ تشَاجَرَ صِبْيَانٌ عَلَى مَرَحٍ ... حَسِبْتُ بَيْنَهُمُ كَالحُلْمِ صِبْيَانِ
مَتَى أَعُودُ إِلى رُوحِي بِرُؤْيَتِكُم ... وَتَسْتَلِذُّ بِطَعْمِ النوم أَجْفَانِي؟[(١)]

فلنتق الله في هؤلاء المساكين، علّ الله تعالى أن يرحمنا برحمتنا إياهم، وأن ينصرنا بنصرتنا لهم، وأن يرزقنا بالعطف عليهم، فإن الرسول ﷺ يقول: (ابْغُونِي ضُعَفَاءكُمْ؛ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(١) أبيات من قصيدة: (رسالة خادمة لأولادها) لأخي د.خالد بن سعود الحليبي، من ديوانه: قلبي بين يديك: ١٧٣.

وهنا يحسن التذكير أنَّه من الجميل أن تقوم الزوجة بنفسها بتعليم الخادمة ما يتعلق بالأمور الشرعية اليومية أو الموسمية، كالطهارة، والصلاة، والصيام، ونحو ذلك، وليكن ذلك على فترات حتى لا تمل أو تسأم.

وكم أتمنى من الزوجة الصالحة أن تعطي خادمتها فرصة أداء العبادة كما أمر الله تعالى، فلا تشغلها بعمل أثناء حلول وقت الصلاة مثلاً، ولا تكثر عليها من الأعمال في رمضان فتذهب عليها الساعات بدون انتفاع أو أجر.

وينبغي كذلك أن تتيقظ الزوجة لأعمال الخادمة في عبادتها، بحيث لا تقرها على بدعة، أو أي نوع من أنواع الشرك الذي قد تكون اعتادته في بلدها لفرط الجهل وقلة العلم؛ لأن هذا قد يتأثر به الأولاد فيقلدوها عليه، بل هي فرصة ثمينة لتنبيهها على الصواب في ذلك، وكل ذلك يكون برفق وطيّبٍ من القول وحسن التعامل وجميل الإحسان.

أما رابع الحقوق: العلاج، ولا أظن أن يتأخر فيه كلُّ ذي قلب رحيم وصدر رؤوف، بل ينبغي المسارعة لذلك، وينبغي أن تعطى راحة عن العمل بقدر ما يوجه الطبيب؛ لقول النَّبي ﷺ: (أَلَا كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ) رواه مسلم؛ ولأن هذا يعطي للخادمة تصورًا عن الاهتمام بها ورعايتها، فهو موقف ستحفظه لرب الأسرة ولا تنساه، وبضد ذلك لو أهملها أو أخر علاجها.

وما أجمل إدخال السرور عليها في مناسبات فرح المسلمين العامة، كإهلال رمضان، والعيدين، وكذلك في مناسبات فرح المنزل الخاصة، كالزواج، أو نجاح الأولاد، أو الولادة، أو العودة من سفر، أو زوال بلاء، أو تجدد نعمة، أو نحو ذلك، وذلك بإعطائها شيئًا يناسب تلك الفرحة من هدايا مناسبة، أو شيئًا من المال؛ لتشعر بروح الأخوة الإسلامية أو الإنسانية التي تجمعنا بها، فإن (أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ

سُرُورٌ يدْخِلُهُ على مسلمٍ) رواه الطبراني وصحَّحه الألباني، ويقول النَّبي ﷺ: (في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجرٌ) رواه البخاري.

فاللهم اجعلنا ممن يحسنون إلى خلقك، فتحسن إليهم، إنك سميع مجيب.

(٣٦)

(يَحْفَظُونَ حَقَّ جِيرَانِهِم)

الجار هو ذلك الذي اختار حيَّك من بين الأحياء ليسكن فيه، واختار بيتك الموقر ليقرب منه، وفضَّلك على كثير من الناس ليسعد برؤيتك والسلامِ عليك بين الحين والآخر، واطمأنت نفسه إليك وإلى أهلك؛ ليشعر بالأمانِ على نفسه وأهله وأولاده وماله.

وقد حدَّه أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ بقوله: ((من سمع النداء فهو جار))، وقيل: ((من صلى معك الصبح في المسجد فهو جار))، وقيل: ((من سمع الإقامة فهو جار))، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: ((حد الجوار أربعون دارًا من كل جانب))، وكل من سبق يطلق عليه: (جار) وله حق الجوار.

ولعل الأرجح ـ والله أعلم ـ: أن من تعارف الناس على تسميته بالجار يسمى كذلك، وله حق الجوار، كما أشار إلى ذلك الألوسي فقال: ((الظاهر أن مبنى الجوار على العرف)).

أما الأحق بحقوق الجوار: فقد حدده لنا النَّبي ﷺ، في حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: (قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منكِ بابًا) رواه البخاري.

ولقد أدرك عباد الرحمن حقوق الجار عليهم بوصية الكريم سبحانه، التي جاءت في كتابه العزيز، مقترنة بأوجب الواجبات وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، فقال

عز وجل: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦].

فالجار جزء من إيماننا لا يكمل إلا بإكرامنا له؛ فإن الحبيب ﷺ يقول: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ) رواه البخاري.

وتبدأ رحلة الجيرةِ الطيبةِ بالحب، حينما تبذر بذرته في قلبك لجيرانك، فيبادلونك هذه المحبة، فتحبُ لهم كل خير، وترجو ألا يصيبهم مكروه، فإن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ، قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ؟ قَالَ: يحببه إلى جيرانه) رواه أحمد وإسناده جيد.

ويترجم عباد الرحمن هذا الحب بالبذلِ والعطاء، والإحسان والهدية، فعن أبي ذر ﷺ قال: (إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ) رواه مسلم.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه)، رواه الحاكم وصحَّحه الذهبي في التلخيص، والألباني في صحيح الأدب المفرد.

وصاغها أبو فراس الحَمَداني شعرًا فقال:

وكيف يَســـيغُ المرءُ زاداً وجـارُه ... خَفيفُ المِعى بادي الخصَـــاصـــةِ والجهدِ

ولقد تعلَّم الصحابة ﭫ من الرسول ﷺ حسنَ معاملة الجيران، فقد ذُبحت شاةٌ لعبد الله بن عمرو بن العاص ﭭ، فجعل يقول لغلامه: (أهديتَ لجارنا اليهودي؟ أهديتَ لجارنا اليهودي؟ فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنَّه سيورثه) والحديث رواه البخاري ومسلم.

قالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الشُّمَيْطِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى الْحَسَنِ تَشْكُو الْحَاجَةَ، فَقَالَتْ: إِنِّي جَارَتُكَ، قَالَ: كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَكِ؟ قَالَتْ: سَبْعُ دُورٍ، أَوْ قَالَتْ: عَشْرُ، فَنَظَرَ تَحْتَ الْفِرَاشِ فَإِذَا سِتَّةُ دَرَاهِمَ أَوْ سَبْعَةٌ، فَأَعْطَاهَا إِيَّاهَا وَقَالَ: كِدْنَا نَهْلِكُ))؛ أي كاد أن يهلك بتضييع حق جيرتها، ذكرها ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق.

وربما كانت الكلمةُ الطيبة للجار تصنع ما لا يصنعه المالُ أو الغذاء، فهل اخترت أجمل الكلمات تحيي بها جارك، وتسرُّ بها خاطره؟ هل أدركت حجم الجزاء الذي ينتظرك بسبب عذوبة كلامك مع جيرانك وطيبِ حديثك إليهم، وهل أدركت ما ينتظر من يؤذي جيرانه بلسانه وفحش كلامه؟ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﭬ قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقِطِ ـ أي بالقطع ـ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّة) رواه أحمد والحاكم وصحّحه، وابنُ أبي شيبة بإسناد جيد.

وقد دلت النصوص الشرعية على أن الجيران ثلاثة:

١. جارٌ له ثلاثة حقوق، وهو الجار المسلم القريب ذو الرحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة.

٢. جارٌ له حقان، وهو الجار المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام.

٣. جارٌ له حق واحد، وهو الجار الكافر، له حق الجوار فقط.

ولذا يجب أن يكون الجار مصدرَ أمن واستقرار نفسي لك ولأسرتك، فإنك تريد بحق ألا تشعر بالقلق على أولادك وأهلك ومالك في حلك وترحالك، فكن ذلك الجار الذي يبدأ بالتحية والترحيب والبشاشة والابتسامة، وكن ذلك الجار تفزعُ لفزع جارك، وتحزن لحزنه، وتفرح لفرحه، وإذا استعانك أعنته، وإذا افتقر عدت إليه بما يكيفه حاجته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة واسيته وعزيته، تعفو عن زلاته، وتستر عوراتِه، وتغض بصرك عن محارمه، ولا تسمع فيه كلامًا، بل تكون مدافعًا عنه في غيبته، وحارسًا تكون على منزله في سفره وكأنَّه بيتك وحلالك، ولا تستطيل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تكون لك وليمةُ طعام إلا دعوته أو أعطيته منها؛ تقديرًا لحقه، وإبهاجًا لقلبه، تلبي دعوته، وتهديه ما تيسر لك، وتقبل هديته مهما قلَّت، وتتناصح وتتواصى معه في تعلم العلم وعمل المعروف، بالحق والصبر، وبالحكمة والموعظة الحسنة، بل حتى إذا وافته المنية تبعت جنازتَه ودعوتَ له بالرحمة والمغفرة، ووصلتَ ذريته بالرحمة والإحسان.

وأصدق الحقوق أن تحب لجار ما تحبه لنفسك، وقد أكد ذلك النَّبي ﷺ بقوله: (لا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ أوْ قالَ: لِجارِهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه مسلم.

فلنحرص على حقوق جيراننا، فهي ليست شاقة ولا مكلفة، ولنمسح صفحات التقصير، ويكفي الجار تكريمًا وصيةُ جبريلَ عليه السلام للنبي ﷺ، ووصيةُ النَّبي ﷺ لأمته، قال عليه الصلاة والسلام: (مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) رواه البخاري ومسلم.

وروى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: (لا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَهُ فِي جِدَارِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَاللَّهِ لَأَرْمِيَنَّ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ).

ولقد خص النَّبي ﷺ النساء بالوصية بالجارة فقال عليه الصلاة والسلام: (يا نِساءَ المُسْلِماتِ، لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ) متفق عَلَيْهِ، والفِرسَن: ظِلْفُ الشاة كحافر الفرس.

فقد نهى النَّبي ﷺ في هذا الحديث النساءَ مِن استحقارِ أن تُهدي لجارتها هديةً قد تظن أنَّها غيرُ ذاتِ قِيمة، بَل ينبغي عَليها أنْ تهدي جَارتها بما هو مُتاحٌ عِندها حتى ولو قلَّ شأنه، كما أنه ينبغي للمرأةِ المسلمةِ التي أهدتها جَارتُها شيئًا ألا تحتقرَ هذا الشيء ولا تُقلل من قيمته، بل تأخذه بعين الرضا وتشكر لجارتها حسنَ صنيعها.

وما أروع أن تسري الغيرة على محارمك إلى محارم جارك، فلا تمدَّن عينيك إلى ستره أو إلى أحدٍ من نسائه، قال عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لِيَ جارتي حتى يواريَ جارتي مثواها

وقال حاتم الطائي:

نَاري ونارُ الجـارِ وَاحِـدَةٌ وإليـهِ قَبْلِـي تَنـْزِلُ القـِدْرُ
مَـا ضَـرَّ جَـارًا لِي أُجَـاوِرُه أَلَّا يكـون لِبَابِـهِ سِـتـرُ
أُغْضِـي إذا مَـا جَـارتِي بَـرَزَتْ حـتَّى يُـوارِي جَـارتِي الخِـدْرُ

ومما اشتهر في هذا الباب قول علي بن أبي طالب ﷺ: ((الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق)).

وحق لنا أن نردد لأنفسنا ولأجيالنا لنقول: (الجار قبل الدار)، فإني على يقين أن الناس ربما اشتروا الأراضي الغالية الثمن، أو المنازل العالية الكلفة، ليس إلا من أجل اختيار الجار الطيب، قديمًا وحديثًا.

ومن ذلك أن أبا جهم العدوي با ع داره بمائه ألف درهم ثم قال للمشتري: بكم تشترون جوار سعيدِ بن العاص؟ قالوا: وهل يُشترى جوارٌ قط؟! قال: إذاً ردوا عليَّ داري وخذوا مالكم؛ فإني والله لا أدعُ جوار رجل إن قعدتُ سأل عني، وإن رآني رحَّب بي، وإن غبتُ حفظني، وإن شهدتُ قرَّبني، وإن سألتُه قضى حاجتي، وإن لم أسأل بدأني، وإن نابتني حاجةٌ فرَّج عنى، فبلغ ذلك سعيداً فبعث إليه بمائة ألف درهم.

وذكر الذهبي: ((أن جارًا لأبي حمزة السكري أراد أن يبيع داره فقيل له: بكم؟ قال: بألفينِ ثمنَ الدار، وبألفينِ لجوار أبي حمزة؛ لمنزلة هذا الرجل، وإحسانِه إلى جيرانه، حَسِبَ جيرته بمثل قيمة الدار، فوجه إليه أبو حمزة بعدما سمع ذلك، وجه له بأربعة آلاف، وقال: لا تبع دارك)).

وذكر الذهبي أيضًا: أن جاراً ليعلى بن عبيد سئل عنه يعلى، وهذا الرجل اسمه الوليد بن القاسم الهمداني، فقال يعلى بن عبيد عن هذا الرجل: نعم الرجل؛ هو جارنا منذُ خمسين سنة، ما رأينا منه إلا خيراً))، فسبحان الله: ما رأى منه شيئاً يعاب عليه خمسين سنة!! فما أطيب هذا الجار.

ولنوقن بأنَّ أذية الجار لا يرضاها دين ولا عقل ولا عرف ولا طبع سليم، ويتنزه عنها عباد الرحمن الشرفاء الكرماء، لا فرق بين جار صالح أو غيره، بل حتى ولو كان كافرًا، قال النَّبي ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَاليَومِ الآخرِ، فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ) متفق عليه.

فأيُّ جار هذا الذي تتوجس منه خيفة، وتستثقل مقدمه وتفرح برحيله!!

يقول النَّبي ﷺ: (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) رواه البخاري.

وإذا وقع الأذى من الجار ـ لا قدر الله ـ فيبدأ بالصبر على أذاه ويعظه ويذكّره بالله تعالى، فقد روي أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود ﷺ فقال له: إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيّقُ عليّ، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك، فأطع الله فيه)).

فإن استجاب للنصح والتذكير، وقدَّر صبرك عليه، فالحمد لله، وإن لم يقدّر ذلك، واستطعت أن تفارق جيرته فلتفعل؛ فإن الجيرة الطيبة من السعادة، والجيرةُ السيئة تؤذن بالشقاء، قال النَّبي ﷺ: (أربعٌ مِن السَّعادةِ: المرأةُ الصَّالحةُ، والمسكَنُ الواسعُ، والجارُ الصَّالحُ، والمركَبُ الهنيءُ، وأربعٌ مِن الشَّقاوةِ: الجارُ السَّوءُ، والمرأةُ السَّوءُ، والمسكَنُ الضَّيِّقُ، والمركَبُ السَّوءُ) رواه ابن حبان في صحيحه.

وفي ذلك يقول الشاعر:

دَارِ جارَ السَّوْءِ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ   لم تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النَّقَلْ

وإني لأخشى على جار السوء من الهلكة إن اضطر جارَه إلى بيع داره بسببه، قال ﷺ: (ما مِن جارٍ يظلمُ جارَهُ ويقهرُهُ حتَّى يحملَهُ ذلكَ على أن يخرجَ مِن منزلِهِ إلَّا هلكَ) رواه البخاري في الأدب المفرد وصحح إسناده الألباني.

ولقد باع أحدهم منزله فلمَّا لاموه في ذلك قال:

يلومونني أَنْ بِعتُ بالرخص   ولم يعرفوا جاراً هناك ينغّصُ
فقلتُ لهم:كفوا الملام فإنما   بجيرانها تغلوا الديار وترخصُ

وقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ في مثل ذلك:

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي دَارًا بِرُخْصٍ   كَرَاهَةَ بَعْضِ جِيرَتِهَا تُبَاعُ

لكن إن لم يستطع بيعَ داره والانتقالَ منه بسبب أذية جاره، وزاد هذا الأذى بحيث لا يصبرُ عليه، وخشي أن يتمادى في غيه وأذيته وكيده لجيرانه، فإن من النصح له أن يوضع له حدٌ، ويمنع من تعديه على جيرانه، وتكفُ يده المعتدية بكل وسيلة شرعية نظامية، فإنَّه (لا ضرر ولا ضرار)، وحتى لا يسري الأذى إلى جار آخر، وقد دلَّ على ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاصْبِرْ، فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَقَالَ: اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ، فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ ـ أي: يلعنون ذلك الجار المؤذي فيقولون: فَعَلَ اللَّهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لَا تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ) رواه أبو داود والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي.

ولقد هجا الشاعر أحمد سالم باعطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ جار السوء فقال فيه:

وجارٍ في حُقوقِ الحَيِّ جارا   شَكا مِنه التَطَفُّلُ واسْتجارا
يُقِضُّ مَضاجِعي ليلاً ويُدْمي   مَشاعِرَ أسرَتي كَمَداً نَهارا
تَفوحُ ثيابُ ملبسه غُروراً   وينضَحُ وجهُهُ حِقْداً وعَارا
يهيمُ بكلِّ مُغْتَلِّ السَّجايا   ويصطَحِبُ الدَّناءةَ أينَ سَارا

ومما نقلَ عن لُقْمَانِ الحكيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال لابنه: ((يَا بُنَيَّ، قَدْ حَمَلْتُ الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ وَالْحِمْلَ الثَّقِيلَ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا قَطُّ أَثْقَلَ مِنْ جَارِ السَّوْءِ)).

أيها الكرام والكريمات: إن من أشد الإيذاء التطاولَ على الجار باليد، أو بسوء الحديث، أو بالاستهزاء والسخرية، أو بوضع الأذى في طريقه أو قرب منزله، أو بالسماح للصبية أن يعتدوا عليه أو على أحد من أهله، أو بإيذائه بأي لون من ألوان الأذى كالغيبة والنميمة والكيد ونحو ذلك.

ولقد استوقفني ـ يا أحبتي الكرام ـ دعاء للنبي ﷺ يقول فيه: (تعوَّذوا باللهِ مِن جارِ السُّوءِ في دارِ المقامِ، فإنَّ جارَ الباديةِ يتحوَّلُ عنكَ) رواه النسائي وصحَّحه الألباني.

فواعجبًا ممن يضطر جارَه أن يستعيذ بالله العظيم من شرّهِ وأذاه!

لنعلم أيها ـ أيها الأحبة ـ أن الله يحب منا أن نكون كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وإنَّ تلاحم الجيران على الصلاح لهو يجسد تلاحمَ هذا البلد الطيب بأسره، وكلما تلاحم البلد كلما كان أكثرَ هيبةً في قلوب أعدائه المتربصين به.

يروى أن جارًا لابن المقفع أراد بيع داره في دَيْن ركبه، وكان يجلس في ظل داره، فقال: ((ما قمت إذًا بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا، فدفع عنه ثمن الدار وقال: لا تبعها)).

الجيرة يا أحبتاه: ذكريات، فاختر كيف تكون ذكرياتك مع جيرانك، لأنَّها مهما طالت سوف تنقضي، فربما انقضت بالرحيل والتبديل إلى سكن آخر في الدنيا، وربما انقضت بالموت والرحيل إلى دار الآخرة، فسطِّر هذه الذكريات مع جيرانك بسطور الحب والسخاء والتراحم وكف الأذى، وليكن الملكان المجاوران لك أشدَّ الجيران قربًا فاحفظ حقهما فلا يريا منك إلا خيرا.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﵁ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ وَإِذَا أَسَأْتُ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ: أَنْ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

إِنِّي لأَغبطُ جَارَكُمْ لِجِوَارِكُمْ طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى لِدَارِكَ جَارَا
يَا لَيْتَ جَارَكَ بَاعَنِي مِنْ دَارِهِ شِبْرًا فَأُعْطِيهِ بِشِبْرٍ دَارَا

كان لأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ جار بالكوفة إسكافي يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جنّه الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه، ثم لا يزال يشرب الخمر، حتى إذا دبَّ الشراب فيه غنى بصوت وهو يقول:

أضاعوني وأيُّ فتىً أضاعوا ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثغرِ

ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته وهو يصلي الليل، ففقد أبو حنيفةُ صوته، فسأل عنه فقيل: أخذه العسس منذ ليال، وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة الفجر من الغد، وركب بغلته واستأذن على الأمير، فأذن له، ولم يزل الأمير يوسّع له في مجلسه، وقال ما حاجتك؟ فقال: لي جار إسكاف أخذه العسس في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليته، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة، مضى إليه وقال: يا فتى أترانا قد أضعناك؟! فقال: لا، بل حفظت ورعيت وجزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه.

أما الجار الكافر فقد أوجز الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقوق الجار الكافر، وجعلها في خمسة نقاط:

أولًا: الدعوة إلى الله، بأن يدعوه إلى الله ويبينَ له حقيقة الإسلام، حيث أمكنه ذلك، وحيث كانت لديه البصيرة؛ لأن هذا هو أعظم الإحسان وأهم الإحسان، الذي يُهديه المسلم إلى من اجتمع به من اليهود أو النصارى أو غيرهم من المشركين؛ لقوله عليه الصلاة والسلام لعلي ﷺ لما بعثه إلى خيبر وأمره أن يدعو إلى الإسلام قال: (فو اللّهِ لأنْ يهْدِيَ اللّه بِكَ رجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعم) متفق عليه.

ثانياً: لا يجوز أن يظلمه في نفس ولا في مال ولا في عرض، إذا كان ذميًا أو مستأمنًا أو معاهدًا، فإنَّه يؤدي إليه الحق؛ لكونه معصومًا بذمته أو أمانه في بلاد المسلمين.

ثالثاً: لا مانع من معاملته في البيع والشراء والتأجير ونحو ذلك، فقد صحَّ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنَّه اشترى من الكفار وهم عبَّاد أوثان، واشترى من اليهود، وهذه معاملة، وقد جاء في صحيح البخاري أنه (تُوُفِّيَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ ودِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بثَلَاثِينَ صَاعًا مِن شَعِيرٍ).

رابعًا: لا يبدأه بالسلام؛ ولكن يرد عليه السلام كما علمنا النَّبي ﷺ في قوله: (لا تَبْدَؤُوا اليَهُودَ ولا النَّصارَى بالسَّلامِ) رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إنِّي راكبٌ غدًا إلى اليَهودِ، فلا تبدَؤوهُم بالسَّلامِ، فإذا سلَّموا عليكُم فقولوا: وعليكُم)، رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

خامسًا: حسن الجوار إذا كان جارا تحُسن إليه ولا تؤذيه في جواره، وتتصدق عليه إذا كان فقيرًا، وتهدي إليه وتنصح له فيما ينفعه؛ لأن هذا مما يسبب رغبتَه في الإسلام ودخولَه فيه؛ ولأن الجار له حق، قال النَّبي ﷺ: (ما زالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بالجارِ، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّه سَيُوَرِّثُهُ) متفق عليه.

وإذا كان الجار كافرا كان له حق الجوار، وإذا كان قريبا وهو كافر صار له حقان: حق الجوار وحق القرابة.

ومن المشروع للمسلم أن يتصدق على جاره الكافر وغيره من الكفار غير المحاربين من غير الزكاة، لقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [المُمۡتَحنَة الآية ٨].

وحديث أسماء بنتِ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: (قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، قُلتُ: وهي رَاغِبَةٌ، أفَأَصِلُ أُمِّي؟ قالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ) رواه البخاري ومسلم.

أما الزكاة: فلا مانع من دفعها للمؤلفة قلوبهم من الكفار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التَّوۡبَة الآية ٦٠].

وهذه مقترحات تعزز من الصلة وتوثقُ العلاقة، وتعين بعد الله تعالى على أداء حقوق الجيرة وخصوصًا في عصرنا الحاضر، منها:

١- إيجادُ جلسة أسبوعية يجتمع فيها الجيران، يتبادلون فيها الأحاديث الطيبة، وتكونُ متنوعة الأفكار.

٢- التفطن لأحوال شباب الحي، ذكورًا وإناثًا، والحرصُ عليهم بتوجيههم نحو ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، كتحبيبهم للصلاة، وحثهم على الجد

على طلب العلم، والعمل الكريم، والتعاون في افتتاح حلقة القرآن الكريم، وغرس القيم الفاضلة في أنفسهم، وتعزيز حب دينهم ووطنهم وولاة أمرهم، وإبعادهم عن الأفكار الضالة والمنحرفة.

٣- الاشتراك في رحلات العمرة أو الحج أو الرحلاتِ السياحية داخلَ هذا البلد الكريم.

٤- عملُ المسابقات الهادفة للرجال والنساء.

٥- عمل مجموعة إلكترونية للتواصل الحديث.

٦- الحرص على المتعففين من فقراء الجيران وأيتامهم، وتلبية حاجاتهم.

٧- الشفاعة الحسنة لمن احتاجها.

٨- نشر ثقافة العمل التطوعي لدى الجميع، وخصوصًا الشباب والمتقاعدين لخدمة دينهم ووطنهم.

٩- تعزيز جانب النظافة للحي، والحفاظِ على مرافقه، سواء أكان المسجد، او المدارس، أو المراكز الصحية، أو الحديقة، أو الشوارع والأرصفة وغيرها.

١٠- التواصي على زيارة المريض، وتهنئةِ أصحاب المناسبات السعيدة.

١١- إصلاح ذات البين، وتقديمُ الاستشارة من أهل الاختصاص.

هذه جملة من الأفكار، ولا أشك أن القارئ لديه ما هو أكثر إبداعًا، والله أسأل أن يعيننا على أداء حقوق جيراننا، وأن يعفو عنا تقصيرنا، إنه سميع مجيب.

٣٧

(مَحْبُوبُونَ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ)

كم يحرص الإنسان أن يكون محبوبًا بين أفراد أسرته ومجتمعه، تألفه النفوس، وتلتف حوله القلوب، وتأنس بمجالسته، وتصغي لحديثه، فتراه يبذل من أسباب جلب المحبة ألوانًا مختلفة، فيلبس الجميل من الثياب، وينفق الكريم من الأموال، ويبذل أنواعًا من المساعدة والعطاء، ونعمت هذه الأسباب إذا تُوِجَتْ بالإخلاص والنية الصادقة مع الله تعالى.

غير أن هناك أسبابًا أخرى، هي في واقعها أسرع في النتيجة، وأنفع للمتحابين في الدنيا، وأبقى لهما في الآخرة، وعلى رأسها أن يحرص الإنسان على محبة الله له قبل محبة كل محبوب، وإنما يكون ذلك بسلوك الطريق الواضح الذي رسمه الصادق المصدوق ﷺ في اتباع أوامر الله ونواهيه، يقول سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عِمۡرَان الآية ٣١]، ويبين الرسول ﷺ تلك الخطوات التي بها يحبنا خالقنا فيقول ﷺ: (إنَّ الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) رواه البخاري.

إنه السِّرُ العجيب الذي عرفه عباد الرحمن، حتى خلَّد الله به ذكرهم، وأحبَّتهم القلوب، وتعطرت بذكرهم المجالس، واقشعرت من سيرهم الجلود والأبدان، قيام بالفرائض، وتسابق إلى النوافل، وتضحية بالنفس والمال.

وما لمحبة الله من كمالٍ إلا بمحبة حبيبه وحبيبنا محمد ﷺ، محبةٌ نقدمها بكل صدق على حشاشة نفوسنا، وفلذات أكبادنا، عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ ﷺ قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ) رواه البخاري.

وتسعد الروح بمحبة الله تعالى لها إذا أحبت صحابة نبيه ﷺ ورضي الله عنهم، وتشقى إذا هي أبغضتهم؛ يقول النَّبي ﷺ: (مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ) متفق عليه.

أيها الكريم: بالقليل من العمل، واليسير من الجهد تصل إلى هدفك من محبة الناس لك، أتراك تتعب إذا مددت يدك الكريمة تصافح بها يد أخيك؟

قد يمكثُ الناسُ دهرًا ليس بينهمُ ... ودٌ، فيزرعه التسليمُ واللطفُ

إنه طريق إلى المحبة لا نشك في نتائجه، كيف لا والرسول ﷺ يقول: (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ) رواه مسلم.

كثيرة هي الزيارات الاجتماعية في مجتمعاتنا، حتى عُقِدَت لها جلساتٌ دورية، وأماكن ثابتة، لكن يجب ألا نفوّت فيها جائزة عظيمة تجتنى من زيارةٍ إيمانية، يفوح شذاها بأعطر

التكريم من الكريم، وتهب عليها نسائم المحبة الإلهية، ولنصغ إلى مقدار هذه الجائزة التي تهفو لها قلوب عباد الرحمن، وتشتاق إليها نفوس الطيبين: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷿، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ) رواه مسلم.

أيُّ فضلٍ هذا، وأيُّ سبيلٍ للمحبة أعظم من هذا السبيل!

إنَّ ابتسامةً حانية، ممزوجة بحسن الاستقبال، تنبع من قلبٍ صاف، تسبق مصافحتك لأخيك، سمتها الفرحة بأخيك المسلم، والله إنها لتزرع في قلبه بذورًا لا تعرف بعد ذلك إلا السموق والجمال والثمر اليانع، يقول الحبيب ﷺ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ) رواه الترمذي وحسَّنه، وصحَّحه الألباني.

بل أيننا من قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المَائـِدَة الآية ٥٤].

لعلك أدركت سر دعوتي إليك بالفوز بمحبة الله قبل أن تبحث عن محبة الناس لك، لأنني لا أسعى أن تصل فقط لمحبة الناس لك، ولكني أريدك أن تصل إلى درجة قد لا تخطر على بالك، أدركها عباد الرحمن، وهي: محبة الله تعالى لك، ثم محبة أهل السماء لك، ثم محبة أهل الأرض لك، الأمر بمحبتهم لك أمر إلهي عظيم، يفوز به من أحبه الله تعالى ثم أمر بمحبته.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ) رواه مسلم.

ثم إنَّ من طلب الألفة بالناس، ينبغي أن يكون صدرًا واسعًا لأخطائهم، أمينًا على ودائعهم، غافرًا لزلاتهم، قابلاً لأعذارهم، موقرًا لكبيرهم، وراحمًا لصغيرهم، وساترًا لعوراتهم، مدافعًا عن أعراضهم، فَرِحًا لأفراحهم، وحزينًا لأحزانهم، وجابرًا لكسرهم، وناصحًا لهم، وحريصًا على إسعادهم، له عقلٌ يتسع لآرائهم ولو لم يقتنع بها أو لم يستطع برأيه أن يقنعهم.

ولا يعني ـ أيها الأحبة ـ طلبُ محبة الناس إرضاءهم بالمعاصي أو عدم مناصحتهم في الخطأ، أو عدم تعويديهم على قبول النقد البنّاء الذي يبني ولا يهدم وخصوصًا إذا كان مبرءًا من الحقد والحسد، بل النصح مطلوب، وضبطه بالحكمة والموعظة الحسنة هو طرق المحبة الحقيقية بين الناس، فيجب ألا نفرِّط فيه.

اللهم أبعدنا عن مواطن سخطك، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك، إنك سميع مجيب.

٣٨

(أَهْلُ بَصِيْرَة)

كم يبذل الإنسان من عوامل النجاح ليبلغ مراده، وكم هي الوسائل التي يسأل عنها لتحقيقه هذا الهدف، ولربما تعلق بأسباب دنيوية كثيرة ومتنوعة، مِنْ طلب المساعدة من غيره ليدلُّوه على الطريق وليحصل على بغيته، والخَلْق وما يملكون ـ بلا ريب ـ جعل الله تعالى لهم من العقول ما يهتدون بها إلى التوفيق بعد توفيق الله تعالى، لكن مهما كان فإن آراءهم عرضة للخطأ، ومشورتهم تحتمل الصواب وضده، من هنا كان لعباد الرحمن الأخيار وسيلة جعلت لهم من نور الله نورًا يمشون به في الناس، ينير لهم طريق الحق، ويدلهم نحو الصواب، إنه اتباع هدي الله تعالى ورسوله ﷺ، أمَا نقرأ في كتاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

[الحديد الآية ٢٨].

إنها البصيرة التي أكرم الله عباده الطيبين، تكون لهم فرقانًا بين الحق والباطل، يتضح بها المنهج، وتبين لهم به معالمه؛ حتى لا يتأرجحون بين الأهواء، ولا تختلف عليهم السُبُل، والسبيل إلى ذلك باختصار العمل بالتقوى، قال البصير سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال الآية ٢٩].

وما التقوى؟ التقوى: أن تأتمر بأمر الله، وتجتنب عما نهى الله عنه، والاستقامة على ذلك هو النور في الدنيا والفوز في الآخرة.

لا تستبعد أن تجد من يرزقه الله البصيرة في دينه ودنياه، حينما يسخِّر كلَّ نعم الله تعالى عليه في طاعته وشكره، تأمل معي هذا الحديث العظيم الذي سيحمل شوقك إلى ميدان الطاعة، ثم يكرمك بعدها ببصيرة ربانية كريمة، ترى من خلالها النجاح والفلاح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) رواه البخاري.

فانظر هذا الفتح العظيم لمن اتقى الله تعالى، والتزم فرائضه، وجاهد نفسه على النوافل والسنن، إنه سيفوز بتوفيق بعد توفيق، وفلاح يلحقه فلاح.

قال الجرجاني: ((البصيرة هي: قوة القلب المنوَّر بنور الله يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، وهي بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها)).

والفراسة نوع من هذه البصيرة؛ إذ أنَّها كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((خاطر يرد على القلب ينفي ما يضاده، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانًا فهو أَحَدُّ فراسة، وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير، فلا تكاد فراسته تخطئ، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام الآية ١٢٢]، كان ميتًا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له القرآن والإيمان نورًا يستضيء به في الناس على قصد السبيل ويمشي به في الظلَم والله أعلم)).

وفي موضعٍ آخر يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إنَّ الفراسة ليست من علم الغيب، بل علاَّم الغيوب قذف الحق في قلبٍ قريب مستبشر بنور غيرِ مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور)).

والنَّبي ﷺ سيّد هؤلاء الصالحين الذي يكرمهم الله تعالى بالبصيرة، حتى وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٠﴾ [مُحَمَّد الآية ٣٠].

ومن سار على نهجه في حسن العبادة والتقوى نال قريبًا من هذه الدرجة الرفيعة من النور والهدى، قال النَّبي ﷺ: (إنَّ للهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بالتَّوَسُّم) رواه الطبراني والبزار في الأوسط وإسناده حسن.

وهذا مصداق قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحِجر الآية ٧٥]؛ أي: المتفرّسِين كما يقول بعض أهل العلم.

ودعونا نأخذ جولة سريعة في عقول أهل البصيرة والفراسة، فهذا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: ((ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت: أفقيهٌ هو، أوْ غير فقيه)).

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في النَّبي ﷺ:

إنِّي توسّمتُ فِيكَ الخيرَ أعْرِفُه ... واللهُ أعلمُ أنِّي ثابتُ البَصَرِ

وقال آخر في عبيد الله بن العباس رضي الله عنه:

تَوَسَّمْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً عَلَيْهِ   وَقُلْتُ: الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ

ومن أطرف فراسة الصالحين: أنَّه رُوِي أنَّ الشافعي ومحمد بن الحسن رحمهما الله تعالى كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد، فقال أحدهما: أراه نجارًا، وقال الآخر: بل حدَّادًا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنتُ نجارًا وأنا اليوم حدادٌ!!

وستسألني ما الطريق باختصار إلى هذه البصيرة؟ والجواب سأتركه لأهله من أهل البصيرة والهدى، فإنَّ عمرو بن نجيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان شاه الكَرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حادَّ الفراسة لا يخطئ ويقول: ((من غضّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة، وظاهره باتباع السُّنَّة، وتعوّد أكل الحلال لم تخطئ فراسته)).

أضف إلى ذلك، أن القضية ليست ذاتية، بل إنَّ فيها من الخير ما تصلح به المجتمعات والأمم، فالنور لن يكون لصاحبه فحسب، بل إنه سيمشي به في الناس، فيكون هاديًا مهديًا، صالحًا مصلحًا، مباركًا أين ما كان، حتى يكون محل الثقة بين المسلمين، يستنيرون برأيه واستشارته وقوله، لما رأوا من توفيق الله تعالى له.

فالآن شمر عن همَّتك، واستقم كما أمرت، وأبشر بالنور والهدى والتوفيق والفلاح، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وأسأل الله لي ولك نورًا تمشي به في الناس، إنه سميع مجيب.

٣٩

(أَهْلُ وَرَع)

حينما يكثر اللهث خلف سراب الدنيا، وتشتبه الأحوال، ويختلط الحلال فيها ببعض الحرام، وتصبح الحياة المرفَّهة جاثمة على الأنفس بطلب الكماليات فيها، يغدو جملة من الناس في سباق نحو الاستكثار من الأموال، والتنافس في التجمل بمظاهر الفخامة والدعة، حتى يبلغ ببعضنا أنَّه لا يهمه من أين سيكون في مثل هذه الحال وكيف! المهم أن يكون حاله كحال غيره من أهل الترف والغنى!

من هنا تسمو أرواح عباد الرحمن الأخيار لتكون الأنموذج الفريد في الورع، حيث لا يطيب لأنفسهم درهمًا يشكّون في حِلِّه، ولا تهنأ لبطونهم لقمة يظنون أنها حرام، ولا ترتدي أبدانهم كساءً يشعرون بأنَّه ليس لهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ الله: ((وقد جمع النَّبي ﷺ الورع في كلمة واحدة فقال: (مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني، فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع)).

والورع طريق للعبادة وممهد لها، حيث تتربى النفس على العبودية لله تعالى، والاستسلام له والخضوع له، فقد جاء في حديث أبي هريرة ﵁: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ) رواه ابن ماجه، وفي الزوائد: هذا إسناد حسن.

وصدقني يا صاحبي أن الورع بينه وبين القلب خط ساخن، كلما نشط الورع ضخ إلى القلب دم الإيمان، فامتلأ حياة ونشاطًا.

تأمل معي كيف ربط النبي ﷺ بينهما فقال: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه البخاري.

هذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجيئه غلامه بشيء فيأكله، فيقول له الغلام: ((أتدري ما هو؟ تكهَّنت في الجاهلية لإنسان وما أُحْسِنُ الكهانة، ولكني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبوبكر يده في فمه فقاء كل شيء في بطنه، وقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، ثم دعا فقال: اللهم إنِّي أعتذرُ إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء)).

وتأتي أختُ بِشْر بن الحارث إلى الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقالت له: ((إنَّا قومٌ نغزل بالليل ومعاشنا منه، وربما يمر بنا مشاعل بني طاهر ولاة بغداد ونحن على السطح فنغزل في ضوئها ونحن على السطح، فنغزل في ضوئها الطاقة والطاقتين، أفتُحِلُّه لنا أم تحرمه؟ فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أخت بِشْر. وهو ممن عُرِفَ بورعه وزهده. فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ الله: آهٍ يا آل بشر لا عدمتكم، لا أزال أسمع الورع الصافي من قِبَلِكم)).

قال غيلان بن سلمة الثقفي:

وإنِّي بحمْدِ الله لا ثوبَ غادرٍ ... لبِسْتُ ولا من غَدْرةٍ أتقَنَّعُ

وإنَّ الورع يحتاج إلى دربة ومهارة وإرادة، حتى إذا ترقَّى الورِع عن سفاسف الدنيا وغدت له قوة على هوى النفس الأمارة بالسوء، لم يكن يتخلَّف عن موطنٍ واحدٍ من مواطن الورع.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتورَّع من شيء واحد، لم يكن وَرِعًا، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعتَ الله تعالى قال عن نوح عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هُود الآية ٤٥]؟ فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هُود الآية ٤٦])).

وليس الورع في الطعام واللباس ونحو ذلك فحسب، بل ربما كان في أشد من ذلك وهو الكلام، فعن يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((إنك تكاد تعرف ورع الرجل في كلامه إذا تكلم)).

وليس معنى هذا أن يصمت العالِم عن العلم النافع وَرَعًا، فليس هذا من الورع المحمود، فقد سُئِل ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الورع فقال: ((الورع: طلب العلم الذي يعرف به الورع، وهو عند قوم: طول الصمت وقلة الكلام، وما هو كذلك، إن المتكلم العالم أفضل عندي وأورع من الجاهل الصامت)).

ومن استهان بالورع وابتعد عن الامتثال به ربما أصيب بموت القلب، فكان ممن لا يفرِّق بين حلالٍ ولا حرام، فعن عبد الله بن أبي زكريا قال: ((من كثر كلامُه، كثر سَقَطُه، ومن كثر سَقَطُه قلَّ ورعُه، ومن قَلَّ ورعُه أمات اللهُ قلبَه)).

وإنَّ من أرفع مقامات الورع ترك ما اشتبه على المؤمن وتردد بين الحلال والحرام؛ قال يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الورعُ: الخروجُ من كل شبهة)).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما رأيت أسهلَ من الورع؛ ما حاك في نفسك فاتركه)).

وقال سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الحلال هو الذي لا يُعصى الله فيه، والصافي منه الذي لا يُنسى الله فيه)).

وسأل الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ غلامًا فقال له: ((ما ملاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما آفتُه؟ قال: الطمع، فعجب الحسن منه)).

وقال بعض السلف: ((لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس)).

وقال بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ((كنَّا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام)).

ولذا لا ينبغي أن نتعلل بإقدام الناس على ما يشتبه من الحلال والحرام، أو كثرة المنزلقين في ذلك، فإنما يحاسب المرء وحده بين يدي الله تعالى، فهل أعددنا للسؤال جوابًا!

اللهم اجعلنا من عبادك الورعين المخلصين، إنك سميع مجيب.

٤٠

(أَهْلُ زُهْدٍ)

الحديث عن الزهد شقيق الحديث عن الورَع، وكلاهما من صفات عباد الرحمن، فما الفرق بينهما، فإنَّهما كثيرًا ما يقترنان في الحديث؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة)).

لنتأمل كلام السلف عن الزهد، لنعرف كيف أولوه اهتمامهم؛ ليزكُّوا به أنفسهم من التعلق بالدنيا الفانية.

فإنَّ من الزهد أن توقن أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا، قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الزهد في الدنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكلِ الغليظ، ولا لُبْسِ العباء)).

وإنَّ من الزهد أن تترفع عن اللهث خلف سراب المنافع الفانية؛ لتبقى في سلوة بالمنافع الباقية، قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إنَّ الله عز وجل سَلَبَ الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب وُدَّادِه؛ لأنَّه لم يرضها لهم)).

وقد سهَّل ابنُ الجلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ على السالكين الزهد فقال: ((هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها)).

وإن المثلَ النبوي الكريم الذي صوَّره النَّبي ﷺ لأمته لهو خير ما يُضرب مَثَلاً للزهد في الدنيا، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: ((نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا

فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فدُنيا كظلٍ زائلٍ يجب ألَّا تأخذ من همك الكثير، فلا ينبغي أن تتحسَّر على ما فات منها، ولا تفرح بما جاءك منها، فقد سُئِل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الرجل يكون معه ألف دينار: هل يكون زاهدًا؟ فقال: ((نعم، على شريطة ألا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت)).

والزاهد ليس هذا فحسب، بل تراه كذلك شاكرًا في السِّراء، وصابرًا في البلاء، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن كما بين ذلك النَّبي ﷺ، وقد قيل لسفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أيكون الرجل زاهدًا ويكون له المال؟ قال: نعم، إن كان إذا ابتُلِيَ صبر، وإن أُعطي شكر)).

وإن الصالحين بالزُّهد لأسعد من أرباب الأموال بالأموال؛ حيث يشعرون بالتوفيق إليه، وإنَّ نظرتهم إلى الدنيا لا تقودهم إلى التعلق بها، فعن أحمد بن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((سمعتُ المضَّاء سأل سِبَاعًا الموصلي فقال: يا أبا محمد، إلى أيِّ شيءٍ أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس به)).

ومن أروع زهد عباد الرحمن في الدنيا، زهدهم في مجالس الانحراف واللغو، فبه يصونون أوقاتهم من العبث والضياع، فعن إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إنما زَهِدَ الزاهدون في الدنيا اتقاءَ أن يشركوا الحمقى والجهال في جهلهم)).

بل نظروا إلى المتعلقين بالدنيا الباكين على زهرتها وحطامها بأنَّهم أسرى لها، وأنَّ من اشرأَبَّت أعناقهم إلى الجنَّة هم الملوك، فقد قال رجل لمحمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أوصني، قال: أوصيك أن تكون مَلِكًا في الدنيا والآخرة، قال: كيف لي بذلك؟ قال: الزهد في الدنيا)).

وإنّما يكون العبدُ الصالح في الدنيا والآخرة ملكًا، حينما لا تحكمه الشهوات أو تغويه الشبهات، بل سائرًا على منهج الحق لا يحيد عنه، فلا تغرُّه دنيا، ولا تسقطه شهوة، عَرَف لهذه الدنيا كيف يُسار عليها، وحاله كحال من وصفهم الناظم فقال:

إن للهِ عِـبـادًا فـطـنـا ... تركوا الدنيا وخافوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلمَّا عَلِمُوا ... أنَّها ليستْ لحيّ وَطنا
جعلوهـا لجُـةً واتخـذوا ... صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنَا

ولا تظن أيها العبد الصالح أن الزهد في الدنيا يمنعك من تذوق اللذيذ من الطعام، أو لبس الجميل من الثياب، أو الزواج بالنساء، أو فراق النوم، أو نحو ذلك، فليس هذا من منهج الإسلام، ولكنَّ الزهد ألا تتعلق بشيء من ذلك، أو تشعر بالأسف على فوات شيء من ذلك؛ لأن ذلك ربما كان ضعفًا في أَمَلِك فيما أعدَّه اللهُ لك في الجنَّة، فهل تحب أن تذهب كلُّ طيباتك في الدنيا!!

فلا ترفض النعم، ولكن لا تسرف فيها، خذ منها كعابر سبيل، ولا تستكثر منها، ولا تشعر نفسك بأنَّ مثلك لا بد أن يعيش عيشة أهل الثراء والرفاهية، ولا تكن هي منتهى تطلعك، بل ليكن نظرك أبعد؛ حيث الجنان العالية عند ربك سبحانه حيث الفرحة التامة والنعمة الكاملة والحياة الباقية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن وغيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك، فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه)).

ولتعلم أن الشغف بالترفه وبسط العيش والأكل من لذيذ الطعام إن لم يُصحب بشكرٍ دائم وإرجاعٍ للفضل لأهله، يُطْغِي المرء، ويشعره بأنَّ هذا هو ما يجب أن يكون في حقه، وهنا يقع المرء فريسةً للتطلع إلى الدنيا، فلا يزيده ذلك إلا طول أملٍ فيها، مع تعلقٍ مذموم بنعمها الزائلة.

ومهما قلنا ومهما نقلنا من أحاديث الزُّهَاد، إلا أن كلام رب العالمين هو مشكاة ذلك كلِّه، فقد قال سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد الآية ٢٠].

فاللهم لا تعلِّق قلوبنا بزهرة الدنيا الفانية، وارزقنا منها الرزقَ الحسن الذي يعيننا على شكرك وحسن عبادتك، واجعله بلاغًا إلى جنتك ورضوانك، فإنك سميع مجيب.

٤١

(أَهْلُ سَمَاحَة)

السماحة صفةٌ يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، فترى صاحبها محبوبًا بين الخلق، ومحبوبًا من الخالق؛ لأنَّه لا يدع للكره والبغضاء محلاً، كما أنَّه لا يترك للتعسير والشدة مكانًا.

ولكنْ إذا ما جَلَّ خَطْبٌ فسامحتْ به النفسُ يومًا كان للكرهِ أَذْهَبَا

إننا نعني بالسماحة هنا: السهولة في التعامل القلبي والمادي والخُلُقي بما ييسِّر على الناس ولا يضيِّق عليهم.

ولاحظ ـ أخي الكريم أختي الكريمة ـ أن السماحة تبلغ قمتها حينما يخالف السمح فيها هواه، متفائلًا بأن الله سيجعل في تيسيره على غيره الخير والبركة، فينطلق في سماحته بالرضا، فتعود السماحة بالراحة على قلبه، والسعادة على نفسه.

وإن من مظاهر سماحة عباد الرحمن: طلاقة الوجه واستقبال الناس بالبِشْر، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ) رواه مسلم.

كما أن مبادرة الناس بالتحية والسلام والمصافحة وحسن المحادثة من سماحة النفس ولينها.

فإذا ما توّج المسلم ذلك كله بحسن الصحبة والعشرة، متغاضيًا عن الزلات والهفوات، كان سمحًا لمن حوله ممن تجب رعايتهم أو تحسن معاملتهم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ((قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ) رواه أحمد وصحّحه الألباني.

ويبشِّر النَّبي ﷺ السمح باليسر في حياته فيقول: (اسمح يُسْمح لك) رواه أحمد وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ولما كانت الأنفس تبلغ شُحَّها في حال القضاء والاقتضاء والبيع والشراء؛ لما جُبِل عليه الإنسان من حب الدنيا وزهرتها، رغَّب النَّبي ﷺ في السماحة في ذلك كلِّه فقال عليه الصلاة والسلام: (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا: سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى) رواه البخاري.

يا أهل السماحة، بل يا أهل الجنَّة الذين وعدهم النَّبي ﷺ بها حينما يطوِّعون هذه النفس للتيسير على المسلمين تأمَّلوا قول ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ) رواه مسلم.

هل علمتَ ـ أيها السمح الكريم ـ أن السماحة سبب للصفح والعفو عن ذنوبنا الكثيرة مهما بلغت؟ ضع نفسك هذا الموقف الذي حكاه النَّبي ﷺ فقال: (أُتِيَ اللَّهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾ [النِّسَاء الآية ٤٢]، قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللَّهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي) رواه البخاري ومسلم.

فهنيئًا للسمح بالفوز بالجنَّة والنجاة من النار، فقد قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ) رواه الترمذي وحسَّنه.

والمجتمع حينما يقاد ويدار من قبل أهل الخير والسماحة تحُلُ فيه البركة والنماء، قال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كان يقال إذا أراد الله بقوم خيرًا أمَّر عليهم خيارَهم، وجعل أرزاقهم بأيدي سمحائهم)).

ولذا قاد الصحابة ﷺ الدنيا في زمانهم بالسماحة واللين، حتى قال فرقد السبخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لم يكن أصحاب نبيٍ قط فيما خلا من الدنيا أفضل من أصحاب محمد ﷺ، لا أشجع لقاءً ولا أسمح أكفّا)).

وإن لسان حال أحدهم يقول كقول ابن مقبل:

وإِنِّي لأَسْتَحْيِي وفِي الحقِ مَسْمَحٌ إِذا جَاءَ باغي العرفِ أنْ أَتَعَذَّرَا

وخذ بوصية الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أمرك كلِّه حينما قال:

وعَاشِرْ بمَعْروفٍ وسَامِحْ مَن اعتدَى وَدَافِعْ ولكنْ بالتِي هيَ أَحْسَنُ

أيها السمح الكريم: فز بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ والملائكة المقربين، وخذ إشراقة الوجه على محياك السمح في الدنيا والآخرة.

ونل بسماحتك البركة في رزقك، والتيسير في أمورك بإذن الله تعالى.

ولا تسل بعدها عن نعيم السعادة النفسي الذي سيجده قلبك، وعن التفاف الطيبين من حولك.

بل إنك ستكون أنموذجًا فريدًا حتى لغير المسلمين، الذين سيحبون الدين من خلال سماحتك وطيب خلقك.

وإياك أن يفسِّر الشيطان لك سماحتك بأنَّها سذاجة أو قلة ذكاء، فدعهم وما يقولون، فإن البائس الحقيقي هو الذي يعيش وقد تراكم الحقد في قلبه، وحمَّل من صدره من الشحناء ما تنوء الجبال بحمله، قد يبست شفتاه من قلة الابتسامة، واكفهر وجهه وثبت على العبوس، يظن كل من حوله يخادعه، أو يكيد له، فلا يصبح إلا كارهًا، ولا يمسي إلا مُشاحنًا، فما أبعد الناس عنه، وما أشدَّ استثقالهم لمجالسته، يدارونه في الحديث، ويتحاشون الحوار معه، وراءه ألف ظن وظن، لا إله إلا الله، كيف سيتحمل عقله وقلبه كل هذا!

أوَ يظن بعض الناس أن المجد فقط يحصل بالعلم أو بالمال أو بالنسب فحسب! كلا والله، لربما بلغ المرء العلا من المراتب بسماحته وفضله:

لنْ يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإنْ شَـرُفُوا ... حتى يذلوا وإن عزُّوا لأقوامِ
ويُشـتَموا فترى الألوانَ مسـفرةً ... لا صفحَ ذُلِّ ولكنْ صفحَ إكرامِ

اللهم أكرمنا بأخلاق النَّبي ﷺ، واجمعنا به في جنات النعيم، إنك سميع مجيب.

٤٢

(أَهْلُ شَجَاعَة)

عباد الرحمن أهل الشجاعة والإقدام، قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الشجاعة: بذل النفس للذود عن: الدِّين، أو الحريم، أو عن الجار المضطهد أو عن المستجير المظلوم، ومن هُضِم ظلمًا في المال والعرض وسائر سبل الحق، سواء قلَّ من يعارض أو كثر)).

وإني أرى أول بوادر الشجاعة لدى المرء بل أولاها هي الشجاعة ضد هوى النفس؛ بحيث لا تكون ضعيفة أمام الشهوات أو الشبهات، أو خوَّارة في قطع كل علاقة مع الرذيلة أو أصحابها.

وتأمَّل كلام الطرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يحدثنا عن قوة القلب وشجاعته كيف تكون وكيف ينبغي أن تكون، فإنَّه يقول: ((فبقوة القلب يصاب امتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر، وبقوة القلب يصاب اكتساب الفضائل، وبقوة القلب يُنتهى عن اتباع الهوى والتمضخ بالرذائل، وبقوة القلب يصبر الجليس على إيذاء الجليس وجفاء الصاحب، وبقوة القلب يكتم الأسرار ويدفع العار، وبقوة القلب يقتحم الأمور الصعاب، وبقوة القلب يتحمل أثقال المكاره، وبقوة القلب يصبر على أخلاق الرجال، وبقوة القلب تنفذ كل عزيمة أوجبها الحزم والعدل)).

من هنا يجب أن نعلم أنَّه ليس من الشجاعة الاستمرار في التهور والخطأ، وتحدي الحق وأهله، أو التمرد على جماعة المسلمين وولي أمرهم، ولا في ارتكاب المحظور والمحرمات حتى يسميها بعض المغرورين: مغامرات! بل هي جهالة وحماقات.

فما أروع الشجاعة تأخذ بصاحبها نحو الرجوع إلى الحق، والاعتراف بالخطأ، والاعتذار من الناس.

أما الشجاعة في مواجهة أعداء الدين وفي ساحة النزال، حينما تستباح حرمة الدين، ويغزو العدو أرض المسلمين ومقدساتهم، ويأمر الحاكم المسلم بالدفاع عن أرض الإسلام، فهذا من أمر الدين وذروة سنامه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النِّسَاء الآية ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٤٦].

وهكذا شق النَّبي ﷺ طريق الشجاعة لأمته؛ لتبقى شامخة قوية لا يطمع فيها عدو، ولا يجترأ على حرمتها باغٍ، فكان المثال الأعلى في الشجاعة وقوة البأس على المعتدين.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَقَهُمْ عَلَى فَرَسٍ وَقَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا) أي: أسرع فرسًا، رواه البخاري.

والشجاعة كما تكون بقوة البأس تكون بالحزم في الحق والأمر به من ولاة المسلمين في: إقامة العدل ورد المظالم، وقتال المرتدين، وكبح الخوارج والضالين، فهل سينسى التاريخ أبا بكر الصديق ﷺ في شجاعته في قتال المرتدين؟ حتى قال قولته الشهيرة: ((والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه)).

ودع للشجاعة أن تتكلم عن علي بن أبي طالب ﵁، فهو الذي كان يقول: ((والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتة على فراش))، وقال بعض العرب: ((ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب ﵁ إلا أوصى بعضنا على بعض)).

فماذا عسى أن تُكْسِبَ الشجاعةُ صاحبها؟

إنها تُكْسِبُه حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه، ثم إنها تعزز لديه جانب الإيمان بالله وبالقدر خيره وشره، وتزرع في قلبه فضائل النجدة والمروءة والنخوة.

هل عَلِمَ الشجاع أنَّه محترم ومُقدَّر حتى من أعدائه؟ حتى قيل: ((الشجاع محبب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه!)).

فماذا ستصنع الأوطان بحثالة الجبناء إذا داهم العدو البلاد أو جرأ على مقدراتها السفهاء!

بل كيف يحمي وطنَه ودينَه من لا يستطيع أن يحمي نفسه وعرضه!

غير أن الشجاعة لا تأتي من غير صبر، ولا تدوم من دون استغاثة بالله وتوكل عليه، بل حداؤها الذكر، وزادها الثبات.

قال القوي سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال الآية ١٥].

أيها الأفاضل: ولا أشك أن المرء يولد شجاعًا غير مبالٍ بالمخاوف، غير أن والديه أحيانًا يزرعون في قلبه الخوف من المجهول، كالظلام، والمستقبل، والتهيب من بعض فئات المجتمع، حتى ينشأ الولد جبانًا يخشى من ظله كما يقولون.

ولا نعني بذلك أن تنشأ الذرية على التهور وعدم المبالاة، ولكن الشجاعة خُلُقٌ وسط، ينهض بصاحبه نحو الفضائل ورد المظالم، ويمنحه بعد الله تعالى القوة على متاعب الحياة ومواقفها المختلفة، وتعده لحراسة دينه وعرضه وبلاده حينما تدعو الحاجة.

فهل قرأ أولادنا عن حمزة والفاروق، وعن خالد بن الوليد والبراء وطلحة بن عبيد الله، وعن نور الدين وصلاح الدين، رضي الله عنهم أجمعين، وهل شغفت قلوبهم بالفاتحين وبأخلاقهم.

هل علَّمنا أولادنا أن الشجاعة أخت الرحمة، وأن ما موضع فيه شجاعة إلا سبقتها الرحمة، وأن الشجاعة لا تعني الظلم ولا الاستكبار ولا الغطرسة ولا التجبر!

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ...) الحديث رواه مسلم.

فهيَّا نضع للشجاعة أسسها المبنية على حب الدّين والوطن وبلاد الإسلام ومقدساته، تحت راية ولي أمر المسلمين، مبتعدين عن الأفكار المنحرفة والضالة والخارجة عن سبيل أهل السُّنَّة والجماعة؛ نحفظ بها عقيدتنا وأوطاننا، ونجدد العهد فيها بالسمع والطاعة لولاة أمرنا، حتى نكون جسدًا واحدًا، وصفًا واحدًا، لا تفرقه الأهواء ولا الشهوات ولا الشبهات.

اللهم احفظ علينا أمننا ورخاءنا وخيراتك علينا، إنك سميع مجيب.

٤٣

(أَهْلُ شُورَى)

الاستشارة: استنباط المرء الرأي من غيره فيما يعرض له من مشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردد فيها بين فعلها وتركها، ولربما كانت لحل مشكلة، أو طلبٍ لعدد من الحلول المناسبة؛ ليختار المستشير واحدًا منها حسب حاله.

ولقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ باستشارة أصحابه فقال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٥٩].

قال الناظم:

شاورْ صديقَك في الخفيِّ المشْكلِ واقبلْ نصيحةَ ناصحٍ متفضلِ
فاللهُ قد أوصى بذاك نبيَّه في أمرِهِ شاورْهمُ وتوكلِ

وإنَّ مشاورة الحكماء من صفات الكمال في البشر، ولذا كان من كمال عباد الرحمن وفطنتهم أنَّهم يستشيرون غيرهم، ويضيفون عقول الآخرين إلى عقولهم.

غير أنَّهم لا يضعون مشورتهم إلا في أهلها، فمن الذي يستحق أن يستشار؟

لقد ذكر أهل العلم في المستشار صفات، من أبرزها:

عقل راجحٌ مع تجربة سالفة، قال أبو الأسود الدؤلي:

وما كلُّ ذي لُبٍ بمؤتيك نُصْحَه ... ولا كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ
ولكنْ إذا ما استجمعا عند ... فحقٌ له من طاعةٍ بنصيبِ

ثانيًا: أن يكون ذا دين وتقىً: فقد ورد في الأثر عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قوله: ((من أراد أمرًا فشاور فيه امرأً مسلمًا وفقه الله لأرشد أمره)).

ثالثًا: أن يكون ناصحًا ودودًا، فإن النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأي.

رابعًا: أن يكون المستشار هادئ النفس، غير مشغول البال، ولا مرتبط بهمّ أو غمٍ، فلا يستطيع أن يعطي المشورة الحكيمة من منعته الصوارف العقلية أو غيرها.

خامسًا: أن يكون مخلصًا في مشورته، لا يبتغي وراءها مصلحة ذاتية ليحقق بها هوى في نفسه، أو مصلحة راجعة إليه، فالمستشار مؤتمن.

تأمل ـ يا رعاك الله ـ هذه الصفة الرائعة لعباد الرحمن كيف توسَّطت الشورى بينها لتأخذ أهميتها ولفت النظر إليها، قال الحكيم سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ [الشُّورَى الآية ٣٨].

وأبشع شيء أن يؤتى الإنسان مما يظنه مكان الأمن والأمان، تلك هي الخيانة التي يتلبس بها بعض من وضعوا أنفسهم مكان الاستشارة، وما هم إلا كالذئاب، يجرون فريستهم إلى هلاكها، ثم ينقضوا عليها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنِ اسْتَشَارَهُ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ رُشْدٍ فَقَدْ خَانَهُ، وَمَنْ أَفْتَى بِفُتْيَا غَيْرِ ثَبْتٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ) رواه أحمد وقال أحمد شاكر: صحيح.

وتأمَّل معي كيف تمحَّض النصح من النَّبي ﷺ لهذا الصحابي حينما جاء إلى النَّبي ﷺ يشاوره في الجهاد فقال: (أُجَاهِدُ؟ قَالَ: لَكَ أَبَوَانِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) رواه البخاري.

إن من الخطأ حقًا أن يعتقد بعضنا أن استشارة أهل الرأي والتجربة نقص في ذاته، أو يدل ذلك على ضعفه في مواجهة ظروفه، بل لنعلم أن هذا منهج الراشدين وذوي الألباب.

قال بشَّار بن بُرد:

إذا بلـــغَ الـــرأيُ المشـــورةَ فاســـتعن ... بـــرأيِ نصـــيحٍ أو نصـــيحةِ حـــازمِ
ولا تجعـــلِ الشـــورى عليـــك غضاضـــةً ... فـــإنَّ الخـــوافي قـــوةٌ للقـــوادمِ

عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((كان أبو بكر الصديق ﷺ إذا ورد عليه أمرٌ نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السُنَّة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين فاستشارهم)).

ولهذا ينقسم الناس في حال المشورة إلى ثلاثة أقسام يقول فيه عمر بن الخطاب ﷺ: ((الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر [هالك فاسد] لا يأتمر رشدًا، ولا يطيع مرشدًا)).

ويمتدح علي بن أبي طالب ﷺ المشاورين فيقول: ((نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد)).

ولعلك تلحظ معي كم تترك الاستشارة من أثر نفسي على المستشير؛ حيث يشعر بأنَّه ليس وحده في خضم قضيته التي تضيق به، بل يحس بأخوة من استشاره، ويثمِّن له وقفته معه في همِّه وغمِّه، فتراه ترتاح نفسه من أول وهلة ينهي فيها سرده لمشكلته، حيث يتشاطر الهمَّ، وينتصف بينه وبين أخيه.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الشورى ألفةٌ للجماعة، ومسبارُ للعقول، وسببٌ إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هُدُوا)).

ودعني _ أيها القارئ الكريم أيتها القارئة الكريمة _ ألفت نظرك إلى أمرٍ أحسبه في غاية الأهمية، وهو أنَّه لا ينبغي أن يكون المرء مُسْلِمًا أمره كله إلى الناس، بل عليه أن يتعلَّم هو أيضًا كيف يحل مشكلته، فيتدرب على فنون هذا الشأن؛ لتكفيه هذه المهارة لجملة كثيرة من شؤونه وشؤون من يعول؛ لتبقى بعد ذلك الأمور العظام، يعرضها على أهل الرأي والمشورة.

وكم هو جميل أن يربي الوالدان أولادهما على المشورة، فيما يخصهم من شؤون الأسرة، فيشعرون بمكانتهم بين والديهم، وينمي لديهم التفكير وتحمل المسؤولية.

وقد يسَّر الله تعالى في عدد من بلاد المسلمين جمعيات ومراكز متخصصة ومواقع مأمونة تستقبل استشارات الآخرين، وتقدمها بكل احتفاء لهم، فلنسأل عنها ولنفد منها.

خليليَّ ليسَ الرأيُ في صَدْرِ واحدٍ   أَشِيرا عَليَّ بالذِي تَريانِ

اللهم يسِّر لنا ما يسعدنا، إنك سميع مجيب.

٤٤

(أَهْلُ وِقَايَة)

قديمًا قالوا: ((الوقاية خير من العلاج))، والوقاية: هي حفظ الشيء عما يؤذيه ويضرُّه، وهي تتعلق بالإنسان في بدنه ومعاشه وممتلكاته وغير ذلك من الأمور المحسوسة، كما أنها من الله تعالى للإنسان أو من الإنسان لغيره.

والمتتبع لحياة عباد الرحمن التي ارتضاها لهم الله تعالى يجد بوضوح كيف حموها بالوقاية من كل شر، ليس في الدنيا فحسب، بل وفي الآخرة أيضًا، وهذا هو الفرق بينهم وبين الآخرين، فقد جبل الإنسان أن يبذل جهده في وقاية نفسه ومن يعول من كل ما يؤذيه، كالوحوش والبرد والحر والرياح واعتداء المعتدين والمتربصين، لكنهم قلة أولئك الذين يتنبهون إلى الوقاية بشقيها: الدنيوي والأخروي، فإذا كان الأول معلومًا، فإنَّ المرء في الثاني بحاجة إلى تذكره دائمًا؛ يقي نفسه من الوعيد الشديد والعذاب الأليم، حتى يُكفى عبث الشهوات وإغراء المغريات، فيأتي يوم القيامة آمنًا مطمئنًا.

فما أجمل ما يصنعه عباد الرحمن ليتقوا عذاب الله وغضبه، فما زالت ألسنتهم تلهج بهذا الدعاء الجامع: {رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

والله تعالى قد وعد المتقين بهذه الوقاية وأسعدهم بالبشرى في الدنيا وتحقيقها في الآخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا

بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾ [الدُّخان من الآية ٥١ الى الآية ٥٦].

والنَّبي ﷺ دلَّ أمته على المزيد من أساليب هذه الوقاية، رحمة ورأفة بهم، وحرصًا عليهم حتى لا تمسهم الشياطين، ولا تنال منهم الفتن، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وفي حال نزول المنازل أيًا كان مكانها، يرشد النَّبي ﷺ للوقاية من ضرر ساكنيها من الإنس والجن والحيوان فيقول: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) رواه مسلم.

وللوقاية مما يحصل في بعض الزمان، يقول النَّبي ﷺ: (إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ _ أَوْ قَالَ جُنْحُ اللَّيْلِ _ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنْ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا) رواه البخاري.

أما الوقاية من أهوال الآخرة، فالبداية هي الوقاية من عذاب القبر؛ فإن النَّبيّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا

وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيُجْلَسُ الرَّجُلُ السُّوءُ فِي قَبْرِهِ فَزِعًا مَشْعُوفًا، فَيُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنْتَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُهُ، فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى) رواه ابن ماجه وفي الزوائد: إسناده صحيح.

وحينما تُذْكَرُ الوقايةُ من عذاب الآخرة تُذكرُ الصلاة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: (مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ) رواه أحمد وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ولا يجوز للمسلم أن يستحقر أيَّ عملٍ صالح، فيراه قليلاً في نظره؛ فإنَّه لا يدري ربما جعله الله تعالى له وقاية من عذاب السعير، فكلنا يحفظ حديث النَّبي ﷺ: (اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فمَن لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ) رواه البخاري.

وإنَّ العمل القليل يربيه الله تعالى حتى تلقاه يوم القيامة كبيرًا.

وعلى العبد الصالح أن يسأل الله تعالى أن يقيه شح نفسه، فذلك هو الفلاح المبين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التَّغَابُن الآية ١٦].

عن أبي الهياج الأسدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل شيئًا، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)).

وإن مما جُبِل عليه المرء أن يقي أهله وذريته من الآفات والأخطار، وهو مع ذلك يجب ألا يقصِّر أيضًا في شأن وقايتهم من الآثام والشرور، بقطع كل علائق الإفساد للدين والخلق، وتسهيل كل ما يعزز الإيمان في القلوب، ويحي في النفس مراقبة الله تعالى والخوف منه، والسعي إلى إرضائه والفوز بجنته.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التَّحْرِيم الآية ٦].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ((اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار)).

أسأل الله تعالى أن يقينا وإياكم من كل سوء ومكروه، في الدنيا والآخرة، وأن يجعلنا جميعًا من المتقين، إنه سميع مجيب.

٤٥

(يَقِظُون)

هل رأيت أحدهم وهو ينظر في ساعته فترى في عينيه مفاجأةَ مضيِّ الوقت لأن الصلاة قد أزف وقتها؟ أم هل رأيت أحدهم يستيقظ فزِعًا من فراشه في منتصف الليل خشية فوات صلاة الفجر؟ فإذا ما اقترب من المسجد إذا هو يفاجأ بأن الوقت بقي عليه الكثير! هل سمعت ببعضهم وهو يستيقظ فيه الضمير حينما أوشك أن يقع على الحرام، فيعود أوَّابًا إلى ربه تائبًا نادمًا!

ومِنَ الناسِ من يعيشُ شقِيًّا ... جيفةَ الليلِ غافلَ اليقظة
فإذا كان ذا حياءٍ ودينٍ ... راقبَ الله واتقى الحَفَظَةَ
إنما الناسُ سائرٌ ومُقيمٌ ... والذي سارَ للمقيمِ عِظَةَ

هكذا أنشدها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يشدنا بها إلى صفة اليقظة التي قال فيها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اليقظة أول منازل العبودية، وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذ الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أقوى إعانتها على السلوك، فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه وتيقَّظ شمَّر بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، فأخذ في أهبة السفر، فانتقل إلى منزلة العزم، وهو العقد الجازم على الشيء، ومفارقة كل قاطع ومعوق،...وبحسب كمال انتباهه ويقظته تكون عزيمته، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده، فإذا استيقظ أوجبت اليقظة الفكرة، فإذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة، وهي نور في القلب يرى به حقيقة الوعد والوعيد، والجنَّة والنار، وما أعد الله في الجنَّة لأوليائه، وفي النار لأعدائه، فأبصر الناس

قد خرجوا من قبورهم مهطعين لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله، وقد نُصب كرسيه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض بنوره، ووضع الكتاب وجيء بالنَّبيين والشهداء، وقد نصب الميزان، وتطايرت الصحف، واجتمعت الخصوم، وتعلق كل غريم بغريمه، ولاح الحوض وأكوابه عن كثب، وكثر العطاش، وقلّ الوارد، ونصب الجسر للعبور عليه، والنار تحطم بعضها بعضًا تحته، والساقطون فيها أضعافُ أضعافِ الناجين، فينفتح في قلب اليقظ عين ترى ذلك، ويقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها، والدنيا وسرعة انقضائها)).

أيها الأحبة: ولما كانت الدنيا مشغلة بفتنتها وزهرتها وتتابع الأعمال فيها، جعل الله تعالى لنا فيها ما يوقظ قلوبنا من غفلتها، فهذا النداء الرباني الكريم ينادي للصلاة وينادي للحياة الحقيقة في ظل الإيمان، يؤذن به المؤذن خمس مرات، ((الله أكبر، الله أكبر))، وكأن المؤذن يقول لنا: الله أكبر من كل شيء، فلا تغرنكم هذه الدنيا ببهرجها، وتعالوا لتوقظوا قلوبكم، ولتنفضوا عنها غبار الغفلة؛ لتعود حية نشيطة مزهرة رياضها بالإيمان.

قال العزّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كأن اليقظةَ هي القومة لله، المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ [سبأ الآية ٤٦]، فالقومة لله: هي اليقظة من سِنَة الغفلة)).

ولنلاحظ أن اليَقِظ أكثر الناس فهمًا وإشراقًا، وأعلمهم بمصالحه، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم شكرًا لربه؛ لأنَّه يرى بعين بصيرته نِعَمَ الله باطنة وظاهرة، لا يتغافل عنها ولا ينساها، بل يتحين كل فرصة ليشكر الباري عليها، وليصون نفسه من نكرانها، ولذا قال العزِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: ((إنَّ العبد إذا نهض من ورطة الغفلة استنار قلبه برؤية نور

التنبيه، فأوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة، وكلما حدَّق قلبه وطرفه فيها شاهدَ عظمتها وكثرتها فيئس من عدِّها والوقوف على حدِّها)).

يالسعادة هؤلاء اليقظين؛ إنهم يتلذذون بحب الله تعالى ورسوله ﷺ، إنهم يذوقون من حلاوة الإيمان ما لا يتذوقه غيرهم، وإنهم يبصرون من علامات الطريق الآمن ما لا يضيعون فيها في متاهات الفتن والشُّبه، وإنك لتراهم يعرفون حدود الله، حتى يقفوا عندها فلا يتعدونها، بل ربما لا يقتربون من الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات.

إنها اليقظة _ يا صاحبي . سبيلك إلى التقوى، منزلة الأولياء والصالحين، بها عمرت قلوبهم، فصلحت وأصلحت.

قال النبي ﷺ: (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه مسلم.

وإن لمن المحزن حقًا أن يسعى بعضنا في تنويم قلبه بالشهوات، وتغليف عقله عن البصيرة، حتى لا توقظه الآيات، ولا يفزعه الوعيد، ولا يزيد من عزمه الوعد بالنعيم المقيم، وكأنَّه ممن قال الله تعالى فيه: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المُطَفِّفِين الآية ١٤].

ويبقى سؤال المحرومين من اليقظة الإيمانية: لماذا يصاب المرء بالغفلة؟

لنعيد إلى الغافل السؤال: هل بذلت أسباب اليقظة؟ فعلقت قلبك بالمساجد؛ لتكون مثل ذلك الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد، يقظ قلبه لنداء الصلاة، ينتظر وقتها؛

لينطلق إلى المسجد؛ فيحي قلبه بالذكر وبلقاء ربه العزيز، فيكافئه الله تعالى بأن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

هل سيتيقظ قلبُ من يصبح على الحرام، ويمسي على الحرام؟

هل سيتيقظ مَنْ صاحب الغافلين، وأعرض عن النابهين اليقظين؟

اليقظة ـ أيها الأحبة ـ هي تلك الانتباهة التي تنفتح فيها مصاريع القلب نحو الهداية، لتنتقل من هوة الرذيلة السحيقة إلى قمة النور والبصيرة، فما أروع هذه اليقظة؛ لأنَّها تاريخ جديد من السعادة والأنس في الدنيا، والفرحة في الآخرة.

وإنها لدعوة إلى كل مسلم يحب أن يرى مثل هذه اليقظة عيانًا بيانًا في مكاتب دعوة الجاليات جزى الله القائمين عليها خير الجزاء؛ ليرى كيف تنهمر الدموع من المهتدين حينما يستيقظون من كابوس الكفر المظلم ليجدوا أنفسهم في واحة الإيمان المستنيرة بالإيمان، ليقولوا بعد اليقظة شهادتها العظيمة: ((أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله)).

اللهم أيقظنا من سبات الغفلة، وأرشدنا نحو الهداية، إنك سميع مجيب.

٤٦

(أَهْلُ يقِين)

حينما يتخبط أهل الضلالة في الشكوك العقلية، وحينما يبقى بعض أصحاب الديانات المنحرفة في ريب من أمرهم، فيعيشون عيشة الارتياب والتقلب وقلة الطمأنينة، فإن عباد الرحمن في عيشة هانئة سعيدة في ظل اليقين بعقيدهم، وعدم التردد في إيماهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرِّه.

واليقين سبيله الصبر، وهو سبيل الأئمة الربانيين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السَّجۡدَة الآية ٢٤].

والله تعالى حينما جعل في كونه آيات عظيمة، أكرم أهل اليقين بمزيد معرفة لها، وخبرة بإعجازها، فقال تعالى: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤﴾ [الجَاثِيَة الآية ٤].

وإن لأهل اليقين جوائز الفلاح والهدى من بين العالمين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [البَقَرَةِ الآيتان ٤-٥] وإنما أسقط أهل النار في الجحيم انعدام يقينهم بأمر الله، تأمَّل قول الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾ [الجَاثِيَة الآية ٣٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فاليقين روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وقطب هذا الشيء الذي عليه مداره، واليقين قرين التوكل، ولهذا فُسِّر التوكل بقوة اليقين، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل شكٍ وريب وهمٍ وغمّ، فامتلأ: محبةً لله، وخوفًا منه، ورضىً به، وشكرًا له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها)).

ولعلك تسأل: ماذا عن درجات اليقين التي نقرأها في القرآن؟ فإنا نقرأ: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين؟

فالجواب عن ذلك: أنَّ علم اليقين: ما ظهر من الحق، وقبول ما غاب للحق، والوقوف على ما قام بالحق، فالذي ظهر من الحق هو أوامره ونواهيه، ودينه الذي أظهر على ألسنة رسله، والذي غاب للحق: هو الإيمان بالغيب كالجنَّة والنار، أما الوقوف على ما قام بالحق أي: من أسمائه وصفاته وأفعاله.

وأما عين القين: فهو ما استغنى به صاحبه عن طلب الدليل؛ لأن الدليل يطلب للعلم بالمدلول، فإذا كان المدلول مشاهدًا له، فلا حاجة حينئذٍ للاستدلال.

وأمَّا حق اليقين: فهذه منزلة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد رأى نبينا ﷺ بعينه الجنَّة والنار، وكلَّم الله تعالى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بلا واسطة، أما بالنسبة لنا فإنَّ حق اليقين يتأخر إلى وقت اللقاء.

وإذا أردنا أن نطبق هذه الدرجات على الجنَّة والنار، فإنَّ علمنا بهما علم اليقين، فإذا أزلفت الجنَّة للمتقين وشاهدها الخلائق، وبُرِّزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق، فذلك عين اليقين، فإذا أُدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهل النارِ النارَ، فذلك حينئذ حق اليقين.

قال الحسن البصري رحمه الله: ((ما طُلبت الجنَّة إلا باليقين، ولا هُرب من النار إلا باليقين، ولا صُبر على الحق إلا باليقين)).

وإن اليقين مرتبة عالية، تراها في كلام النَّبي ﷺ في حديث أبي بكر ﷺ حينما خطب فقال: ((قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَامِي هَذَا عَامَ الْأَوَّلِ، وَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَلُوا اللَّهَ الْمُعَافَاةَ ـ أَوْ قَالَ الْعَافِيَةَ ـ فَلَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ قَطُّ بَعْدَ الْيَقِينِ أَفْضَلَ مِنْ الْعَافِيَةِ أَوْ الْمُعَافَاةِ، عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ، وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى)) رواه أحمد وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ويأتي اليقين معينًا بعد الله تعالى على إجابة الدعوة حينما تعرضها بين يدي الله تعالى تطلب فيها حاجتك، فإن النَّبي ﷺ قال: (الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَيُّهَا النَّاسُ ـ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ) رواه أحمد وقال المنذري: إسناده حسن.

وإنه لسبيل إلى الجنَّة بطريق ميسَّر وسهل لمن يسَّره الله عليه؛ فإن أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِتَلَعَاتِ الْيَمَنِ، فَقَامَ بِلَالٌ يُنَادِي، فَلَمَّا سَكَتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ هَذَا يَقِينًا دَخَلَ الْجَنَّةَ) رواه أحمد والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وباليقين تبعد الشكوك والأوهام التي يتسلط الشيطان بها على بني آدم وخصوصًا في عبادته، فعن عبَّاد بن تميم عن عمه ﷺ أنَّه شكا إلى رسول الله ﷺ الرجل الذي يخيّل إليه أنَّه يجد الشيء في الصلاة، فقال ﷺ: (لا ينفتل أو لا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا) رواه البخاري، ومن هنا قال العلماء: ((اليقين لا يزول بالشك)).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((والقلب متى استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه...زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون، ولان له ما استوعره المترفون)).

ويطبع اليقين على المسلم سمات الصالحين والأولياء، فقد قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، وهي تورث النظر في العواقب)).

أحبتي: إن من أسباب تكاسلنا عن كثير من الأعمال الصالحة هو ضعف يقين بعضنا بما رتبه الله تعالى عليها من الأجور، أو استبعاد حصول المثوبة عليها، وإن ضعف اليقين يصيب المرء بالإحباط والخمول والكسل عن تحقيق أهدافه النَّبيلة، أو المسارعة إلى الأعمال الصالحة.

واليقين درع قوي أمام اهتزاز النفس البشرية الضعيفة أمام المصائب والأحزان، التي لو تركها المرء لعبثت به أيما عبث، وخلفته قعيد الاكتئاب والقلق، وأضاعت عليه دينه ودنياه.

قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التَّغَابُن الآية ١١]، قال ابن مسعود ﷺ في تفسير هذه الآية الكريمة: ((هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنَّها من الله فيرضى ويسلم))، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه)).

ومن أراد أن يزيد من ثقته بالله تعالى ليرضيه الله بتدبيره فعليه باليقين، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فمن حقق اليقين وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة)).

فاليقين إذن قوة للنفس، وسلامة للقلب، ونور في الطريق، فاللهم إنَّا على يقينٍ بوحدانيتك، وبإحسانك وكرمك، فلا تحرمنا بذنوبنا فضلك، إنك سميع مجيب.

٤٧

(أَهْلُ نِظَام)

إن العقلاء من الناس هم الذين ينظرون إلى الأنظمة التي تحقق مصـــلحتهم نظرة الرضـــا والقبول ومن ثم التأكيد والالتزام؛ لأنَّها أنظمة صـــادرة من أهل الحل والعقد، وبقيادة حكيمة رشـيدة، ولذا فإنَّ العمل بها صـفة بشـرية حميدة تؤكدها الشـريعة وتأمر برعايتها.

ولنتيقظ لأمرٍ في غاية الأهمية، أن شـــريعتنا الغراء لم تؤكد على العمل بالنظام في شيء دون شيء، بل شملت تعاليمها الحكيمة كل شأن من شؤون الحياة، سواء أكانت المصـالح المرجوة منها: ضـرورية، أو حاجية، أو تحسـينية، مادام هذا النظام يرتب أمور الفرد والمجتمع ترتيبًا يجعلها متناســـقة مؤتلفة لا تناقض فيها ولا تنافر، بحيث يتقدم ما حقه التقديم ويتأخر ما حقه التأخير، ولن يكون ذلك إلا باتباع منهج الشـــرع الحنيف وما أقره إمام المسلمين بالمعروف.

تأمَّل معي هذا المديح لعباد الرحمن حيث وصفهم الله تعالى في كتابه في حال مقاتلة الأعداء حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصَّف الآية ٤].

لقد كان النَّبي ﷺ يبغض الفرقة والاختلاف، وينبذ الفوضـى في كل شـيء، وخذ أمثلة في ذلك، ففي إمامة الصـلاة _ مثلاً _ ينبغي ألا يتقدم إليها أيُّ مســلم، بل هو نظام نبوي يحفظ للإمامة مكانتها، التي بها تحفظ صـــلاة المأمومين، بحيث لا يؤمهم إلا من تتفق صفاته بهذا النسق الشرعي المميز.

فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: ((يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) رواه مسلم.

وإذا تمَّ اختيار الإمام، فالأمر موحَّد عليه دون اختلاف أو نزاع، قال ﷺ: (إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ، وَأَقِيمُوا الصَّفَّ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ إِقَامَةَ الصَّفِّ مِنْ حُسْنِ الصَّلَاةِ) رواه البخاري.

ووالله إن منظر صفوف الصلاة المنظَّمة ليثير في النفس الخشوع ويبعث فيها الأمل أنَّه مهما اختلفت هذه الأمة، فإنَّها ما دامت تقيم صفوفها في الصلاة منسقة متراصة فإنَّها ستعود لها يومًا من الأيام قوتها وصلابتها.

وفي حال السفر يأمر النَّبي ﷺ أمته أن يؤمِّروا عليهم واحدًا ولو كانوا قلة؛ حتى لا تَشتُّ بهم الآراء أو يختلفوا فيما بينهم، فقال ﷺ: (إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

وعن أبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ ﷺ قَالَ: ((قَالَ عَمْرٌو: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ) رواه أبو داود وهو حسن.

وفي شـأن الدعوة إلى الله يحسـن بالداعية أن يكون مرتَّبًا في دعوته، يقدم الأولى فالأولى، فإن النَّبي ﷺ لما بعث معاذًا ﷺ إلى اليمن قال: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ) رواه البخاري.

فإنَّ هذا التسلسل في طرح الدعوة يضمن بإذن الله تعالى التقبل المنشود من المدعوين، واستطاعتهم على تنفيذ التعاليم، ويشعرون حينها أن الداعية إنسان يحمل معه رسالة ذات منهج واضح بيّن، ليست فوضوية أو غير واضحة الرؤية والقيم!

ولنلتفت قليلاً إلى الأسرة؛ فإن حفظ نظام الأسرة من الاختراق أو العبث مهمة الزوجين؛ حتى يصان بذلك كيانها، وتبقى أطياف السعادة تطل عليها، ومن ذلك مثلاً أن النَّبي ﷺ يقول: (لَا تَصُمِ الْمَرْأَةُ وَبَعْلُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنْ فِي بَيْتِهِ وَهُوَ شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَا أَنْفَقَتْ مِنْ كَسْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَمْرِهِ فَإِنَّ نِصْفَ أَجْرِهِ لَهُ) رواه البخاري.

وفي كلام المرء وتناسق عباراته التي ينطق بها يتضح لك حسن تنظيمه لذاته وشخصيته، ففي حديث أم معبد جاء في صفة النَّبي ﷺ قولها: (كأنَّ منطقه خرزات نظم يتحدرن) رواه الحاكم وصحَّحه، فقد كان كلامه ﷺ ينساب مرتبًا منسقًا كأنَّه خرزات عقد تنساب في سلاسة وترتيب.

وإن من العجب حقًا ما نشاهده اليوم من عدم التخطيط حينما يقدم المسلم على أي شيء في حياته، أو حينما يزاول أي عمل يسند إليه، فهو يمضي في وقته من دون ضبط لدقائقه، ويمشي من دون قصد وهدف، بل إنه يتزوج وهو لا يعرف كيف سيدير حياته، وتبدأ أيام الدراسة وهو لم يضع له نظامًا لتحصيله وإدارة وقته، ولربما تاقت

نفســه إلى الإجازة وهو لم يضــع لها أيَّ خطة تمتعه وتفيده، وحينما يرزق بالأولاد، فإن الزمان يمر عليه وعليهم من دون قيمة أو ربح حقيقي!

كثيرًا ما تفاجئه الملمات، وتصــــدمه الأخطاء، ويقع في الأخطار، وهو لا يعرف كيف يخرج من المآزق، ولا يتصرف في الطوارئ، حتمًا لأنَّه لم يكن منظَّمًا!

تستوقفني بعض التصرفات المستهجنة التي أراها تخالف النظام عرفًا وشرعًا، فهل أنت تغضب مثلي حينما ترى بعض الشباب _ هدانا الله وإياهم _ يتمايل يمنة ويسرة بسيارته ويسرع بها السرعة الجنونية حتى لا توقفه الإشارة الحمراء ولا يلتفت إلى علامات التوقف أو تحديد السرعات، أو يوقف سيارته في مواقف أصحاب الإعاقة، أو يتأخر في ذهابه إلى مدرسته أو عمله، أو يلقي بالنفيات في الشوارع، أو غير ذلك مما يدل على أنَّه غير آبهٍ بالنتائج وغير مفكر في العواقب! أو أنَّه لم يُفَهَّم معنى احترام النظام وقوانينه ومصالحه، ولماذا يتحايل جملة من الناس على الأنظمة التي وضعت لمصلحته! لماذا يعد بعض الناس تهاونهم بالنظام ذكاءً ومهارة!

إن النظام والســير عليه مســؤولية كل إنســان، وكلما توخيناه، كلما حفظنا على أنفسنا الأمن والاستقرار، بل الصلاح والسعادة.

اللهم ألهمنا رشدنا، ودلنا على ما يسعدنا، إنك سميع مجيب.

٤٨

(يَكْتُمونَ السِّر)

كتمان السِّر نوعٌ من الصبر، والمسألة لا تتعدى أن تكتم حديثًا في صدرك أَسَرَّه إليك أحد من الناس بعدما وثق فيك، وحمَّلك أمانته، هل ترى الأمر سهلاً! ربما كان سهلاً على عباد الرحمن الذين لا يتحملون من الأسرار إلا ما يطيقون وإلا اعتذروا من احتمالها!

قال الجاحظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الخُلُق: ((كتمان السر خُلُقٌ مركب من الوقار وأداء الأمانة؛ فإنَّ إخراج السِّر من فضول الكلام وليس بوقورٍ من تكلم بالفضول، وأيضًا فكما أنَّه من استودع مالاً فأخرجه إلى غير مودعه فقد خفر الأمانة، كذلك من استودع سِرًّا فأخرجه إلى غير صاحبه فقد خفر الأمانة)).

وإنَّ كتمان السر من أعلى صفات عباد الرحمن؛ إذ أنَّها من العهود التي يتعبدون الله تعالى بحفظها، فقال تعالى في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

[المُؤْمِنُون الآية ٨].

وإنما الذين لا يصونون الأسرار ولا يكتمونها هم ضعاف الشخصية، فإنَّ بعض ضعفاء النفوس له قدرة على استفراغ ما في خاطرك، حتى إذا فرغت لم يرع حقك في حديثٍ ولا خاطر!

من هنا قيل: الصبر على القبض على الجمر أيسر من الصبر على كتمان السِّر.

ويُكَاتِم الأسرارَ حتى كأنَّه ليصونَها عن أن تمرَّ ببالهِ

قال عمرو بن العاص ﷺ: ((ما وضعتُ سِرّي عند أحدٍ فأفشاه عليَّ فلُمتُه؛ فأنا كنتُ أضيقُ به حيث استودعتُه إياه)).

إذا المرءُ أفشى سرَّه بلسانِهِ ولامَ عليهِ غيرَه فهو أحمقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سِرِ نفسِه فَصَدْرُ الذي يَسْتَودِعُ السِرَ أَضْيَقُ

لماذا لا نكون أكثر صراحة مع أنفسنا ومع الناس، فإن استطعنا تحمَّلنا، وإن لم نستطع اعتذرنا؛ فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

فما أصدق من كشف عن نفسه حينما قال له صديقه: أريد أن أفشي إليك سرًا تحفظه عليَّ؟ فقال: لا أريد أن أؤذي قلبي بنجواك، وأجعل صدري خزانة شكواك، فيقلقني ما أقلقك، ويؤرقني ما أرقك، فتبيتَ بإفشائه مستريحًا، ويبيتُ قلبي بحرّه جريحًا.

لنتذكَّر أنَّ كتمان السر من الوفاء، والله تعالى يقول: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء الآية ٣٤].

وثمة فئة من الناس، تكتم السِّر في الرضا، فإذا ما غضبت أفشته بلا تحفظ، وفي ذلك قال ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((من أفشى السِرَّ عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها)).

والأمين لا يفشي لأحد سِرًا لا في رضًا ولا غضب، ولا في وئام ولا انتقام، وفي هذا قال الشاعر:

جودٌ بمكنونِ التلادِ[1] وإنّني بسرِّي عمَّن سالني لضنينُ
وإنْ ضيَّعَ الأقوامُ سِرّي فإنَّني كتومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينُ

ويسوء إفشاء السِّر كلما كان خطره أعظم، فإفشاء سِرُّ الولاة والحكَّام والقادة يعود ضرره على المجتمع والأمة جمعاء.

أضف إلى ذلك من هم في محل الاستشارة وطلب الرأي، فإن عليهم ألا ينشروا مشكلات الناس ولا خلافاتهم؛ فإن المستشار مؤتمن.

كما يشتد قبح نشر السِّر حينما يكون مصادمًا للغيرة، فما رأيكم فيمن إذا أفضى إلى زوجته أو أفضت إليه نشر سِرَّها أو نشرت سِرَّه!! فماذا بقي أن نخفي إذا كان مثل لا يستطيع بعضنا إخفاءه!!

قال النَّبي ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) رواه البخاري.

ويستوقفني بعض المتطفلين على أحوال الناس، فإنك تراه حينما يلتقي بأحد أطفالك _ سواء حينما يكون في ضيافتك أو في أي مكان _ فإنَّه يبدأ معه في تحقيقٍ عن حياتك وأسرتك وبيتك حتى ما يترك شاردة ولا واردة إلا ويستلها من هذا الطفل، يستغل فيه عفويته وصغر سنِّه!!

إن مثل هذا يحتاج فعلاً أن يقف مع نفسه فيَصْدُقُها بمحاسبةٍ شديدة، وليبدأها بالاستماع إلى هذا الموقف التربوي الرائع، فعن ثابتٍ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (أَتَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ قَالَ: فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي إِلَى حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي،

---

(١) التِّلاد: المال الأصلي القديم.

فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ قُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: لَا تُحَدِّثَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا، قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ يَا ثَابِتُ) رواه مسلم.

وإني لأهمس في أذن صاحب السر لأقول له: تعوَّد الصبر على أحوالك، واستعن بالله تعالى على تناسيها، وانظر إلى عواقب إفشائك لسرك، فإنك سترتاح من همِّه وغمِّه، ولكن ربما أصابك بإفشائه الهمَّ الأكبر والغمَّ الأكثر، وإن كنت لابد مفشيًا لضيق صدرك به، فتخيَّر من أحبابك من تعرفه بسعة صدره لك ولسرِّك، وقد عهدتَ منه صلابته في الأمانة وحفظها، غير ثرثار أو غير مبال بك ولا بحالك، فهل من سوف تستودعه سرَّك هو كمن قال عن نفسه:

ومستودعي سِرًّا تَضَمنْتُ سِرَّه ... فأودعتُه من مُستَقَرِ الحَشَا قَبْرَا
ولكنني أُخْفِيه عَنِّي كأنَّني ... مِنَ الدَّهرِ يومًا ما أَحطتُ بهِ خُبْرَا
وما السِرُّ في قَلْبِي كَمَيْتٍ بحُفرَةٍ ... لأنِّي أرى المدفونَ ينتظرُ النَّشْرا

قال علي بن أبي طالب ﷺ: (سِرُّك أسيرُك، فإن تكلمتَ به صرتَ أسيرَه).

أما مَنْ يُذيعُ أسرارَ أهله وأصحابه وعمله، وربما تلَذَّذَ بخيانته ونقضه عهده، هل يرضى أن يُصْنَعَ به مثلما صنعَ بغيره؟ فيُفْشَى سِرُّه؟! فكم من العداوات نشأت بسبب تساهله، وكم من الخلافات اتسعت بسبب ضعفه؟

فليستغفر الله تعالى من تهاونه في حقوق غيره، وليمسك لسانه إلا فيما يجد له جوابًا ينجيه بين يدي ربه سبحانه.

فإنَّ المرء كلما كان سائرًا على هدي عباد الرحمن، كلما كان أقرب إلى ربه، محببًا إلى أصحابه، أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا نحو الفلاح والنجاح والصلاح، إنه سميع مجيب.

(٤٩)

(يُحَاسِبُون أَنْفُسَهُم)

ما رأيكم في تاجر له شركاء وعُمَّالٌ وبضاعةٌ كثيرة غالية الثمن، تمضي أعوامه لا يرجع على شركائه بالمراجعة ولا على عُمَّاله بالمحاسبة ولا على بضاعته بالمتابعة، كيف ستكون نتيجة بيعه وشرائه!

حتمًا إن لم تكن النتيجة خسارة كبيرة، فالضعفُ والضياع.

ألا ترى أن النفس التي بين جوانحنا تتجاذبها الصوارف والشواغل، والملهيات والمغريات، أليست أحق من المال بالمحاسبة!

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((محاسبة النفس: أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعالِ نهاره؛ فإنْ كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل)).

ولمحاسبة النفس نوعان:

نوع قبل العمل، ونوع بعده:

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر)).

والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محاسبتها على طاعة قصَّرتْ فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله، ومتابعة الرسول ﷺ، وحصول المراقبة، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه: هل وفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

النوع الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

النوع الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوت الظفر به.

يا من يحاسب نفسه: إن الله يدعوك إلى هذه المحاسبة فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر الآية ١٨].

واحذر في محاسبتك لنفسك أن تنسى نعم الله تعالى عليك وأنت توقن بأنَّها لا تعد ولا تحصى، فهذه المقارنة تقيك بإذن الله تعالى العجب من النفس، فإنَّ ما قدمته قليل جدًا أمام فضل الله الكثير.

ثم استرجع كم حقٍ للناس عليك برئتْ ذمتك منه؛ ليرتاح خاطرك من همه، وتحمد الله تعالى أن وفقك لأدائه، وكم حق عليك ما يزال في ذمتك، فتنوي أداءه على خير وجه، وتسعى في التخلص منه.

دعونا نجول قليلاً في بيوت عباد الرحمن لنقف على بعض محاسبتهم لأنفسهم:

فقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ لبعض عماله، فكان في آخر كتابه: ((أن حاسب نفسك في الرخاء، قبل حساب الشدة؛ فإنَّه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد مرجعه إلى الرضى والغبطة، ومن ألهَتْه حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به، لكيما تنتهي عما ينهى عنه، وتكون عند التذكرة والعظة من أولي النهى)).

وقال أنس بن مالك ﷺ: ((سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يومًا وقد خرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعته يقول: ـ وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط ـ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ!! والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك!)).

عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ﷺ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا! أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا! قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ

الْجَنَّةِ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي) رواه مسلم.

أيا عباد الرحمن: حتمٌ على ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن هذه النفس الغرَّارة؛ فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد في جنان الخلد عند ربٍ كريم.

فإذا ما أراد العبد أن يضع جنبه على فراشه ليودع يومه، فعليه أن يحادث نفسه قليلاً ليحاسبها فيقول: هأنذا أودع يومي، وأستقبل يومًا جديدًا، أواه! ماذا صنعتِ في يومي، هل أديتِ حقوق ربي؟ وحقوق خلقه؟ هل جنيتِ معصية؟ أو جنيتِ على أحد من الخلق بالظلم والسَّفه؟! وإذا أصبحتِ غدًا فهل اسشعرتِ نعمة ربي عليَّ؛ حيث نسأ في أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيتِ، ثم قد رددتِ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإنَّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لها قيمة، فاستثمريها.

المحاسبة ـ أيها الكرام ـ سبيل لنسعد في دنيانا وأخرانا، وطريق إلى زيادة الإيمان يومًا بعد يوم، أسأل الله تعالى أن يوفقنا للطاعات ويجنبنا الخطيئات، إنه سميع مجيب.

(٥٠)

(يُحِبُّونَ التَّيَمُّن)

عباد الرحمن هم أهل اليمين، المحبون للتيمُّن في شأنهم كلِّه؛ اتباعًا لسُنَّة النَّبي ﷺ، فإن الإمام النووي رَحِمَهُ الله يقول: ((قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمين في كل ما كان من باب التكريم والتزيين، وما كان بضدهما استحب فيه التياسر)).

ويشمل هذا كما يقول ابن الأثير رَحِمَهُ الله: ((الابتداء في الأفعال باليد اليمنى والرجل اليمنى والجانب الأيمن)).

وقد حرص النَّبي ﷺ على تربية أمته على هذا الأدب، ومن ذلك:

في التنعُّل؛ حيث قال ﷺ: (إِذَا انْتَعَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِالْيَمِينِ، وَإِذَا نَزَعَ فَلْيَبْدَأْ بِالشِّمَالِ، لِيَكُنْ الْيُمْنَى أَوَّلَهُمَا تُنْعَلُ، وَآخِرَهُمَا تُنْزَعُ) رواه البخاري.

وفي الاضطجاع للنوم، قال ﷺ: (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ) رواه البخاري.

وفي الأكل والشرب؛ حيث يقول النَّبي ﷺ:(إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ) رواه مسلم.

وفي الانصراف بعد الصلاة، حيث قال السُّدِّيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (سَأَلْتُ أَنَسًا كَيْفَ أَنْصَرِفُ إِذَا صَلَّيْتُ: عَنْ يَمِينِي أَوْ عَنْ يَسَارِي؟ قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَكْثَرُ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْصَرِفُ عَنْ يَمِينِهِ) رواه مسلم.

وفي البدء بسقاء القوم، فإنَّه يبدأ باليمين ولو كان الأقرب هو الأصغر سنًّا، ويُقدَّم على الكبير إلا إذا أذِن، ويدل على ذلك حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللَّهِ؛ لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَدًا، فَتَلَّهُ فِي يَدِهِ) رواه البخاري.

وفي المسح باليد اليمنى في القراءة على المريض، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ؛ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا) رواه البخاري.

وفي الاطِّهار والوضوء والاغتسال، فإنَّ عباد الرحمن يحرصون على التيمُّن؛ فإنَّها صفةُ مَنْ يحبهم الله تعالى ويحبونه، وإنه لميزة يتميَّز بها عباد الرحمن، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اغْتَسَلَ بَدَأَ بِيَمِينِهِ، فَصَبَّ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ فَغَسَلَهَا، ثُمَّ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى الْأَذَى الَّذِي بِهِ بِيَمِينِهِ وَغَسَلَ عَنْهُ بِشِمَالِهِ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ صَبَّ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ وَنَحْنُ جُنُبَانِ) رواه مسلم.

وتذكَّر في تيمُّنك أن تصنع شيئًا يحبه النَّبي ﷺ، فما أجمل أن تسير على هديٍ يحبه الحبيب ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ التَّيَمُّنَ مَا اسْتَطَاعَ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ: فِي طُهُورِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَتَنَعُّلِهِ) رواه البخاري.

قال أنس بن مالك ﵁: (من السُنَّة إذا دخلت المسجد أن تبدأ برجلك اليمنى، وإذا خرجت أن تبدأ برجلك اليسرى).

وفي شأن لبس الخاتم، فعن عليٍ ﵁: (كان رسول الله ﷺ يتختَّم في يمينه) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ومن عجبٍ أن نرى اليوم بعض الناس _ هدانا الله وإياهم _ يتناولون جهرةً الطعام والشراب بيدهم اليسرى، وإذا كان هذا من الجهل أو النسيان، فالأمر أهون مما إذا كان تقليدًا محضًا للكفار، أو ما يشاهده الناس اليوم عبر الشاشة الفضائية أو الإلكترونية، فيزيّن الشيطان لهم اتباعَ هؤلاء، فيتركوا سنة النَّبي ﷺ، وأعظم من هذا وذاك أن يكون استكبارًا عن هذا الهدي النبوي الكريم.

ولنا في هذا الرجل عظة، فعن إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ﵁: (أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ) رواه مسلم.

أيها الكريم، أيتها الكريمة: إن صفة التيمُّن هذه صفة جليلة، يحبها من يحب سُنَّة النَّبي ﷺ، ومن يُحِبُّ سنة النَّبي ﷺ كان أحرى أن يتبعها، ومن اتبعها كان من أهل اليمين في الآخرة، فأصحاب اليمين هم الفائزون الحائزون على رضا الكريم سبحانه، فما أروع أن تفوز معهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ

أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الوَاقِعَة من الآية ٢٧ الى الآية ٤٠].

وفي لحظة إعلان الفوز العظيم، يُعْرَف الفائزون بأخذ كتبهم بأيمانهم، فيا لها من لحظةٍ كريمة، نسأل الله تعالى أن نحظى بها ونكون مع الفائزين.

قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقَّة من الآية ١٩ الى الآية ٢٤].

ولمَّا كان أمر التيمُّن أمرًا إذا تعوّد عليه المسلم ألِفَه وأحبَّه وعمل به في شأنه كلّه، كان على الوالدين والمربين أن يربوا أولادهم عليه شيئًا فشيئًا، بالتعليم والتشجيع والتذكير، بأنَّ هذا مما يحبه الله ورسوله ﷺ.

اللهم حبِّب إلينا سنة نبيك محمد ﷺ، واجعلنا جميعًا من أهل اليمين، إنك سميع مجيب.

٥١

(أَهْلُ الطيِّبَات)

الطيِّبون لا يهنئون إلا بالطيِّب من القول والفعل، بل إنهم لا يقبلون في حياتهم إلا الطيِّب من كلِّ شـيء، فكيف بما يمضغونه بأفواههم، أو يدخلونه في أجوافهم! فإنَّهم أكثر الناس حذرًا أن يكون خبيثًا؛ فإن الطيِّب لا يناسبه إلا الطيِّب، ولا يرضى إلا به، ولا يسكن إلا إليه، ولا يطمئنُّ قلبه إلا به.

وإن مما يميِّز عباد الرحمن أنَّهم لا يقفون عند لذائذ الأطعمة حينما تمر سـريعًا من الأفواه، بل يخافون من تبعاتها على الأبدان والأرواح، فالطيِّب من المطعم والمشـرب عندهم: هو الحلال الهنيء الذي يغذي البدن والروح أحسن تغذية، مع سلامة العبد من تبعته.

ولم يأذن الله تعالى من الطعام إلا ما كان طيِّبًا؛ رحمةً بخلقه ألا يمسهم من الخبيث سوء أو مكروه، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾ [البَقَرَة الآية ١٧٢].

بل حذَّر من أن يحرِّم العبد على نفسه الطيبات؛ لأنَّه تفضل بحلِّها؛ ليتوسعوا ويتلذذوا بها ويشكرونه عليها، وجعل تحريمها اعتداءً على حدوده وشرعه، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧﴾ [المَائِدَة الآية ٨٧].

فما أروع مِنَّة الله تعالى على عباده المؤمنين، يكرمهم بالطيبات من الرزق في الدنيا، ويجعلها خالصة لهم في الآخرة، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف الآية ٣٢].

بل إن حِلَّ الطيبات من بشائر الحبيب محمد ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف الآية ١٥٧].

إن كثرة النعم الطيبة التي تحيط بنا، والتي أنعم الله بها علينا، حتى ما عدنا ننتبه لأكثرها إلا عند فقدها، لهي من تفضيل الله لنا عن بقية الخلائق التي لم تنل ما نلنا من هذا التكريم، فهلاَّ وقفنا وقفة التدبر مع قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء الآية ٧٠].

والهاجس الكبير الذي يؤرِّق عباد الرحمن والذي يغفل عنه الكثيرون هو ذلك الأثر البالغ التي يتركه أكل الطيبات على قربهم من الله تعالى، وقبول دعائهم، ومحبة الله لهم، فلا يكادون أن يضعوا في أفواههم لقمة حرامًا أو شربة مشبوهة، تحول دون أنسهم بالله تعالى أو تكدِّر عليهم صفو الخشوع بين يديه سبحانه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رســول الله ﷺ: (أَيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المُؤْمِنِينَ بما أمَرَ به المُرْســلِينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المُؤْمِنُون الآية ٥١]، وقالَ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ الســَّفَرَ أشْــعَثَ أغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى الســَّماءِ، يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، ومَلْبَسُهُ حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ، فأنَّى يُسْتَجابُ لذلكَ؟) رواه مسلم.

وإن كانت الطيبات هي ما أحلَّها الله تعالى، إلا أنَّها لا تحل للمرء إلا بعد أن يكسبها بالرزق الحلال، الذي ينهض به المرء بإخلاصه في عمله، وأداء الأمانة فيه على وجهها، وأن يخشى الله فيه لينزهه من دنس السرقة والغلول والنهب والغصب والإكراه والرشوة وسائر المنهيات.

قال رسـول الله ﷺ: (ما كسـبَ الرَّجلُ كَسـبًا أطيبُ من عملِ يدِه وما أنفقَ الرَّجلُ على نفسِه وأهلِه وولدِه وخادمِه فهو صدَقةٌ) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

فهل تلذَّذ بالطيبات من جمع هذه الأموال بالربا الممحوق! وهل ســعد من جمعها بسؤال الناس من غير حاجة! وهل فرح بها من أخذها بالتلاعب في أداء عمله فما أداه كما يجب عليه! أو هل وجد البركة في رزقه أو أولاده من يدخل الناس في متاهات الشركات الوهمية، أو تاجر بالبشر، أو بالمخدِّرات، أو بالرشوة، أو بغسل الأموال!

فواعجبًا ممن يبني بدنه وأبدان أولاده من السُّحت، ثم يطلب التوفيق في تجارته، أو الربح في معاملاته، فأيما عبد نبت جسمه من سحت فالنار أولى به.

فيا هناء عباد الرحمن الذي يخافون الله تعالى في كل أرزاقهم، لا يهمهم كم غدت كثرة، ولكن أن تكون حلالاً صافيًا، فهذا مبتغاهم ولو كانت دراهم قليلة.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المُؤۡمِنُون الآية ٥١] قال: ((أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه)).

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: (والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أحَدُكُمْ حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ علَى ظَهْرِهِ؛ خَيْرٌ له مِن أنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فيَسْأَلَه أعْطاهُ أوْ مَنَعَه) رواه البخاري.

وإذا كان الله تعالى دلّنا على طريق الرزق الحلال، فإنَّه أيضًا دلّنا على أن يكون صرفنا منه في الحلال؛ ليتكامل بناء الطيب في نفوسنا؛ فإنَّه سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٦٧].

فما وعد الطيبين الذين لا يأكلون إلا الطيبات ولا يتصدقون إلا بالطيبات؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَتَصَدَّقُ أحَدٌ بتَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ، إلَّا أخَذَها اللَّهُ بيَمِينِهِ، فيُرَبِّيها كما يُرَبِّي أحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أوْ قَلُوصَهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ، أوْ أعْظَمَ) رواه البخاري.

فلنقف مع أنفسنا وقفة المحاسبة الجادة لنسأل أنفسنا في الدنيا أسئلة سوف نُسألها في الآخرة: من أين اكتسبنا هذه الأموال؟ وفيم أنفقناها؟

اللهم ارزقنا الطيِّب من القول والفعل والرزق، إنك سميع مجيب.

٥٢

(مُتَفَائِلُون)

مَنْ منَّا لا تعتريه الخطوب، أو لا تمسُّه النوائب؟ فهذه الدنيا دار معرضة لهذا وذاك، وحل مثل هذه المعضلات وإن احتاج أحيانًا إلى جهود كبيرة، إلا أننا نحتاج أيضًا إلى الخطوة الأولى التي تفتح الطريق إليها، وتنير معالمه، وتمهد سبيله، إنه التفاؤل زاد النَّبي ﷺ الذي يتزود به في توكله على الله تعالى، يشرح الله به صدره، وينير به عقله، ويطمئن به فؤاده.

وما الفأل؟ الفأل: الكلمة الطيبة الحسنة، التي ينطلق بها اللسان، ليبرد بها القلب، وتهدأ بها النفس، ويبعد عنها الاضطراب أو التردد.

إنها كلمة خيِّرة، لا تكلف الإنسان شيئًا، سوى أنَّها هداية من الله تعالى، وأمارة على سلامة القلب وحسن التوكل على الله تعالى.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ؛ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ، الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ) رواه مسلم.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فأما الفأل: ففيه تقويةٌ للعزم، وباعثٌ على الجد، ومعونةٌ على الظفر، فقد تفاءل رسول الله ﷺ في غزواته وحروبه)).

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ كَلِمَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَقَالَ: أَخَذْنَا فَأْلَكَ مِنْ فِيكَ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

فينبغي لمن تفاءل أن يتأوّل بأحسنِ تأويلاته، ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلاً، ولذا يقال: ((إن البلاء موكلٌ بالمنطق)).

وحُكِي أن المؤمَّل بن أُميل الشاعر لما قال يوم الحيرة:

شفَّ المؤملُ يومَ الحيرة النظرُ ليتَ المؤملُ لم يخلقْ له بصرُ

فعمي بصره، فأتاه آتٍ في منامه فقال له هذا: ما طلبت!!

لم لا تتوقع الخير والسلامة؟ لم لا تتحدث بأحاديث العافية والأمان؟ لم لا تجعل النصر والفوز والنجاح دائمًا أمامك ونصب عينيك؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: (كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنْ اسْمِهِ، فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنْ اسْمِهَا، فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وحتى نفرّق بين الطيرة والفأل نتأمَّل قول ابن عباس ﵄: ((الفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء، فلذلك كرهت)) أي مُنِعَت.

ومن الناحية العملية يوضح الطيبي ﵀ كيف يقع الإنسان في الطيرة أحيانًا فيقول: ((معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة هو: أن الشخص لو رأى شيئًا فظنه حسنًا محرضًا على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله، بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم)).

فإذا أقبلت على صباحك: فتفاءل بصباح كل خير وسعة وفرحة وإيمان.

وإذا عزمت على سفر: فتفاءل بالسلامة وإنجاز حاجتك على خير وجه.

وإذا أقبلت على طلبٍ من أحدٍ: فتفاءل أن يجيب طلبك ويلبي حاجتك.

وإذا أقبلت على عملٍ أو وظيفة: فتوقع منها الرزق الحلال والبركة فيه.

وإذا أقبلت على زواج: فتفاءل بحياة سعيدة رغيدة.

وإذا أقبلت على دراسةٍ أو امتحان: فأحسن الظن في الله تعالى بأنَّه سيوفقك ويبارك في دراستك ونتيجتك.

وإذا سمعت بأحوال المسلمين: فتفاءل فيها بالخير لهم عاجلاً.

وإذا مرضت أو مرض أحد أحبابك: فتفاءل بالشفاء والعافية.

وهكذا في أمرك كله، هذا منهج الحبيب ﷺ.

بل حتى في حال الموت ــ وهو أحلك الظروف وأشدها على المرء ــ يَثْبُتُ المؤمن على تفاؤله؛ لتشرق روحه بالإيمان والتعلق بكرم الله ورحمته، فإن النَّبي ﷺ يقول في الحديث القدسي: (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ) رواه أحمد وإسناده صحيح.

وعن ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((كان شابٌ بهِ زهْوٌ، فكانت أمه تعظه، يا بني: إنَّ لك يومًا فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله، أكبت عليه أمه، فجعلت تقول: قد كنتُ أحذِّرك مصرعك هذا يا بني، فأقول: إنَّ لك يومًا فاذكر يومك، فقال: يا أمَّه، إن لي

ربًا كثير المعروف، وإني لأرجو ألا يعذبني اليوم بفضل معروفه، ويلي إن لم يغفر لي، قال يقول ثابت رَحِمَهُ الله: حسَّن ظنه بالله عز وجل في حالته تلك)).

وعن محمد بن مطرف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((دخلنا على أبي حازم الأعرج لما حضره الموت، فقلنا: يا أبا حازم، كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير راجيًا، حَسَن الظن به، ثم قال: إنه والله لا يستوي من غدا وراح، يعقد عقد الآخرة لنفسه، فيقدمها أمامه قبل أن ينزل الموت حتى يقدم غيرها عليها، فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا وراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب)).

التفاؤل: أوله كلمة طيبة، وأوسطه سعادة وفرحة وطمأنينة، وآخره جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين بإذن ربهم.

فأسعد نفسك بالتفاؤل، وتعوَّد عليه، وتغلَّب على الكلمة المتشائمة، واحبسها، حتى تغادر فؤادك قبل أن تغادر لسانك، وتذكَّر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشَّرح من الآية ٥ الى الآية ٦].

اللهم أكرمنا بهدايتك ما أحييتنا، وبلغنا جنتك برحمتك، إنك سميع مجيب.

٥٣

(أَهْلُ وَسَطِيَّة)

عباد الرحمن هم أهل الوسطية الحقة، التي تعني: أن يتحرى المسلم الاعتدال ويبتعد عن التطرف قولاً وفعلاً، بحيث لا يقصِّر ولا يغالي.

وقديمًا قالوا: ((خير الأمور أوسطها))، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الوسط هو: الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو العدل الذي عليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل حتى مصلحة البدن لا تقوم إلا به؛ لأنَّه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك، ومثل ذلك الأفعال الطبيعية: كالنوم والسهر، والأكل والشرب، والحركة والرياضة، والخلوة والمخالطة، وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا)).

وأهل السُّنَّة والجماعة وسطٌ في سائر أبواب السُّنَّة؛ وما ذاك إلا لأنَّه راجع ـ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: ((لِتَمَسُّكِهِمْ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ)).

ويسعد عباد الرحمن بتشريف الله تعالى لهم أن جعلهم من أمة وسط، أعزها الله تعالى بهذا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة الآية ١٤٣].

والوسط مبارك، وفيه من الخير ما لا تجده في الأطراف، فخذ مثلاً ما أخبر به ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِجَفْنَةٍ أَوْ قَالَ قَصْعَةٍ مِنْ ثَرِيدٍ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ حَافَاتِهَا، أَوْ قَالَ جَوَانِبِهَا، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهَا؛ فَإِنَّ الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ فِي وَسَطِهَا) رواه الدارمي وصحح إسناده ابن حجر.

ونهج الطريق الوسط هو التوازن المطلوب في إدارة الحياة، ولذا دلّنا الله تعالى على ذلك حتى في القضايا المالية، فقال في ثنائه على عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفُرقان الآية ٦٧].

حتى في الجنَّة؛ فإن أعظم درجة فيها هي الفردوس، وإنها لفي وسطها وأعلاها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) رواه البخاري.

والسبيل إلى هذه المنزلة إنما يكون بسلوك المنهج الوسط، الذي ينبذ التفريط، وهو الولوغ في الرذائل، وارتكاب المعاصي، أو استهانة السيئات، أو امتهان الحرمات، أو تحليل المحرمات، أو السخرية بالفضائل، أو السعي في هدم المُثُل العليا والقيم السامية والتكاليف الشرعية، وفي الطرف المقابل للتوسط، لا يقترب المسلم من الغلو، ولا يقع في الإفراط، ولا ينزلق في هاوية التنطع المهلك، ولا يبالغ في العبادة حتى يخرجها من صورتها المشروعة طلبًا لمضاعفة الأجر والمثوبة، أو يجرؤ على تأويل النصوص بما يوافق هواه، من غير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير؛ فإن شريعة محمد ﷺ بُنِيَت على التوسط

وهو العدل والسماحة واليسر، واللين والرفق، واتباع النّبي ﷺ من غير زيادة ولا نقصان.

عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: (آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً! فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ [أي يصلي قيام الليل]، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلْمَانُ) رواه البخاري.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِي اللهِ ﷺ قال: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ) رواه البخاري.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا [أي تذكر طول صلاتها]، قَالَ: مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ) رواه البخاري.

وعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ) رواه أبو داود وحسنه الألباني.

وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: (خَرَجْتُ يَوْمًا أَمْشِي، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ مُتَوَجِّهًا، فَظَنَنْتُهُ يُرِيدُ حَاجَةً، فَجَعَلْتُ أَخْنَسُ عَنْهُ وَأُعَارِضُهُ، فَرَآنِي فَأَشَارَ إِلَيَّ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي جَمِيعًا، فَإِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ يُصَلِّي يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَتُرَاهُ مُرَائِيًا؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَأَرْسَلَ يَدِي، ثُمَّ طَبَّقَ بَيْنَ كَفَّيْهِ فَجَمَعَهُمَا وَجَعَلَ يَرْفَعُهُمَا بِحِيَالِ مَنْكِبَيْهِ وَيَضَعُهُمَا وَيَقُولُ: عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ الدِّينَ يَغْلِبْهُ) رواه أحمد والحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

فيا أحبتي: المعاصي والتفريط مهلكة، والغلو والأفراط مهلكة، والبعد عن حياض الدين مضيعة، والإيغال من غير رفق في الشرع بعدٌ عن السُّنَّة، والقصد القصد نبلغ رضا ربنا سبحانه، ونسعد بسنة النَّبي ﷺ كما سَعِد عباد الرحمن، وننال من درجات الخير ما وعدنا ربنا، فهل نطلب أجرًا خيرًا مما ناله الحبيب ﷺ؛ فلقد كان يصلي وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء ويأكل اللحم، وحذَّر أمته من الرذائل كما حذَّرها من التنطع، فكلا الطرفين ضلال، وخير الأمور الوسط.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: (خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي).

فهل أدرك ذلك الغافلون عن الهداية، وهل أدرك ذلك المتنطعون في الدين؟

ولن نستطيع أن نعود إلى الوسط إلا حينما نغرف من معين العلم والمعرفة من أهلها المضطلعون بها، ونسير في صف الجماعة الآمن، لا نحيد عنه إلى طرف دون طرف:

عَلَيكَ بأوساطِ الأمورِ فإنَّها ... نجاةٌ ولا تركبْ ذلولاً ولا صَعْبَا

اللهم دلنا على ما يرضيك، واجعلنا من يهتدون بهداك، ويسيرون على نهج النَّبي ﷺ، إنك سميع مجيب.

٥٤

(مُيَسِّرُون)

بُعِث رسولنا ﷺ رحمةً للعالمين، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء الآية ١٠٧].

فخطَّ منهج التيسير لأمته، حتى غدا هذا النهج عَلَمًا عليها، لا يزيغ عنه إلا هالك، وضبطه بضوابط حتى لا تفرِّط الأمة في سلوكه، وأكَّده بقوله ﷺ: (إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ)، رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحَّحه الألباني.

وقال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا) رواه البخاري.

فماذا نعني بالتيسير؟ إنه طلب العمل المُيَسَّر السهل، ورفع المشقة والحرج عن المكلف بحيث لا تجهد النفس ولا يثقل الجسم.

وهو منهج رباني أكرم الله به عباده، وأراده لهم، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة الآية ١٨٥]، وكيف لا يكون كذلك والمنبع الذي نستقي منه التيسير جاء مُيَسّرًا من عند الكريم عز وجل، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر الآية ٢٢].

فالتيسير في حياة المسلم منهج يجب أن ينطبع على فكره وعمله وسلوكه؛ لأنَّه الطريق الذي سلكه النَّبي ﷺ في تبشير أمته وإنذارهم، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ [مَرْيَم الآية ٩٧].

فبالتيسير تُكسَب القلوب، ويسهل العمل بالشرع، وتتوق الأرواح إلى المزيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ الْمَسْجِدَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ، فَصَلَّى، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَهْرِيقُوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وإذا كانت العلاقة الأعظم هي التي بين العبد وربه، فإنَّه عليه الصلاة والسلام كان أحرص ما يكون أن تنهض هذه العلاقة على التيسير، وخذ مثلاً في شأن أفضل العبادات وعمود الإسلام: الصلاة، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: (قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ) رواه البخاري.

وفي شأن المعاملات، يوصي النبي ﷺ بالسهولة في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء، فهذا عُثْمَانُ بن عفان ﷺ: (اشْتَرَى مِنْ رَجُلٍ أَرْضًا فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ فَلَقِيَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنْ قَبْضِ مَالِكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ غَبَنْتَنِي فَمَا أَلْقَى مِنَ النَّاسِ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ يَلُومُنِي، قَالَ: أَوَ ذَلِكَ يَمْنَعُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاخْتَرْ بَيْنَ أَرْضِكَ وَمَالِكَ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا) رواه أحمد وإسناده صحيح.

أمعن النظر في شريعة الإسلام كيف تُيسِّر للمكلف في مختلف أحواله، فإن كان صحيحًا طلبت منه ما يناسبه، وإن كان مريضًا أو على سفر أو مضطرًا سمحت له بما يناسبه أيضًا، وليس هذا فحسب، بل حثَّته على التخفيف على نفسه، وجعلتْ ذلك من البِر الذي يؤجر عليه الإنسان، ولعلك تذكر معي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَرَأَى رَجُلًا قَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَهُ؟! قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ مِنْ الْبِرِّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ، وقال: عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّذِي رَخَّصَ لَكُمْ) رواه مسلم.

وليس من الفقه أن نحمل الناس على أشدِّ الأقوال في المسائل الاختلافية، زعمًا أنَّه هذا من باب الاحتياط؛ أو أنَّ الدين لابد أن يؤخذ بالقوة، فإن هذا لم يكن من نهج سلف الأمة، بل النهج الصحيح أن يطلب المستفتي العامي جوابَ سؤاله من عالمٍ رباني يثق أهلُ العلم في علمه، وصدَّره وليُ أمر المسلمين للفتوى، فإن أفتاه أخذ بفتواه ولو كانت الأيسر من أقوال العلماء، هذا هو فرض العامي كما قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء الآية ٧].

قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ الله: ((إذا تخالجك أمران، فظُنَّ أن أحبهما إلى الله أيسرهما)).

وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لقد نفع الله باختلاف أصحاب النَّبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنَّه في سعة ورأى أنَّه خير منه قد عمله)).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما أُحِبُ أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنَّه لو كانوا قولاً واحدًا، كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم، كان في سعة)).

وهذا لا يدعو أبدًا إلى الانفلات من ربقة التكليف، ولا تمييع الدين، بل هو السير على الجادة؛ ويكفينا أن هذا مستقى من هدي النَّبي ﷺ فإنَّه: (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ) رواه البخاري.

ولا يعني أبدًا أن نستحقر الخطايا تحت مسمى التيسير، فمنهج النَّبي ﷺ المتقدم واضح في إنكارها والبعد عنها، فإن المنكر خرق في سفينة المجتمع يُغْرِقُه وأهلَه، فالبحث عن الحق والتيسير في العمل به هو منهج التيسير الصحيح، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((جمع الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل)).

ولنعلم جيدًا: أن اليُسْر طريق إلى تغطية كل التكاليف الشرعية وتناولها بصدر رحب، وإقامتها على مقاربة الكمال، والاستمرار فيه من دون كلالة ولا ملل ولا انقطاع، وأن من خالف ذلك فإنَّه أحرى أن ينقطع به طريق العطاء لنفسه ولمجتمعه ولأمته.

وهل أدركنا أن التيسير والتسهيل والسماحة طريق سمح إلى الجنَّة؟ يقول البشير النذير ﷺ: (ألَا أُخبِرُكم بمَنْ تحرُمُ عليه النَّارُ؟ قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ قال: على كلِّ هيِّنٍ ليِّنٍ قريبٍ سهلٍ) رواه ابن حبان وصحَّحه الأرناؤوط.

وقال ﷺ مبشرًا كذلك: (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا) رواه أحمد وحسَّنه محققو المسند.

أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا نحو اليسر والسعة والسماحة، وأن يبصِّرنا في أمور ديننا، إنه سميع مجيب.

٥٥

(رُحَمَاء)

رحماء، هكذا أراد الله عباد الرحمن، من معين التعاطف يتزودون، ومن منبع التراحم يستقون، ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح الآية ٢٩].

هذا نبي الرحمة ﷺ يُنَاوَلُ صبياً تقعقع روحه في صدره تريد الخروجَ من جسده الصغير، فهلَّت دمعاتٌ مباركاتٌ من عين النَّبي ﷺ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ رضي الله عنه: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟! قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ؛ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ) متفق عليه.

لتعلم يا رعاك الله: أن الرحمة سبيل إلى الجنَّة أجمل به من سبيل، كيف لا يكون كذلك وقد أدخل الله رجلاً الجنَّة بسبب رحمة ملأت جوانحه، على ماذا؟ لندع الصادق المصدوق ﷺ يروي لنا فصول القصة بأوجز عبارة وأدقها، يقول عليه الصلاة والسلام: (بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) متفق عليه.

ويا لتعاسة الفضِّ الغليظ، الإنسان عنده غير مرحوم ولو ببشاشة يرسمها على محياه، فكيف بحيوان أبكم أصم! بئست الحال حاله، لست أنا ولا أنت قد حكمنا على هذا

الجنس من الناس بالشقاوة، بل رسول الرحمة ﷺ قد حكم عليه بذلك فقال: (لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ) رواه أحمد والترمذي وإسناده حَسَنٌ.

وهل بعد النار ـ أيها الرحماء ـ شقاوة! هذه امرأة تستوجب النار وبئس القرار؛ حينما انتكست فطرة الرحمة في قلبها المظلم بالجبروت، يحدثنا عن مصيرها حبيبنا ﷺ فيقول: (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ؛ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ) رواه البخاري.

هل جربت ـ يا أخي ـ كيف ستغمرك الرحمة مرة في زيارةِ مريضٍ أرّقَ الألم عينيه، وأسهر الوجع ليله، يقول الرسول ﷺ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً، إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ [أي: ثمرٌ مخروف ومجتنى من الجنَّة]) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

أخي الحبيب: مُدّ يدَ الكفالة ليتيمٍ فقَدَ حنانَ الأبوة ورضعَ بؤسَ فَقْدِها؛ ليكون لك في معروفك هذا نصيب من قول الحبيب ﷺ: (وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا؛ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) رواه البخاري.

كن صدرًا ودودًا على أرملة فرّقَ الموتُ بينها وبين حبيبها، فكسر الفراق قلبها، وأثقلت الحاجة إلى الناس كاهلها، فإن النّبي ﷺ يقول: (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوِ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ) رواه البخاري.

اخفض ـ أيها الحبيب ـ جناح الرحمة لضعيفٍ أضناه الأسى، وفرِّق جمعه الضنى؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾ [الضُّحَى من الآية ٩ الى الآية ١٠].

ظَلِّل بخيام الرحمات على زوجتك وبناتك ونسائك؛ فإنَّهنَّ مهما بلغنَ في علمٍ ومال يظللن في حاجتك وعطفك، وتذكَّر يا باذر المعروف أن حصـــاده مباركٌ وجناه طيب، فعَنْ عَائِشَـــةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: (جَاءَتْنِي مِســـْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرفَعتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاســـْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا، فَشـــَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَـــأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صـــَنَعَتْ لِرَســـُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ) رواه مسلم.

وعليك بصلة الأرحام فإنَّها مشتقة من الرحمة، ولسوف تذوق حلاوة ثمرها في الدنيا قبل الآخرة، يَقُولُ النَّبِي ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) رواه مسلم.

وتذكر ـ يا من أغناك الله من فضله ـ أن خادمك ما أتى إلا لحاجةٍ ماسةٍ ألمَّت به، وسوء عيشٍ أرَّق ذريته، فلا تَقْسُ عليه، وتجاوز عن أخطائه، يقول أنس ﷺ: (خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ؛ فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، وَلَا لِمَ صَنَعْتَ، وَلَا أَلَّا صَنَعْتَ) رواه البخاري.

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: ((ما ضربَ رسولُ اللَّهِ ﷺ خادمًا له ولا امرأةً ولا ضربَ بيدِهِ شيئًا)) رواه ابن ماجه وصحَّحه الألباني.

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أن رجلاً أتى النَّبي ﷺ فقال: (جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، كم نعفو عن الخادمِ؟ فصمَتَ، ثم أعادَ عليه الكلامَ، فصمَتَ، فلما كان في الثالثةِ قال: اعفُوا عنه في كل يومٍ سبعين مرةً)، رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

فواعجبًا كيف نطلب الرزق وقد قصرنا كثيرًا في حق ضعفائنا، فهل نسينا حديث النَّبي ﷺ: (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) رواه البخاري.

إن إعانةَ الضعيف من هدي النَّبي ﷺ، اتباعه مثوبة، والدوام عليه شرف وكرامة والسير عليه هو منهج عباد الرحمن الصالحين، فلقد (كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يتَخلَّفُ في المسيرِ فيُزجي الضَّعيفَ، ويُردفُ ويدعو لَهُم) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وما زال في الأمة من عباد الرحمن من اشتغل بالفقراء والمحتاجين، يحنُّ على ضعيفهم، ويكسو عاريهم، ويكفل يتيمهم، ويقوم على أرملتهم، والحمد لله رب العالمين.

اللهم ارحمنا برحمتك، واجعلنا من الرحماء بخلقك، وأدخلنا جنتك برحمتك، إنك سميع مجيب.

٥٦

(دُعَاةٌ إِلى اللّهِ تَعَالَى بِالحِكْمَةِ والمَوعِظَةِ الحَسَنَة)

إن هداية البشرية ونجاتها من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة مشروعٌ ضخمٌ وضع أساسَه أفضل من خلقهم الله تعالى على وجه هذه الأرض، فنوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ وغيرهم من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم قد أفنوا أعمارهم في تحقيق هذه الرسالة العظيمة؛ ليخلِّصوا الناس من أدران الشرك ووباء الإلحاد بإذن الله تعالى، ولينقذوهم من بؤر الفساد وعذاب المعاصي، فشقّوا طريق الدعوة إلى الله بروح ملؤها البذل والتضحية، والحِلْم والعلم، فقدموا من أجل ذلك كلَّ حياتهم، تلك الحياة التي لم يعرفوا فيها الدعة والرفاهية، ولا العبث ولا الفتور، حتى صرنا اليوم نتفيأ ظلال التوحيد، ونقطف من ثماره اليانعة، إنها حياة الدعوة التي تجعل الداعية الموفق يسخر كل لحظاته لها، جادة كانت دقائقه أو هازلة، سارَّة كانت أحواله أو محزنة.

ويخط أنبياء الله لبعاد الرحمن من بعدهم هذا الطريق الطويل في الدعوة إليه، ولكن بمداد من العزم وتحمل الأذى في سبيل الله تعالى، والحكمة والموعظة الحسنة، ولم لا يسلك عباد الرحمن هذا المسلك الشريف بكل ما فيه من ورود وبكل ما يحفه من أشواك، وقد قرءوا في كتاب ربهم كيف يشكو نوح عليه الصلاة والسلام إلى ربه حال قومه بكل حرقة وحسرة فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نُوح من الآية ٥ الى الآية ٩].

أيُّ حرصٍ هذا الذي يحمله الدعاة على مجتمعاتهم حتى يشغل الداعية ليله ونهاره من أجل نجاتهم، وأيُّ أملٍ يحفِّز هذا النَّبي الكريم حتى يتخذ كلَّ وسيلةٍ لدعوتهم فيجهر تارة ويسر أخرى، يا له من خوفٍ مشفقٍ على من حوله من عذاب عظيم ينتظر كل معرض عن دعوة التوحيد، إنه الخوف الذي جاء صريحًا في نبرةٍ نبويةٍ حنونةٍ حينما انطلقت من نبي الله نوح عليه السلام قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٥٩].

وإنَّه النصح المنزّه عن كل مصالح الدنيا البريء من حظوظها، ذلك نصح نبي الله صالح عليه السلام لقومه إذ قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٧٩].

إنَّ الداعية المخلص ـ أيها القارئ الكريم ـ يظل في شفقٍ عظيم على مجتمعه أن تحل به الكوارث التي حلت بالأقوام التي قبله، فتراه لا يفتر عن تحذير الناس من المعاصي المهلكة، والذنوب التي تسبب الدمار وتوجب العقاب، ألا تذكر معي قول شعيب عليه السلام حينما قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هُود الآية ٨٩].

اسمع إلى هذا الأسى من داعيةٍ رباني يدعو قومه إلى الجنَّة ولكنهم يدعونه إلى النار وذلك في قول الله تعالى، ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾ [غَافِر من الآية ٤١ الى الآية ٤٢].

هل أدركنا صدق مهمة الدعاة؟ هل تأملنا لماذا هم يبذلون أوقاتهم وأعمارهم وأموالهم وجاههم فقط لننجو من الهلاك في الدنيا والآخرة؟ وهل فقهنا لماذا هم يصرون على نصيحتنا وعلى تذكيرنا وإن قصَّرنا نحن في الاستجابة لهم؟

هكذا يورِّث الأنبياء عليهم السلام هذا الهَمَّ للدعاة من بعدهم، حتى لترى الداعية الموفق لا يترك فرصة للخير إلا اغتنمها، يبذل الغالي والنفيس لمجتمعه من غير حساب، لا ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا.

ولا تسلني ـ يا رعاك الله ـ عن فرحة الداعية المخلص حينما يهتدي أحد من الناس على يديه أو على يد غيره، إن الدنيا لن تسعه سعادة وبهجة، إنه يشعر بصدق أنَّه انتشل روحًا كادت أن تعذب بالنار فأنقذه الله به منها ليسعد بجنة عرضها السموات والأرض، قدوته في ذلك النَّبي عليه الصلاة والسلام الذي فرح بإسلام غلامٍ يهوديٍ مريضٍ قد قعد على فراش الموت، حتى ليتهلل وجهه فرحًا وسرورا بإسلامه، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قال: (كانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النبيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فأتَاهُ النبيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقالَ له: أسْلِمْ، فَنَظَرَ إلى أبِيهِ وهو عِنْدَهُ فَقالَ له: أطِعْ أبَا القَاسِمِ ﷺ، فأسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبي ﷺ وهو يقولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) رواه البخاري.

ولا تسلني بالمقابل عن الحسرة والأسى التي تغمر قلب الداعية الصابر حينما يعرض مجتمعه عنه، لا، إنها ليست حسرة واحدة فقط بل إنها حسرات، فها هو ذا النَّبي ﷺ تقطع قلبه الحسرات على قومه حرقة على إعراضهم عن دعوته الصادقة حتى خفَّف الله عنه من فوق سبع سموات فقال له: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فَاطِر الآية ٨]، وقال له أيضًا: ﴿فَلَعَلَّكَ

بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ [الكهف الآية ٦]؛ أي: مهلك نفسك من أجلهم حزنًا وكمدًا.

فانظر بعين التأمل ـ حفظك الله ـ إلى هذه المفارقة العجيبة، فحينما يفرح عاشق المال بزيادة ماله يفرح الداعية بازدياد المهتدين، وحينما يحزن صاحب المال على مفارقته بخسارةٍ أو بلاء، يتحسَّر الداعية على إعراض الناس عن المعروف والصلاح.

الدعاة ـ أيها الطيبون ـ أناسٌ حملوا راية الوسطية في منهجهم، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا انحراف، ولا تنطُّع ولا تحزُّب، ولا انفكاك من جماعة المسلمين إلى تفرقٍ ممقوت، بل يدٌ واحدة مع ولاة أمرهم ضد العدو المتربص بهم وببلادهم ومقدراتهم.

إنهم سفينة النجاة من أمواج الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنهم أناسٌ امتلأت قلوبهم محبة لنا وشفقة علينا، الدعاة ـ أيها الأحبة ـ لا يرجون مِنَّا مالاً ولا جاهًا، وإنما يرجون من الله سعادتكم ليس في الآخرة فقط ـ وأنعم بها من سعادة وأكرم ـ ولكنهم يدعوننا أيضًا إلى سعادة الدنيا ورفعتها وسؤددها وقوتها، ألم نقرأ قول نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما نادى في قومه قائلاً: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود الآية ٥٢].

وما علينا إلا أن نستشعر التكريم الذي منحه الله للدعاة إليه وإلى هديه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا) رواه مسلم.

فما أجمل أن نربي أنفسنا وأهلينا وذرياتنا على احترام الدعاة وتوقيرهم، والدعاء لهم، والتناصح معهم؛ لتسير سفينة المجتمع بكل أمن وإيمان، كيف لا؛ وهم من أحرص

الناس على نجاتنا من الفتن المضلة، والانحرافات المخلة، فعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا) رواه البخاري.

اللهم اجعلنا ممن يحبون أولياءك، ويسعدون بهدايتك في الدنيا والآخرة، إنك سميع مجيب.

٥٧

(أَصْحَابُ رِفْق)

فقد بعث الله نبيه محمدًا ﷺ رحمة وهدى، يحب الرفق والسماحة، وربَّى أصحابه الكرام على هذا الخلق النبيل.

وقد لزمه هذا الخلق النبيل في أحلك الظروف، فقد شُجَّ رأسه، وكُسِرت رباعيته في غزوة أحد، فقيل له في هذا الحال العصيب: ألا تدعوا على المشركين!؟ فما هو إلا أن تدفَّق رفقُه بقوله: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) رواه البخاري، وفي مقامٍ آخر قال: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً) رواه مسلم.

ها هو ذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول في مجادلته لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾ [الأَعۡرَاف من الآية ٦١ الى الآية ٦٣].

إنه جوابٌ ملؤه الرحمة والشفقة، والصدق في النصح، واللطف في الخطاب.

وهكذا تربت ناشئة عباد الرحمن على القلوب الكبيرة التي قلَّما تدفعها دوافع القسوة عن التعقُّل والحِلم، إنها إلى العفو والصفح أقرب منها إلى الانتقام والبطش.

لنعلم أن الرجل العظيم من عباد الرحمن كلَّما ارتفع إلى آفاق الكمال اتَّسع صدره، وامتدَّ حِلْمُه، والتمس للناس الأعذار، وأخذهم بالأرفق من حالهم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: بال أعرابي في المسجد فقام إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: (دَعُوهُ، وأَهْرِيقُوا على بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ –أوْ سَجْلًا مِن مَاءٍ– فإنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) رواه البخاري.

هذا رسول الله ﷺ عنوان الرحمة والشفقة والقدوة في الصفح والمغفرة.

إن حقًا على المسلمين أن يستصحبوا الرفق واللين في الأمر كلِّه من غير مداهنة ولا مجاملة، ومن غير غمط ولا ظلم.

وعلى الأب الرحيم والأم الرؤوم، وعلى الأزواج وأصحاب المسئوليات أن يرفقوا بمن تحت أيديهم، لا يأخذون إلا بحق، ولا يدفعون إلا بالحسنى، ولا يأمرون إلا بما يستطاع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطَّلَاق الآية ٧].

وماذا جنى صاحب الفظاظة والغلظة إلا سُقْمًا في البدن، وشدةً في الأعصاب، وضيقًا في الصدر، ونكدًا في العيش، وكثرةً للمشكلات بكل أصنافها، ونفرةً من المجتمع.

قال ﷺ: (إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شَيءٍ إلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شَيءٍ إلَّا شانَهُ) رواه مسلم.

يا أهل الرفق: إن كل قضية تربوية أو اجتماعية أو غيرها لا يمكن أن تحل بين الأحبة بالغضب والحنق وفوران النفس وقسوتها؛ فإن الشدة لا تورث إلا الشدائد.

فأيُّ يرجوها الأب من ابنه وهو لا يعرف معه مسلكًا في التربية إلا الضرب والإهانة والسب والشتم! وأيُّ علم أنتجه المعلم الذي لا يدخل على تلاميذه إلا بوجه متجهم غليظ، مهددًا تارة، ومعاقبًا تارة أخرى! وأيُّ سعادة زوجية يطلبها الزوج من زوجته وهي لا تراه إلا آمرًا ناهيًا غاضبًا أو لعّانًا وضاربًا! بل أيُّ حصاد سيجنيه المجتمع من داعية قاسٍ في كلماته ونصائحه وتوجيهاته وتعابير وجهه، وقد نسي أن الفظَّ القاسي قد قضت سنة الله تعالى نفرة الناس منه، فلا تقبل منه دعوة، ولا

يسمع منه توجيه، ولا يرتاح له جليس، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٥٩].

وعلى قدر ما يمسك الإنسان نفسه، ويكظم غيظه، ويملك لسانه تعظم منزلته عند الله وعند الناس، وعلى قدر ما يتجاوز عن الهفوات، ويقيل من العثرات تدوم مودته ويأنس الناس به، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، ولكن يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ) رواه البزار وحسّنه الألباني.

ولنتذكر حلم الصديق ﷺ؛ فإنَّه حينما تكلَّم مسطح ابن أثاثة في ابنته عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وقذفها بالفاحشة ـ وهي الطاهرة المُطَهَّرة ـ حلف الصديق ﷺ ألَّا ينفعه بنافعةٍ أبدًا، وقد كان ينفق عليه لفقره وقرابته منه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النُّور الآية ٢٢]، قال الصديق ﷺ فرحًا ورغبة في عفو الله وجنته: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم عاد بالنفقة والمعروف إلى مسطح، يا لها من استجابة كريمة من رجل كريم إلى رب كريم سبحانه.

وروي أن أبا الدرداء ﷺ مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه، فقال: ((أرأيتم لو وجدتموه في قليب –أي في بئر– ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم)).

وقال هارون الرشيد رَحِمَهُٱللَّهُ لأعرابي: ((بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة من الحب، قال: بحلمه عن سفيهنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا، لا منان إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان، سمح البنان، ماضي اللسان، قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه، وقال: والله لو كانت هذه الخصال لهذا الكلب لاستحق المجد والرفعة)).

إذَا ما طَاشَ حِلْمُكَ عَنْ عَدوٍ وهَانَ عليكَ هجرانُ الصَّدِيقِ
فلستَ إذًا أخا عفوٍ وصفحٍ ولا لأخٍ على عهدٍ وثيقِ
إذا زلَّ الرفيقُ وأنتَ ممنْ بلا رفقٍ بقيتَ بلا رفيقِ

هكذا سما عباد الرحمن؛ أجلُّوا أقرانهم، واحترموا زملاءهم ورحموا إخوانهم، وعرفوا لأهل الفضل فضلهم، وغضوا عن المقصرين، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النُّور الآية ٢٢].

وكونوا على يقين من أن فضلكم على من رفقتم به لن ينسى، وأن حِلْمَكم سيبقى منحوتًا في قلوب من حلمتم عليهم حُبًّا وعرفانًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فُصِّلَت الآية ٣٤].

اللهم ارزقنا رفقًا وحِلمًا وعلمًا، واجعلنا من عباد تحبهم ويحبونك، إنك سميع مجيب.

٥٨

(أَهْلُ صَبْرٍ عَلَى مَنْ خَالَفَهُم)

ليست الحياة لعباد الرحمن وحدهم، بل الحياة فيها الحق والباطل، وأهلُ العلم والجهل، وأهلُ التقوى وأهل المعصية، فما شأن عباد الرحمن مع مَنْ يكرههم أو يكيد لهم أو يقابلهم بالاستهزاء والسخرية والامتهان؟

وهل من كان سيره إلى الله تعالى يجد وقتًا ليقضيه مع من سَفِهتْ أحلامُهم، وضاعت أوقاتهم، ليفرغ لسبابهم وشتمهم فيقابلهم بمثل ذلك؟ كلا، فهم أرفع مكانًا، وأعلى مقامًا من أن تجرَّهم الترهات، أو تثيرَهم السخريات، فتنحط أقدارهم بها، أو تنزل مكانتهم بسببها، إنَّ أوقاتهم أثمن من أن تضيع في جدلٍ عقيمٍ لا نتيجة له إلا النقيصة والامتهان، إنَّهم لا يزيدون أن يلتفتوا إلى من يسخر منهم ليقولوا له في رفق ووقار: سلامًا، أو كلامًا حسنًا، قال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ٦٣﴾ [الفُرۡقَان الآية ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القَصَص الآية ٥٥].

إنَّه سلامُ العقل والرزانة لا سلامُ الضعفاء أو الجبناء، إنَّه سلامٌ كم تربَّت على نوره الأنفس فاهتدت على ضيائه، وكم خجلت منه القلوبُ المعرضة فآبت إلى رشدها وتمسكت بدينها.

أيا عبد الرحمن: لا تظنُّ أنك حينما ترد بالسلام على من سخر منك أنك قد ضعفت أو هِنت، لا والذي خلقك؛ لأنت بذلك أكبر وأرفع عند الله وعند خلقه، فلقد كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما.

يخاطبني السفيهُ بكلِ قبحٍ ... فأكرهُ أنْ أكونَ له مجيبا
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حِلْمًا ... كعودٍ زاده الإحراقُ طيبا

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ ﷺ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . وسَبَّ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَهُ . قَالَ: فَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمَسْبُوبُ يَقُولُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا إِنَّ مَلَكًا بَيْنَكُمَا يَذُبُّ عَنْكَ كُلَّمَا يَشْتُمُكَ هَذَا، قَالَ لَهُ: بَلْ أَنْتَ وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهِ، وَإِذَا قَالَ لَهُ عَلَيْكَ السَّلَامُ، قَالَ: لَا بَلْ لَكَ، أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ) رواه أحمد وحسّن إسناده ابن كثير.

هذه علامة فارقة من علامات الإيمان، فالإيمان الحقيقي ليس ادّعاءً، وإنما هو النجاح في مواطن الامتحان، فمَنْ منَّا لا يمرُّ على مواقف استفزازية، تثير لديه كوامن الغضب، فمرة سخرية على سُنَّةٍ يعمل بها، أو كلمةِ خير اعتادها، أو لباسٍ مشروع يرتديه، فإذا ما كان الإيمان في قلبه متربعًا على عقله وممسكًا بزمام جوارحه لربما انطلق لسانه بما لا تحمد عاقبته، فأين إرادتك وحزمك على لسانك؟ وأين سموُك عن الجاهلين الذين يتربصون بشخصيتك، بل أينك من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: (ما ضَرَبَ رَسولُ اللهِ ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبيلِ اللهِ، وَما نِيلَ منه شيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِن مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) رواه مسلم.

لقد أدرك عباد الرحمن أنهم لن يَسْلَموا في هذه الدنيا ممن يجهل عليهم، فاتخذوا لهم منهجًا نبويًا، قادهم فيه نبي الرحمة ﷺ، فعن ابن مسعود ﷺ قال: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى

النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فأدْمَوْهُ، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجْهِهِ ويقولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) متفق عليه.

إنها ردة فعل ربما لا يتصورها من يجهل على الصالحين، كيف يسمع الإنسانُ كلامًا عذبًا ودعاءً خاشعًا ممن لقي من يده الأذى والعذاب! إنَّه حتى لو كابر المستهزئ في نفسه، وأظهر الغطرسة على من استهزأ به إلا أنَّه في قرارة نفسه يضمر الإكبارَ وتأنيبَ الضمير!

والاستهزاء بالصالحين سلاح قديم من أسلحة الباطل، لم يقابله الأنبياء والرسل والمصلحون إلا بمزيد من الصبرِ والأناةِ والتحملِ والقولِ الحسن؛ لأنهم أدركوا أن عاقبة الإعراض بكل وسائله عن هؤلاء الجهلة حميدة وموفقة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الأَنۡعَام الآية ١٠]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرَّعۡد الآية ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشُّورَىٰ الآية ٤٣].

فأي شيء أعظم بمن يجهل على الأخيار أن يحيق به جهله، وأن يأخذه الله بعقاب من عنده، لكن الأمر آفته العجلة وعدم ضبط النفس، وإن ذلك من عزم الأمور، وهذا ما تميَّز به عباد الرحمن.

وإني لأعلم أن أعظم شيء على نفسك أن تحسن إلى الآخرين فيقابلوك بالإساءة، وأن تصلهم فيقطعوك، وهنا يكون الامتحان أشد، والنجاح فيه ألذُّ، عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ

إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) رواه مسلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((تسفهم الملّ: أي كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيهٌ لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكلَ الرماد الحارِّ من الألم، ولا شيء على هذا المحسنِ إليهم، لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه)).

لنعلم يقينًا أن عباد الرحمن ليسوا من أولئك النفر الذين يندمون حينما لا تسعفهم قواميس الاستطالة على مَنْ جهل عليهم في وقت النزاع أو الاختلاف، بل يفرحون أن أمسك الله ألسنتهم عن الخوض فيما ينقص من أقدارهم، ويحتسبون الأجر عند الله تعالى أن أكرمهم بحفظ ألسنتهم، ولسان حالهم يقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفُرقَان الآية ٦٣].

لا عيب أن نختلف مع الآخرين، وجميلٌ أن نتحاور معهم، غير أن المنقصة أن نفقد خلق عباد الرحمن حينما يجهلون علينا، فتبدوا منا كلمات لا تليق بأخلاق المسلمين ولا تمت لديننا بصلة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: (لَمْ يَكُنِ النبيُّ ﷺ فَاحِشًا ولَا مُتَفَحِّشًا، وكانَ يقولُ: إنَّ مِن خِيَارِكُمْ أحْسَنَكُمْ أخْلَاقًا) متفق عليه.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((متى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح، فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا، ولا أن تؤاخذه به،...بل اصبر لفورته، ولا تعول عليه؛ فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر، ومتى أخذت في نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله، كنت كعاقل واجه مجنونًا، أو كمفيق عاتب مغمى عليه، فالذنب لك، بل انظر بعين الرحمة، وتلمَّح تصريف القدر له، وتفرَّج في لعب الطبع به، واعلم أنَّه إذا انتبه، ندم على ما جرى، وعرف لك فضل الصبر)).

وختامًا أيها الحبيب: تذكَّر أن النَّبي ﷺ قال عنه أعتى أهل الأرض كفرًا: بأنَّه كاهن وشاعر وساحر! وحاشاه بأبي هو أمي، ولم يزد أن قال بعد ذلك: (بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا) رواه مسلم.

فكن من هؤلاء الذين إذا سفه عليهم أهل الجهل قالوا: سلامًا، أو معروفًا من القول أو سدادًا منه وطيبًا، لك بذلك المحبة بين الخلق، والعلو عند الخالق سبحانه.

اللهم اهدنا ويسِّر الهدى لنا، إنك سميع مجيب.

٥٩

(ثَابِتُون عَلى دِيْنِهِم)

في حال الشدائد يتبين الثبات على الدين، وتتضح معالم اليقين في نفس المؤمن، وحالة التقلب تختلف تمامًا عن حالة الرخاء، وحالة القوارع والاضطرابات تختلف كذلك عن حالة الاستقرار، والرابحون الرابحون هو الثابتون على دينهم، الممسكون بتعاليمه ولو كان ذلك على أنفسهم أشد من الجمر.

وها هي ذي أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تُبيّن لنا أنَّ أكثر دعاء النَّبي ﷺ في حديث شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: (قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ، فتلا معاذٌ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمرَان الآية ٨]) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

انظر حاجة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى هذا التثبيت من رب العالمين، فإنَّه قال: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُرْسِلُنِي وَأَنَا حَدِيثُ السِّنِّ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقَضَاءِ؟! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنْ الْأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ قَاضِيًا أَوْ مَا شَكَكْتُ فِي قَضَاءٍ بَعْدُ) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

وفي طريق الدعوة إلى الله تتشوف نفس الداعية إلى الثبات، فما أشد حاجته إلى الله بأن يثبت حجته، ويسدد لسانه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: (ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرني ولا تنصُرْ عليَّ، وامكُر لي ولا تمكُر عليَّ، واهدِني ويسِّرِ الهدى لي، وانصُرني على من بغَى عليَّ، ربِّ اجعَلني لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مُطيعًا، إليكَ مُخبتًا، إليكَ أوَّاهًا مُنيبًا، ربِّ تقبَّل تَوبَتي، واغسِل حوبَتي، وأجِب دعوَتي، واهدِ قلبي، وسدِّد لساني، وثبِّت حجَّتي، واسلُلْ سَخيمةَ قلبي) رواه ابن ماجه، وصحَّحه الألباني.

وما أحوج العبد المؤمن إلى الثبات ليحافظ على مبادئ دينه وقيمه وأخلاقه وعفَّته، بل حتى على أصول دينه؛ ليصون قلبه من شرور المغريات والشهوات والشبهات على قلبه.

آمل أن تتأمَّل بفؤادك إلى هذا الحديث العظيم، واستقبل هذه الوصايا النبوية بقلب المؤمن السليم، فإنَّ النَّبي ﷺ أوصى معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: (أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ، قَالَ: لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُتِلْتَ وَحُرِّقْتَ، وَلَا تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ، وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ، وَإِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ؛ فَإِنَّ بِالْمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِيَّاكَ وَالْفِرَارَ مِنَ الزَّحْفِ وَإِنْ هَلَكَ النَّاسُ، وَإِذَا أَصَابَ النَّاسَ مُوتَانٌ وَأَنْتَ فِيهِمْ فَاثْبُتْ، وَأَنْفِقْ عَلَى عِيَالِكَ مِنْ طَوْلِكَ، وَلَا تَرْفَعْ عَنْهُمْ عَصَاكَ أَدَبًا، وَأَخِفْهُمْ فِي اللَّهِ) رواه أحمد وابن ماجه وقال البوصيري: إسناده حسن.

وقل مثل ذلك في قتال الكفار المعتدين على المقدسات والأوطان، المتربصين بالمسلمين الدوائر، فإن قتالهم خلف راية ولي أمر المسلمين ربما ترددتْ في طريقه الأنفس

الضعيفة التي تهوى الدنيا، أو تبهر بزينتها، أو تركن إلى بهرجها، وهنا دور الثبات، الذي رسم له النّبي ﷺ أنموذجًا حيًّا، يحدّث به البراء بن عازب ﷺ فإنّه قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا) رواه البخاري.

وليس من الثبات في شيء أن تهتز قناعتك بنصر الله تعالى حينما تحل الفتن، أو يكثر الهرج والمرج، فإن معنى الثبات هنا هو ما قال فيه النّبي ﷺ: (إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ، قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ) رواه مسلم.

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: (بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ) رواه البخاري.

وهنا يأتي واجبنا نحو إمامنا وولي أمرنا ـ حفظه الله ووفّقه لكل خير ـ بأن نطيعه في المعروف، ولا نخلع بيعته من رقابنا، وندعو له ولبطانته بالصلاح والثبات، وهذا أيسر ما يمكن أن نقدم له، وهو ليس بالقليل، بل هو عظيم عند الله تعالى، فصلاحه صلاح للأمة، ونصره نصر لها.

وإن من أهم وسائل الثبات على الدين هو السير على منهج رب العالمين، واتباع خير المرسلين ﷺ، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام الآية ١٥٣].

وإن صلاح آخر هذه الدنيا لن يكون إلا بما صلح به أولها، سلف الأمة الأخيار، وعباد الرحمن، ومصابيح الدجى، ومنارات الخير، نجى من توخى طريقهم، وخسر من تنكب عن طريقهم.

إن الثبات أمر ليس بالهين، فالضغوط المتنوعة تدعوك حقًّا أن تعضَّ على دينك بالنواجذ، ولا تترك حبلك بأيدي الناس، بل لتثبت: تخيَّر الرفقة الصالحة، والصديق الوفي، والزوجة الخيِّرة، والعالم الرباني، وإياك ومضلات الفكر والفتن، واصنع من بيئتك في منزلك وعملك وسمرك ما يعينك على الثبات، ولا تضع نفسك في مهب ريح الفتن، ثم تقول: إنَّها فتن والإنسان ضعيف! بل ضع نفسك في المكان الذي يحبه الله لك، فتعيش مؤمنًا، وتموت مؤمنًا، وتحشر مؤمنًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

[آل عِمْرَان الآية ١٠٢].

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، إنك سميع مجيب.

٦٠

(حُكَمَاء)

لربما شــدَّتنا صــفة من صــفات عباد الرحمن، يضــعون بها الأمور في مواضــعها، ويتسـمون به بها بعدم التعجل أو التهور، وفي مقابل ذلك يتزينون بدراسة القرارات قبل اتخاذها، وغور أبعادها، وسـبر مآلاتها من خير أو شـر، ثم الإقدام على الأفضـل منها، إنَّها الحكمة التي أكرمهم الله تعالى بها، والتي عرَّفها بعضــهم بقوله: إصــابة الحق بالعلم والعقل.

ولأن الحكمة علم يمكن أن يكتسب، فلقد دعا النَّبي ﷺ لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا حينما ضمه فقال: (اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ) رواه البخاري.

كما أنَّها هبة من الله تعالى يؤتيها من يشـاء، قال سـبحانه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾

[البَقَرَةِ الآية ٢٦٩].

والحكمة نعمة كبيرة؛ لما تتركه من آثار النجاح وتحقيق الغايات من دون مخاطر أو خسائر، ولذا فإنَّها محل حسد أو غبطة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النَّبي ﷺ يقول: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهو يَقْضِي بهَا ويُعَلِّمُهَا) رواه البخاري.

والنَّبي ﷺ أحكم الخلق، وسارت دعوته على أسس الحكمة، حتى آتت أكلها، ومن

ذلك ما ورد في السُّنَّة أنَّه قال: (أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ: فِي أَحَدِهِما لَبَنٌ، وفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقالَ: اشْرَبْ أَيَّهُما شِئْتَ، فأخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فقِيلَ: أَخَذْتَ الفِطْرَةَ، أَما إنَّكَ لو أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ) رواه البخاري.

والحكمة صفة تعلي من شأن صاحبها، حتى لتراه مرجعًا للاستشارة، أو الصلح بين المتخاصمين؛ لأنَّه يستطيع أن يدير دفة القضايا بكل رويَّة وسكينة، ويحقق بعد فضل الله تعالى ثم بحكمته ما يصبو إليه جميع الأطراف، ويخمد بحكمته ألسنة الاختلاف الملتهبة، ويقضي على الفتنة في مهدها، وما دور النَّبي ﷺ في وضع الحجر الأسود بعد اختلاف القبائل عليه، ودوره في الإصلاح بين الأوس والخزرج، والتأليف بين المهاجرين والأنصار، و موقفه في قصة الإفك، وصبره على الأقوام الذين كذَّبوه وآذوه حتى أتوه مسلمين، إلا شواهد قليلة من حياة النَّبي الحكيم وقدوة الناس أجمعين بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

ولم يكن النَّبي ﷺ ليحجز أمته عن الأخطار في الدنيا فحسب، بل كان همه الأعظم نجاتهم من النار يوم القيامة، والفوز بالجنَّة دار النعيم المقيم.

عن أبي هريرة ﵁ عنه أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ: كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا، فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الفَراشُ وهذِه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وهُمْ يَقْتَحِمُونَ فيها) رواه البخاري.

وهكذا شأن كل حكيم أكرمه الله بالحكمة، فإنَّها لا تزيده إلا عزًا وشرفًا، وتبعده عن مصاف الجهّال والسفهاء، فعن السكن بن عمير قال سمعت وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ((يا بني عليك بالحكمة؛ فإن الخير في الحكمة كله، وتشرّف الصغير على الكبير، والعبد على الحر، وتزيد السيد سؤددا، وتجلس الفقير مجالس الملوك)) رواه الدارمي.

ولقد جعل الله تعالى لنا نورًا نستنير به في الدنيا ونرتقي به في الآخرة، منه ننهل الحكمة صافية نقية وضَّاءة، وهو القرآن الكريم، فعن كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((عليكم بالقرآن؛ فإنَّه فهم العقل، ونور الحكمة، وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدًا، وقال في التوراة: يا محمد؛ إني منزل عليك توراة حديثة، تفتح فيها أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفا)) رواه الدارمي.

ولذلك كان ينبغي على حامل القرآن أن يكون حكيمًا، كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((ينبغي لحامل القرآن أن يكون: باكيًا محزونًا، حكيمًا حليمًا سكينًا)).

ولقد ذكر الحكماء للحكمة طرقًا ووسائل بها تحصل للمرء الحكمة ويستفيد منها ويفيد، ومنها:

التعلم واكتساب الخبرة، فعن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه فقال: ((يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء)).

كما أن لممارسة الحياة وتجاربها أثره البالغ في اكتسابها، فالحكيم كثيرًا ما يكون ذا تجارب ناجحة، يمارس الحياة في شتى أصنافها، ويستمع لأخبار الناس ليتعلم منها، وتراه كثيرًا ما يتعظ بغيره، قال معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة)).

ولنعلم أن منطلق الحكمة هو الصمت، الذي يتريث به الإنسان عن العجلة بالأحكام، أو التسرع في القرارات، فكثيرًا ما يكون مع المستعجل الزلل، ويفوز الحكيم المتريث بالرأي الأرشد، فقد أخرج ابن باكويه عن أحمد بن خالد عن أبيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((أدنى نفع الصمت السلامة، وأدنى ضرر المنطق الندامة، والصمت عما لا يعني من

أبلغ الحِكَم)).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن موسى بن علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((قال رُبَيط بني إسرائيل: ((زين المرأة الحياء، وزين الحكيم الصمت)).

وقال لقمان الحكيم: ((الصمت حكمة وقليلٌ فاعله)).

وإذا تحدث الحكيم فينبغي أن يختار لحديثه ورأيه وعلمه المكان والزمان المناسبين؛ فإن من يتحدث بمقال في غير مقامه، لم يوفق للنتيجة المطلوبة، ولم يحصِّل الأثر المحمود، فإن لكل مقال مقام لا يدركه إلا الحكماء.

كما أن معرفة المتحدث إليهم، وما يمكن أن يدركوه من الحديث، وما يتأثرون به من رأي وقرار، وما نتيجة ذلك عليهم، وما ردة فعلهم منه، أمر في غاية الأهمية، فالحكمة تقتضي مراعاة ذلك كله، فعن كثير بن مرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((لا تحدث الباطل للحكماء فيمقتوك، ولا تحدث الحكمة للسفهاء فيكذبوك، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تضعه في غير أهله فتجهل، إن عليك في علمك حقًا، كما أن عليك في مالك حقًا)) رواه الدارمي.

ولا حكمة بالغة، إلا بخشية الله تعالى، والمخافة منه، وقديمًا قالوا: ((رأس الحكمة مخافة الله)).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قال: ((الخشية؛ لأن خشية الله رأس كل حكمة))، وعن مطر الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((بلغنا أن الحكمة خشية الله والعلم بالله)).

ولم أجد شيئًا بعد توفيق الله تعالى في الحكمة أكثر أثرًا من الرفق، فهو عمودها،

قال عروة بن الزبير: ((الرفق رأس الحكمة)).

لنسلك للحكمة مسالك العلم والخشية والرفق وحسن الحديث بعد صمتِ تأمل وتفكر، عسى الله أن يوفقنا فنكون حكماء كعباد الرحمن.

اللهم ألهمنا رشـــدك، وأكرمنا بهدايتك، واجعلنا من عبادك الحكماء، إنك سميع مجيب.

٦١

(مُطْمَئِنُّون)

يا له من شعور جميل حينما يلهج المرء بذكر الله تعالى، ويا له من هدوء وادع يجده القلب بعد أدائه لعبادة ربه، ويا لها من سكينة تنتاب الجوارح حينما تكون في سبح كريم مع التضرع والخشوع أو عطاء وإحسان، ما هذا الشعور الذي تكتسي به الروح، وتسعد به النفس، وتأمن منه الجوارح؟

إنَّها الطمأنينة التي فاز بها عباد الرحمن بعد أن هداهم الله تعالى إلى ذكره، لعلك تذكر معي قول الباري سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعْد الآية ٢٨].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ((هشَّت إليه واستأنست به)).

وإنَّها منزلة تراها لدى الصـــالحين تبدأ مع كل عبادة يقومون بها؛ لأنَّهم يجدون فيها المســتراح من تعب الدنيا ونصـبها، فما يُقبِل أحدهم على الصــلاة إلا وقد اطمأن لها؛ لأنَّه على يقين من أنَّه سـيجد فيها سـلوته وسـكينته، حتى إذا انتهى منها حصـلت له الطمأنينة الخالصة، فما أعذبها من طمأنينة.

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النِّسَاء الآية ١٠٣].

ولنعش لحظة من لحظات طمأنينة النَّبي ﷺ في صلاته فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (خَسفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي، فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا، وَادْعُوا اللهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ: إِنْ مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ: وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟) رواه مسلم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال (صَلَّيْتُ مع النبيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حتَّى هَمَمْتُ بأَمْرِ سَوْءٍ، قُلْنَا: وما هَمَمْتَ؟ قالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَقْعُدَ وأَذَرَ النبيَّ ﷺ) رواه البخاري.

وتسعد النفس بطمأنينتها في الدنيا وهي تروح وتغدو بين العبادات، وتراوح بين بساتينها وينابيعها، تنهج نهج القرآن، وتتبع هدي النَّبي الكريم ﷺ حتى يلتصق بها وصف الطمأنينة، فإذا ما ودعت هذا الدنيا وفارقت بهرجها، نوديت بطمأنينتها التي كانت تأنس بها مع الله تعالى وفي الله، فيقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

[الفَجر من الآية ٢٧ الى الآية ٣٠].

يا الله، ما أعذب هذا النداء الرباني، نداء تبتهج له القلوب، وتتشنف به الأذان،

وتســـعد به المهج، وتحلو به حياةُ الدنيا والآخرة، وتنفتح بعده أبواب الجنان، ويفوز المطمئن به برضا الرحيم الرحمن.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((هذا المؤمن اطمأن إلى ما وعد الله)).

فأين الذين رضــوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وغفلوا كل الغفلة عن ربهم وخالقهم، واستعذبوا لهو الشهوات، وأنسوا به، وانغمسوا في لذتهم الفانية المحرمة، وظنوا أنَّهم غير راجعين إلى ربهم؟ فأي طمأنينة هذه التي تصيب المرء بالغفلة في الدنيا، وتورده النار يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [يُونُس من الآية ٧ الى الآية ١٠].

ولنبحث عن الطمأنينة في مظانها: من طاعة الله تعالى واتباع هدي النَّبي ﷺ، وحب المســـلمين، والألفة بهم، وإبراء الذمم من الواجبات المســـتحقة، والقيام بواجب البر للوالدين، وشـأن التربية للذرية، ونشـر عبق الحب بين الأسـرة والمجتمع، وإيجاد أجواء التعاون في العمل، والعفو عما ســـلف من الخلافات والزلات، وتنظيم وقتك بكل دقة بين الحقوق الواجبة والمستحبة، كل هذا سبيلك إلى طمأنينة النفس وهدوء البال، فتنام قرير العين، وتنهض بعملك في أحسن حال.

وإن لمجالس الذكر لطمأنينة وسـكينة، حيث لا ترى إلا الصـالحين، ولا تسـمع إلا خيرًا، ولك من الله جوائز ومكافآت، اسمعها في حديث النَّبي ﷺ: (وَما اجْتَمع قَوْمٌ في بَيْتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عليهمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِنْدَهُ) رواه مسلم.

وعكس ذلك ما يجده البطَّالون في جلســـاتهم التي يعمرونها بالمحرمات، فإنَّهم لا

يقومون منها إلا وقد أحاط بهم القلق والاكتئاب، وصحبتهم التعاسة في أمرهم كله، ينفضُّون من مجالسهم ولم يذكر فيها قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فيا له من مجلس غادرته السكينة والطمأنينة، ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه من الآية ١٢٤ الى الآية ١٢٧]

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة: رب اغفر لي وتب علي؛ إنك أنت التواب الرحيم) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يُونُس من الآية ٧ الى الآية ١٠].

اللهم ألهمنا ذكرك وأسبغ علينا طمأنينة نسعد فيها في الدنيا والآخرة، إنك سميع مجيب.

٦٢

(مُتَطَهِرُون)

إن من أسمى سمات هذا الدين، أن أمر أصحابه بالتطهر في الجسم وفي النفس.

أما الطهارة في النفس فتعني: ترك الذنب، والإقبال على العمل الصالح وتنقية النفس من المعايب.

وأما طهارة الجسم فتعني: رفع حدث أو إزالة نجس أو ما في معناهما وعلى صورتهما.

والله تعالى أمر نبيه ﷺ بالطهارة فقال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المُدَّثِر الآية ٤]، ولقد بين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنها طهارة تعم الطهارة من الكفر والفسوق والحدث والأعيان الخبيثة، وأن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها.

والطهارة ليست مَهَمَّة روتينية ليس لها روح، أو لا تحمل هدفًا، أو أن تطغى علينا في أدائها العجلة أو عدم التلذذ بالتعبد بها، أو حتى نسيان شكرها!

عش معي لحظات هذه النعمة العظيمة، وكيف ينبغي للمسلم أن يستشعر أثرها عليه في الدنيا والآخرة.

فالطهارة شعار من شعارات الإيمان، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: (استَقيموا ولَن تُحصوا، واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةَ، ولا يحافظُ علَى

الوضوءِ إلّا مؤمنٌ) رواه ابن ماجه وصحّحه الألباني.

وتأمل منزلة الطهور من الإيمان في حديث أبي مالك الأشـــعري ﷺ: (أن نبي الله ﷺ قال: الطُّهُورُ شَـطْرُ الإيمانِ، والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ -أَوْ تَمْلأُ- ما بيْنَ السَّـمَواتِ والأرْضِ، والصَّـلاةُ نُورٌ، والصَّـدَقَةُ بُرْهانٌ، والصَّـبْرُ ضِـياءٌ، والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَـهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها) رواه مسلم.

وطهارة الأرض مثلاً خصيصـة من خصـائص الأمة المحمدية، ورحمة إلهية بأمة محمد ﷺ، فعن جابر بن عبد الله الأنصـــاري ﷺ قال: (أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: أُعْطِيتُ خَمْسـًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فأيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّــلَاةُ فَلْيُصَــلِّ، وأُحِلَّتْ لي المَغَانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّـفَاعَةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّـةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً) رواه البخاري.

ولقد سمّى النَّبي ﷺ ماء الوضوء (الطهور المبارك) ولو قلّ، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كُنَّا نَعُدُّ الآيَاتِ بَرَكَةً، وأَنْتُمْ تَعُدُّونَهَا تَخْوِيفًا؛ كُنَّا مع رَسـولِ اللَّهِ ﷺ في سَـفَرٍ، فَقَلَّ المَاءُ، فَقالَ: اطْلُبُوا فَضْـــلَةً مِن مَاءٍ، فَجَاؤُوا بإنَاءٍ فيه مَاءٌ قَلِيلٌ، فأدْخَلَ يَدَهُ في الإنَاءِ، ثُمَّ قالَ: حَيَّ علَى الطَّهُورِ المُبَارَكِ، والبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ، فَلقَدْ رَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِن بَيْنِ أصَابِعِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، ولقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وهو يُؤْكَلُ) رواه البخاري.

وإنَّه لا بد أن استرعى انتباهك حرص النَّبي ﷺ على طهارة الفم بالسواك، حتى قال عليه الصلاة والسلام: (لَوْلا أنْ أشُقَّ علَى المُؤْمِنِينَ ـــ وفي حَديثِ زُهَيْرٍ ـــ علَى أُمَّتِي، لَأَمَرْتُهُمْ بالسِّواكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ) رواه مسلم.

وهو القائل ﷺ: (السِّواكُ مَطهَرةٌ للفمِ، مَرضاةٌ للرَّبِّ) رواه النسائي وصحَّحه الألباني.

لقد بين النَّبي ﷺ كل ما يحتاجه المؤمن من أنواع التطهير للبدن أو غيره في أحاديث جامعة، تعد أصولاً في باب الطهارة الذي أولاه علماؤنا الأجلاء بالغ اهتمامهم، حتى كتبوا فيه آلاف الكتب وأضعافها من الصفحات.

وما ذاك إلا لأنَّهم علموا يقينًا ما وراء هذه الطهارة من فوائد صحية لا يزال العلماء والأطباء يكتشفون من أسرارها إلى هذه الساعة.

أما ثمارها الأخروية، فإليك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: مَنْ تَطَهَّرَ في بيْتِهِ ثُمَّ مشى إلى بيتٍ من بيوتِ اللهِ، ليَقْضِيَ فريضَةً مِنْ فرائِضِ اللهِ، كانتْ خطواتُهُ إحداهما تحطُّ خطيئَةً، والأخرى ترفَعُ درجَةً) رواه مسلم.

ولقد جمع حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه خيري الدنيا والآخرة للمتطهرين في حديثٍ سمعه من رسول الله ﷺ أنَّه قال: (ما من مسلمٍ يَبِيتُ على ذِكْرٍ طاهرًا فيَتعارَّ من الليلِ فيسألُ اللهَ خيرًا من الدنيا والآخرةِ إلا أعطاه إياه) رواه أبو داوود وصحَّحه الألباني.

حتى الأموال حرص الإسلام على طهارتها من دَرَن البخل والشح والأثرة، فشرع لتطهيرها الزكاة المفروضة والصدقة المستحبة، فقال سبحانه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التَّوۡبَة الآية ١٠٣].

أما تطهير الروح من آثام الرذائل، فهي علامة من علامات السماحة الإسلامية، حيث شرع الله تعالى لتطهير الروح من الإثم والخطيئة التوبة النصوح والحدود

والكفارات، فهي أبواب الراحة من عذاب الآخرة، ولا أدل على ذلك من قصة ماعز الأسلمي ﵁ الذي اقترف الزنا، ثم أتى إلى النَّبي ﷺ يطلب منه التطهير، ويقول: (يا رَسولَ اللهِ، طَهِّرْنِي) وأخذ النَّبي ﷺ يدله على التوبة بينه وبين الله تعالى، فلما أصرَّ على التطهير بإقامة الحد عليه، وتأكد منه النَّبي ﷺ أنَّه يستحقه، أقام عليه الحد، ولكن ماذا نال ماعز ﵁ من الطهارة التي كان ينشدها بعدما جره الشيطان إلى المعصية؟ أخبر عنه النَّبي ﷺ بقوله: (لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً، لو قُسِمَتْ بيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ) رواه مسلم.

والتوبة إذا نصح العبد فيها لنفسه وأخلصها لله تعالى هي من أسهل طرق الطهارة الروحية، التي ينجو بها العبد من عذاب الله تعالى، ولو تكرر منه الذنب وتكررت منه الذنوب حتى يقبضه الله تعالى على التوبة.

ويزيد الله تعالى من تاب وعمل صالحًا بتبديل سيئاته حسنات كرمًا منه وفضلاً، وقد ذكر الله تعالى في سياق صفات عباد الرحمن فقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ [الفُرْقَان من الآية ٧٠ الى الآية ٧١]

وإن طهارة النفس من التشاحن، وطهارة البدن من الأوساخ، وطهارة الروح من الأوزار، سبيل إلى مجتمع نزيه، وأمة قوية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الله سبحانه جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيِّب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب)).

والحرص على الطهارة لا يعني الإسراف في استخدام الماء أو غيره من المطهرات، فإن كانت الطهارة مطلوبة، فالإسراف ممنوع، فما كان النَّبي ﷺ يزيد في وضوئه على

المُد؛ أي نصف صاع، وهو ما يقارب نصف لتر أو يزيد قليلاً، ولا يزيد في غسله على صاع.

أسأل الله تعالى أن يكتبنا في التوابين والمتطهرين، إنه سميع مجيب.

٦٣

(أَهْلُ عِزَّة)

فطر الإنسان على طلب العزة، وجاء الإسلام يلبي هذه الفطرة ويسندها، وأكرم الله تعالى نبيه وعباده المؤمنين بها فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المُنَافِقُون الآية ٨].

وقبل كل شيء سمَّى الله تعالى نفسه بالعزيز فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأَنفَال الآية ١٠]، فهو سبحانه الذي لا يغلبه شيء وليس كمثله شيء.

وإذا كان الله تعالى هو الموصوف بالعزَّة التامة المطلقة، فإنَّه سبحانه هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء من عباده، قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عِمۡرَان الآية ٢٦].

وإن ممن أعزَّهم الله عباد الرحمن؛ حيث أعزهم بالإيمان وطاعته، وأعزَّهم بقوة اليقين في نصر الله تعالى، وأعزهم بنفع الناس في أمور دينهم وآخرتهم، وأعزهم بالعلم، وأعزهم بالقناعة، والزهد في الدنيا.

أما العزَّة التي تبدو للكفرة في عتادهم أو كثرة أموالهم فهي في حقيقتها ذلٌ وهوان؛ إذ أنها اتكاء على أمرٍ فانٍ زائلٍ مهما كانت قوته وثمنه، وتبقى القوة لله العزيز الحكيم.

ولهذا كان النَّبي ﷺ يلوذ بعزَّة ربه سبحانه ويلجأ إليها فيقول: (اللَّهُمَّ لكَ أَسْلَمْتُ،

وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الذي لا يَمُوتُ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ.) رواه مسلم.

لقد استشعر عباد الرحمن طعم العزّة في إيمانهم، وسرت مقولة عمر بن الخطاب ﷺ في دمائهم، إنّها تلك المقولة التي رواها الحاكم بسنده عن طارق بن شهاب قال: ((خرج عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ إلى الشامِ، ومعنا أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ ﷺ، فأتوا على مَخاضةٍ، وعمرُ على ناقةٍ، فنزل عنها وخلع خُفَّيه، فوضعَهما على عاتقِه، وأخذ بزمامِ ناقتِه فخاض بها المَخاضةَ، فقال أبو عبيدةَ: يا أميرَ المؤمنين، أأنتَ تفعلُ هذا!؟ تخلعُ خُفَّيك وتضعُهما على عاتقِك وتأخذ بزمامِ ناقتِك وتخوضُ بها المَخاضةَ! ما يسرُّني أنَّ أهلَ البلدِ استشرفوك، فقال عمرُ: أَوَّهْ، لو يقلْ ذا غيرُك أبا عبيدةَ، جعلتُه نكالًا لأمة محمدٍ ﷺ، إنَّا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ) رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ((مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ)) رواه البخاري.

والعزَّة الحقيقية بين المسلمين لا تجلب التفاخر بينهم، ولا الغطرسة على الضعفاء منهم، ولا التعالي بالأنساب، ولا الظلم أو الاستبداد، بل إن العزة في المؤمن الحق لا تزيده إلا تواضعًا، فلقد كتب الله تعالى لعباده المتواضعين عزة في الدنيا ورفعة في الآخرة، قال النّبي ﷺ: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللَّهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أحَدٌ لِلَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وتبقى الشهامة والرجولة والإباء علامات على عزّة المؤمن التقي، تتبين بها المعادن الكريمة من غيرها، قال إبراهيم بن شيبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة).

وإنك لترى العزيز هو الذي لا يتردد في إسـداء النصـح للآخرين، ولا يتقهقر عن فعل المعروف لهم، ولا يستبطئ أن ينهض بحاجتهم، كانوا بمنزلته أو أقل، علمًا أو مالاً؛ لأنَّه لا يرى أن مقاييس الدنيا تفي بحاجته في الوصـول إلى منزلة العزة الكريمة، بل العزة لديه هي انتماؤه إلى دينه وخدمته للناس ولبلاده وأمته.

قال أبو بكر بن دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قصـد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضـها له، وظهر له منه ضجر، فقال شعرًا:

لا تَدْخُلَنَّكَ ضَـجْرةٌ مِن سَـائِلٍ ... فلخير دهرِكَ أن تُرى مسـؤُولا

لا تجبـهـنْ بالـردِ وجـهَ مُـؤمـِّلٍ ... فـبقـاءُ عـزِّك أَنْ تـُرَى مَـأْمـُولا

تلقى الكريمَ فتسـتـدلَ ببشْـرِه ... وترَى العُبُوسَ على اللئيمِ دليلا

واعلم بأنَّك عن قليلٍ صـائرٌ ... خبرًا فكن خبرًا يروقُ جميلا

وما أحوج جيل اليوم إلى غرس العزَّة في نفوسهم، التي تدلهم على يقينهم في قوة الله تعالى، ونصـره لدينه، ورعايته لأهل الإسـلام، فتنبني عقولهم على العلم والمعرفة، فينشـؤون غير ضـعفاء، بل أقوياء في أنفسـهم، وأقوياء في حماية مبادئهم، وأشـداء في صـيانة وطنهم، حتى يهابهم عدوهم، ويحسـب لهم ألف حسـاب، فبمثل هذه العزة بعد الله تعالى تُصان الأوطان، ويعم الأمن والأمان، وتُصَدُ الأخطار المحدقة بأمة الإسلام.

ولعلك تذكر قصة العزَّة الفريدة لعبد الله بن حذافة السـهمي ﵁ حينما وقع أسـيرًا بين يدي ملك الروم قيصـر، فبدأ معه في دوامة من الإغراءات الدنيوية، وسـاعة بالترهيب والتخويف، حتى أخذ يسـلخ بالنار بعض أسـرى المسـلمين أمام ناظريه وهو يغطُّهم في إناء الزيت الحار، فيتفسـَّخ اللحم عن العظام، فما زاده ذلك إلا عزَّة وكرامة وثباتًا، ولكنه بكى، فظن قيصـر أنَّه قد لان وهان، فقال قيصـر: ويحك! فما الذي أبكاك؟ قال: أبكاني أني قلت في نفسـي: تُلقى الآن في هذه القدر، فتذهب نفسـُك،

وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفسٌ فتلقى كلُها في هذا القدر في سبيل الله.

فقال قيصر: هل لك أن تُقبّل رأسي وأخلي عنك؟

فقال له عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا؟

قال قيصر: وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا.

قال عبد الله: فقلت في نفسي: عدوٌ من أعداء الله، أُقبِّل رأسه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين جميعًا، لا ضير في ذلك عليَّ.

ثم دنا منه وقبَّل رأسه، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أسارى المسلمين وأن يدفعوهم إليه، فدُفِعوا إليه.

ولم تنته قصة العزة هذه بعد، فإن عبد الله السهمي رضي الله عنه: لما قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخبره خبره كلَّه، وما جرى من تقبيله رأس قيصر في سبيل إرجاع الأسرى جميعًا معه: سُرَّ الفارق عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعظم السرور، ولما نظر إلى الأسرى قال مقولته المشهورة: حقٌ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ بذلك، ثم قام الخليفة عمر: فقبَّل رأس عبد الله بن حذافة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فما أروع أن تربى النفوس على العزَّة، فبها بعد الله تعالى تنمى الفضيلة، وتمحق الرذيلة، وتستجلب المكارم، وتستدفع المكاره.

فاللهم أعزَّنا بعزك، وأكرمنا بفضلك، وأظلنا في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك، إنك سميع مجيب.

٦٤

(أَهْلُ اقْتِدَاءٍ وَقُدْوَة)

دعونا نسأل أنفسنا: كيف وصلت لنا التشريعات، وكيف اتضح لنا المنهج الرباني، وكيف تعلمنا الهدي النبوي، كيف استطاع الإسلام أن يسري إلى القلوب شرقًا وغربًا، حتى وصل إلى سويداء القلوب، وتشربت بفكره العقول، حتى خالج المشاعر، وسهل على أتباعه العمل به، وبلغ بهم الرضا به كل مبلغه؟

إن السر في ذلك كلِّه هو: تلك القدوة الحسنة التي نالها النَّبي الكريم ﷺ، فسار على إثرها الصالحون من سلف الأمة وخلفها، حتى ضرب هؤلاء جميعًا أروع الأمثلة في كل خير ومعروف وصلاح، فكان على مَنْ بعدهم السير على طريقهم، والاستنارة بسننهم.

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأَحۡزَاب الآية ٢١].

إن النَّبي ﷺ بدأ في طريقه الدعوي بالإصلاح العقدي، وتوجيه الإيمان إلى وجهته الصحيحة، فلما نال النجاح فيه صلحت له كل القضايا، فحاز كل الظفر والقوة والاستقرار.

خطأ كبير أن يفهم بعض الناس أن الإسلام انتشر في كل أرجاء المعمورة بالسيف أو إراقة الدماء! بل إن القدوة الحسنة، والخلق الرفيع، والإيمان الصادق، هو السبيل الأكثر والأسرع في انتشار هذا الدين ومحبة الناس.

فكم من فعل كريم، أو خلق رفيع، أو كلمة حسنة، أو تعاون في بِرٍّ، أو تضحية وبذل، أو إيثار وإحسان، كان أثره أبلغ في إيصال الإسلام إلى الآخرين، أو تعليم الناس ما لا يعلمون، أو أخذهم إلى ساحل السعادة والأمان، أبلغ من خطب طويلة، أو كتب كثيرة، أو أموال طائلة، فالقدوة الحسنة تصنع العجائب في النفوس، حتى لتبني الهداية في القلوب على أساس من الحب، وأصل متين من الإقناع، يبقى أثره طويلاً، وإنك لترى خيره متعديًا.

لقد جاء التوجيه صريحًا في القرآن الكريم في قضية الاقتداء، وما ذاك إلا لأهميتها وعظيم شأنها، قال الباري سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحَشر الآية ٧].

بل ربط ذلك بمحبة الله تعالى فقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عِمرَان الآية ٣١].

لقد كان النَّبي ﷺ يعلمهم الاقتداء به، ويحذِّر من مخالفته، فتأمَّل معي هذا الحديث، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أحَدُهُمْ: أمَّا أنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أبَدًا، وقالَ آخَرُ: أنَا أصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أنَا أعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتَزَوَّجُ أبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إليهِم، فَقالَ: أنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي) رواه البخاري.

وتعلم الصحابة رضي الله عنهم الاقتداء به، وصدَّقوا ذلك بأفعالهم، فإنَّهم يتسابقون إلى ذلك،

قال عبد الله بن عمر ﭬ عنهما: (أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذَ خاتَمًا مِن ذَهَبٍ أوْ فِضَّةٍ، وجَعَلَ فَصَّهُ ممَّا يَلِي كَفَّهُ، ونَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، فاتَّخَذَ النَّاسُ مِثْلَهُ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدِ اتَّخَذُوها رَمَى به وقالَ: لا أَلْبَسُهُ أبَدًا، ثُمَّ اتَّخَذَ خاتَمًا مِن فِضَّةٍ، فاتَّخَذَ النَّاسُ خَواتِيمَ الفِضَّةِ، قالَ ابنُ عُمَرَ: فَلَبِسَ الخاتَمَ بَعْدَ النَّبيِّ ﷺ أبو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمانُ، حتَّى وقَعَ مِن عُثْمانَ في بئْرِ أرِيسَ) رواه البخاري.

وسرى معنى الاقتداء في نفوس الصحابة، فما يزال أحدهم يتبع مَنْ هو أعلم منه، فعن أبي وائل رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((جَلَسْتُ مع شَيْبَةَ علَى الكُرْسِيِّ في الكَعْبَةِ، فَقالَ: لقَدْ جَلَسَ هذا المَجْلِسَ عُمَرُ ﭬ، فَقالَ: لقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ ولَا بَيْضَاءَ إلَّا قَسَمْتُهُ، قُلتُ: إنَّ صَاحِبَيْكَ لَمْ يَفْعَلَا، قالَ: هُما المَرْآنِ أَقْتَدِي بهِمَا)) رواه البخاري.

ويظهر معنى اليقين بصدق المقتدى به، والثقة فيما جاء به جليًا في قول عمر بن الخطاب ﭬ حينما جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله فقال: (إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لا تَضُرُّ ولَا تَنْفَعُ، ولَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النبيَّ ﷺ اسْتَلَمَكَ ما اسْتَلَمْتُكَ، فَاسْتَلَمَهُ) رواه مسلم.

وتأخذ القدوة في نفوس عباد الرحمن مكانًا عظيمًا لعظيم أثرها في النفوس وما تتركه من تبعات ليس هينة، حيث يخشى إذا وقع فيها تقصير أو خلل أن ينتقل إلى الأجيال اللاحقة، ومن ذلك لما رأى عمر بن الخطاب ﭬ على طلحة بن عبيد الله ﭬ ثوبًا مصبوغًا وهو مُحْرِم قال له عمر ﭬ: ((ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟! فقال طلحة: يا أمير المؤمنين، إنما هو مدر [أي: طين]، فقال عمر ﭬ: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس، فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب لقال: إن طلحة بن عبيد الله كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام! فلا تلبسوا أيها الرهط شيئًا من هذه الثياب المصبغة)) رواه الإمام مالك.

وتعظم المسؤولية على أهل العلم والصلاح والدعوة؛ لأنهَّم في محل القدوة عند

عامة الناس، والناس إذا اختلفوا في شيء نظروا إليهم ماذا سيصنعون، فيفعلون مثلهم، والله المستعان، فليضع كل قدوة نفسه في محلها الذي ينبغي أن تكون فيه.

وإليك هذا الموقف: فعن وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((كان جبارٌ في بني إسرائيل يقتل الناس على إجبارهم بأكل لحم الخنزير، فلم يزل يفتك بهم ويجبرهم حتى وصل إلى عابد من عُبَّادهم، فشق ذلك على الناس، فأتاه صاحب الشرطة وعرض عليه سبيلاً للنجاة فقال له: إني أذبح لك جديًا، فإذا دعاك ذلك الجبَّار لتأكله على أنَّه لحم خنزير فكُلْه، فلما دعاه الجبَّار إلى ذلك، أبى ذلك، فأمر به ليخرجوه ويضربوا عنقه، فقال له صاحب الشرطة: ما منعك أن تأكل وقد أخبرتك أنَّه جدي! قال: إنِّي رجل ينظر الناس إليَّ، وإني كرهت أن يُتأسَّى بي في معاصيّ)).

واليوم سَهُل التأسِّي بالنَّبي ﷺ حيث سهل النظر في سنَّته، وتوفرت الكتب التي تحكي سيرته ﷺ بأشكال مختلفة، حيث الحلقات العلمية، والبرامج الإعلامية المرئية والمسموعة والإلكترونية، فما بقي للمرء إلا أن يعمر قلبه بحب النَّبي ﷺ والسير على نهجه؛ ليملأ قلبه باليقين بأنَّ اتباع خير المرسلين هو طريق الناجحين المفلحين.

فالحمد لله أن جعلنا خير الأمم تقتدي بإمام المرسلين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وبسلفه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فاللهم أعنَّا على الاقتداء بهم ما أحييتنا، واجمعنا بهم في جنات النعيم، إنك سميع مجيب.

٦٥

(يُعَظِّمُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ وشَرَائِعِه)

عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) رواه البخاري.

ما هذه المحارم التي هي حمى الله تعالى، وما هو واجب عباد الرحمن نحوها؟

المحارم: ما يجب احترامه وحفظه من الحقوق والأشخاص والأزمنة والأماكن، حتى إذا تعدَّاها الإنسان كان مقترفًا للحرام، مستحقًّا للعقوبة.

أما حرمات الله تعالى ففيها أقوال، لعل أشملها ما قاله مجاهد رحمه الله بأنَّها: مكة، والحج، والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلِّها.

والآن: ما شأن عباد الرحمن مع هذه الحرمات؟

إننا نجدهم يعلمون بأحكامها، ولا يستحلون ما حرَّم الله تعالى منها؛ تعظيمًا له سبحانه.

وإنَّ المعنى الدقيق لهذا التعظيم: ألا يتتبع المرء الرخص بغية البعد عن التكاليف الشرعية، أو استثقالاً لها، أو يؤديها على نقص وضعف، أو يقع في النقيض من ذلك وهو الغلو؛ بحيث يتجاوز حدود الأمر والنهي، ولو كان بنية صالحة، فالشرع قد كَمُل،

والزيادة عليه نقصان في أدائها وابتداع فيه، قال ﷺ: (وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وأشد من هذا وذاك: تأويل الأمر والنهي بعلة تعود عليهما بالإبطال، كما تأوَّل بعضهم تحريم الخمر بأنَّه معلل بإيقاع العدواة والبغضاء، والتعرُّض للفساد، فهو يرى أنَّه إذا أَمِن من هذا المحذور منه جاز شربه، وهذا باطل.

وإن من تعظيم الحرمات، أن يعتقد المؤمن أن أمر الله ليس فيه عوج، بل يعتقده مستقيمًا؛ لأنَّه صادر من الحكيم الخبير، فيعقد قلبَه على اليقين بذلك.

ورأس التعظيم: أن يعظِّم العبدُ صاحبَ الشرعِ والأمر والنهي، وهو الله تعالى، فينزهه من صفات النقص، ويصفه بما وصف نفسه به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

وهنا يأتي تسليم المؤمن لربه بعد هذه الدرجات الكريمة من التعظيم، فلا يكون له اختيارًا بعد شرعه، بل يملأ قلبه رضًا وخضوعًا.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النِّسَاء الآية ٦٥].

ولما كان الإنسان بطبعه ميَّالاً إلى الدنيا وزهرتها، شرع الله تعالى له من التعاليم والعبادات ما يوقظ فؤاده، ويرفع مقامه إلى درجة المعظِّمين لربهم ولأحكامه العظام.

وإن من أمثلة ذلك: الحج، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ

﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ
إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ
لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ
أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج من الآية ٢٧ الى الآية ٣٢].

ويعلِّم التعظيمُ لشعائر الله تعالى المؤمنَ كيف يقف عند حدود الله فلا يتعدَّاها، يفعل ذلك مخلصًا لوجه الله الكريم سبحانه، لا يمنعه من ذلك إلا الخوف منه، وتعظيم أمره.

وهنا تأتي الآيات الكريمة التي يؤكد بعضها بعضًا بعد أن يورد الله تعالى أحكامه وشرائعه ليقول سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البَقَرة الآية ٢٢٩].

نعم إنه الظلم للنفس؛ لأن النفس البشرية قاصرة النظر، لا تعلم ما يصلح أمرها كما يعلمه الله تعالى لها، فإذا ما اقترفت المحارم أو احتقرتها ضلَّت وأضلَّت، فظلمت نفسها ولربما ظلمت غيرها.

هذا هو الترهيب من عدم تعظيم حرمات الله تعالى، أمَّا جائزة المعظِّمين، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ: (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوبَةَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: نَعَمْ) رواه مسلم.

وما أعظم الوزر حينما ينتهك المرء حرمات رب العالمين، فيجرؤ على الله في كتابةٍ دنيئة، أو يسخر من النَّبي ﷺ برسمٍ أو كتابة، أو لا يقدِّس شرائع الدين، أو يهينُ أحدًا

من عباد الله الصالحين، أو يتسلط على الأنفس بإزهاقها بغير حق، أو يؤذي الناس بيده أو لسانه بغير حق.

فلنعظِّم حرمات الله في أنفسنا، ونربي عليها أولادنا، ونبث روح تعظيمها عمليًا في عبادتنا، فنتذكر هذا التعظيم ونحن ننطق بالشهادتين: (أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله)، ونتذكره في: الوقوف بين يدي الله العظيم في الصلاة، وفي إطعام المسكين في الزكاة، وفي الصيام، وفي الحج والعمرة، بل في كل تسبيحة وتحميدة وتكبيرة، وكل عمل صالح يحبه الله ورسوله ﷺ.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيه ﷺ: (ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ أَوْ بِزِمَامِهِ، قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى قَالَ: فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ) رواه البخاري.

أسأل الله أن نكون من المعظِّمين لشرعه، المسلِّمين لأمره، إنه سميع مجيب.

٦٦

(تَكْرِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُم)

هل تذكَّر الإنسان بين الفينة والأخرى أن الله تعالى خلق أصله وسوَّاه ونفخ فيه الروح وأمر ملائكته الأبرار ليسجدوا له! قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحِجر من الآية ٢٨ الى الآية ٢٩].

هل يتذكَّر الإنسان بين الحين والآخر أنَّ الله تعالى صوَّره فأحسن صورته، فقال عز وجل: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غَافِر الآية ٦٤]، وخلقه في أحسن تقويم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التِّين الآية ٤].

هل يتذكَّر الإنسان أن الله تعالى أكرمه بالعقل والعلم والبيان، قال سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلَق الآية ٥]، وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرَّحْمَن من الآية ٣ الى الآية ٤].

ماذا سنذكر من تكريم الله تعالى للإنسان وماذا سندع، إنَّ ما سبق ذكره وما خصَّه الله تعالى من الأكل باليدين، وهدايته إلى النجدين الخير والشر، والكتابة بالقلم، والفطرة السليمة، وتسخير ما في السماء والأرض، والرزق الكريم من الرب الكريم، والفصول الأربعة، والليل والنهار، والنجوم والكواكب، وتكريمه على كثير من خلقه وغيرها كثير لأَمرٌ يوقظ الغافل من رقدته التي أشغلته عن قدره العظيم عند ربه العظيم.

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء الآية ٧٠].

وإنَّ الله تعالى حينما كرَّم الإنسان بهذا كلِّه، ألقى على كاهله أمانة تتناسب وهذا التكريم، إنَّها أمانة التكليف الشرعي، التي ترتقي به عن دنو الجمادات والبهائم، وتعتلي به نحو السعادة الحقيقة في الدنيا والآخرة، هذا لمن أدَّى الأمانة على وجهها إيمانًا وصلاحًا وهداية، أما من فرَّط فيها وخان عهودها انزلق في مهاوي الخزي واستحق العقاب الأليم، ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب الآية ٧٢].

ولقد استشعر عباد الرحمن تكريم الله لهم، وسعدوا بهدايتهم لقلوبهم وعقولهم، وساروا على الطريق المستنير، ورأوا النتائج الرائعة متوجةً بالرضا والمحبة لهم من الله تعالى، فهنيئًا لهم الفوز بالرضا والغفران، قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران الآية ٣١].

فما بالك إذا زاد إيمان العبد فصار من المتقين والمقسطين والمتطهرين والصابرين والمتوكلين والتوابين والمجاهدين متوحدي الصفوف، فإنَّ الله يعلن حبه لهؤلاء بنص كلامه في كتابه العزيز.

وأيُّ كرمٍ أبلغ وأعظم من أن يذكرهم الله تعالى في ملئه الكريم حينما يذكرونه في ملءٍ في الدنيا، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تقرَّب إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً) رواه البخاري.

واستشعر عباد الرحمن أيضًا أن الله أكرمهم بمعيته لهم، فهو يسمع دعاءهم ويستجيب لهم، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البَقَرَة الآية ١٨٦].

وهو معهم يجزيهم بأحسن مما عملوا، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [المَائـِدَة الآية ١٢].

وهو سبحانه يحفظهم من المكاره والسوء والوقائع الخطيرة التي ربما لا يفصل بينهم وبينها إلا قدر الله تعالى ورعايته، قف وقفة تدبر مع قول الكريم: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾ [الانفِطار الآية ١٠]، بل سخَّر لهم ملائكة لحفظهم، فقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾ [الطَّارِق الآية ٤].

بل إنه لم يتركهم صيد الوساوس وإغواء الشياطين، بل دلهم على ما يحفظهم من هذا وذاك، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأَعۡرَاف من الآية ٢٠٠ الى الآية ٢٠١].

وإنَّ من أعظم التكريم للإنسان أنَّ الله تعالى بعث له الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ ليستنير بالهدي الرباني، والمنهج الحق، الذي يضمن له فرحة في الدنيا والآخرة، فتصان له بذلك نفسه وعرضه وماله ودينه، فتأتي حياته قويمة كريمة، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي

لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ٩﴾ [الإِسْرَاء الآية ٩].

وفي المنزلة الأخيرة، يتحلَّى المؤمن الصالح بتكريمٍ لا نهاية له، حينما يدخله الله تعالى الجنَّة، فذلك هو الفوز العظيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التَّوْبَة الآية ٧٢].

فهل بعد هذا التكريم كلِّه تميل الدنيا وزهرتها وفتنتها بعقل الإنسان لتلهيه عن حق مَنْ أكرمه ورعاه وصانه وحفظه ووعده بكريم الجنات وعظيم الهبات!

ما أسعد الإنسان حينما يرعى حق هذا التكريم الرباني، وما أتعسه حينما يضيِّعه أو يهمله.

اللهم كما أكرمتنا بخلقك وهدايتك ونعمك التي لا تُعَدُّ ولا تحصى أكرمنا بحياة إيمانية كريمة، وبخاتمة حسنة، ومصير حسن، ورضًا منك وإحسان، إنك سميع مجيب.

٦٧

(يُكرِّمون أَنْفُسَهُم وَيُكْرِمُون غَيْرَهَم)

لقد أدرك عباد الرحمن أنَّ من أهم مظاهر تكريم الإنسان لنفسه أن يُعمِل قلبه وعقله وجوارحه بأن يتفكَّر ويتأمل ويتدبر في ملكوت الله تعالى ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، وهذا سبيل إلى زيادة النور والإشراق في نفس المؤمن؛ حتى يفتح الله تعالى عليه من العلوم ما لا يدرك إلا بالمشاق، قال النَّبي ﷺ: (من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدينِ) رواه البخاري.

فالإنسان الحصيف يُكَرِّم نفسه بالتعلُّم؛ حتى يكون أهلاً لتكريم الله تعالى له، ومن يفعل ذلك وهو مؤمن بالله فيقدِّم عملاً فكريًا أو ثقافيًا أو اكتشافًا علميًا يثري به حياته ويخدم به دينه وبلاده فإنَّه يشعر بالسعادة الداخلية في نفسه، ويرجو من الله تعالى عظيم الجزاء في الدنيا والآخرة.

وإنَّ من أجلِّ سبل تكريم عباد الرحمن لأنفسهم: الإيمان بالله أولاً، ثم باتباع رسوله ﷺ ثانيًا، ثم بالاستمرار على: التقوى والإحسان والصبر والعدل والقسط والتطهر والتوكل والتوبة والجهاد خلف إمام المسلمين، والذكر والدعاء والاستغفار والاستعانة والحمد والشكر والثناء لله تعالى.

وهم مع ذلك لا يقصِّرون في تزكية ذواتهم بالطاعة، من دون تطرفٍ ولا غلو، بل بالمنهج الوسط القائم على السماحة والتيسير والرفق بالنفس؛ فإن النَّبي ﷺ يقول: (إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا) رواه البخاري.

وعلى الإنسان الذي يسعى في تكريم نفسه أن يحفظ هذه النفس التي حرمها الله تعالى: بالعفة والتطهر، وأن يصونها عن كل ما يدنسها أو يشينها من الموبقات المهلكة من القتل والزنا واللواط والخمر والميسر ونحو ذلك مما يذل النفس وينتقص من حياتها أو كرامتها، ناهيك عما يؤذي الجسد والعقل من المخدرات وما في حكمها؛ فإن الإنسان بتكريمه لنفسه يجعل نفسه في فريق المفلحين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشَّمس من الآية ٩ الى الآية ١٠].

ولقد امتدح الله تعالى عباد الرحمن في حفظهم للنفس من القتل فقال تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفُرْقان الآية ٦٨].

وقال ﷺ: (لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأَنِّي رَسولُ اللَّهِ، إلَّا بإحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزَّانِي، والمارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَماعَةِ) رواه البخاري.

فالنفس لها حرمة تصونها من القتل وكل أنواع الاعتداء، وهذا من تشريف الله تعالى لها.

وليس شيء يسمو بالنفس مثل طاعة الله، وليس شيء يصغِّرها مثل المعصية، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فالطاعة والبرُّ تكبِّر النفس وتعزُّها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه؛...فما صغَّر النفوسَ مثلُ معصية الله، وما كبَّرها وشرَّفها ورفعها مثلُ طاعة الله)).

وإنَّ من تكريم عباد الرحمن لأنفسهم ألا تذل بسؤال الخلق، بل تُعَزُّ بطلب الرزق الحلال الذي يسَّره الله له بطلبه والبحث عنه؛ وذلك ليقينهم بأن الله هو الرزَّاق ذو القوة المتين، وأنَّه المتكفل بذلك؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذَّارِيَات من الآية ٥٦ الى الآية ٥٨].

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ﵄ قَالَ: قَالَ النَّبِي ﷺ: (مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ) رواه البخاري.

فما أكرم المؤمن باحثًا عن رزقه متوكلاً على ربه، وما أشقاه يلقي بوجهه عند هذا وذاك، لا يبالي بجمع المال بالكذب والافتراء، قد وضع نفسه في المهانة، وله مندوحة عن ذلك كلّه بالسعي والاكتساب ما دام يستطيع ذلك.

ويتوّج المؤمن كرامته هذه بالقناعة في الرزق مهما كان مقداره؛ لأنَّه يصحب مع هذا يقينه بفناء هذه الدار، وأنَّه فيها عابر سبيل، وأنَّ عزته فيها ليست بكثرة الأموال ولا رفاهية المسكن، متذكرًا في ذلك كله قوله سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾ [الحَدِيد الآية ٢٠].

ولا يعني هذا أن العبد الصالح ينسى نصيبه من الدنيا، بل يأخذ هذا النصيب من غير تزيّد ولا استكثارٍ ولا تشوفٍ ولا منافسةٍ أو حزنٍ على ما فات منه، غير أنَّه يقدِّم دائمًا نصيب الآخرة، وهذا شأن عباد الرحمن، قال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القَصَص الآية ٧٧].

ويجد عبدالرحمن التكريم ما دام مكرِّمًا لمن حوله بالكلمة الطيبة والاحترام والتقدير والخلق الحسن، من غير تفريق بين رجل وامرأة، وصغير وكبير، وغني وفقير، ومريض وسليم، وقريب وبعيد، ويأتي الوالدان في مقدمة هؤلاء؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٢٣]، وولاة الأمر؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النِّسَاء الآية ٥٩]، ثم ذوي الأرحام والجيران والضعفاء، فقد قال الله عنهم: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦].

فكل من حولك بحاجة إلى تكريمك وتقديرك، بحسن معاملته والشفقة عليه والتواصي معه بالحق وبالصبر والنصح؛ لتحقق الأمة بهذا التكريم الذاتي والتكريم المتعدي أقوى إنجازاتها، وهي صلابتها أمام أعدائها، وتحقيق الأمن لجميع أفرادها، والتسوية والعدل بينهم ولو اختلفنا معهم في الرأي، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النِّسَاء الآية ١٣٥].

أسأل الله تعالى أن يعيننا على تكريم أنفسنا ومن حولنا؛ لننال تكريم الله تعالى لنا، إنه سميع مجيب.

٦٩

(ذوو خُلُقٍ حَسَن)

حقيقة يحبها الناس من بعضهم، لكنها تصعب على جملة منهم، يطالبون بها الآخرين ليأنسوا بها، ولكنَّ بعضهم يفرِّطُ فيها، وكم يحبون صاحبها وكم يفرحون بمجالسته، وربما لم يكتشفوا سِرَّ هذا التميز فيه، أو يعلمون به ولكن تحول دون العمل به عددٌ من العادات والأطباع والأغراض النفسية والاجتماعية وغيرها.

حسنُ الخلق، أمرٌ لم يعد الحديث عنه يثير لدى بعضنا أهميةً كبرى! وأكثر من ذلك أن يعده بعضهم موضوعًا تقليديًا هناك ما هو أهم منه بكثير! ولا أدري هل سنتذكر في هذا المقام كيف أعلى الله تعالى ذِكْر النَّبي ﷺ ورفع مكانته بين الخلق به، فقال فيه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم الآية ٤].

ماذا نعني بحسن الخلق؟ إنه سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى، وقد يكون فيما بين الناس، أما ما يتعلق بذات الله عز وجل فهو: أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله تعالى ونواهيه، يفعل ما فرض عليه، طيب النفس به، سلسًا نحوه، وينتهي عما حرَّم عليه، راضيًا به، غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، مستبشرًا لذلك، غير ضَجِرٍ منه، ولا متعسِّرٍ به.

أما في المعاملات بين الناس فهو: أن يبذل المعروف قولاً وفعلاً، ويكف الأذى قولاً وفعلاً، ويكون ذلك بخمسة أركان:

الأول: العلم؛ ليعرف به معالي الأخلاق.

الثاني: الجود؛ فيبذل الخُلُق الرفيع بسخاء نفس ورحابة صدر.

الثالث: الصبر؛ فلن يستطيع أن يفوز بحسن الخلق إلا باحتمال أعبائه وتبعاته وأنماط الناس واختلاف طبائعهم.

الرابع: طيب المعدن؛ بحيث يكون لديه سجية في الغالب تحمله على سهولة الانقياد نحو الخير، سريعة الاستجابة لداعي المعروف.

الخامس: قوة الإيمان، فبحسب قوة الإيمان بتصديق الجزاء على حسن الخلق، وما وعده الله تعالى عباده من الثواب، سهل عليه تحمل الاتصاف بأحسن الأخلاق.

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ
عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ
عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ
٣٦﴾ [فُصِّلَت من الآية ٣٣ الى الآية ٣٦].

إنَّ من أسرار الخُلُق الجميل أنك تكسب به قلوب الناس من دون حدود، وتنال به حاجتك، ويبقى لك به الذكر الجميل، لكن متى! حينما تشمل بخلقك الجميل كلَّ الناس، فيسعهم خلقك وإن لم تسعهم أموالك أو ضاق بهم بيتك، فالخلُق لا يكلفك شيئًا كثيرًا، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وأحق الناس بحسن خلقك والداك، ثم زوجتك وذريتك، فما لنا نجود بأحسن أخلاقنا إلى الناس، وتجف ينابيعنا مع أقرب الناس إلينا!

ثم لنتذكر بذلك جيراننا، وقرابتنا، وأرحامنا، بل كل من حولنا، فحسن الخلُق فضله أعم من أن يقتصر على نفس دون نفس، أو نجعله على من لنا معه مصلحة دون غيره!

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا) رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وكم تتوق أنفس الأخيار إلى صيام الهواجر، وقيام الليل، ولربما حالت دون ذلك أعمالهم، وظروف أبدانهم، وكثير من أحوالهم، فها هو الخلُق الحسن يختصر الطريق، ويوردهم المورد نفسه، فما أروع البشرى النبوية التي يزفُّها الحبيب ﷺ حينما قال: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ) رواه أبو داود، وصحَّحه ابن حبان.

بل إنَّه السَّبيل الميسَّر للفوز بالجنَّة، عمل يسير، وجائزة عظيمة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: الْفَمُ وَالْفَرْجُ) رواه الترمذي وصحَّحه.

والخلق الحسن صاحبه مكرَّم عند ربه سبحانه بالمنزلة الأعلى في الجنَّة، فإنَّ النَّبي ﷺ قال: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ) رواه أبو داود وصحح إسناده النووي.

ولقد جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: «هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًّا وصولاً وقورًا صبورًا شكورًا، رضيًّا حليمًا، رفيقًا، عفيفًا، شفيقًا، لا لعَّانًا، ولا سبَّابًا، ولا نمَّامًا ولا مغتابًا، ولا عجولاً، ولا حقودًا، ولا بخيلاً، ولا حسودًا، بشَّاشًا،

هشَّاشًا، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق)).

إنَّها القربة العظيمة التي يغفل عنها الكثيرون؛ حيث ظنَّ أن العبادة في السجود والركوع والصدقة ونحو ذلك فقط، وقصَّروا في حسن التعامل مع الآخرين، أو كريم التواصل معهم.

بل دعوني ألفت انتباهكم إلى أمر أخفى من ذلك، وهو حينما نتلبس بلبوس الأنفة والعزة والكبرياء على المؤمنين؛ بحجة طلب الكرامة، فلا يتردد بعضنا عن رفع الصوت، أو النيل من العرض، أو الترفع عن التنازل عن بعض الحقوق في سبيل الوئام والألفة، إذن فأين التذلل للمؤمنين والمؤمنات؟ وأين خفض الجناح للمؤمنين؟ وأين من يطلب القرب من الله في الدنيا والآخرة؟ وأين من يحب مجالسة النَّبي ﷺ في الجنَّة؟

حسن الخلق: عافية في بدنك، ونور في وجهك، وطمأنينة في نفسك، وسكينة في جوارحك، وأمان في ليلك ونهارك، ووسيلة لقضاء حوائجك، وإرضاء لربك، واتباع لهدي نبيك ﷺ.

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، إنك سميع مجيب.

(٦٩)

(ذوو سَمْتٍ حَسَن)

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأَعْرَاف الآية ٣١].

ليست هناك شريعة أكمل من شريعة الإسلام، راعت باطن الإنسان أن يكون صافيًا نقيًا نزيهًا، كما راعت الجمال في ظاهره وسمته، حتى لتكون على المسلم وضاءة الدِّين على محياه، يشع منه النور ولو كان شديد السُّمرة، فما هذا السمت الجميل الذي يتزيَّن به عباد الرحمن، ولماذا يتجملون؟

حسن السمت هو: حسن مظهر الإنسان في حديثه وصمته، وحركته وسكونه، وتعامله مع الناس؛ بحيث يغلب عليه سيماء أهل الصلاح والمعروف والديانة.

فلا يعتقد بعضنا أنَّ المظهر الخارجي للمؤمن والمؤمنة هو أمر لا علاقة له بالدين، أو ليس له أثر في الصلاح، كلا، فعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ الْهَدْيَ الصَّالِحَ وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ وَالِاقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ) رواه أبو داود واللفظ له، ورواه أحمد وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ولذا وضَّح النَّبي ﷺ أجزاءً طيّبة من هذا السَّمت، توجيهًا منه عليه الصلاة والسلام لأمته لأفضل السَّمت وأجمله؛ لتكون على المؤمن سمته التي يُعرف بها في إقباله وإدباره، عليها آثار النبوة الكريمة، وسمت الصالحين، ومن ذلك قول النَّبي ﷺ: (الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمْ

الْبَيَاضَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ، وَإِنَّ خَيْرَ أَكْحَالِكُمُ الْإِثْمِدُ؛ يَجْلُو الْبَصَرَ وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ) رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي وصحَّحه.

وبيّن طول الثوب في حق الرجال فقال: (إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ وَلَا حَرَجَ أَوْ لَا جُنَاحَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، مَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ) رواه أبو داود وقال محقق جامع الأصول: إسناده صحيح.

وفي حق النساء قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَكَيْفَ يَصْنَعْنَ النِّسَاءُ بِذُيُولِهِنَّ؟ قَالَ: يُرْخِينَ شِبْرًا، فَقَالَتْ: إِذًا تَنْكَشِفُ أَقْدَامُهُنَّ! قَالَ: فَيُرْخِينَهُ ذِرَاعًا لَا يَزِدْنَ عَلَيْهِ) رواه الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وإذا كان اللباس مما امتنَّ الله به على عباده، فهو نعمة من أجل النعم، كرَّم بها الإنسان، فلم لا تظهر عليه آثاره الجميلة، بارتداء الحسن منها! فهل سنذكر قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف الآية ٢٦].

ولقد صحح النَّبي ﷺ مسار عوف بن مالك رضي الله عنه الذي آتاه الله من المال ما يستطيع به أن يكون أجمل في هيئته ومظهره ولكنه كان يرتدي دون ذلك، حيث قال عوف رضي الله عنه: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ: أَلَكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟ قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنْ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، قَالَ: فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ) رواه أبو داود واللفظ له، وأحمد وقال محقق جامع الأصول: إسناده صحيح.

وهكذا كان رسول الله ﷺ حتى قال عنه البراء بن عازب رضي الله عنه: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَرْبُوعًا، وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ) رواه البخاري.

هذا وإن اختيار المقال للمقام هو من سمت النابهين، وطريقة الصالحين، فإن لكل مقام مقالًا، وإذا كان للتبسُّم ظرفه، فللخشوع والبكاء ظرفه، وإذا كان للحزم والجد وقته، فللممازحة والمداعبة وقتهما أيضًا.

وعلى كل حال، فالوقار والسكينة والرزانة علامة مشتركة بين الرجال والنساء العقلاء الحكماء، وعكس ذلك يدل على الرعونة وخفة العقل.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إن حقًا على مَنْ طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضى قبله)).

وليتيقَّظ المربي ــ سواء أكان أباً أم أمًا، أم معلمًا أم معلمةً ــ إلى أن المتعلم يستلهم منهم السمت كما يأخذ منهم العلم والتربية، ومن ذلك قال عبد الرحمن بن مهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كنَّا نأتي الرجل ما نريد علمه، ليس إلا أن تعلم من هديه وسمته ودلِّه)).

وقال أبو عاصم النبيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما مات حماد بن زيد يوم مات ولا أعلم له في الإسلام نظيرًا في هيئته ودلِّه وسمته)).

إن السمت الجميل: هو المرآة لشخصيتك، فماذا عسى أن تقول عمَّن إذا جالسته رأيته يرفع صوته بالصراخ أثناء حديثه؟ أو يقاطع غيره ويهزأ بآراء الآخرين، أو ربما خرج من هدوءٍ إلى انفعالٍ شديد على أمرٍ له فيه سعة من ذلك، وبماذا يمكن أن تحكم على من يجري بسرعة شديدة لأمرٍ هين، وأمر الصلاة وهو عظيم يأمرنا فيه النَّبي ﷺ بالوقار والسكينة ولو أدَّى ذلك لفوات بعضها؛ لأنَّه أمرنا بقضائه بعد ذلك!!

ففي حديث أبي قتادة الحارث بن ربعي ﵁ قال: (بيْنَما نَحْنُ نُصَلِّي مع النَّبي ﷺ إذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: ما شَأْنُكُمْ؟ قالوا: اسْتَعْجَلْنَا إلى الصَّلَاةِ؟ قَالَ: فلا تَفْعَلُوا إذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعلَيْكُم بالسَّكِينَةِ، فَما أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وما فَاتَكُمْ فأَتِمُّوا) رواه البخاري.

فما أجمل أن يرسم المؤمن ــ رجلاً أو امرأة ــ له سمتًا كريمًا سائرًا فيه على الهدي النبوي الكريم، وسلفه الأبرار، ومن تبعهم من الأخيار.

وواحزناه على بعض شبابنا وفتياتنا ــ وهم قلة ولله الحمد ــ الذين نراهم قد هجروا لباس بني قومهم، وسقطوا في هاوية التقليد للغرب أو الشرق، فإذا رأيت أحدهم تشكُّ فيه: هل هو من بني جلدتك أو غير ذلك! والمصيبة أنَّ هذه الهيئة تتشكَّل بتشكُّل الموضات، فليس لها حد، وقل مثل ذلك في ألبسة النساء الراكضة خلف سراب المحاكاة لشهيرات الأزياء، وجملة منها بعيد عما يرضي الله تعالى لما فيه من التعرِّي وعدم الحشمة.

قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف الآية ٢٧].

والأصل في اللباس الإباحة إلا ما نص عليه الدليل، أو كان فيه تقليد لشعارات الكفار أو تجاوز للحد الجائز، وهذا أمر يجب التعرف عليه والعلم به.

فالبس الجميل من الثياب، واتبع السُّنة، واحذر الزيغ عنها، وكن جميلاً ترى الوجود جميلا.

اللهم ألبسنا الجميل، ولباس التقوى ذلك خير، إنك سميع مجيب.

٧٠

(يَحْفَظُونَ أَلسِنَتَهُم)

كثيرًا ما نردد قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اِحفَظ لِسانَكَ أَيُّها الإِنسانُ ... لا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبانُ
كَم في المَقابِرِ مِن قَتيلِ لِسانِهِ ... كانَت تَهابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ

فما شأن اللسان هذا الذي أخذ حظًا وافيًا من كلام الشارع الحكيم، وحفظه عباد الرحمن حفظًا شديدًا، حتى بلغت منه المحاذير ما بلغت، فإذا ذُكِرَ ذُكِرَت الجنَّة والنار، ولربما كان أصغر جارحة لدى الإنسان، والحساب عليها شديد.

نعم: إن على المرء أن يصون لسانه عن كل ما يشينه ويشين غيره، من الكذب والغيبة والنميمة وقول الزور وغير ذلك مما نهى عنه الشارع من أنواع الباطل، قال سبحانه عن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفُرْقَان الآية ٧٢].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إن اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنَّه صغيرٌ جِرمه، عظيمٌ طاعته وجُرمه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنَّه لا تعب في إطلاقه، ولا مئونة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنَّه أعظم آله للشيطان في استغواء الإنسان.

واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سُحِب، فمن أطلق عذبة اللسان [أي طرفه]، وأهمله مرخيَّ العنان، سلك به الشيطان كل ميدان، وساقه إلى شفا جُرُفٍ هارٍ، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيَّده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يُخشى غائلته في عاجله وآجله، ذلك أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال ﷺ: (مَنْ صَمَتَ نَجَا))) رواه الترمذي وقال ابن حجر: رواته ثقات، ورواه الطبراني بسند جيِّد، وصحَّحه الألباني.

تعالوا بنا إلى الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي وضع معالم موجزة وشروطًا جليَّة في استعمال هذا اللسان؛ لنسلم به، ويسلم بنا؛ حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن للكلام شروطًا لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بها، ولا يعرى من النقص إلا بعد أن يستوفيها، وهي أربعة أذكرها باختصار:

الشرط الأول: أن يكون الكلام لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفعٍ أو دفع ضرر، ذلك أن مالا داعي له هذيان، وما لا سبب له هجْرٌ، ومن سامح نفسه في الكلام إذا عنَّ ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه، كان قوله مرذولاً، ورأيه معلولاً.

الشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه، ويتوخَّى به إصابة فرصته؛ لأن الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به، وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بأنَّه هذيان وهجر، فإن قدَّم ما يقتضي التأخير كان عجلة وخُرْقا، وإن أخرَّ ما يقتضي التقديم كان توانيًا وعجزًا؛ لأن لكل مقام مقالاً، وفي كل زمان عملاً.

الشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته، فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة، ولم يقدر بالكفاية، لم يكن لحده غاية، ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محصورًا كان إما حصَرَا إن قَصُر، أو هذْرًا إن كَثُر.

الشرط الرابع: اختيار اللفظ الذي يتكلم به؛ لأن اللسان عنوان الإنسان، يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريًّا، وبتقويم لسانه مليًّا.

أيها الأحبة: لنعلم أنَّ آية واحدة في شأن اللسان ومسؤولية الكلمة تكفي لمن تدبَّرها حقًا أن يقود لسانه إلى ما فيه خير له، قال سبحانه: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق الآية ١٨].

وإن الحفاظ على نعمة اللسان هذه واستخدامها في الخير والصمت بها عن الحرام لمن إيمان المرء بالله واليوم الآخر، هل تذكر معي قول الحبيب ﷺ: (مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ) رواه البخاري.

وتأمَّل في حوادث الدهر وخطوب الزمان، فما من بلاء ولا مصيبة ولا حسرة إلا في الغالب إلا من هذا اللسان، يقدر الإنسان على أمور عظيمة، ويسيطر على شؤون كثيرة، ولكنه أضعف ما يكون على هذا اللسان، فإذا لم يملك زمامه ويحكم قوله، تراه أشد الناس أسفًا، وأكثرهم قلقًا.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه، فقال: يا لسان، ((قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، وَاسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ))، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أَكْثَرُ خَطَايَا ابنِ آدَمَ فِي لِسَانِه) رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، ورواه البيهقي بإسنادٍ جيد، وصحَّحه الألباني.

واللسان والسلامة قرينان لابد أن يصطلحا ويأتلفا، وحتى نسلم لابد أن يغدو كلامنا عذبًا رقراقًا سلسًا ينبوع خير، يتخيَّر من أطايب الحديث كما يتخيَّر من أطايب التمر، الكلمة لا ننطق بها إلا بعد أن نفحصها جيدًا، ونقلبها في أذهاننا، ونسائل أنفسنا: هل تصلح أو لا؟ وماذا لو قلناها؟ ماذا سيجري من الخير؟ وماذا سيقع من الشر؟ بمثل هذا نال عباد الرحمن شرف الأفضلية بين المسلمين، آخذين بحديث رسول الله ﷺ، فقد سئل النَّبي ﷺ: أي المسلمين أفضل؟ فقال: (المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ) رواه البخاري ومسلم.

إن صلاتنا وزكاتنا وصومنا وحجنا أركان عظيمة، غير أنها تُخدَش بسلاطة اللسان وفحشه، وينال من كمالها، وتقل ثمرتها في النفس، ما دام اللسان ينال من الخلق أو يتعرض إليهم بالسوء، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: (يا رسولَ اللهِ، أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: الصلاةُ على ميقاتِها، قلتُ: ثم ماذا يا رسولَ اللهِ؟ قال: أنْ يسلمَ الناسُ من لسانِكَ) رواه الطبراني، وصحَّحه الألباني.

فهل أحصينا كل يوم ماذا قلنا، وهل قلنا خيرًا ينفع الناس، أو غير ذلك؟ فإذا لم نحص ما قلناه، فلنعلم أن الرقيب سبحانه أحصاه، في كتابٍ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فما أجمل أن تستغفر الله تعالى من كل زلَّة، ومن كل كلمة سوء، وتجعل لسانك رطبًا بذكر الله تعالى.

وجميل أن نقف على بعض آدابه التي تزيده جمالاً، وتضفي على كلماته حُسْنًا:

فإذا تحدثت فلا تبالغ في مدح أو ذم؛ فإن المبالغة وراءها ما وراءها من الكذب أحيانًا أو التجاوز غير المقبول، وهذا سرف غير مقبول.

وإذا قلت قولاً حسنًا فالأكمل أن تتمثَّل به، فلا تقل ما لا تعمل، إلا في أمر بمعروف ونهي عن المنكر فلربما أعانك هذا بعد الله تعالى على العمل بالحق.

وأوصيك أن تتعلم مخارج الحروف، ومنازل الصوت، فتعطي لكل مقال أسلوبه المناسب.

وعليك أن تبتعد عن صريح القول أحيانًا فيما يستكره التصريح فيه؛ فإن الله كريم يكني، فلا يفوتك هذا الأدب الرفيع؛ فإن من تعوَّد الألفاظ المبتذلة لا تستسيغ الأذان سماع حديثه، ويصبح سخرية لسامعيه.

وحدِّث الناس بما يفهمون، فلا تُغرِب في حديثك، ولا تتقعَّر في كلامك، ولا تتشدَّق في نطقك، فعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ: الثَّرثارونَ، والمتشدِّقونَ، والمتفَيهِقونَ، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ، فما المتفيهقونَ؟ قالَ: المتَكبِّرونَ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ومع تجدد الحوادث وكثرة الاختلافات انساق جملة من الناس وراء الجدل العقيم الذي لا طائل تحته، وتراهم أبعد ما يكونون عن اتخاذ القرارات فيها، أو لا يزيد جدلهم في القضية إلا تأججًا وإثارة فحسب، أو ركضًا وراء أضواء الشهرة فحسب.

فعن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا زعيمٌ ببيتِ في رَبَضِ الجنةِ لَمَن تَرَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببيتِ في وسطِ الجنةِ لَمَن تركَ الكذبَ وإن كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنةِ لَمَن حَسُنَ خُلُقُه) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

وإذا كان الإنسان مع حفظه للسانه فإنَّه لا يسلم، فكيف بالثرثارين الذين تجدهم وكأنَّهم يتغذون على الكلام، حتى لا يدعوا لغيرهم فرصة للحديث، يذكرون ما لهم وما

لغيرهم، يختلط الصدق في حديثهم بالكذب، حتى لا تميِّز هذا عن هذا، ومن كثر كلامه كثر لغطه.

لقد وجد عباد الرحمن سلوتهم عن كثير الكلام بالصمت، حتى قال ابن مسعود ﷺ: ((والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوجَ إلى طول سجن من اللسان)).

قال زهير بن أبي سُلمى:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدَّمِ
وكائنْ ترى من ساكتٍ لك معجبٍ ... زيادتُه أو نقصُه في التكلمِ

وعن عمرو بنِ قيس أن رجلاً مرَّ بلقمان والناس عنده، فقال: ((ألست عبدَ بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني)).

سأرفض ما يُخاف عليّ منه ... وأترك ما هويت لما خشيتُ
لسان المرء ينبي عن حجاه ... وعيّ المرء يستره السكوتُ

يسيرة تلك الكلمات التي يطلقها بعضنا، ولكنها ربما أورثته ندمًا طويلاً، قال رسول الله ﷺ: (إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ) رواه البخاري.

وسبحان من خلق هذا اللسان، فإنك ترى أثر حفظه على صلاح كثير من العمل، يقول يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما من الناس أحد يكون لسانه منه على بالٍ إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله)).

فلنطلق ألسنتنا في الخير والمعروف، ولنُحْكِمَه عن كل ما يسوء في الدنيا والآخرة، فالكلمة ما دامت في فمك، فهي لك، وإن خرجت فأنت محاسب عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

أسأل الله تعالى أن يمن علينا بلسان ذاكر وشاكر، إنَّه سميع مجيب.

٧١

(يَعُودُونَ مَرْضَاهُم)

مَنْ منا لا يتعرض للتعب أو النصب، ومن منا لا ينتابه المرض، أو يأخذ من صحته السَّقَم، هكذا خُلِق الإنسان ضعيفًا، يتسلَّط عليه أضعف خلق الله جسمًا وشكلاً، فيرديه طريح الفراش، فيكون أحوج ما يكون للعافية، ويتيقَّظ بعدها لنعمة الصحة التي ربما غفل عنها سنوات كثيرة.

وهو وإن احتاج إلى الشفاء، إلا أنَّه بحاجة أيضًا للزيارة الأخوية التي تسليه عن الأوجاع، وتشغله عن آلامه، وتبهجه بالسؤال عنه، وتشعره بقدْرِه بين أحبابه، من هنا جعل الشارع الكريم عيادة المريض من حقوق المسلم على المسلم، فقال نبينا ﷺ: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ) رواه البخاري.

ومن هذا الحديث أخذ بعض أهل العلم تأكيدَ سنةِ زيارة المريض، بل بعضهم رأى أنَّها فرض كفاية، وبعضهم قال بوجوبها على الأقل مرة واحدة، ومن هنا عنون البخاري للباب فقال: ((باب وجوب عيادة المريض))، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((جزم بالوجوب على ظاهر الأمر بالعيادة، قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية، كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب؛ للحث على التواصل والألفة)).

ومن عظم شأن عيادة المريض وكريم أثرها في النفس، شرعت العيادة لجميع المسلمين، بل حتى الكفار الذين يرجى من زيارتهم دخولهم في دين الله تعالى.

فإنَّ النَّبي ﷺ لما علم بأن خادمه اليهودي قد مرض أتاه فعاده، فقعد عند رأسه، ليستغل هذه الفرصة لدعوته إلى الدين الحق، وكان ذلك أمام مشهد والده، وقد علم عداوتهم له، (فأتَاهُ النَّبي ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقال له: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إلى أَبِيهِ وهو عِنْدَهُ فَقالَ له: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فأسْلَمَ، فَخَرَجَ النبيُّ ﷺ وهو يقولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ) رواه البخاري.

ويستثنى من ذلك إذا خشي الإنسان في عيادته للكافر أو الفاسق أن يفسد عليه دينه أو خلقه، فلا يعوده درءًا للمفسدة.

وعلى العائد للمريض أن ينزِّه مقصده عن المجاملات أو تحصيل المصالح الدنيوية الزائلة، بل عليه أن يتذكَّر الفضل الكبير الذي وعده الله به على لسان نبيه ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الجنَّة حَتَّى يَرْجِعَ) رواه مسلم.

وفي حديث عليٍّ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الجَنَّة) رواه الترمذي وحسَّنه.

وعن هَارُون بْنُ أَبِي دَاوُدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (أَتَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، إِنَّ الْمَكَانَ بَعِيدٌ وَنَحْنُ يُعْجِبُنَا أَنْ نَعُودَكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَيُّمَا رَجُلٍ عَادَ مَرِيضًا فَإِنَّمَا يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَ الْمَرِيضِ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الصَّحِيحُ الَّذِي يَعُودُ الْمَرِيضَ، فَالْمَرِيضُ مَا لَهُ؟ قَالَ: تُحَطُّ عَنْهُ ذُنُوبُهُ) رواه أحمد ورجاله ثقات.

ولعيادة المريض آداب عديدة ينبغي مراعاتها، منها:

أن يلتزم بالآداب العامة للزيارة كأن يدق الباب برفق، وألا يبهم نفسه، وأن يغض بصره، وألا يقابل الباب عند الاستئذان.

وأن تكون العيادة في وقت ملائم، فلا تكون في وقت الظهيرة صيفًا، ولا في شهر رمضان نهارًا وإنما تستحب بكرة وعشيًا، وفي رمضان ليلاً من دون إطالة.

وأن تكون العيادة بعد ثلاثة أيام من المرض، وقيل تستحب في أوله، ورأي الجمهور عدم التقيد بزمن.

وأن يدنو العائد من المريض ويجلس عند رأسه، ويضع يده على جبهته ويسأله عن حاله، وعما يشتهيه.

وأن تكون الزيارة غِبًّا؛ أي: يومًا بعد يوم، وربما اختلف الأمر باختلاف الأحوال، سواء بالنسبة للعائد أو للمريض، إلا إذا استدعت حالة المريض زيارته يوميًا فلا بأس بذلك، وخاصة إذا كان يرتاح لذلك ويهش له.

وألَّا يكثر العائد من سؤال المريض؛ لأن ذلك يثقل عليه ويضجره.

وينبغي ألا يطيل العائد؛ حتى لا يضجر المريض أو يشق على أهله، وقديمًا قيل:

لا تُضْجِرَنَّ عليلاً في مُساءَلةٍ ... إنَّ العِيادةَ يومٌ بين يومينِ
بل سَلْهُ عن حالِهِ وادعُ الإلهَ له ... واجلس بقدرِ فواقٍ بين حَلبينِ
مَنْ زارَ غِبًّا أخًا دامتْ مودتُه ... وكانَ ذاك صلاحًا للخليلينِ

أن يدعو العائد للمريض بالعافية والصلاح، وقد ورد في ذلك أدعية عديدة منها ما حدّث به سَعِيدُ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ

يَعُودُ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَيَقُولُ ــ سَبْعَ مَرَّاتٍ ــ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إِلَّا عُوفِيَ) رواه الترمذي وحسَّنه.

وألا يتكلم العائد أمام المريض بما يقلقه ويزعجه، وأن يُظهر له من الرِّقة واللطف ما يطيِّب به خاطره.

وأن يوسِّع العائد للمريض في الأمل، ويشير عليه بالصبر لما فيه من جزيل الأجر، ويحذِّره من اليأس والجزع لما فيهما من الوزر.

وألا يكثر من اللغط والاختلاف بحضرته لما في ذلك من إزعاجه، وله في هذه الحالة أن يطلب منهم الانصراف.

وما أحوج المريض إلى أرفع أنواع السلوى التي تقدمها الأخلاق الرفيعة بكل رفق ورحمة، وبكل صفاء نية، ورغبة إلى الله تعالى بالشفاء له والعافية لبدنه.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله:

مَرِضَ الحبيبُ فعدتُه ... فمرضتُ من حذري عليه
فأتى الحبيبُ يعودُني ... فشُفيتُ من نظري إليه

أسأل الله تعالى أن يشفي مرضانا ومرضى المسلمين، ويحبب إلينا سنة الحبيب ﷺ ويعيينا على أدائها، والله يتولاكم برحمته، إنَّه سميع مجيب.

٧٤

(يَغضُّونَ أَبْصَارَهُم عَن المُحَرَّمَات)

نعمة البصر نعمة عظيمة، أعطانا الله إياها لنستعملها كغيرها من الحواس فيما يرضيه عز وجل، بل هي من أعظم الحواس وأكثرها تأثيرًا على سلوك الإنسان ومسير حياته، قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ الله: ((البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضُّه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله)).

ومن هنا امتن الله تعالى على عباده بها فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النَّحل الآية ٧٨].

ولا ريب أن من أعظم شكر هذه النعمة ألا يستهان بها فتستعمل في الحرام، فإنَّها مدخل للشيطان، يدلف الشيطان منها إلى القلب؛ ليفسد عليه إيمانه بالله تعالى، وليقطع عليه تأمله في الخير والملكوت، ويشوش من خلاله على فكره وخشوعه وتضرعه، ويفقد بسببه الزكاة الحقيقية للنفس.

قال الكريم عز وجل: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النُّور الآية ٣٠].

وضابط غض البصر: أن يغمض المسلم بصره عما حرم عليه، ولا ينظر إلا لما أبيح له النظر إليه، ويدخل فيه أيضًا إغماض الأبصار عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرّم من غير قصد فليصرف بصره سريعًا عنه.

فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ؟ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي) رواه مسلم.

وفي حديث آخر أوصى عليًّا ﷺ فقال له: (يَا عَلِيُّ، لَا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ) رواه الترمذي وحسّنه، وحسَّنه الألباني.

والنفس البشرية لما فطرت على حب النظر إلى الجمال والانبهار به، والالتفات إليه، فإن الدين هذَّب هذه الغريزة، ومنحها فرصة عظيمة، تبنى على الفضيلة، وتُشيَّد على الطهارة، ألا هو الزواج، فإنَّه من أنجع وسائل حفظ البصر وارتداده إلى الحلال عن الحرام، فعن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) رواه البخاري.

ولم يكن النَّبي ﷺ ليعالج هذه الغريزة التي تتأجج في الشباب بالكلمة فقط، بل حتى بالفعل، ولكن بالأرفق من التوجيه، والأحسن من التذكير، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: (أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ يَوْمَ النَّحْرِ خَلْفَهُ عَلَى عَجُزِ رَاحِلَتِهِ، وَكَانَ الْفَضْلُ رَجُلًا وَضِيئًا، فَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ يُفْتِيهِمْ، وَأَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ وَضِيئَةٌ تَسْتَفْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، فَأَخْلَفَ بِيَدِهِ، فَأَخَذَ بِذَقَنِ الْفَضْلِ فَعَدَلَ وَجْهَهُ عَنْ النَّظَرِ إِلَيْهَا) رواه البخاري.

وشأن النظر شأن عظيم، أولاه عباد الرحمن جل اهتمامهم، حتى قال ابن مسعود ﷺ: ((حفظ البصر أشد من حفظ اللسان))، وقال كذلك: ((الإثم حوَّاز القلوب، وما من نظرةٍ إلا وللشيطان فيها مطمع)).

وقال وكيع بن الجراح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا)).

وإذا كان اهتمامهم بغض النظر في زمانهم عظيم، مع تواضع الحال، وقلة منافذ وسائل انتشار الفتن وإثارتها، فماذا عسى أن نقول ونحن نعيش في عالمٍ مفتوح على مصراعيه، وقد اتخذت الفتنة طرقًا إلى الفضاء، تستطيع ببهرجها الخدَّاع الوصول إلى كل بيت، وتمتد شباكها إلى كل هاتف، تعرض من خلال ذلك كله ما يجعل الحليم حيرانًا، وتعبث بالمروءات، لا تراعي في ذلك دينًا ولا عُرفًا ولا خُلُقًا، ولا تفرّق بين عُمرٍ وعُمر، وجنسٍ وآخر، قد هتكت أستار الفضيلة، فما عادت للفتنة سدود ولا قيود، فماذا نقول بعد ذلك عن الأنظار المطلقة في هذا وذاك!!

ماذا أبقى النظر إلى الحرام من خشوعٍ المرء بين يدي ربه، أو من حيائه أمام خالقه وخَلْقِه!

أما علم الساهرون بأنظارهم يقلبونها في المحرمات، أن من أطلق بصره فيها حُرِم خيرًا كثيرًا من حلاوة الإيمان، وفراسة المؤمنين الصادقين، وراحة الضمير وهدوء البال؟

ماذا عسى أن يجد المتطلع ببصره إلى المحرمات؟ غير ضعف اليقين، واضطراب النفس، والألم برؤية ما لا يستطيع الوصول إليه، وتعذيب الروح بجمال الفانيات، وتعلق القلب بالدنيا، وانكسار الهمة أمام الفتن، وعدم القناعة فيما رزقه الله من الحلال.

وكنتَ متى أرســـلتَ طرفَك رائـدًا ... لقـــــلبِك يومًا أتــــــعَبَتك المناظرُ
رأيــــــــتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ ... عليهِ ولا عن بعضـِـه أنتَ صـــابرُ

تذكَّر دائمًا إذا ضعفت نفسك برؤية الحرام أنَّ الله مطلع عليك، وأنَّه سيحاسبك على نظرك، وأنَّ لديك أعراضــًا، ربما امتدت أعين الناس إليها إذا امتدَّ بصـــرك إلى أعراضـــهم، والنظر إلى الحرام بريد الزنا البغيض، هل تذكر معي حديث النَّبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَــانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْــتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصــَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) رواه البخاري.

فلا تتردد في تجنُّب كل ســبيل يؤدي ببصــرك إلى ما يبغضــه الله، وقلِّب بصــرك في كتاب الله، والعلم النافع، واســتمتع به في الحلال من رزق الله، تجد الحلاوة والهناء والبركة، والله يرعانا ويرعاكم، ويحفظنا ويحفظكم، إنَّه سميع مجيب.

٧٤

(نِسَاؤُهُنَّ مُحْتَشِمَات)

ما أروع هذا الدين، وما أجلَّ تعاليمه، وما أسلم منهجه، يصون المرأة المسلمة مما يؤذيها، ويرفع قدرها حتى تكون أثمن من اللؤلؤة النادرة، ويحفُّها بالرعاية ويوصي عليها من يرعاها ويخدمها ويسعدها، ويضع دون المساس بها حواجز الغيرة والحماية.

وإنَّ من أسمى هذه الحواجز التي تصون المرأة به نفسها من أن يُعتدى عليها بسوء، أو يُتعرض لها بفحش: الحشمة بالحجاب، وهو تاج الفضيلة، وعلامة الوقار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأَحزَاب الآية ٥٩].

والحجاب المطلوب شرعًا هو ما يحقق هذه الغاية الربانية، من ستر سائر البدن إلا ما يظهر للحاجة.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ

ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور الآية ٣١] .

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور الآية ٣١]، شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)) رواه البخاري.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: ((قال الفرَّاء رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدامها، فأُمرن بالاستتار)).

ولنتأمَّل كيف أثنت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على تلك النساء بمسارعتهنَّ لامتثال أوامر الله في كتابه! تقول صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((ذكرنا عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نساء قريش وفضلهن، فقالت: إن لنساء قريش فضلاً، ولكن والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقًا بكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النُّور الآية ٣١]، فانقلب رجالهنَّ إليهن يتلون عليهنَّ ما أنزل فيها، ما منهنَّ امرأة إلا قامت إلى مرطها فأصبحنَ يصلين الصبح معتجرات كأنَّ على رؤوسهنَّ الغربان)) رواه أبو داود.

من حق المرأة الطيبة أن تشارك في العمل الشريف الذي يعود بالخير عليها وعلى مجتمعها، ومن حقها أن تقضي حوائجها من الشراء أو البيع أو الدراسة أو العلاج أو نحو ذلك، ولكن لتعلم أنها إذا لم تحتشم فإنَّها ستجعل نفسها عرضة للأذى من الشياطين.

قال النَّبي ﷺ: (المرأةُ عورةٌ، فإذا خرَجَتْ اسْتَشْرَفَها الشيطانُ) رواه الترمذي وحسَّنه، وقال محقق جامع الأصول: إسناده حسن، واستشرفها الشيطان؛ أي: تطلَّع إليها وتعرَّض لها.

فلماذا تبلِّغ المرأةُ غير المحتشمة الشيطانَ أُمْنِيَته منها!

إنَّ ستر المرأة المضيء بالإيمان، الجميل بالحشمة، المتزيِّن بالحياء، يجب ألا تقع عليه أيُّ عينٍ إلا بما أحل الله تعالى، فلم نعلم أحدًا عاقلاً يضع جوهرته الثمينة يتفرَّج عليها العابثون والهابطون والسفهاء.

فأيُّ الطريقين تختار ابنة الإسلام؟ أطريق الحشمة الذي تناله باستجابتها لأمر الله وأمر نبيها ﷺ؟ أم طريق الشيطان؟ لا والله ما ظننا في ابنة الدين والبلد الطيب إلا خيرًا.

صدقيني ـ أيتها الطيبة الخيِّرة ـ أنَّ الرجل حينما يشاهد المرأة المسلمة محتشمةً يعتز بها ويفتخر، ويمتلأ شعورًا بأن هذه المرأة قوية الشخصية، صلبة الإرادة شامخة، فيرتد طرفه إليه توقيرًا لها، ويلهج لسانه بالدعاء لها بالثبات على هذا الخير، وأن يوفقها في حياتها الدنيا والآخرة، ولسان حاله يقول:

صُونِي جمَالَك في عُلاكِ ... عَرَفَ الطَّهارَةَ مَنْ رَآكِ
سِيرِي عَلَى أَملٍ ولَا ... تَتَعَثَّري بين الشِّبَاكِ
وإلى كَمَالِ النفْسِ بالإيمَـ ... ـانِ فَلْتَصْعَدْ خُطَاكِ
مَنْ شَاءَ أَنْ يحيَى قَرِيرًا ... هانئَ البَالِ اصطفاكِ
أَوْ شَاءَ عُشًّا حافِلاً ... بِاليُمْنِ لم يخْتَرْ سِوَاكِ
أَو شَاءَ جِيلاً صَالحًا ... طَابَتْ مَغَارِسُهُ اجتباكِ

استعيني على ثباتك على حشمتك ووقارك بالله تعالى، وأراك أقوى بالله تعالى من وساوس الشيطان وتزيينه، وأنت أيضًا أقوى بسجودك بين يدي خالقك، وبدعائك في جنح الليل، وبركعة خاشعة إلى بارئك، وبقراءتك لكتاب ربك سبحانه، والتطلع إلى هدي الصحابيات الكريمات، وصحبة الصالحات الطيبات، وتذكرك وقفتك أمام الله يوم القيامة، وقد سترتِ نفسك في الدنيا، وستر الله تعالى فيها، وجئت بين يدي رب الأرباب تطلبينه الستر يوم القيامة، فيناديك المنادي: أن ادخلي الجنَّة مع الداخلين، هنا في هذه اللحظة، ستفرحين فرحة لم تفرحي مثلها قط، وستقولين حينها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف الآية ٤٣].

اللهم ثبت نساء المسلمين على الحشمة والوقار والستر والعفاف، يا رب العالمين، واجعلهن من السعيدات في دنياهنَّ وأخراهنَّ، إنك سميع مجيب.

٧٤

(يَعْمُرُونَ المَسَاجِد)

ثمة صـــلة مبهرة بين عباد الرحمن والمســـجد، بدأت لحظاتها حينما قدم النَّبي ﷺ المدينة، فكان بناء المســجد في مقدمة مشــروعاته الدعوية، فالمســجد في ذلك العهد النبوي الكريم مقرٌ تدار فيه أحوال الدولة، ويخطط فيه لمسيرة الدعوة، ويجتمع فيه النَّبي ﷺ بأصـــحابه ﭫ، وتقام فيه عبادة هي من أجل العبادات والركن الثاني من أركان الدين وهي الصـــلاة، ويتلقَّى فيه المتلقون معاني الإســـلام وأحكامه ومقاصـــده، وتأتلف فيه القلوب، وتلوذ إليه الأبدان من تعب الحياة ونصـــبها، لتلقي بين يدي ربها حاجاتها، وتدعوه طالبة مغفرته وعفوه وكرمه.

لم يكن المسجد لعباد الرحمن يمثل البناء الحسي فقط، بل إنَّه عمارة للقلوب أيضًا، قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٣٨﴾

من الآية ٣٦ الى الآية ٣٨].

إنها البيوت التي يحرص عباد الرحمن فيها أن تخلو مما يجرح الإيمان، وهي البيوت التي فطرت قلوب المؤمنين على قداســـتها منذ نعومة أظفارهم، وفيها تجد النفس السكينة والطمأنينة والراحة التي لا تجدها في أي مكان آخر في هذه الدنيا.

ولذلك جعل الله تعالى لها من الحرمة ما لم يجعله لغيرها، فقد حذَّر الله تعالى كل من تسوّل له نفسه أن يُفْسِد فيها أو يخرّب معالمها بوعيدٍ شديدٍ قال فيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ [البَقَرَةِ الآية ١١٤].

وفي المقابل نجد أن الله تعالى منح لعباد الصالحين مِنَحًا كريمة لمن أتى لهذه الدُّور الكريمة على حال من الاستعداد الإيماني وصفه النَّبي ﷺ فقال: (مَنْ تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ مَشَى إِلَى الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ فَصَلَّاهَا مَعَ النَّاسِ أَوْ مَعَ الْجَمَاعَةِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ) رواه مسلم.

وجاءت الآداب الكريمة التي تسبغ على المؤمن ثوب الاحترام لهذه المساجد ولروَّادها من الناس أو الملائكة، فقد نهى النَّبي ﷺ أن يحضرها أحدٌ وقد علقت فيه رائحة كريهة يتأذى منها غيره، فقال عليه الصلاة والسلام: (مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ) رواه البخاري.

وأظنك لا تختلف معي أن رائحة الدخان وما في معناه من الخبائث أشد من الثوم والبصل أذىً على المصلين، فقد اجتمع فيه الأذى المعنوي؛ وهو المجاهرة بالمعصية؛ إذ من يشربه وينشر رائحته بين الناس كأنَّه يشهر معصيته بينهم، وفيه الأذى الحسي بتأذي غيره به، وإذا كان منع صاحب البصل والثوم وهما مباحان في الأصل، فمنع صاحب الدخان من باب أولى لحرمته شرعًا.

ولعباد الرحمن تميز في حضورهم إلى المساجد؛ فإن قلوبهم كالقناديل المعلقة فيها، فمهما انشغلوا بأعباء الرزق وطلب المعيشة أو غير ذلك إلا أنهم في شوق دائم للقاء

الله تعالى في بيت من بيوته، ولذا كان أحد الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، (رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ) رواه البخاري.

وإنَّ من مظاهر هذا التعلُّق أنهم لا يرضون بغير الصف الأول بديلاً، ولهم تنافس عليه أشد من تنافس أهل الدنيا على دنياهم؛ لأنهم استشعروا ما جعله الله تعالى من الخير العميم في الصفوف الأُول من المسجد، قال النَّبي ﷺ: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا) رواه البخاري.

وتبقَّى لدي أسئلة حائرة ألقيها على أحبتي الشباب الذين يتخلف بعضهم عن الصفوف الأولى، لأهمس في آذانهم: ما الذي يحول دونكم أن تأخذوا مكانكم المتقدم من المسجد؟ ما الأعمال الضرورية التي منعتكم من ذلك؟

حذاري أن ينالكم هذا الوصف الخطير الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النِّسَاء من الآية ١٤٢ الى الآية ١٤٣].

وحينما ييسر الله تعالى للعبد حضوره إلى المسجد فليتذكر أن يدخلها بالقدم اليمنى، ويخرج منها بالقدم اليسرى، ويتذكر قول النَّبي ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ) رواه مسلم.

ثم يقدِّم التحية بأداء ركعتين في أيِّ وقتٍ يدخله إلى المسجد وهي سنَّةٌ مؤكدة.

كما أنَّ القعود في المسجد لانتظار الصلاة له فضل عظيم قال فيه النَّبي ﷺ: (فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتْ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ) رواه مسلم.

وينبغي استثمار دقائق المكث في المسجد بالكلام من الذّكر وقراءة القرآن والدعاء أو في عمارة المسجد وتنظيمه وتنظيفه أو نحو ذلك.

والمسجد ـ أيها الفضلاء والفاضلات ـ ليس محلاً للبيع ولا الشراء، ولا البحث عن الممتلكات الضائعة، كما أنَّه ليس من الأدب أن ترفع فيها الأصوات في الأحاديث الدنيوية أو الخلافات الشخصية، ولا بأس بالأحاديث المباحة وسؤال الجماعة بعضهم عن بعض في أحوالهم العامة والخاصة؛ فإن هذا من مقاصد إنشاء المسجد لبناء الألفة والمحبة بينهم.

وعلى المؤمن أن إذا أراد الذهاب إلى المسجد أن يستعد له بالزينة المعتادة، لأنه سيقابل الله تعالى، وسيقابل الصالحين من عباده، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف الآية ٣١]، وأما المرأة فتذهب نظيفة غير متبرِّجة ولا متعطِّرة.

وإن عباد الرحمن يحرصون على تحبيب المساجد لصغارهم وشبابهم وتعظيم شأنها في أنفسهم؛ حتى ينشؤوا على توقيرها واحترام من فيها وما فيها من مصاحف وكتب علم وغيرها.

هذه بعض الوقفات اليسيرات حول علاقة عباد الرحمن بالمسجد، أسأل الله تعالى أن يرزقنا الحرص عليها، وعمارتها، فإنَّه سميع مجيب.

٧٥

(يُكْرِمُونَ ضُيُوفَهُم)

نتذاكر هنا شعبة من شعب الإيمان أخشى من شدة عصف العولمة أن تندثر أو على الأقل أن تتشكّل بأشكال غريبةٍ هي أقل في رفعتها ومكانتها مما وضعها الإسلام في نفوس المسلمين الأوائل ومن تبعهم من جيل الآباء والأجداد رحمهم الله تعالى، ألا هي إكرام الضيف.

لقد ربط الإسلام إكرام الضيف بالإيمان، وجعلها سمة راقية من سمات المؤمنين الخُلَّص، فالنَّبي الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) رواه البخاري.

وتأمَّل رعاية الإسلام لحق الضيف في الإجماع الذي نقله الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن الضيافة من متأكدات الإسلام، وأن أقلَّ أحوالها أنها سُنَّة، واستدلوا بحديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أنه قَالَ: (قُلْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لَا يَقْرُونَا فَمَا تَرَى فِيهِ؟ فَقَالَ لَنَا: إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ) رواه البخاري.

ولعلَّ أول كرم الضيافة هي تلك البشاشة والترحيب الذي يستقبل به المرءُ ضيفَه، من السَّلام وإجلاسه في أحسن مكان، وإبداء الفرحة بقدومه وحلوله بداره، فهذا النَّبي ﷺ حينما قدم عليه وفدُ عبدِ القيس من هجر قال لهم: (مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا النَّدَامَى) رواه البخاري.

وانظر كيف أردف النَّبي ﷺ ترحيبه بتفاؤلٍ سخي، يمد به جسور التواصل مع هؤلاء الوفد الكرام، ويعطي الأمل المشرق في إقبالهم عليه، فيبسط بترحيبه بساطًا من الود، ويقدِّم به مائدةً من الأنس والانشراح، فما أكرم رسول الله وما أجمل سجاياه ﷺ، وما أروع سخاءه.

ولا ينبغي استحقار هذا اللون الزاهي من الضيافة _أعني الترحيب والتحية للضيف _ فإنَّه يجعل الضيف في سعة من صدره ولو كان المكان ضيقًا، قال ابن عبد البر:

أَزُورُ خَلِيلِي مَا بَدَا لِي هَشُّهُ ... وقَابلني منهُ البَشَاشَةُ والبِشْرُ
فإنْ لم يَكُنْ هَشٌ وبَشٌ تَرَكْتُهُ ... ولَو كانَ في اللقْيَا الولايةُ والبِشْرُ

ولعل مما لا يخفى على الكرام أن الضيافة تشمل بعد ذلك تهيئة المكان والمستراح والطعام وغير ذلك، كما لا يخفى أيضًا أن الاحتفاء بالضيف بتقريب ما يحتاج إليه هو من هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا سيما الطعام، فلعلنا نذكر قول الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ [الذَّارِيَات من الآية ٢٤ الى الآية ٢٧].

فيفهم من الآيات الكريمات إكرام نبي الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام والاحتفاء بضيفه بتقريب الطعام لهم.

ومع هذا فإنَّ الاحتفاء لا يعني التكلّف والإسراف، الذي مردُّه عند جملة من الناس إلى المباهاة والبحث عن حديث الناس عما قدَّمه لأضيافه، وما أجمل التوسُّط، الذي لا ينحرف بصاحبه إلى التقتير من جهة، أو إلى التبذير من جهة أخرى، والنَّبي ﷺ وضع

ميزانًا مباركًا قال فيه: (طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ) رواه مسلم.

وتأمّل معي هذا المشهد الرائع الذي عجب الرب سبحانه من صاحبه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: (أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيِّفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي! فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر الآية ٩]) رواه البخاري.

ولعلي أرى أنَّ من أسباب تراجع بعض الناس عن أدب الضيافة هو ما جرَّه جملة منهم على المجتمع من تنافسهم في إبراز مظاهر السرف في الولائم، حتى استثقلوها على أنفسهم وأضيافهم، أما علموا أن النبي ﷺ (نَهَى عن طعامِ المتبارِيَينِ أنْ يُؤكَلَ) رواه أبو داود وقال الألباني: صحيح.

وكما استقبلت الضيف بالترحيب وأكرمته بما يسّر الله عليك، جميل أن تودعه بالترحاب أيضًا، وتتبعه إلى باب الدار وإلى وسيلة النقل التي جاء بها، فهذه أيضًا لمسات مهذبة تترك في ذاكرة الضيف صورًا رائعة من جمال خُلُقِك، فقد زار أبو عبيد القاسم بن سلام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((فلمَّا أردتَ القيام قام معي، قلتُ: لا تفعل يا أبا عبد الله، فقال: قال الشعبي: من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلى باب الدار وتأخذ بركابه)).

وعلى الضيف ألا ينسى أن يدعو لمضيفه بعد فراغه من طعامه فيقول: (أَكَلَ طعامَكُمُ الأبرارُ، وأفطرَ عندكُمُ الصَّائمونَ، وصلَّت عليكُمُ الملائِكَةُ) كما روى ذلك أبو داود وصحَّحه الألباني.

ولا ينبغي الإطالة من الضيف على أخيه أكثر من ثلاثة أيام خشية أن يثقل عليه، أو يحرجه بما لا يستطيع، قال النَّبي ﷺ: (الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَجَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قَالَ: يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ) رواه مسلم.

وأشَدُّ من هذا حرجًا ألا يرى الضيف أن أخاه صادق في دعوته إلى ضيافته إلا إذا حلف بالطلاق على زوجته! وهذا جهل كبير، وعبثٌ بالأيمان لا يليق بالمسلم، ولا يجوز الاستمرار على هذا التصرف الذي يتضمن تعظيم غير الله تعالى في الأيمان، فليكرم بعضنا بعضًا، وليرفق بعضنا ببعض، والله كريم سبحانه.

اللهم أكرمنا بكرمك، وبارك لنا في عطاياك، وزدنا من نعمك، فإنك سميع مجيب.

٧٦

(يَتَثَبَّتُون)

إنَّها صفة التثبت والتبيّن، ويقصد بها: إمعان النظر والتقصِّي في المعلومة قبل الأخذ بها والاعتماد عليها، وخصوصًا بعد الالتباس فيها.

فإن الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّن أن مراتب وصول العلم إلى النفس: ((الشعور، ثم الإدراك، ثم الحفظ، ثم التذكُّر، ثم الذِّكر، ثم الرأي؛ وهو استحضار المقدمات وإجالة الخاطر فيها، ثم التبيُّن؛ وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثم الاستبصار؛ وهو العلم بعد التأمُّل)).

وقد أوصانا الله تعالى في كتابه العزيز بالتبيُّن وخصوصًا في شأن أخبار الذين لا يُؤمَنون على أحوال المسلمين ولا شريعتهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾

[الحُجُرَات الآية ٦].

وتشتد أهمية الحديث عن التثبُّت في هذا الزمن لكثرة مصادر الإشاعات وسهولة اقتناء ما ينشرها عبر التقنيات المفتوحة ووسائل الاتصال الحديثة، وجملة من الناس يبهر بالجديد من الأخبار ويحب نقلها، إنْ صدقًا وإنْ كذبًا.

إن التثبت في المعلومة وعدم العجلة في نقلها أو العمل بها حتى تكون يقينية في النفس أو غالبة على الظن، لهو المنهج الذي سار عليه عباد الرحمن، استجابةً لأمر الله تعالى في مثل قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ [النِّساء الآية ٩٤].

ومن أهم وسائل التثبت: هو الرجوع إلى مصدر المعلومة الأصيل، أو التأكُّد من الراوي هل هو من الثقات أو لا، ولذا ألَّف علماء الجرح والتعديل المؤلفات الكثيرة في شأن معرفة الرجال ودرجة صدقهم وتثبُّتهم وأفنوا أعمارهم في مثل هذا؛ حراسة للسُّنَّة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام من غير مجاملة ولا محاباة.

ومن وسائل التثبت أيضًا: السؤال والاستفسار من أهل العلم المضطلعين بالتخصص الدقيق؛ فإن الله تعالى أمرنا بذلك فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النِّساء الآية ٨٣].

ومن وسائل التثبت: التأكُّد من المعلومة بتقليب السؤال بأشكال مختلفة وفي أوقات مختلفة، والتأكُّد أنَّه ليس وراء المعلومة ما يؤثِّر على صحتها، وخصوصًا في شأن الحدود والأعراض، أو المهمات العامة، ويدل على ذلك ما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ ﷺ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَى، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ حَفَرَ لَهُ حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، قَالَ: فَجَاءَتْ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي

كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَحُبْلَى، قَالَ: إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ فَطَمْتُهُ وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدُ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ) رواه مسلم.

ومن وسائل التبيُّن كذلك: الاستحلاف باليمين، وإنما يكون ذلك في القضايا المهمة، أو عند الحاكم أو القاضي، أو عند وجود البيّنة، أو نحو ذلك، وفي ذلك جاء حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى أَنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

أيها الأحبة: إذا كان جملة من الناس يجيد فن نشر الأخبار غير الموثوقة، لا يرعى في ذلك ذمة مسلم، ولا يهمه أذى أحد من المسلمين، ولا يبالي ما صنعت إشاعته في المجتمع من الفتنة، فإن على العقلاء أن يتثبَّتوا في أمره، مهما غرَّهم من إظهار أهداف الإصلاح أو تصحيح المسار أو غير ذلك من الدعاوى الزائفة التي لا يأتي من ورائها إلا الدمار والخراب.

ويجب على المسؤول أيًا كان أن يستمع إلى الشكوى، غير أن من الواجب عليه أيضًا أن يتأكّد منها، حتى لا تكون مزيفة بالكيد والافتراء.

فإذا حصل التثبُّت فعلى المرء أن يأخذ بما ثبت لديه؛ فإن الحق لا يجوز تجاوزه في أيِّ أمر من الأمور، سواء أكان ذلك حُكمًا شرعيًا أو موقفًا اجتماعيًا أو نحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النِّسَاء الآية ١١٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَا! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ) رواه مسلم.

إن أمر التثبت أمرٌ في غاية الأهمية يجب أن يدركه كل مؤمن حتى لا تبنى حياتنا على الأكاذيب أو الإشاعات، فإن الله تعالى أمرنا باتباع الهدى والدعوة إليه على بصيرة، والأخذ بحقائق الأمور دون باطلها ولا زيفها، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإِسْرَاء الآية ٨١].

وكم هو جميل أن يربى النشء منذ الصغر على الصدق، وأن نعوِّدهم أن يتأكدوا ويتثبَّتوا من أيِّ معلومة يستمعون إليها حتى لا يكونوا آذانًا لكل ناعق، ولا أبواقًا لكل رذيلة أو كذب.

أسأل الله تعالى أن يدلنا على العلم النافع الحق، وأن يجنبنا الباطل، فإنَّه سميع مجيب.

٧٧

(أَهْلُ شَرَف)

لقد كرَّم الله تعالى أصل الإنسان فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإِسْرَاء الآية ٧٠].

لكنه جعل ميزان التشريف بينهم بالتقوى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجُرَات الآية ١٣].

وحرص النَّبي ﷺ في دعوته أن يصحِّح مفهوم الشرف الذي كان يقوم على معايير دنيوية بحتة في الجاهلية؛ ليأخذ بأيدي أصحابه إلى علوّ الإيمان الذي تَشرُف به النفوس على وجهٍ حقيقي خالصٍ من غرور الدنيا وبهارجها.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: (مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا) رواه البخاري.

ويبين النَّبي ﷺ أن عبادات كريمة ترفع المؤمن إلى مصافِّ الشرفاء، فمنها مثلاً: قيام الليل، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: (أتاني جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمَّدُ، عِشْ ما شئتَ فإنَّك ميّتٌ، واعمَلْ ما شئتَ فإنَّك مجزِيٌّ به، وأحبِبْ من شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعلم أنَّ شرفَ المؤمنِ قيامُه باللَّيلِ، وعِزَّه استغناؤُه عن النَّاسِ) ذكره المنذري في الترغيب وقال: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادٍ حسن، وصحَّحه السيوطي.

ويقول الفاروق رضي الله عنه في شأن كرم المرء وشرفه: ((كرم المؤمن تقواه، ودينه حسبه، ومروءته خلقه)).

ومن سبل الشرف التفقه في الدين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا: ((تفقهوا قبل أن تسودوا))، قال البخاري رحمه الله: ((وبعد أن تسودوا)).

ومن علامات الشرف عدم الغضب، فعن عكرمة رحمه الله قال: ((السيِّد الذي لا يغلبه الغضب)).

وعن هشام الكلبي رحمه الله قال: ((قيل لمعاوية رضي الله عنه: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يُسأل، وأحسنهم في المجالس خُلُقا، وأحلمهم حين يستجهل)).

إذن مجامع الشرف: التقوى، والعدل، وحسن التعبد لله تعالى، وسخاء النفس واليد، والحلم عند الغضب، والفقه في الدين.

إنَّها المعاني التي يجب أن نربِّي أنفسنا عليها حتى تعلو عن دنو الرغبات الدنيوية الخالية من روح التقرب إلى الله تعالى.

فأيُّ شرفٍ في مال يبخل المرء به في الدنيا، ويؤخذ منه إذا مات، ويحاسب عليه في الآخرة!

وأيُّ شرفٍ في نسب لا يتبعه عمل صالح، فماذا صنع النسب الرفيع لأبي جهل وأبي لهب وقد حاربا نبيَّ الأمة والرحمة المهداة لها ﷺ وماتا على الكفر!

ميزان الإيمان هو ميزان الشَّرف، فمتى علا قدره، علا المرء في شرفه.

وعلى كفتي هذا الميزان ينهض المجتمع المسلم قويًا متماسكًا، لا يفرّق في إقامة حدوده بين رفيع النسب أو وضيعه، ولا بين غني ولا فقير، بل سواسية كأسنان المشط.

قف معي على هذه الواقعة الشهيرة متأملاً كيف أقام النَّبي ﷺ هذا الميزان بين الناس بالقسط، فعن عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَسْتَشْفِعُونَهُ، قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) رواه البخاري.

ومن علامات الشَّرف للمؤمن إقبال الناس عليه ومحبتهم له، فلعل هذا من محبة الله له، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ) رواه البخاري.

وإذا أكرم الله تعالى عبده بشرف العبادة ونفع الناس وصلاح النفس، فأحبه الناس وأقبلوا عليه، فعليه أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة، وليستعملها في طاعة الله تعالى، وخدمة دينه وأهله وبلاده، والشفاعة للمسلمين بقدر المستطاع، والتخلق بالتواضع ولين الجانب للمحتاجين.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من يعين ولا يستعين، فهو كريم الطبع، مشكور الصنع، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فلا يُرى ثقيلاً في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة، فهذا أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا).

وجميل ما قال الفرزدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الشُّرفاء:

إنْ عُدّ أهلُ التّقى كانوا أئِمّتَهمْ ... أوْ قيل: مَنْ خيرُ أهل الأرْض؟ قيل: همُ
لا يَستَطيعُ جَوَادٌ بَعدَ جُودِهِمُ ... وَلا يُدانِيهِمُ قَوْمٌ وَإنْ كَرُمُوا
هُمُ الغُيُوثُ، إذا ما أزْمَةٌ أزَمَتْ ... وَالأُسدُ أُسدُ الشّرَى، وَالبأسُ محتدمُ
يَأبَي لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ ... خِيمٌ كِرامٌ وَأيْدٍ بِالنَّدَي هُضُمُ

فهلا انطلقتْ النفس إلى الشَّرف بكل عزمٍ وعلمٍ وخشيةٍ لله تعالى؛ فإنَّ شرف كل امرئٍ هو شرفٌ للأمة جمعاء، فكم أمَّةٍ شَرُفَت بشرف أبنائها.

وإن أعظم ثمرةٍ للشَّرف هو أن يرضى الله عنك، ويدخلك في رحمته، ويسعدك بجناته.

فاللهم اجعلنا ممن شَرُف بمعرفتك وعبادتك، واتباع سنة نبيك محمد ﷺ وأسعد عبادك بما ترضاه، فإنك سميع مجيب.

٧٨

(أَصْحَابُ حَيَاء)

ما أجمل بناء الإيمان في تكامله، وما أروعه في شموله، يأخذ بناصية العبد من عباد الرحمن نحو شخصية تتمثل فيها شعب الإيمان من أعلاها إلى أدناها؛ لتكون هي الشخصية التي تقوم عليها الأمة في كل شؤونها، فلا ينتج عنها بعد ذلك إلا النجاح والتفوق والفلاح.

يقول النَّبي ﷺ: (الإِيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ أوْ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ) رواه مسلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((قال العلماء: حقيقة الحياء خلقٌ يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق)).

فعباد الرحمن أصحاب حياء، حياءٌ من الله تعالى؛ فإن لله في أنفسهم قدرًا عظيمًا، كلَّما تذكروه امتلأت جوانحهم خشية منه، فامتنعوا عن معصيته حياءً منه، كيف لا؛ وهم يستشعرون نظره إليهم، وسماعَه لأصواتهم، وعلمَه بما يقولون ويفعلون، أسوتهم في ذلك حبيبنا محمد ﷺ، فلقد (كانَ النَّبيُّ ﷺ أشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا) متفق عليه.

لقد عرف عباد الرحمن أن النفس أمسُّ ما تكون للحياء، فهو اللباس الجميل الذي يصونها بعد الله من الهبوط إلى الدنايا، أو ارتكابِ الحماقات، أو الجرأة على المعاصي والخطايا، فما أوجز كلامَ النَّبي ﷺ وما أعظم نفعَه، فلقد قال عليه الصلاة والسلام: (الحَيَاءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيْرٍ) متفق عليه.

وتأمل كم هذا الخير، هل هو في الدنيا فقط، أو في الآخرة أيضًا؟ بل إنَّه خير في الأولى والأخرى، ولقد أحسن القائل حينما قال: ((القناعة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كلِّه)).

والحياء على رقته إلا أن له قوة عجيبة، تمنح الإنسان صلابة في دينه، ووقاية لمروءته، يقول النَّبي ﷺ:(إنَّ ممَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ النُّبُوَّةِ، إذا لَمْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ ما شِئْتَ) رواه البخاري.

هل أدركت معي كيف تألق عباد الرحمن برفيع خلقهم لأنهم أصحاب حياء؟ هل فقهت كيف تنزّه عباد الرحمن عن تفاهة المعصية؛ لأنهم أصحاب حياء؟ هل علمت لماذا انجلت عن صفحات أيامهم الخلافات الساذجة؛ لأنهم أصحاب حياء؟

حينما عدّت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا مكارم الأخلاق قالت إنَّها عشرة: ((صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الذمام للجار، وحفظ الذمام للصاحب، وقرى الضيف، قالت في العاشرة: ورأسهن الحياء)).

وإن مما يشدك إكبارًا وإجلالاً في أصحاب الحياء أنهم تكتنفهم الأخطاء كغيرهم، لكن الحياء الذي تخلقوا به زيَّنهم وجمّلهم حتى أسدل على تقصيرهم ستار السِّتْر، فما ترى فيهم بعد الحياء إلا كلَّ جميل، قال علي بن أبي طالب ﷺ: ((من كسا بالحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه))، وقال بعضهم: ((الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء)).

ولم يكن الحياءُ لدى عبادِ الرحمن تصنعًا يتصنعون به أمام الناس، أو يتكلَّفونه أمام من يحبون، ثم يخلعونه إذا خلوا بأنفسهم، كلا؛ بل غدا الحياء لديهم سمتًا من سماتهم لا

ينفك عنهم بحال، قال أبو موسى الأشعري ﷺ: ((إني لأدخل البيت المظلمَ أغتسل فيه من الجنابة فأحني فيه صلبي حياءً من ربي)).

ومن المستغرب حقًا ـ عند بعضنا ـ أن تنقلب النظرة لديه إلى هذا الخلق من كونه من صفات الكمال إلى صفة النقص أو الامتهان، فيكون الحيي بين بعضنا متهمًا بالضعف أو قلة الرجولة! أما سمعنا حديثَ ابنِ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: (دَعْهُ؛ فإنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإيمَانِ) رواه البخاري.

وماذا جرى حينما افتقد جملةٌ من الناس الحياءَ؟ لقد جرأت على معاصي الله تعالى، وتعدت حدوده، وانسلخت من المروءة، وراحت تلهث خلف سراب المعاصي، لا تبالي بربها، ولا تذكر شرعه، ولا تأبه لخلقه، ولا تقيم في نفسها احترامًا حتى لمن حولها ممن يرونها على الخطيئة والذنوب!!

وإذَا خَـلـوتَ بـريـبـةٍ في ظُـلْـمَـةٍ ... والـنـفـسُ دَاعـيـةٌ إلى الـعِـصـيـانِ
فاســتحيي من نظرِ الإلهِ وقلْ لها ... إنَّ الـذي خَـلَـقَ الـظـلامَ يـرَاني

قال ابن قيّم الجوزية رَحِمَهُٱللَّهُ: ((على حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى، كان الحياء أتم)).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: (خمس من علامات الشِقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل).

وحياء عباد الرحمن حياءٌ محمود، يكسوهم الهيبةَ والوقار، ويحول دون وقوعهم في المعصية، ويكون لهم زادًا يتزودون به في تعاملهم مع الناس.

وليس من الحياء المطلوب في شيء ذاك الذي يحجز عباد الرحمن عن إسداء النصح لمن حوله بالحكمة والموعظة الحسنة، أو يحول دون الارتقاء في مدارج العلم أو تنمية المواهب النافعة من خَطابة أو كتابة أو لقاء بأهل العلم والدراية، وليس من الحياء ما يمنع الإنسان عن السؤال في العلم بالأدب والخلق الرفيع، فقد قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ؛ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ) رواه مسلم.

فهذه صفة من صفات عباد الرحمن، أرجو أن نتعلمها، وأن نتدرب عليها، ونربي أولادنا عليها، حتى ننال من أجرها، ونحصل على آثارها.

اللهم أعنَّا على ما يرضيك عنَّا، فإنَّك سميع مجيب.

٧٩

(أَهْلُ مُرُوءَة)

المروءة كلمة مضيئة تجمع تحتها فضائل جليلة، وتنطلق على ألسنة الناس حينما يرون مظاهرها تتجلى على النفوس الطيبة، وينفونها إذا صُدِمت أعينُهم برؤية ما يُخِلُ بها.

المروءة تلك الصفة التي تتطلَّع إليها الأرواح الكريمة، وتنشأ على مبادئها بيوت عباد الرحمن: إنَّها كما يُعَرِّفها العلماء: ((صفة نفسية تحمل الإنسان على الأخذ بحميد الأخلاق وترك رديئها)).

فالإسلام كما حرص على تربية المؤمن بالأخذ بالواجبات وترك المحرمات، حرص عليه كذلك أن يكون أنموذجًا متكاملاً في كل ما يشرِّفه في نسبته إلى دينه، فإذا أقدم المرء على فعل من الأفعال، أو قول من الأقوال فليتذكر أنَّه مسلم مؤمن، فهل يحب إذا فعل ذلك الفعل أو قال ذلك القول أن ينسب إلى فئة المسلمين!

المروءة زينة للمؤمن وأيُّ زينة، بها يبيّض وجهه نورًا وإشراقًا، وتعلوه بها الهيبة والوقار، ويقبل الناس عليه حُبًا وألفةً ووفاءً، هكذا ترى المؤمن في مروءته لا يفعل إلا ما يزينه ويعلي شأنه، يترفع عن دناءة التصرفات المزرية ولو فعلها من فعلها، ويسمو عن دنايا المشارب فلا يدنو منها، فإنك ترى الحياء عليه حارسًا يصونه عن الخطى المشبوهة، والرذائل المشينة.

لقد ارتضى الله تعالى في الشهادة الشرعية من عرف بمروءته دون من افتقدها، فقال:

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٨٢].

قيل لسفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((قد استنبطتَ من القرآن كلَّ شيء، فأين المروءة في القرآن؟ قال: في قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأَعۡرَاف الآية ١٩٩].

ويأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقاعدة المروءة الرصينة فيقولون: (إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) رواه البخاري.

والنَّبي ﷺ إنما أتى ليتمم مكارم الأخلاق، وليخبر الأمة في الحديث الصحيح (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا) رواه الحاكم وصحَّحه.

وسأل ابن زياد رجلاً من الوجهاء والحكماء: ((ما المروءة فيكم؟ قال: أربع خصال: أن يعتزل الرجل الريبة، فلا يكون في شيء منها؛ فإنَّه إذا كان مريبًا كان ذليلاً، ومن كان ذليلاً لم تكن له مروءة، وأن يصلح ماله؛ فإن من أفسد ماله لم تكن له مروءة، وأن يقوم لأهله بما يحتاجون إليه؛ حتى يستغنوا به عن غيره، فإنَّه من احتاج أهله إلى الناس لم تكن له مروءة، وأن ينظر فيما يوافقه من الطعام والشراب فيلزمه؛ فإن المروءة ألا يخلط على نفسه في مطعمه ولا مشربه)).

وقال بعضهم: ((اعلم أن من المروءة أيضًا عشر خصال؛ لا مروءة لمن لم يكن فيه: الحلم، وصدق اللهجة، وترك الغيبة، وحسن الخلق، والعفو عند المقدرة، وبذل المعروف، وإنجاز الوعد، وان تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وألا تعمل في السِرِّ ما يستحيا منه في العلانية)).

أيها الأحبة: إن المحطة الأولى التي ينبغي على المؤمن أن ينطلق منها في مروءته، هي مروءته مع خالقه سبحانه، الذي أكرمه بجميل الخلق، وهداه إليه، وأحسن إليه بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، فهل من المروءة أن يجحد ربَّه خالقًا وربًا ورقيبًا! وهل من المروءة

أن يجاهر المرء بالمعصية! أو يستكبر عن الهداية! التفت ـ يا رعاك الله ـ إلى وصف الكريم لأحبابه حينما وصف مروءتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣﴾ [الفُرقان الآية ٧٣]، إنَّها سمة عالية من الأدب الجم حينما يقبل العبد على كلام ربه أو كلام نبيه ﷺ، يصغي إليه بقلبه وقالبه وبكل جوارحه، إنَّها مروءة يتبعها العمل الجاد والإخلاص المثمر.

والمروءة مع النفس، حينما يرتضي لها أجلَّ المواضع وأزكاها، فغدت نفسه كريمة زكية نبيلة، طاهرة صافية نقية، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشَّمس من الآية ٩ الى الآية ١٠].

والمروءة مع الخَلْق، حينما يكون معهم كلؤلؤة في وسط عقد، يزينهم ولا يشينهم، يقابل إساءتهم بالعفو، ويعرض عن جهلهم عليه، ولا تستثيره طباعهم، بل يختار لهم أجمل الحديث، وطلاقة المحيا، وأحلى الابتسامات، وأرق المشاعر، إن صاحب المروءة قوي الإرادة مع الناس حينما يدعوه بعضهم إلى الحرام فيمتنع عن المسير معهم، وإن صاحب المروءة لين الجانب مع الناس حينما يذكِّرونه بسُنَّة ويعلِّمونه هديًا.

وصاحب المروءة لا يفكِّر إلا فيما يجمِّله عند ربه وبين خلقه، ومن أجمل مظاهرها إتقان الأعمال؛ (إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

ويلمع بريق المروءة في المنازعات والخصومات؛ لتتضح المعادن الأصيلة من المزيفة، فلا يغيِّر الخصام في ذي المروءة وجهًا، ولا يسف فيه لسانًا، بل يزيده بهاءً وحكمة وروية، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾ [الفُرقان الآية ٦٣]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي

هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الإِسْرَاء الآية ٥٣].

أيا صاحب المروءة: ألا تتفق معي أن من هرم المروءة العتيد أن يتجنب المرء مواقع الشُّبَه، وأماكن الريبة فكريًّا وسلوكيًّا؛ فإن الاقتراب من حمى الباطل ذريعة للوقوع فيه، والناس ليس لهم إلا الظاهر، فاربأ بنفسك أن تضع نفسك في دائرة التهمة بالانحراف وأنت أبعد الناس عنه، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الفُرْقَان الآية ٧٢].

وإنَّ من المروءة طلب الرزق، وحبس اليد عن السؤال من غير حاجة، والسير في الطريق الوسط في المال، فلا تبذير يفلس الإنسان، ولا بخل يحط من قدره، قال رسول الله ﷺ: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) رواه البخاري.

ويقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((نحن معشر قريش نعد العفاف وإصلاح المال من المروءة)).

يا أيها الفضلاء، إن من أصدق مظاهر المروءة أن يحفظ المرء لسانه من الخوض في أعراض الناس، ويصون لسانه من الاستهزاء والسخرية والتعليق على أخطائهم وزللهم، فليس هذا من شيم الرجال أو أصحاب العقول الراجحة.

ولك أن تعجب ممن يدعي المروءة وهو يطير بالإشاعات التافهة، أو ينشر مشكلات الآخرين، أو يشمت بالمؤمنين، يتلبس بلبوس الأخلاق وهو عار منها، أو هناك أشنع من أذية المؤمنين! قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأَحْزَاب الآية ٥٨].

وإن من أسمى معاني المروءة أن تحفظ للناس وُدَّهَم، وتشكرهم ولو على القليل من معروفهم وكريم معاملتهم، ورحم الله سفيان الثوري يوم أن قال: ((إني لأُريدُ شربَ الماءِ؛ فيسبقني الرجل إلى الشربة، فيسقينيها، فكأنما دَقَّ ضلعاً من أضلاعي؛ لا أقدر على مكافأته)).

وما أجمل من يتوّجِ مروءته بجمال مظهره في ثيابه وعطره، فإن الله جميل يحب الجمال، غير أن من خوارم المروءة تقليد المنحرفين في ملبوساتهم ما دامت لا تتفق مع الدين أو الأعراف.

المروءةَ المروءةَ أيها المربون، نربي عليها أجيالنا؛ فهي حارس الواجبات والمحرمات، إذا لم نصنها ربما استخف الناس بأوامر الله ونواهيه، وهي لباس الجمال الذي ارتداه عباد الرحمن، وينبغي أن نرتديه ونُلْبِسَه النشء، لنظهر ديننا في أبهى حلته، وفي أجمل نماذجه.

زيَّن الله أيامكم وأخلاقكم بما يحب، إنَّه سميع مجيب.

٨٠

(أُمَنَاء)

إنّها أساس الحياة، ومنطلق النجاح، والطريق السليم للسير، لا يمكن لأي عمل أن يوفق إلا بها بعد الله تعالى، ولا تستقيم خطط وآمال إلا بإحيائها، حملها ثقيل؛ غير أنَّه لا بد منه، ومسؤوليتها عظيمة؛ لكنها ضرورةٌ لحياة كريمة، بها نهضت شريعة الإسلام، وعليها قامت معالمه، وعلى ضوئها يعيش الناس، فكيف لو فُقِدَت!

إنّها الأمانة أيها الأمناء، إنّها الأمانة التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال، ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب الآية ٧٢].

والأمانة مع ثقلها إلا أنها ليست مستحيلة، بل تتوج بها عباد الرحمن، حتى وصفهم الله بها فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المؤمنون الآية ٨].

والتفت إلى هذا التناغم اللفظي والمعنوي بين الإيمان والأمانة، في قول الحبيب ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له) رواه أحمد وإسناده حسن.

والأمانة لا ترتبط بعمل دون عمل، ولا بوقت دون وقت، ولا بشخص دون شخص، ولا يكبر عليها كبير، ولا يستثنى منها غني أو فقير، أما يكفينا عظة في أن نبينا محمد ﷺ كان يسمى قبل بعثته بالصادق الأمين!

لقد أتى يهودي ليشتري منه ثوبين إلى الميسرة، فانتهزها اليهودي لينال من جنابه العظيم، وقال: (قد علمت ما يريد، إنما يريد أن يذهب بمالي أو بدراهمي، فقال رسول الله ﷺ: كذب؛ قد علم أني من أتقاهم لله، وأدّاهم للأمانة) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ما أعظم الشهادة في سبيل الله تعالى، يفدي الشهيد دينه ووطنه وأمته بروحه غير أنَّه يحاسب على أمانته، فقد روى ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناد صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((إن الشهادة تُكفِّر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قُتل في سبيل الله تعالى، فيقال: أدِّ أمانتك، فيقول: وأنّى أؤديها وقد ذهبت الدنيا!؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي على أثرها أبد الأبد)).

وليست الأمانة أمرًا مندوبًا أو نفلاً، بل إن أداءها على وجهها أمر واجب حتمي، ألم نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾ [النِّسَاء الآية ٥٨].

وليست الأمانة أمرًا مستغربًا على النفوس لا تعرفها إلا من دينها، بل هي فطرة فُطر الإنسان على معرفته، غير أنَّه مرة يوافقه، ومرة يخالفه، ولكلٍ جزاء، فعن حُذَيْفَة رضي الله عنه قَالَ: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا: أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ [أي في أصلها]، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا؛ قَالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ [أي مثل النقطة]، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ [أي: كمثل أثر العمل في اليد]، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا [أي مرتفعًا]، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا) رواه البخاري.

ويا لمحبة الله لصاحب الأمانة التي يرعاها في نفسه وأهله وعمله ووقته وفي كل شيء، إنّها محبة الله، لا شيء أغلى منها، لا يستحقها إلا الأمين، قال الحبيب ﷺ: (فمن سرَّه أن يحبَّ اللهَ ورسولَه – أو يحبُّه اللهُ ورسولُه –؛ فلْيُصدق حديثَه إذا حدَّث، ولْيؤدِّ أمانته إذا اؤتُمن) رواه البيهقي وحسَّنه الألباني.

إنّها الأمانة مقياس العمل الجاد الناجح حينما تقترن بالقوة، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص الآية ٢٦].

إنّها الأمانة التي كان يودع بها النّبي ﷺ أصحابه وجيوشه فيقول لهم: (أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكُمْ وَأَمَانَتَكُمْ وَخَوَاتِيمَ أَعْمَالِكُمْ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

إنّها الأمانة التي كان النّبي ﷺ يعلي بها شأن حذيفة ﷺ فيقول: (إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَنَا ـ أَيَّتُهَا الْأُمَّةُ ـ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ) رواه البخاري.

إن وراء الأمانة لَسؤال ونقاش وجزاء، هكذا تحمَّلها الإنسان، فليؤدها بكل جوانبها وحقوقها، قال النّبي ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) رواه البخاري.

والمجتمع الأمين يَقَدِّر الأمناء في كل مسؤولياتهم، يجل فيهم سمو أخلاقهم، وقوة إرادتهم، ويُبْقِي لهم ذِكرًا خالدًا في الأنفس وعلى سطور التاريخ، فوالله إنك لتسمع ـ مثلما أسمع ـ عن ذلك التاجر في صدقه وأمانته، حتى ترى من الناس معه إقبالاً وحُبًّا

وجميل معاملة، ونبل تعاون؛ لأنَّه ترفَّع بأمانته عن الغبن في الأسعار، والغش في البضاعة، فيعطيه الله تعالى بركة في رزقه وصحته وذريته.

كم ترى من الحرمان من السعادة في حياة الغشَّاشين، وهموا بغشهم لغيرهم أنَّهم أكثر ذكاء وفطنة ودهاء، غير أنَّهم باءوا بالاحتقار والازدراء من عامة الناس قبل خاصتهم، سمعوا ذلك بأنفسهم، أو أكلتهم الألسنة من خلف ظهورهم في الدنيا، أو حكمت عليهم بعد موتهم، فبئست الخيانة وصفًا وذكرًا وشؤمًا.

ويعظم خطر الأمانة، حينما ندرك أنَّه معنى خفي، إقامته على وجهه ورعايته كما يجب إنما يصدر من قلب صادق مع الله تعالى، ومن نفس قوية الإيمان، ومن يدٍ كريمة لم تتجرع ذلَّ البخل ولا دناءته، ومن عين لا يبهرها بريق الخيانة الزائف، إن للأمين لَنَفْس لوَّامة لا تتركه يتطاول على حقوق غيره ظلمًا أو بهتانًا أو سرقة أو غلولاً، وإلا فأين الأمانة!

لا تَرْجِعُ الأَنْفُسُ عن غَيِّهَا ... ما لم يَكُنْ مِنْهَا لها زَاجِرُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) رواه البخاري.

إنَّه مؤشر خطير ودقيق على ضياع أساس الصلاح في النفوس، فماذا يبقى للناس إذا فقدوا الأمانة بينهم! فخانوا الله في دينهم، وخانوه في أعمالهم، وخانوه في حوائج الناس الذين استأمنوهم على قضائها.

والبيوت والمدارس والأسر والمساجد هي محاضن التربية على الأمانة، فيها ينبغي أن يربى الجيل على الأمانة؛ لينشأ عليها، وينطلقَ في مسارها، فهل راجع المربون باختلاف

مسؤولياتهم أنفسهم في شأن الأمانة؟ إنَّه لو كل فرد منا تقلَّد الأمانة بحقها، وأدَّاها على وجهها كما أدَّاها عباد الرحمن، لسارت الأمة على سفينة آمنة، لا تضرها الأمواج، ولا تخرقها أيدي العابثين.

اللهم أعنَّا على أداء الأمانة، إنك سميع مجيب.

٨١

(أَصْحَابُ سَكِينَةٍ وَوقَار)

صفة من صفات عباد الرحمن الطيبة، بها بدأ الله تعالى صفاتهم الحميدة في سورة الفرقان فقال سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣]؛ إنَّها السَّكِينَة والوقار، فإنك ستراهم يمشون بالهون دون الهوان، وبالتواضع دون الغطرسة والكبرياء، إنَّهم أصحابُ مشيةٍ سهلةٍ هينة، ليس فيها تكلُّف ولا تصنُّع، وليس فيها خيلاءٌ أو تصعيرُ خد، إنَّها مشيةٌ ترى فيها الجد والقصد والاطمئنان، وتشعر منها الوقارَ والسَّكِينَة والقوة، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإِسْرَاء الآية ٣٧].

لم يكن عباد الرحمن بالمتماوتين في مشيتهم تصنَّعًا للتقوى أو التواضع؛ كلا، فلقد كان الحبيب ﷺ كما يقول عنه عليُّ بن أبي طالب ﷺ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا؛ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ) رواه الترمذي وصحّحه الألباني.

ولقد (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَشَى، مَشَى مَشْيًا مُجْتَمِعًا، يُعْرَفُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَشْيِ عَاجِزٍ وَلَا كَسْلانَ) رواه البغوي وحسّنه الألباني.

لقد كره السلف ﷺ المشي بتضعّف وتصنُّع، حتى روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه رأى شابًا يمشي رويدًا، فقال له: ((ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، فأمره أن يمشي بقوة)).

إن مشية عباد الرحمن تتمثل في مشيتهم إلى الصلاة وقد وصفها النَّبي ﷺ بقوله: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا؛ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا) رواه البخاري.

يا لها من مشية وقورة تقرأ في خطواتها معانٍ عظيمة، تقرأ فيها العزةَ بالدين مع التواضع للمؤمنين، وتقرأ فيها الجد والاستقامة، دون العبث والانحراف، تقرأ فيها الحفاظَ على الوقت والحرصَ على دقائقه وثوانيه، دون بعثرته وقتلِ ثمنه بالتسكع من غير فائدة أو نفع، قال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ [لُقمَان الآية ١٨].

إن السَّكِينَة سمتٌ نبويٌ ينبغي ألا يغفل المسلم عنه في جميع أحواله، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه دفع مع النَّبي ﷺ يوم عرفة فسمع النَّبي ﷺ زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: (أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالْإِيضَاعِ) [أي ليس بالإسراع] رواه البخاري.

والآن: هل السَّكِينَة مظهرٌ فحسب؟ وقالبٌ فقط؟ كلا؛ بل إن لها أثرًا على هداية القلب وصلاحِ الجوارح، كما أشار إليه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: ((السَّكِينَة إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهجر وكلِ باطل، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنا نتحدّث أن السَّكِينَة تنطق على لسانِ عمرَ وقلبِه)).

ولله در عباد الرحمن حينما ألبسهم الله حلل السَّكِينَة والوقار فوجدوا كل هذه الآثارِ الرائعة، فماذا بعدُ يريد المرء إذا وجد الطمأنينة في قلبه فانقشع عنه الخوفُ والارتباك والترددُ والقلق، فسَرَت السَّكِينَة في دمه لينقلها إلى الجوارح، فلا يعرفُ لسانه اللغو

والفحش، ولا البذاءةَ واستطالةَ الحديث فيما لا ينفع، وتخشعُ جوارحه وتكتسي بالوقار فلا تقدم على شيء إلا فيما يرضي الله تعالى ويحبه.

وفي حال الشدة يكون العبد في أمس الحاجة إلى السَّكِينَة لتثبت قلبه وجنانه، فمن منا لا تعتريه النوائب، أو تحلُ بداره المصائب، فأول ما يبحث عنه المرء في مثل هذه الحال سكينةَ قلبه، وهذا ما أكرم الله نبيه به وهو في طريق الهجرة فقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التَّوْبَة الآية ٤٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفَتْح الآية ٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((وأصل السَّكِينَة هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يَرِدُ عليه، ويوجب له زيادةَ الإيمان وقوةَ اليقين والثبات، ولهذا أخبر الله سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة؛ إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيومِ حنين؛ حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار لا يلوي أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية؛ حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم، ودخولِهم تحت شروطهم التي لا تتحملها النفوس)).

وإننا لنجد بوضوح أهلَ الإيمان أكثر سكينة في أجل المواقف وأشدها بلاءً.

أرأيت كم للسكينة والوقار من أثر على حياة القلوب والجوارح، وثباتِ الجنان والقدرةِ على حسن التفكير والتدبير؟

إن ما نشاهده اليوم في بعض شبابنا وفتياتنا ـ هدانا الله وإياهم ـ من فقدان السَّكِينَة والوقار في حياتهم أمر مؤسف حقًا، فبعض شبابنا يفاجئك بين الحين والآخر بمشية تفتقد الكثير من سمت العقلاء، أو بلباس قد فارقه الوقار، أو باستخدام السيارة على شكل يفزع منه الآخرون، يجعل نفسه في غمرة من توتر الأعصاب، وينتزع من عيون مشاهديه الاحترام والتقدير.

ولك أن تعجب أيضًا من بعض فتيات المسلمين ـ هدانا الله وإياهنَّ ـ حينما تلقي عن نفسها ثوب السَّكِينَة، فتمشي مشية الرجال، تثير بخطواتها مَنْ حولها، إما بعطرها أو بتبرجها، ربما اعتقدت بأن شخصيتها بمثل هذا التصرف أقوى وأكثرُ شجاعة، أو أنها أكثر جذبًا لأنظار الرجال، لكنها في الحقيقة سقطت في هوةٍ سحيقةٍ من الاحتقار والانتقاص.

وفي مقابل ذلك أُكبر في بعض شبابنا الصالحين سمتهم الوقور، فإنك ترى في أحدهم صورة جميلة من أخلاق عباد الرحمن، فما أروع أن ترى أحدهم وهو في طريقه إلى المسجد أو إلى مدرسته قد لفته السَّكِينَة بثوب الهيبة، وتزيّن بزينة الخُلق الجميل، والله إنك لترى كل من يبصره يلقي عليه نظرة التقدير والإجلال، فيحبه ويحب سلوكه ويتمنى أن لو كان هو أو من يحب في مثل سمته وشخصيته.

وفي المقابل في شأن المرأة المحتشمة الوقورة، فإنّها لا تكتسب ممن يقابلها عَرَضًا في الطريق إلا الإكبارَ والإجلالَ والدعاءَ لها بالثبات على الاستقامة، حتى الأعينِ المريضة ربما تستحي أن تنظر إليها وإلى مثيلاتها الوقورات.

فأعظِم بالمرأة المسلمة تمشي مشية السِتْر والحشمة والأدب والعفة، تحفها رعاية الله لتحفظها من نظرات السوء وامتهانِ أهل الفحش، لا تنظر إلى من خلفها، ولا تلتفت يمنة أو يسرة، بل تقصد حاجتها؛ لتقضيها، فتعود آمنة مطمئنة إلى محارتها كاللؤلؤة المصونة الثمينة، ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور الآية ٣١].

إنه الفلاح الذي عاش لذته عبادُ الرحمن حينما تقلدوا منهج النَّبي ﷺ فعاشوا به سعداء، وأسعدوا به مجتمعاتهم، أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ووالدينا ومن نحب، إنَّه سميع مجيب.

٨٣

(أَهْلُ سِتْرٍ)

السِّتْرُ خلقٌ جميل، تخلَّق به عباد الرحمن، فزانهم ورفع من أقدارهم، وأعزَّهم الله به في الدنيا، وستر الله به عليهم في الآخرة.

والسِّتْرُ نوعان: سترٌ حسي، وسترٌ معنوي.

أما السِّتْرُ المعنوي، فهو أن تجد المسلم قد اقترف الذنب أو ارتكب الفاحشة فلا تفضحه، بل تنهاه عن معصيته، وتلين له في نصيحة ملؤها الرفق والشفقة، وتستر عليه فلا تبوح بخطيئته، ولا تعريه من ستر الله عليه.

لقد اعترف ماعز الأسلمي ﵁ بلسانه بين يدي الرسول ﷺ بالوقوع في فاحشة الزنا، ومع هذا فإن النَّبي ﷺ يحاول معه أن يستر على نفسه، وأن يتوب بينه وبين الله، فأخذ يقول له: ((وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَتُبْ إِلَيْهِ)) رواه مسلم، فيرجع ماعزٌ غير بعيد، ثم يعود فيقول للنبي ﷺ: طهرني، والنَّبي ﷺ يقول له مثل ما قال، حتى تكرر منه هذا الأمر ثلاث مرات، فلما استيقن النَّبي ﷺ من وقوعه في هذه الفاحشة، وأنَّه يريد تطهير نفسه من درنها، ويرجو أن يلقى الله وليس عليه وزرها، أمر النَّبي ﷺ الصحابة أن يقيموا عليه الحد، فذهبوا به فرجموه، فلما أذلقته الحجارة، هرب من مكانه من شدتها، فأدركه الصحابة بالحجارة حتى مات، وفي رواية لأبي داود: لما علم النَّبي ﷺ بهروبه، قال لهم: (هلَّا تركتموهُ، لعلَّهُ أنْ يتوبَ فيتوبَ اللهُ عليه) حسَّنه الألباني، ثم قال عنه في حديث حسن رواه المنذري: (فوالَّذي نفسي بيدِه، إنَّه الآن في أنهارِ الجنَّةِ ينغمِسُ فيها).

فواعجبًا: ممن يتربصون لأيّ فاحشةٍ تقع، أو منكرٍ يحصل، لا ليخبروا الجهة المسؤولة عن ذلك فتمنعه بالوسائل الشرعية، بل ليطيروا بخبره بين الناس، وينشروه على الشبكات المعلوماتية وغيرها، إنّها شهوة نقل الخبر التي عمَّت وطمَّت من غير سلوكٍ لوسائل النقل الصحيحة من التثبت والتأكد والسِّتْر والأدب، فأين هؤلاء من أسس النصح الشرعي؟ وأينهم من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ [النُّور الآية ١٩].

وليخف هؤلاء من الفضيحة على أنفسهم إذا لم يتركوا تتبع عورات الناس، فإن أبا بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: (نَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ) رواه أحمد وهو صحيح لغيره، وإسناده حسن.

وأما السِّتْر الحسي، فهو أن تحسن إلى عارٍ من الثياب فتكسوه عن أعين الناس، فو الله إن هذا لمن هدي الحبيب ﷺ، ولقد جمعت قصة ماعز الأسلمي رضي الله عنه هذين السِّتْرين، فقد جاء في روايةٍ لأبي داود أن النَّبي ﷺ رغّب رجلاً يقال له هزّال بستر ماعز فقال له: (لو سترته بثوبك لكان خيرًا لك) رواه أبو داود وهو صحيح لغيره.

فتأمل يا رعاك الله كيف يحرص النَّبي ﷺ أن يستر على المسلمين عوراتهم حسًا ومعنى، أحياءً وأمواتًا.

ولتصغ ـ أيها الموفق ـ لحديثٍ دار بين رجلين من سلف الأمة، يتذاكرون فيه هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في ستره للمسلمين، فها هو ذا عَبْدُ اللَّهِ الْهَوْزَنِيُّ يقول:

(لَقِيتُ بِلَالًا مُؤَذِّنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَلَبَ، فَقُلْتُ: يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ، كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ، وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الْإِنْسَانُ مُسْلِمًا فَرَآهُ عَارِيًا يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ، حَتَّى اعْتَرَضَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: يَا بِلَالُ، إِنَّ عِنْدِي سَعَةً فَلَا تَسْتَقْرِضْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا مِنِّي، فَفَعَلْتُ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ تَوَضَّأْتُ ثُمَّ قُمْتُ لِأُؤَذِّنَ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا الْمُشْرِكُ قَدْ أَقْبَلَ فِي عِصَابَةٍ مِنَ التُّجَّارِ، فَلَمَّا أَنْ رَآنِي قَالَ: يَا حَبَشِيُّ، قُلْتُ: يَا لَبَّاهُ، فَتَجَهَّمَنِي، وَقَالَ لِي قَوْلًا غَلِيظًا، وَقَالَ لِي: أَتَدْرِي كَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّهْرِ، قَالَ: قُلْتُ قَرِيبٌ، قَالَ: إِنَّمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَرْبَعٌ فَآخُذُكَ بِالَّذِي عَلَيْكَ فَأَرُدُّكَ تَرْعَى الْغَنَمَ كَمَا كُنْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَأَخَذَ فِي نَفْسِي مَا يَأْخُذُ فِي أَنْفُسِ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا صَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ، رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؛ إِنَّ الْمُشْرِكَ الَّذِي كُنْتُ أَتَدَيَّنُ مِنْهُ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ عِنْدَكَ مَا تَقْضِي عَنِّي وَلَا عِنْدِي، وَهُوَ فَاضِحِي، فَأْذَنْ لِي أَنْ آبَقَ إِلَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ قَدْ أَسْلَمُوا حَتَّى يَرْزُقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقْضِي عَنِّي، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا أَتَيْتُ مَنْزِلِي، فَجَعَلْتُ سَيْفِي وَجِرَابِي وَنَعْلِي وَمِجَنِّي عِنْدَ رَأْسِي حَتَّى إِذَا انْشَقَّ عَمُودُ الصُّبْحِ الْأَوَّلِ، أَرَدْتُ أَنْ أَنْطَلِقَ فَإِذَا إِنْسَانٌ يَسْعَى يَدْعُو: يَا بِلَالُ، أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ، فَإِذَا أَرْبَعُ رَكَائِبَ مُنَاخَاتٌ عَلَيْهِنَّ أَحْمَالُهُنَّ، فَاسْتَأْذَنْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَبْشِرْ؛ فَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِقَضَائِكَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَمْ تَرَ الرَّكَائِبَ الْمُنَاخَاتِ الْأَرْبَعَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: إِنَّ لَكَ رِقَابَهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِنَّ كِسْوَةً وَطَعَامًا أَهْدَاهُنَّ إِلَيَّ عَظِيمُ فَدَكَ فَاقْبِضْهُنَّ وَاقْضِ دَيْنَكَ، ...[وفي الحديث أن بلالاً لما قضى دين رسول الله ﷺ أخبره بذلك] فَكَبَّرَ وَحَمِدَ اللَّهَ شَفَقًا مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَعِنْدَهُ ذَلِكَ) رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني.

الســتْر خلق جميل تجود به نفوس عباد الرحمن، التي تُنَزِّه أنفســها من أن تملأ مجالسها بالكلام في أعراض الناس، وترفع أقلامها أن تسطر أخطاءهم، وتطهِّر أسماعها أن تصغي لعوارهم.

ويا لروعة السِّتْر الجميل؛ فإن فيه اعترافًا بفضل الله الذي سترنا بأجمل الثياب بعد أن ولدنا عراة، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف الآية ٢٦].

وتكرَّم علينا فلم يفضحنا أمام خلقه بذنوبنا وتقصيرنا وقد رآنا ونحن نرتكبها، وهل هناك أعظم سترًا من أن يسترك الله في يوم تنكشف فيه السوءات، وتبدو فيه الذنوب! فقد قال النّبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود الآية ١٨]) رواه البخاري.

فاسْقِ ــ أيها الحبيب ــ خلق السِّتْر على المسلمين بماء الإخلاص لتحصد جناه الطيب، فإن النّبي ﷺ يقول: (مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه البخاري ومسلم.

اللهم استرنا بسترك الجميل، وعفوك الكريم، إنك سميع مجيب.

٨٣

(يُعَادُونَ الشَّيْطَانَ ويَتَعَوَّذُون بِاللَّهِ مِنْه)

إنَّه أعدى أعداء عباد الرحمن وأشدهم بغضًا لهم وأكرههم إلى نفوسهم، أول من عصى الله تعالى، وأول من استكبر على عبادته، وأول من أبى أن يخضع لأوامر ربه وخالقه، وأول من امتنع عن السجود لله رب العالمين، وأول من جادل بالباطل، وقد أقسم أن يقعد لك في طريق كل خير ليصدك عنه، وليزين لك ما يغضب ربك، يفرح لمصيبتك، ويحزن لتقواك، مهمته الإفساد في الأرض، يقضي وقته في الوسوسة عليك في كل شؤون حياتك، وغايته أن يُدِخل الإنسان معه في نار جهنم، إنني على يقين من أنك عرفته، وتذكرت جرائمه في حقك: إنَّه الشيطان الرجيم، فما أشد كفره، وأخبث وسواسه، وما أفظع ما قال بين يدي رب العالمين، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف من ١١ الآية الى الآية ١٨].

أيُّ بدايةٍ مشينةٍ لهذا الشيطان، إنَّه يقسم بعزة الله ليغوينك، {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، ويؤكد ذلك: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّسَاء الآية ١١٩]، جرائمه في حق البشر لا يحصيها إلا رب السموات والأرض، ولو لم يكن له من جريمة سوى نشر الكفر والشرك لكفى بها جريمة، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الحَشۡر الآية ١٦].

وهل سننسى أنَّه السبب في إخراج أبوينا من الجنَّة دار النعيم الأبدي والهناء السرمدي؟! ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٢٧].

أممٌ هلكت، وقرى قُلبت رأسًا على عقب، ودولٌ زالت، وأرواحٌ مزَّقها العذاب، حينما غوت بغواية الشيطان، وحينما انساقت لتزيينه وإغراءاته، قلّب نظرك في كتاب الله تعالى، وتأمل كيف زخرت آياته بتحذير الله من شرِّ هذا العدو اللدود، أما نقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البَقَرَة الآية ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس الآية ٦٠]، ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾ [الزُّخۡرُف الآية ٦٢]، والآيات في هذا كثيرة.

إنها عداوةٌ شيطانية لا يكتفي الشيطان فيها بإدارة الحروب الكبيرة، أو إشعال الفتنة بين الأمم والشعوب، فهذا كله من أكبر مشروعاته الخبيثة، ولكنه أيضًا يشاركك حتى في

أيسر الأشياء، وفي أخص الأشياء، وفي أخفى الأشياء، فتبًا له من طاغية على نفسه وعلى البشر أجمعين إلا من عصمه الله منه.

فماذا سنصف من تدبيره السوء لبني آدم أكثر مما وصفه النَّبي ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ) رواه البخاري.

ومع هذا كلّه فإن الله يصف كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النِّسَاء الآية ٧٦].

فما أضعف كيده حينما يقابله عبد الرحمن بالاتكال على الله تعالى، واتباع هدي النَّبي ﷺ، فإنَّه يصغر ويتضاءل، فلا يجد له سبيلاً على الأتقياء والصالحين؛ لأنهم عرفوا دواءه الذي يحرقه ويحرق مكره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ [النَّحل الآية ٩٩].

دعونا ـ أيها الأكارم ـ نسيح في سنة الحبيب ﷺ ومنهج عباد الرحمن الأخيار لنعرف كيف نطرد الشيطان من عقولنا وقلوبنا وبيوتنا ونحمي أنفسنا وذرياتنا منه ومن ضلاله وفساده.

فقبل أن يتخلَّق الإنسان في بطن أمه يحرص على إفساده، ولذا قال النَّبي ﷺ: (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّهُ) رواه البخاري.

ويكون الشيطان عندها بانتظار هذا المولود على أحر من الجمر، فإذا حانت ساعة الولادة تأهَّب له، فإذا ولد صاح الوليد، لماذا؟ يجيب النَّبي ﷺ بقوله: (صِيَاحُ الْمَوْلُودِ حِينَ يَقَعُ نَزْغَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ) رواه مسلم، حتى المولود لم يسلم من أذاه!

وما أحرص الشيطان على أن يشاركنا الأكل والشرب، فبماذا ندفعه؟

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: (كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعَ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا) رواه مسلم.

وعَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِالشِّمَالِ) رواه مسلم.

فلنربي أنفسنا وذرياتنا على التسمية قبل الطعام والشرب، واستعمال اليمين فيهما؛ ليبارك الله لنا في مطعمنا ومشربنا.

أيها الكريم: احرص كل الحرص أن تغلق باب بيتك في وجه الشيطان؛ حتى لا يسكن عندك وبين أولادك، تقول: كيف؟ استمع لمن كشف الله له سرّه وكيده، قال النَّبِيَّ ﷺ: (إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ) رواه مسلم، فانتبه ـ يا رعاك الله ـ أن تنشغل بشيء آخر غير الذِكْر والسلام على أهلك إذا أردت الدخول عليهم في بيتك.

ولم تقف شراهة الشيطان في التنكيد بابن آدم وهو في وعيه وصحوه، بل حتى في نومه وهو يطلب راحته واستجمامه، فعَنْ أَبِي سَلَمَةَ ﷺ قَالَ: (إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي

قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ فَقَالَ: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ) رواه مسلم.

وإن للشيطان معك وأنت نائم مكرًا ومؤامرة، فكيف وصفها النبي ﷺ، وكيف بيّن علاجها: قال رسول الله ﷺ: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ) البخاري.

فهنيئًا لمن قام من نومه كل يوم يحل هذه العقد واحدة تلو الأخرى ليرى نفسه مصطفًا مع المسلمين في صلاة الفجر بنفس طيبة نشيطة وروح مؤمنة، فيا لها من سعادة غامرة تعمر قلبه وقد تخلّص في أول لحظات يومه من عقد الشيطان عليه، ولا أدري ماذا أقول لمن يقضي يومه وما زالت عقد الشيطان عليه، وقد خبثت نفسه، وأصيب بالكسل، ولو أن له حاجة من مال أو سفر أو متعة لنهض من فراشه مسرعًا، والله لقد ظلم نفسه بتفريطه بصلاة الفجر، أما علم بقول النبي ﷺ وهو يحكي ماذا يفعل الشيطان بأذنيه إذا لم يقم لصلاة الفجر؟ فقد ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ! فَقَالَ: بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ) رواه البخاري، أيرضى أحدنا أن يبول أحدٌ في أُذنه فضلاً أن يكون من يبول في أذنه أشر خلق الله وهو الشيطان؟!

هل علمنا أن الشيطان يتخذ له مخبأً في الجسم في وقت النوم، ولكن أين، وكيف نتخلص منه ونخرجه من أجسادنا؟

صلى الله على نبينا وسلم لم يترك شيئًا لنا من عداوة هذا الشيطان إلا بيّنه لنا، فقد قَالَ ﷺ: (إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ، فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ) رواه مسلم.

وفي خروجك من منزلك يحرص الشيطان أن يضايقك في خطواتك، فاحفظ هذا الدعاء ليحفظك الله به منه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ قَالَ: يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ) رواه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أما إثارة الشُبَه التي تشوّش على المؤمن عقيدته الصافية بربه، فهي ميدانه الذي يبرع فيه، اسمع كيد الشيطان واسمع علاج النّبي ﷺ له، فإنّه قال: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ لَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ) رواه مسلم.

وإن الشيطان لك ـ أيها العبد المؤمن ـ بالمرصاد في صلاتك، إنَّه يطمح أن يفسدها عليك بالوسوسة والاختلاس، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: (هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ) رواه البخاري.

وسؤالك بلا ريب ماذا أفعل إذا حشد الشيطان كيده عليَّ في صلاتي؟ والجواب ما جاء في حديث عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ رضي الله عنه أنَّه أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَهُ اللَّهُ عَنِّي) رواه مسلم.

ولما كان الشيطان الرجيم رأس كل فتنة، ينقطع العجب بما نشاهده اليوم من مشكلات اجتماعية كثيرة تئنُّ منها البيوت، وتكثر منها الشكاوى، وتزدحم بسببها المحاكم، ونبدأ بعد وقوع المشكلة وحصول النفرة بين الأزواج أو حصول الوحشة في البيوت والدور نتساءل: لماذا هذا كله؟ ولا يأتي على بال المتخاصمين أو المستوحشين من دورهم جديدة كانت أو قديمة أن هذا من كيد الشيطان وتقصيرنا في معرفة مجاهدته وسبل الغلبة عليه، أين نحن من قراءة سورة البقرة في بيوتنا؟! أنرضى أن تكون منازلنا كالمقابر الموحشة؟ قَالَ النَّبي ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ) رواه مسلم.

أين نحن من تعليمات السلامة النبوية التي يرشد إليها النَّبي ﷺ بقوله: (غَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكُوا السِّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْرُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُودًا، ويَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ، فَلْيَفْعَلْ؛ فَإِنَّ الْفُوَيْسِقَةَ ـ أي الفأرة ـ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ) رواه مسلم.

والشيطان ـ أعاذنا الله منه ـ يجد موتَ أحدٍ من أهل البيت فرصة لدخوله، ولكن إذا وجد من ينوح عليه نوح الجاهلية المحرم، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (لَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: غَرِيبٌ وَفِي أَرْضِ غُرْبَةٍ، لَأَبْكِيَنَّهُ بُكَاءً يُتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَكُنْتُ قَدْ تَهَيَّأْتُ لِلْبُكَاءِ عَلَيْهِ إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الصَّعِيدِ تُرِيدُ أَنْ تُسْعِدَنِي ـ أي تنوح معي ـ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَتُرِيدِينَ أَنْ تُدْخِلِي الشَّيْطَانَ بَيْتًا أَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَرَّتَيْنِ فَكَفَفْتُ عَنِ الْبُكَاءِ فَلَمْ أَبْكِ) رواه مسلم.

وفي الأسواق تكون معركة الشيطان في أوجها وقوّتها؛ حيث الفتن المتنوعة، والأيمان الكاذبة، والغش والمخادعة عند بعضنا هدانا الله وإياهم، فعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (لَا تَكُونَنَّ

إِنِ اسْتَطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ وَبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ) رواه مسلم.

ومن أحسن فرص الشيطان وأكثرها فرصة تتكرر علينا كثيرًا تلك المشاجرات والاختلافات الشخصية التي تتميّز بها النفوس غضبًا سريعًا، وأعصابًا مشدودة، يتبعها السباب والشتائم، نصرة لذات النفس، وإبهاجًا للشيطان الذي تسعده لحظة الغضب، ويفرح بنتائجه المخزية، فكيف نتخلص من داء الحميَّة وبلاء الغضب السريع، ما أوجز عبارة النَّبي ﷺ وما أنجع دواءه، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ﵁ قَالَ: (اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنِّي لَأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) رواه مسلم.

وفي لحظة الشجار، يحضر الشيطان، يوغر في الصدور الكره والبغضاء، ويحفز كلا المتخاصمين على حمل السلاح، واستعماله على مَنْ؟ على أخيه المسلم، وربما كان من بني عمه أو جيرانه، وعلى ماذا؟! على كلمةٍ قالها، أو شبرٍ من الأرض، أو مالٍ قليلٍ أو كثير، ربما كان ذلك كله طريقًا إلى الاقتصاص منه بحز رقبته وأمام الناس، أو السجن والحرمان من لذة الحياة ومتعها، وما ذاك إلا من الشيطان عليه من الله ما يستحق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) مسلم.

وصدق الحبيب ﷺ فإنَّه يقول: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ) رواه مسلم.

أخي الحبيب، حتى في آخر لحظة من حياتك، بل في ساعة الاحتضار، وأنت تفارق الدنيا بدين التوحيد، يتطلع الشيطان أن يفسد عليك توحيدك بربك، وتتلهف نفسه الخبيثة أن تكفر بالله والعياذ بالله، يقول عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله:

((لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده، وبيدي خرقة لأشد بها لحييه، فجعل يغرق ثم يفيق، ثم يفتح عينيه ثم يقول بيده هكذا: لا، بعد، لا، بعد، ثلاث مرات، فسألته في إفاقته فقال: إبليس لعنه الله، قائم حذائي، عاض على أنامله، يقول لي: فُتَّنِي، وأنا أقول له: لا بعد، حتى أموت)).

وإن كان كيد الشيطان ضعيفًا كما بينت ذلك سابقًا، فإن له حسرة وبكاء ولكن متى؟ يقول النَّبي ﷺ: (إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلِي؛ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ) رواه مسلم.

فاحمد لله أن هداك للسجود له سبحانه، واحذر كل الحذر بعد أن عرفت الشيطان وكيده وبغضه لك أن تواليه أو توالي من يواليه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النِّسَاء الآية ١١٩]، أو تنسى ذكر الله فتدخل تحت لوائه وحزبه، فإن الله يقول: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المُجَادلَة الآية ١٩]، أو تتكل على مكره، فما أسرع تنكره لك، ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال الآية ٤٨].

اللهم احفظنا من كيد الشيطان وحزبه، واجعلنا ودائع عندك، يا من لا تضيع ودائعه، إنك سميع مجيب.

٨٤

(يَحْفَظُونَ النِّعَمَ وَيَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَيْهَا)

نعم، لن نعرف طعم النعمة كما يجب إلا عند فقدها! وهنا يسترجع الإنسان بذاكرته أن كانت له نعمة كم تمنى أن لو شكر الله عليها، وانتفع بها فيما يرضي الله تعالى، وربما تذكر كم كانت له مصدر سعادة وفرحة وكمال، ومن ذلك قالوا: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى!!

مَنْ منا يستشعر نعمة سكون الليل وضياء النهار؟ هاتان النعمتان التي تمر إحداها تلو الأخرى في انسيابٍ عجيب، مَنْ الذي سيحيي قلبه بتذكر هذه النعمة فيحمد الله عليها؟ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١﴾ [القَصَص الآية ٧١].

وإن من أكبر الأخطاء التي نقترفها في تعاملنا مع النعمة حينما نستخدمها في غير ما وضعت له، فإنَّها إنما وضعت لعبادة الله بكل ألوانها وأشكالها، ولذلك فإن الله سيسألنا عنها كيف استخدمناها وفيم استعملناها، وإنَّها ستشهد علينا بكل صدق ووضوح، قال تعالى: ﴿لَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النُّور الآية ٢٤].

إننا حينما ننسى النعمة في الدين وفي البدن وفي الأمن وفي الأهل وفي الأموال وفي العلم أو نتجاهلها سوف تموت المشاعر الأخوية بين المسلمين، فترى بعضنا إذا بورك له

في نعمة لا يتذكر إخوانه الذين يفقدونها فيسأل الله لهم أن يمنحهم مثلها، وهذا مرض خطير في المشاعر يجب أن يعالج المرء نفسه إذا كان ممن أصيب به، والنَّبي ﷺ يقول: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخاري.

وعندما لا نستشعر عظمة النعمة فإننا سنتأخر كثيرًا في تقديمها إلى الآخرين حينما يفقدونها، والنَّبي ﷺ يقول: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) رواه البخاري.

والسؤال: كيف تعامل عباد الرحمن مع النعمة؟

إن الجواب عن هذا السؤال يتلخص في عدد من الأمور دلَّ عليها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ:

أولها: الإيمان بأن النعمة من الله تعالى، حيث أَحصيَتُ في كتاب الله تعالى أكثر من ثنتين وثلاثين آية كلها تنسب النعمة بصراحة إلى الله تعالى، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النَّحل الآية ٥٣]، ومنها قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النَّحل الآية ٨٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ [النَّحل الآية ٨٣].

وعن مجاهد أن أعرابيًا أتى النَّبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النَّحل الآية ٨٠]، فقال الأعرابي: نعم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم

مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ [النَّحل الآية ٨٠] الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النَّحل الآية ٨١]، فولَّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل الآية ٨٣] الآية، أورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه إلى أبي حاتم وهو مرسل.

ثانيها: تَذَكُّر النعمة بكل أشكالها وألوانها، فإن الله قال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٠٣].

ثالثها: التحدث بها، يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضُّحَى الآية ١١]، والتحدث لا يعني ذكر تفاصيلها أمام من لا يأمنُ من شرِّه وحسده؛ فقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية راويًا ذلك عن محمد بن إسحاق: ((فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرًا إلى من يطمئن إليه من أهله)).

ويقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها، ولا يكشف جملتها، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها؛ فإن العين حق)).

رابعها: الاستبشار بالنعمة وهو السرور بها؛ لأنها من فضل الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٧١].

خامسها: عدم جحود النعمة بل يجب مقابلتها بالشكر والعرفان لله تعالى: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ [النَّحل الآية ٧١]، وقال سبحانه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النَّحل الآية ١١٤]، فلنعوِّد

ألسنتنا على الثناء والشكر للذي أعطانا من النعم ما يجل عن الذكر والعد صباحًا ومساء، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبنا.

سادسها: عدم الطغيان بالنعمة إذا كثرت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزُّمَر الآية ٨].

سابعها: ألا ينسب النعمة لنفسه بعد حدوثها، فإن الله يقول: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزُّمَر الآية ٤٩].

ثامنها: الإيمان بأن الله سيسألنا عن كل نعمة، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٣٦]، والنبي ﷺ يقول: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) رواه الترمذي وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أيها الأحبة: ربما استشعر المسلم النعمة فشكر الله عليها، لكنه حتمًا ستنسيه الأعمال والهموم، فما عليه إلا أن يزور المقابر فإنَّها تذكر الآخرة، ويزور المستشفى ليعرف كيف هو يتقلب في الصحة، ويرى الأخبار صوتًا وصورة، ليوقن بفضل الله عليه وأمنه وطمأنينته في هذا البلد الآمن، فيسعى في رضاه، ويعمل في طاعته.

اللهم ألهمنا شكرك، وزدنا من نعمك، إنك سميع مجيب.

٨٥

(أَهْلُ كَرَمٍ وَإِنْفَاق)

لقاء إيماني جديد ننهل فيه من معين الصلاح، ونستقي من نبع الهداية، مع عباد الرحمن الأخيار، والأتقياء الكرماء الأبرار، جعلنا الله وإياكم منهم.

والحديث هنا عن سخاء اليد، وكرم النفس، وعطاء الروح.

أيها الحبيب: وعودٌ ربانية، وقروضٌ مضاعفة، وأجورٌ كريمة، وجنانٌ أُكُلُها دائمٌ وظلُّها، لمن؟ لعباد الرحمن؛ حينما تكرموا بالصدقة السخية، طيبةً بها أنفسهم، سعيدةً بها أرواحهم، تتراءى لهم آيات الوعد الكريم في قوله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٤٥].

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٧٤].

الصدقةُ نبعٌ ثر، يجرف مسيلُه كلَّ أدران الحياة وعراقيلها، والنفقة في وجوه المعروف بلسم الشفاء من عظيم الأدواء، والعطاء في السِر بركة للمال وَعَدَ بها رب الأرض والسماء؛ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّى يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَىۡءٍ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سَبَإ الآية ٣٩].

صدقتك ــــ أيها المحسن الكريم ــــ بذرةٌ بذرها أكرم من وطأ الثرى عليه الصلاة والسلام، (فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) رواه البخاري.

فضل الله كبير فهو القائل: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عِمْرَان الآية ٩٢]، فلنبحث عن طرقه ومواطنه، وإن من أجل مواطنه الإنفاق على الأهل والأقارب بنية القربة إلى الله تعالى، فهذه أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا تأتي إلى النبي ﷺ فتقول له: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِي مِنْ أَجْرٍ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْهِمْ وَلَسْتُ بِتَارِكَتِهِمْ هَكَذَا وَهَكَذَا إِنَّمَا هُمْ بَنِيَّ؟ قَالَ: نَعَمْ لَكِ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيْهِمْ) رواه البخاري.

وهل يخلو يوم لا ننفق فيه على أزواجنا وأولادنا! غير أن الأمر يحتاج إلى احتساب وطلب أجر من رب العالمين، فإن النَّبي ﷺ قَالَ: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ) رواه البخاري.

فإن كتب الله لك البركة في رزقك فلا تبخل على نفسك وأحبابك المسلمين من نفقة مباركة قليلة أو كثيرة:

أما قليلة، فتذكرني بما ذكره لي أحد أئمة المساجد من أنَّه كان يُعظم في أحد عمال النظافة المساكين سرعة استجابته لنداء الإنفاق في سبيل الله، فإنَّه مع ضعفه ومسكنته كان لا يتردد عن ذلك، بل كان كل مرة يبذل نصف ريال أو قريبًا منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

نصف ريال فقط! انتبه أن تقع في نفسك موقع الاحتقار، فإن لها عند الله بإذنه شأنًا عظيمًا، أتعلم لماذا؟ لأن النَّبي ﷺ يقول: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ

طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ) رواه البخاري.

إنَّه نصف ريال فقط، لكنَّ عباد الرحمن كانوا يرونه وقايةً عاصمة بإذن الله من نار السعير، فهم يتذكرون قول النَّبي ﷺ: (اتَّقوا النَّارَ، ولو بشِقِّ تَمرةٍ) متفق عليه.

ما أروع الإنفاق، وما أجمل معانيه، وألذ ثماره في الدنيا والآخرة.

وإن عباد الرحمن ينفقون فقراء كانوا أو أغنياء، فكل يجود بما تجود به نفسه الطيبة وعلى قدر حاله من اليسر أو العسر، فكن أنت كذلك، فإن كانت نفقتك كثيرة، فتذكَّر ما رواه أنس بن مالك ﷺ أنَّه قال: (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عِمۡرَان الآية ٩٢]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَخٍ؛ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) رواه البخاري.

أيها الكريم: كن واحدًا ممن تدعو له الملائكة: (اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا) رواه البخاري.

ومن ينفق الله عليهم؛ فإنَّه يقول في الحديث القدسـي: (أنفق يا ابن آدم يُنْفق عليك) متفق عليه.

وكن على يقين من أن ما أنفقته باق ولم يفن، وإنما الفناء لما أمسكنا:

أَنتَ لِلمَالِ إذَا أمْسَكْتَه ... فَإِذَا أَنفَقتَه فالمالُ لَك

عن عَائِشَةَ ﵂: (أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا) رواه الترمذي وقال: هذا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

لا، ليس ما أنفقنا باق فقط، بل يزيد ويزيد، فإن النَّبي ﷺ قَالَ: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ) رواه مسلم.

واستمع إلى هذا الحديث الذي سيدني لك ثمرة من ثمار النفقة في سبيل الله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ [والشرجة: مسيل الماء]، قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا اسْمُكَ: قَالَ: فُلَانٌ لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ، وفي رواية: وَأَجْعَلُ ثُلُثَهُ فِي الْمَسَاكِينِ وَالسَّائِلِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ) رواه مسلم.

الإنفاق خلق جميل، ويتضاعف جماله إذا كان على حال من الحاجة أو العوز، فيلتقي الكرم فيه والإيثار، دعني أحدثك بما عجب الله منه وهو الكريم المنان سبحانه: عن أبي هريرة ﷺ قال: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ) متفق عليه.

إنَّه مجتمع عباد الرحمن الذي تربى على أخلاق النبوة، واستقى من نبعها الصافي، مجتمع لا يعرف الأنانية والأثرة، هاك صنفًا من أصنافه يمتدحه النَّبي ﷺ بصفة مثالية كريمة، لو سارت الأمة عليه اليوم ما بقي فيها فقير واحد، إنَّهم الأشعريون، الذين قال النَّبي ﷺ فيهم: (إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) رواه البخاري.

واحذر ـ أيها الكريم ـ أن يخيّم عليك اليأس، فما زال في الأمة من الكرماء من يسير على خطى النَّبي ﷺ وسلفه الصالح، فما نسينا أبدًا ما تقدمه هذه البلاد المباركة للمستضعفين في كل مكان، صور من العطاء تبتهج من سخائها النفوس، وتسعد بعطائها القلوب، وإن هذا لمن صمام الأمان لهذه الأرض، وسر استقرارها وأمنها، ولله الحمد والمنة.

ولم أرَ كـالمـعـروفِ أمـَّا مـَذاقـُه فـحـلـوٌ وأمـَّا لـونـُه فـجـمـيـلُ

وحينما تحدثت عن كرم عباد الله وإنفاقهم فإن هذا طرف من حسن تعاملهم مع المال، وهناك طرف آخر، وهو وسطيتهم في الإنفاق، وهذا ما سوف نتحدث عنه إن شاء الله في الموضوع التالي.

فأسأل الله تعالى أن يرزقنا ويكرمنا، ويهبنا قلوبًا محبةً للخير والبذل، سخيةً في مرضاته، إنَّه سميع مجيب.

٨٦

(مُتَوَسِّطُونَ فِي الإِنْفَاق)

بالوسطية في الإنفاق تميز عباد الرحمن، فإنَّهم ساروا على المنهج الذي رسمه لهم القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٧].

من هنا نعلم: أن عباد الرحمن ليسوا بعالة على الناس، بل إنَّهم أهل عمل وجد، يعمرون الدنيا للآخرة، يتقوون بها على طاعة الله تعالى، ويكفون بها أنفسهم ومن يعولون من أهليهم، ويمدون يد السخاء والكرم على أضيافهم، ويصلون بصدقاتهم أهلَ العوز والفاقة.

فليس في حياتهم إسراف تهدر به الأموال في غير فائدة أو نفع، أو تبذير تضيع بسببه قوة الأمة وعصبها، ولا تقتير تحبس به النفقات عن مستحقيها من الأهل وأهل الحاجة أو أي إصلاح للمجتمع المسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإِسْرَاء الآية ٢٩].

بل قوامًا معتدلاً، فخير الأمور الوسط، إنها حياة الأخذ والعطاء، من غير بخل أو تبذير:

أما البخل، فيا لدناءته، رداءٌ مرقعٌ ليس فيه ضياءٌ أو إشراق، بل ظلمةٌ ووحشة، ولهث خلف الدنيا وحطامها الزائل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ

﴿مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٨٠].

وإن أشنع البخل ما بخل به الإنسان على نفسه أو أهله، يهمل نفسه، ويترك ذريته يمدون يد الحاجة إلى الناس وهو يكنز الذهب والفضة، والطامة الكبرى لديه حينما يجرأ أحد أن يطلب منه درهمًا أو دينارًا!

ويا له من إيغالٍ في الشح؛ يرزقه الله ويعطيه وينعم عليه، وهو بعد هذا يمسك رزق الله ويبخل به، تأمل ماذا توعده الله به، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التَّوۡبَة الآية ٣٤].

قالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: ((إن البخل لو كان قميصًا ما لبسته، أو كان طريقًا ما سلكته)).

وأما الإسراف: فمجمعٌ للسفاهة، وعلامةٌ على البطر، وطريقٌ إلى الفقر، وصحبةٌ للشيطان، ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٢٧].

وأقبح الإسراف ما كان في معصية الله تعالى، من اقتراف ألوان الفجور والفواحش، قال إياس بن معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما جاوزتَ به أمر الله، فهو سَرَف))، وقال غيره: ((السرف: النفقة في معصية الله عز وجل)).

أما عَلِمَ مَنْ بَذَّر مالَه في معصية ربه أن العلماء كرهوا الإسراف في الوضوء وهو من أجل العبادات، فكيف الإسراف في المعاصي، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ

أَنَّ فَرْضَ الْوُضُوءِ مَرَّةً مَرَّةً، وَتَوَضَّأَ أَيْضًا مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ثَلَاثٍ، وَكَرِهَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْإِسْرَافَ فِيهِ، وَأَنْ يُجَاوِزُوا فِعْلَ النَّبِيِّ ﷺ).

تذكر يا مَنْ أسرف في النعم، أو بخل بها كيف كانت عيشة من سبقك، شظفٌ في المأكل والمشرب، ولكنها رضيةٌ هنية، يعطي أحدهم عطيته وربما لا يملك سواها، رضي بالله ربًا، فأيقن بأنّه الرزّاق ذو القوة المتين، أرع لهذا الحديث سمعك لتشهد بنفسك على صورةٍ من أعجب الصور النبوية وأروع المشاهد الخالدة، عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: (جَاءَتِ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ؛ هِيَ الشَّمْلَةُ مَنْسُوجٌ فِي حَاشِيَتِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَسَجْتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسُوكَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْسُنِيهَا، فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ! سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ! لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ) رواه البخاري.

فماذا سيقول سلفنا الصالح لو شاهدوا صور الإسراف اليوم، ولك في أعراس جملة منا عظةٌ وعبرة؛ حيث تظهر صور المباهاة بكل ألوانها، ولا يعني هذا أن يبخل الإنسان على العروسين بكريم الوفادة، ولكن يجب ألا نفعل في ليلة العرس محرمًا ـ كالإسراف ـ؛ ليبارك الله لهما في حياتهما، وكم هو جميل أن نفكر في استغلال هذه الموائد السعيدة في إسعاد الفقراء!

ستقول لي: كيف، فأقول لك: ما عليك إلا أن تتصل بجمعيات البر، والمخلصون هناك يتولون أمر هذه النِعَم؛ ليقدموها بكل أمانةٍ إلى من سيفرح بها، ويُفرِحُ بها أولاده، فتضيف إلى إسعاد عروسيك، وإكرام ضيوفك، صدقةً للفقراء والمساكين.

وإن من صور الإسراف هو ما يقع عند بعض النساء، من التباهي باللباس، بتفصيله بآلاف الريالات، وربما لا تلبسه إلا مرة واحدة فقط، حتى لا تعيَّر من قبل زميلاتها، ونحن نقول لكل امرأة تبالغ في زينتها أمام أقرانها: تزيني يا أَمَةَ الرحمن، ولكن اتق الله في زينتك، ولا تسرفي إن الله لا يحب المسرفين، واخشي أن تزول منك هذه النعمة، فإن النعم سريعة الزوال حينما لا يشكر الله عليها، وإنَّه من شكره عدم الإسراف فيها.

وهمسة أخيرة أهمس بها في أذن الرجال: إن الله قد أمركم بالإنفاق على أهليكم كلٌ على حسب حاله من العسر واليسر، فقال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطَّلَاق الآية ٧].

فلا تحبسوا خير الله عن أهليكم، وتوخَّوا في ذلك التوسط ما استطعتم إلى ذلك سبيلا، وأوصيكم في الوالدين خيرًا، فإن البخل عنهما مع حاجتهما جرمٌ مضاعف، وعقوقٌ بغيض.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) رواه مسلم.

ولنوطِّن أنفسنا على الاقتصاد في كل نعمة بين أيدينا من ماء وكهرباء ومواصلات وأجهزة اتصالات ونحوها، فإن هذا من شكر النعم، وشكر الله عليها طريق إلى دوامها، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبۡرَاهِيم الآية ٧].

أخي الكريم: كن من عباد الرحمن: عطاءٌ من غير إسراف، وأخذٌ من غير تقتير، وعيشةٌ فيها كفاف وقناعة، هذه هي الحياة التي لو عاشها كل إنسان كُفي الرزق، وعاش عيشة الكرماء.

أسأل الله تعالى أن يبارك لنا في أرزاقنا، وأن يجعلنا من عباده الأخيار، إنَّه سميع مجيب.

٨٧

(يَطْلُبُونَ الرِّزْق)

جمعت حياة عباد الرحمن بين العبادة والعمل، وقاموا بحق الله تعالى، ولم ينسوا حقوق أنفسهم وأهليهم وأمتهم، فبادروا إلى العمل الشريف، يصقلون فيه مواهبهم، ويبنون فيه مجتمعهم، وينفقون به على ذواتهم ومن يعولون من أهلٍ وذرية، فعاشوا عيشة العُبَّاد العاملين، فزيَّنوا أوقاتهم بطلب الرزق الحلال، وأخذوه من أبوابه التي أحلها الله تعالى لهم، فسعدوا برزق الله سبحانه، وأسعدوا به أحبابهم، وعادوا بالفضل منه على من احتاجه من الخلق.

لقد استشعر عباد الرحمن قول الباري عز وجل: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سَبَإ الآية ٣٩].

وفَقْه عباد الرحمن قولَ الرزاق سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [المُلْك الآية ١٥].

فأحبوا بعد ذلك أن يكونوا ممن يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى عليهم، يستلذون بكرمه، وينعمون برزقه.

لقد أصبح طلب الرزق بالعمل الشريف دينًا في عقيدة عباد الرحمن، وما ذاك إلا لأنهم رأوا أنَّه من سُنَن الأنبياء والشرفاء، فما من نبيٍ إلا ورعى الغنم، وكان النَّبي ﷺ رزقه

تحت رمحه، وكان نوحٌ نجارًا، وكان داودُ حدادًا، وإن من قناعتهم أن البطالة دنيئة، والاتكال على الآخرين مذموم، فقد سئل الرسول ﷺ أيّ الكسب أطيب، فقال: (عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور) رواه البزار وصحّحه الحاكم والألباني.

ويقول عمر رضي الله عنه: ((أرى الفتى فيعجبني، فإذا قيل لا حرفة له سقط من عيني))، ويقول كذلك: ((لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة)).

ولقد شوهد الصديق رضي الله عنه في اليوم التالي لتوليه خلافة الأمة بعد الرسول ﷺ قد جعل على رأسه حزمة من الثياب متوجهًا بها إلى السوق ليبيعها.

أما أبو الوليد الباجي العالم المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد آجر نفسه لحراسة درب بغداد في الليل؛ ليستعين بأجرته في النهار.

وكان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين ويحصد بالنهار ويصلي بالليل.

لقد أدرك عباد الرحمن أن طريق الرزق طويل وشاق، فتزودوا له بخير الزاد، فسلكوا طريق التقوى أنعم به من زاد، وجعلوا ذلك أول خطواتهم وأهمها، فانطلقوا به مصطحبين التضرع إلى باريهم، يسألونه التوفيق والسداد أن يدلهم على باب من أبواب الرزق الطيب، مرتلين قول الباري سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطّلاق من الآية ٢ الى الآية ٣].

ونعمت العبادة طلب الرزق الحلال، كيف لا، وفيها استجابة لأمر النَّبي ﷺ حيث قال: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) رواه البخاري.

فما أجمل أن يتزود عبد الرحمن بزاد التقوى، غير معتمد على اسمه أو كثرة أمواله أو جاهِ أحد من الناس، بل متسلحًا بالتوكل على الخالق الرازق سبحانه، فإن الرسول ﷺ يقول: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) رواه أحمد وغيره، وصحَّحه الألباني.

التوكل على الله تعالى يعني الثقة فيه سبحانه، والثقة تعني أنَّه مهما بلغت عواقب العمل، فإن الله القدير على كل شيء سوف ييسرها بإذنه، فلا ينبغي أن يتردد المؤمن في قبول أيِّ عمل يعلم يقيناً أنَّه يُرضِي الله تعالى ولو بمقابلٍ يسير، فالرزق الحلال يباركه الله تعالى فيكثر ويزيد، والحرام ممحوق البركة في الدنيا والآخرة، لا بركة فيه ولا زيادة.

وما المرءُ إلا حيثُ يجعل نفسَه ... ففي صالحِ الأعمالِ نفسَك فاجعلِ

ولماذا يجعل المؤمن أعينَ الناس مانعاً له من مزاولة الأعمال التي تيسَّرت له، فإن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة، لكنها خطوة مزيَّنةٌ بالتوكل، مشحونة بالعزم، وصدق الإرادة.

الصحة والعقل والإرادة وبذل الجهد ولو مع قليل من المال تفتح بإذن الله أبوابًا من الرزق، وتردم خنادقًا من التذلل إلى الناس، أو الوقوع فريسة الاستدانة بالربا أو أكل الحرام.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال النَّبِيُّ ﷺ: (مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ) رواه البخاري.

وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ . وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ .: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ) رواه البخاري ومسلم.

وها هو ذا عبد الرحمن بن عوف ﷺ يخرج من مكة مهاجراً، لا يملك من ماله إلا ما يرتديه من الثياب، فيقدم المدينة فقيراً، فعرض عليه أخوه من الأنصار سعد بن الربيع ﷺ أن يناصفه ماله، فأبى ذلك، وقال: دلوني على السوق، فنزل وعمل في التجارة، حتى أصبح من أغنياء الصحابة، ينفق على الجيوش في سبيل الله تعالى، ويسير القوافل لنصرة دين الله، ولما مات وأرادوا تقسيم تركته يقولون: لو رفعت أي حجر من بيته لرأيت قطعة من الذهب!

وهل مثل هذا النجاح أُخِذَ بالدَّعة، وقضاء الساعات الطوال في النوم واللعب واللهو! أو هو بمصاحبة الكسالى والبطالين! أو هو بالصبر مفتاح الأرزاق، وبصحبة الجادين، الذين يتقلدون إنجازاتهم، ويمتطون صهوة المثابرة، ويرمقون الكرامة بعين الاجتهاد، حتى قال قائلهم:

إِنِّي رَأيتُ وفِي الأيَّامِ تَجْرِبَةً ... للصَّبْرِ عَاقبةً محْمُودَةَ الأَثَرِ
وقلَّ مَنْ جَدَّ فِي أمرٍ يحاولُه ... استصحبَ الصبرَ إلا فَازَ بالظَّفرِ

أحبتي الكرام: إننا حينما نريد أن ندل شبابنا إلى طريق الرزق والعمل الكريم، لا نريد أن ندفعهم باللوم والعتاب، والتوبيخ والتعيير، أو حتى الاستنقاص والتقليل من الشأن، فهذا لا يبني لبنة، ولا يرفع همة، ولا يحقق أملاً، بل الأنفع أن نعزز صلتنا بشبابنا، ونقرب إليهم طريق العمل الشريف ونسهله لهم، ونرشدهم إلى أول الطريق، لنكون معهم على الطريق، مشرفين على خطواتهم فيه، يسمعون منا كلمات التشجيع لمواصلة العمل، والدعاء لهم بالتوفيق والبركة، ونمد لهم جسور المساعدة بالمال والنفس، ونذكرهم

بالإخلاص في كل خطواتهم، فهو سر الفلاح والنجاح، ونرشدهم إلى الإحسان والإتقان فيما يعملون، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف الآية ٣٠]، ونحمِّلهم أمانةَ أدوارهم في بناء أوطانهم وأمتهم، فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال الآية ٢٧].

ما أجمل حياة العاملين، وما أروع ساعاتهم، يقضونها في إنجاز الخير، ونفع النفس والأهل والناس، أسأل الله أن يدلنا جميعًا للعمل الصالح والعلم النافع، وأن يتقبله منا، إنَّه سميع مجيب.

٨٨

(آمِنُون)

الأمن بغية كل مخلوق، فما بالك بعباد الرحمن! لأنَّه لا تكمل الحياة إلا به، بل ولا تلذُّ الحياة بدونه، أما الدِّين فمن أهم ضروراته نشر الأمن في ربوع الأرض، فالمخلوق ما خلقه الله ليخاف من المخلوقات بكل أنواعها، وإنما خلقه الله ليعبده حق عبادته ويخاف منه وحده سبحانه مع رجاء عفوه وكرمه.

والأمن ضده الخوف، فمتى يصدق على الإنسان بأنَّه آمن مطمئن، قد فارقه الخوف من المجهولات من حوله؟ دعونا نقتبس من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ تلك المظاهر التي ينبغي أن نراها على كل مسالم على وجه الأرض، حتى نفرح بأمنه وسعادته في الدنيا، ولنا مع مظاهر الأمن في الآخرة وقفة أخرى.

أما مظاهر الأمن في الدنيا فهي على وجه الإيجاز على النحو الآتي:

أولاً: طمأنينة النفس وزوال الخوف، وأيُّ مرض أفتك بالإنسان يمس فيه بدنه وعقله وتدبيره مثل الخوف، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح الآية ٢٧].

ثانيًا: الثقة بين الناس، ففي حال انتشار الأمن يثق الناس بعضهم بعض، ويأمن الناس على حوائجهم ليلاً ونهارًا، لا يخشون الخديعة بينهم، ولا الغش في معاملاتهم، ولا السرقة لأموالهم، ولا المكر في أماناتهم، تأمَّل معي قول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٨٣]، فانظر كيف أغناهم الأمن هنا عن الحاجة إلى الكتابة أو الشهادة.

ثالثًا: القيام بالعبادة على وجهها، وهل تحسب من يعيش في البلاد التي فقدت الأمن، فتسلَّط الأعداء فيها على بيوت الله تعالى، وامتهن الفجرةُ فيها كتابَه العزيز شرَّفه الله، هل تراه يأمن على نفسه أن يخرج إلى الصلاة، أو يجهر بالقرآن الكريم، أو يجلس في مجالس الذكر والعبادة!

لقد امتن الله تعالى على أهل مكة بالأمن، وقرن ذلك بألوان من العبادة كالطواف والاعتكاف والركوع والسجود، فقال: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٢٥].

هل تأمَّل من يحاولون خرق بناء الأمن في بلادهم كيف قرن الله تعالى بين الأمن والعبادة بكل صراحة، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور الآية ٥٥]، فالمساس بالأمن مساس بالعبادات وبوسائلها.

رابعًا: الأمن طريق لا بد منه لحفظ الضروريات الخمس التي اتفقت الشرائع السماوية كلها على مراعاتها: وهي الدين، والنفس، والمال، والعقل، والعرض أو النسل، فقل لي بربك: أيُّ أمنٍ سيبقى يحافظ على أركان الدِّين وثوابته إذا اهتزَّ الأمن؟ ومن سيبقى متربِّصًا لمفسدي العقول يأخذ على أيديهم ويردهم عن غيهم ويمنعهم من إضلال الناس وإفسادهم؟ وأيُّ أمن على الأنفس المعصومة بعد انتشار الجرأة على إهدار دمائها؟ وأيُّ حقٍ سيبقى في الأعراض والأموال إذا امتهن الأمن وفُقِدت الطمأنينة لا قدَّر الله؟

إنَّه الأمن والإيمان، الحصن الحصين لذلك كلِّه.

وإن خامس مظاهر الأمن في الدنيا: الكفاية في الأرزاق، فهي رغبة للمرء في هذه الحياة، وهي من نعم الله على الإنسان ووسيلة لشكر الله تعالى وعبادته، والله تعالى قد أكرم عباده بأمن بلده الحرام، وزاد من فضله عليهم بأن كفاهم المؤونة الطيبة، التي تفرحهم وتشبع جوعتهم وتعينهم على الخير والشكر، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص الآية ٥٧].

يقول النَّبي ﷺ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) رواه الترمذي وحسّنه، فالدنيا إنما تكون بحوزتك حينما تأمن، وتعافى، وعندك ما يكفيك يومك، فكيف إذا أنعم الله عليك بأضعاف ذلك، هل يقابل هذا الفضل الكبير بالجحود والنكران، أم بالثناء والشكر على المنعم قولاً باللسان، وعملاً بالحفاظ على هذه النعم واستعمالها في الطاعات؟

وإذا فُقِدَ الأمن انتشرت البطالة، وعمَّ الفقر، والفقر وما أدراك ما الفقر، إنَّه أعظم ـ في أثره الخطير ـ من أن نحصره في كلمات أو نوجزه في عبارات.

سادسًا: الأمن يوفر على الأمة جهودًا كثيرة ربما بذلت من أجله، وطاقات عظيمة ربما قدمت من أجل الإمساك بزمامه، وإننا لنعلم يقينًا حاجتها إلى استثمار هذه المقدرات في الارتفاع بنهضتها علمًا وعملا؛ لتعد نفسها لمواجهة التحديات التي تواجهها أو تستشرفها.

سابعًا: قلة الفساد الأخلاقي بكل جوانبه المظلمة؛ لأن اضطراب الأمن وسيلة إلى الفجور والمتاجرة بالفواحش والمسكرات وقضايا الفساد المالي والإرهاب، وقلِّب نظرك في عدد من البلاد المخوفة كيف تنهش أمنها الرذائل، وتسلطت عليها العصابات الفتاكة التي لا تصطاد إلا في الماء العكر.

ثامنًا: سهولة انتشار العلم والعمل به، وخصوصًا العلم الشرعي الصحيح، فإنَّه كلما كانت البلاد آمنة، كان المجال في التعلم أكبر وأوسع، وكلما كانت القلاقل أكثر، كان انشغال الناس بطلب الأمن والمعيشة أكثر من إقبالهم على التعلم والتبصر بأمور الدين والدنيا.

وإن من المؤسف حقًا على ما نراه اليوم من شباب غض غُرِرَ بهم، فبدلاً من أن يكونوا شُعلاً تضيء هذا المجتمع، ولبنات يتماسك بهم بناؤه، يتحولون إلى وسائل لإشعال الفتنة فيه، أو فرصة لشماتة الأعداء علينا، والجهل بلا ريب يفعل بالمرء الأعاجيب، حتى لو قُرِن بحسن النية أو حمية للدين وأهله، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النِّسَاء الآية ٨٣].

فما أروع هذا السياق القرآني وقد جاء الرجوع فيه إلى أهل العلم الكبار وسيلة إلى الأمن والطمأنينة والاستقرار، والبعد عن طريق التفرق والانقسام.

وإذا كانت نفوس عباد الرحمن تطمح إلى الأمن في الدنيا، وتسعى إليه، فإن طموحها إلى الأمن في الآخرة أشد وأولى، وها قد عرفنا مظاهر الأمن في الدنيا، فما مظاهره في الآخرة؟

أولها: الهداية، فإن من سعى إلى الأمن في الآخرة آتاه الله الأمن في الدنيا والآخرة، مصداق ذلك قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام الآية ٨٢]؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((المهتدون في الدنيا والآخرة))، وإنما تكون الهداية في الحرص على إرضاء الله تعالى بفعل العبادات على وجهها الصحيح بإخلاص النية، والبعد عن المعاصي صغيرها وكبيرها، تنال بذلك الأمن والهداية يوم القيامة.

ثانيها: عدم الفزع والخوف من أهوال يوم القيامة، ففي اليوم الذي تتطاير فيه الصحف، ويطول على الناس انتظار الحساب، ويلجم بعضهم العرق، ويخاف الظَّلَمة من سوء ظلمهم، والكفرة من مغبة كفرهم، يأتي عباد الرحمن وقد أمنوا من الفزع، واطمأنت قلوبهم ولا يسمعون حينها إلا تحية الملائكة لهم، قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل الآية ٨٩]، ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء الآية ١٠٣]، فأيُّ أمنٍ أعظم من هذا الأمن وأجل!

أما ثالث مظاهر الأمن في الآخرة: فهو الغرف العالية في الدرجات الرفيعة من الجنَّة، وأنعم بها من غرف كريمة من رب كريم، ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ

عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ [سَبَإ الآية ٣٧].

ويأتي المظهر الرابع ليكمل الفرحة والبهجة للمؤمنين: وهو مفارقة الحزن والكآبة، قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ [البَقَرَةِ الآية ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ [فَاطِر الآية ٣٤].

هذه مظاهر الأمن في حياة عباد الرحمن في الدنيا والآخرة، فهل حدثت نفسك الطيبة أن تفوز به كما فاز به عباد الرحمن؟ ظني فيك أنْ: نعم.

اللهم اجعلنا ممن ينعمون بالأمن في الدنيا والآخرة، بهداية منك، ونعمة من فضلك يا كريم السموات والأرض، فإنك سميع مجيب.

٨٩

(يَعْتَذِرُونَ حِينَمَا يُخْطِئُون)

ليس في كل مرة يكون المرء مؤهلاً للتواصل مع الآخرين بالدرجة الكافية لتحمل طبائعهم وظروفهم، وما ذاك إلا للضعف الذي جُبِل عليه البشر، وحينئذ فإن من المتوقع أن يقع منه شيء من النفرة أو الغضب أو السهو أو الغفلة عن حق من الحقوق أو غير ذلك، فإذا ما هدأ روعه، وتيقظ ضميره، فإن المؤمن الأديب تجده في حالة من الندم والتحسُّر على ما وقع منه تجاه أخيه المسلم، فلا يتردد صاحب الخلق الرفيع من أن يقدِّم الاعتذار لأخيه، لا يمنعه ذلك كِبْرٌ ولا غطرسة، ولا يحول دون ذلك جاه أو منصب، أو درجة علم أو كثرة مال، وهكذا كان عباد الرحمن.

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ((الاعتذار: تحرّي الإنسان ما يمحو أثر ذنبه)).

وليس من الشرط أن يكون الإنسان قد اقترف خطأً ليعتذر لأخيه، لأن الاعتذار على ثلاثة أضرب: ((أن يقول: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجل كذا، فيذكر ما يخرجه من كونه مذنبًا، والثالث: أن يقول: فعلتُ ولا أعود، ونحو هذا، وهذا الثالث: هو التوبة، وكل توبة عذر، وليس كل عذر توبة)) هكذا أوردها الراغب الأصفهاني.

وأدب الاعتذار أدب رفيع ما بقي في دائرة الأخطاء المعهودة والمقبولة عرفًا، والتي يستطيع الاعتذار أن يمحوها، فهل يستحق أولئك الذين سخروا بأصحاب النَّبي ﷺ وبقرَّاء الإسلام أن يُقبَل اعتذارُهم وقد وقعوا فيما يكفِّرهم؟ تأمَّل قول الحكيم سبحانه:
﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التَّوبَة من الآية ٦٥ الى الآية ٦٦].

والشأن كذلك حينما يذكَّر بضلاله عن دين الإسلام، فيكابر ويصرُّ على كفره، فهل سيُقبَل عذره يوم لا تقبل الأعذار! ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافِر الآية ٥٢].

وربما وقع المرء فيما ليس له يد فيه، فالاعتذار هنا من أسمى أنواعه، وعلى المعتذر منه أن يرفق بصاحبه ويرفع عنه الحرج الذي فيه، ولنا في حبيبنا ﷺ أسوة حسنة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: (كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، وَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ، فَقُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ؟ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ وَإِلَّا ذَهَبْنَا، فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَخَرَجَ فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَّارُونَ، قَالَ: لَا، بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَّارُونَ، أَنَا فِئَتُكُمْ، وَأَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَّلْنَا يَدَهُ) رواه أحمد والترمذي وصحَّحه أحمد شاكر.

أما أخطاؤنا اليسيرة، والتي تقع منا من غير قصد أو بسبب الغفلة، فما أجمل أن نسرع بالاعتذار إلى أحبابنا، وما أجمل أن يتسع قلب أحبابنا لاعتذارنا، وإني لأعجب من بعض الناس، تجد صاحبه يعتذر إليه بألوان من الاعتذارات، ويقدم له أشكالاً من العفو والصفح، فما يلين له بكلمة، ولا يثني له رأيًا، بل يسد باب العذر ولا يقبل التأسف، بل ربما وسَّط المعتذر أناسًا إليه، فيقابلهم بالتجهم وعدم قبول شفاعتهم!!

قال الإسحاقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذَا اعْتَذَرَ الجاني محا العُذْرُ ذَنْبَه وكانَ الذي لا يَقْبَلُ العُذْرَ جَانِيا

تفكَّر معي في هذه الواقعة التي وقعت بين أفضل البشرية بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ: أَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا) رواه البخاري.

وعلى المسلم أن يبحث لأخيه عن أعذار حتى لو لم يعتذر إليه، بل أسمى من ذلك ألا يحوجه إلى المعاذير، فقد اعتذر رجل إلى إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال له: ((قد عذرتك غير معتذر، فإن المعاذير يشوبها الكذب)).

وإن في الاعتذار لأثرًا بالغًا في نفس المعتذر حيث يربي فيه التواضع والتذلل للمسلمين، وأن يحترس من خطئه الذي وقع فيه، ويزيد الألفة والمحبة بين الأهل والأصحاب والجيران.

غير أنَّه تجدر الإشارة إلى أن المرء ينبغي ألا يعرض نفسه للأخطاء المتكررة، حتى لا يحوج هو نفسه إلى الاعتذار، فليس كل مرة سيعذرك الناس، وليس كل الناس نفوسهم

واحدة حتى يعذروك، فتنبه لنفسك، ولا تكن في جميع قراراتك وتصرفاتك مرتجلاً، فالتعامل مع الآخرين يحتاج إلى صبر وأناة وحِلْم وتوازن.

قال ﷺ: (ولا تَكَلَّمْ بكلامٍ تعتذِرُ منه) رواه ابن ماجه وحسَّنه الألباني.

وإن الاعتذار أيضًا يستعمل في عدم القدرة على خدمة الآخرين أو الوفاء بعهدٍ بينك وبينهم لأي ظرف أو نحوه، لكن لا تعجل بالاعتذار، بل حاول خدمة أخيك ما استطعت إلى ذلك سبيلا، واجعل الاعتذار آخر المطاف، وتذكَّر قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يالَهفَ نَفسي عَلى مالٍ أُفَرِّقُهُ ... عَلى المُقِلّينَ مِن أَهلِ المُروآتِ
إِنَّ اِعتِذاري إِلى مَن جاءَ يَسأَلُني ... ما لَيسَ عِندي لَمِن إِحدى المُصيباتِ

أسأل الله تعالى أن يعذر فينا التقصير في حقه سبحانه وفي حق خَلْقِه، فإنَّه سميع مجيب.

٨٩

(يَعْتَبِرُون ويَتَّعِظُون)

يشاهد المرء في كل يوم أحداثًا جسامًا، ويسمع عن مثلها الكثير، وإذا قلَّب صفحات التاريخ وجد أضعافها وأشباهها، غير أن الناس يختلفون في الاعتبار بذلك كلِّه.

فمنهم: من تهزُّه الحوادث وكأنَّها وقعت عليه، فما يبرح يتذكرها، وتبقى له واعظًا في نفسه وحاله ودنياه وآخرته، لا تغطي الشهوات أو الملهياتُ ضوءَها ولا بريقَها في نفسه، فأولئك هم عباد الرحمن، هم أولو الألباب الذين جعلوا من كل قصة عبرة، ومن كل خبرٍ واعظًا ومرشدا، فآتى الاتعاظ والاعتبار ثمرته في استقامتهم، فاهتدوا بهدى الله تعالى، فأورثهم ذلك رحمة من الرحيم، وزاد إيمانهم إيمانًا.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يُوسُف الآية ١١١].

ومنهم: من تؤثر فيه الحوادث تأثيرًا وقتيًا، فإذا ما أقبل على الدنيا، أنسته الحال الذي أثَّر فيه، فعاد إلى تقصيره وبقي في غيه، وربما لم يستفق إلا على العقوبة والعياذ بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۢ بَـِٔيسِۢ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأَعْرَاف الآية ١٦٥].

ومنهم: من لا يتعظ بحال، ولا يتعظ بمن قبله، وكأنَّ الحوادث لا تأتيه، وكأنَّ بينه وبين المصائب معاهدة سلام، فهذا في سكرة من أمره، وربما لا تعظه إلا القواصم التي

تفجع القلوب، وتقصم الظهور، نسأل الله السلامة، والله عزيزٌ وعدلٌ وحكيم، ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحِجر من الآية ٧٢ الى الآية ٧٥].

أيها الأحبة: لقد عرَّف الجرجاني الاعتبار فقال: ((أن يرى الدنيا للفناء، والعاملين فيها للموت، وعمرانها للخراب، وقيل الاعتبار: اسم من المعتبرة، وهي رؤية فناء الدنيا كلها باستعمال النظر في فناء جزئها)).

ويصدُق هذا المعنى على قول النَّبي ﷺ: (كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَة القُبُورِ فزُوروها، فإنَّ فِيهَا عِبْرَة) رواه أحمد والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

لقد أحيا عباد الرحمن قلوبهم بالاتعاظ بغيرهم، ويشعرون أن الحوادث تكاد أن تلم بهم في كل لحظة، فيحترسون منها بالاعتبار، فعاشوا بسلام وأمان وطمأنينة وفرحة، حتى قال ابن مسعود ﷺ: (الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) رواه مسلم.

بل إنهم تعاهدوا أنفسهم بالوعظ حتى لا يتسلل إليها الركون إلى الدنيا، فهذا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إذا تعاهد قلبه يأتي خِرْبَةً، فيقف على بابها فينادي بصوت حزين: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القَصص الآية ٨٨].

أما عمر بن عبد العزيز ﷺ فقد بكى يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: ((فكّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادّكر)).

ولعل من أبرز ما يعينك بعد الله تعالى على الاتعاظ هو التفكير الإيجابي المبني على العلم، حيث تطيل التأمل، وتمعن النظر في كلام العلماء فيما جرى للسابقين، وما حصل للحاضرين، وكيف وقع لهم ذلك، وما الأسباب، وكيف كانت النتائج:

إذا المرءُ كانتْ له فكرةٌ ففي كل شيءٍ له عِبرةٌ

قال الحسن البصري: ((من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو)).

وشأن الاعتبار بالمجريات، ليس بعيدًا عنك، ولا يحتاج منك إلى جهد، بل لعلك توافقني أننا ربما رأينا العشرات من المشاهد يوميًا تكفيك أن تعظ قلبك وتوقظه، ألا ترى في طريقك الفقراء والمساكين الذين يعملون أعمالاً زهيدة الدخل، أو يعملون تحت حرارة الشمس الملتهبة، أو ما ترى عددًا من البيوت المتواضعة جدًا في بنائها ومرافقها حتى لا تكاد تفي بحوائج أهلها أو تسترهم عن أعين الناس، أو ما ترى عددًا من الحوادث المرورية التي تذهب ضحيتها الأرواح أو الأعضاء، أو ما ترى كيف تعبث المجاعة بلادًا، حتى يفتقد أهلها أساس الغذاء والدواء؟

لقد حق للشيخ الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يقول: ((إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة ولي فيه عبرة)).

نزهةُ المؤمنِ الفِكَرْ لذةُ المؤمنِ العِبَرْ
نحمدُ اللهَ وحدَه نحنُ كلٌّ على خطر
رُبَّ لاهٍ وعمرُه قد تقضّى وما شعَرْ
رُبَّ عيشٍ قد كان فو قَ المنى مُونِقَ الزهر
في خريرٍ من العيو نٍ وظلٍ من الشجر

وســـــرورٍ مـــن الـــنـــبـــا ... تِ وطـــيـــبٍ مـــن الـــثـــمـــر
غـــــيَّرتـــــهْ وأهـــلــــهَ ... ســـــرعـــةُ الـــدهـــر بالـــغـــيَر
نحـــمـــدُ اللهَ وحـــدَه ... إنَّ في ذاك مـــعـــتـــبرَ
إنَّ في ذا لـــعـــبرةً ... لـــلـــبـــيـــبٍ إنِ اعـــتـــبر

أيها الكريم: لن يزيدك الاتعاظ بالآخرين إلا إيمانًا بالله، ومسابقة إلى الخيرات، واحترَاسًا من الأخطار والذنوب، ووقوفًا على حقيقة هذه الدنيا الزائلة، وقناعةً برزقك حتى يطيب في نفسك، فتشعر بالسعادة.

وإني لأرجو منك أن تجعل لك من الوعظ نصيبًا في يومك، مهما كان علمك أو ثقافتك، قال حاتم الأصم: ((من العبرة يزيد العلم، ومن الذِكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف))، ومَنْ أحسن من الله قيلا؛ فإنَّه القائل سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾ [النَّازِعَات الآية ٢٦].

اللهم أسعدنا بما تحب لنا من خيري الدنيا والآخرة، وأطب عيشنا، إنك سميع مجيب.

٩١

(يَسْتَخِيرُون اللَّهَ تَعَالَى)

كلُّنا يتعرض للإقبال على أمور وحوائج، ومشاريع ومشتريات، يحتاج فيها إلى من يختار له الخير في أمره هذا؛ لعلم الإنسان القاصر عن نتائج عمله، ولهذا شرع الله تعالى لعباده الاستخارة في كل الأمور، بها يطلب المرء من الله تعالى خير الأمرين عند حاجته لأحدهما.

وهذا الطلب جعله النَّبي ﷺ في سنة من سننه سار عليه عباد الرحمن؛ حيث يصلي المرء ركعتين من غير الفريضة في أي وقت من الليل أو النهار يقرأ فيهما بما شاء بعد الفاتحة، ثم يحمد الله ويصلي على نبيه ﷺ ثم يدعو بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ إِنِّيَ أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ) رواه البخاري.

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((سياق حديث جابر في الاستخارة يدل على الاعتناء التام بها)).

ولاحظ يا رعاك الله: أن المستخير في استخارته رابح غير خاسر، بل لو لم يكن له فيها سوى اتباع السُّنَّة المطهرة لكفاه بركة، فكيف وهو يدعو وينطق لسانه بهذه الدعوات الكريمات، ويتضرع فيها لخالق الأرض والسموات!

ولقد استحب العلماء أن يضم إلى الاستخارة الاستشارة، فإن ذلك أكمل في اتباع السُنَّة، وقال قال بعض السلف: من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذ ربما زلَّ، والعقل الفرد ربما ضلَّ.

ومن هنا قال بعض الأدباء: ((ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار)).

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((وينبغي أن يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له، ولا يعتمد على انشراحٍ كان فيه هوى قبل الاستخارة، بل ينبغي للمستخير ترك اختياره رأسًا، وإلا فلا يكون مستخيرًا لله، بل يكون غير صادق في طلب الخيرة وفي التبري من العلم والقدرة وإثباتها لله تعالى، فإذا صدق في ذلك تبرأً من الحول والقوة ومن اختياره لنفسه)).

وإن شأنَ الكعبة لعظيم، واسمع شأنها مع الاستخارة، فعن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّئَهُمْ أَوْ يُحَرِّبَهُمْ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَبْنِي بِنَاءَهَا أَوْ أُصْلِحُ مَا وَهَى مِنْهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ فُرِقَ لِي رَأْيٌ فِيهَا؛ أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا وَتَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْ كَانَ أَحَدُكُمْ احْتَرَقَ بَيْتُهُ مَا رَضِيَ حَتَّى يُجِدَّهُ، فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ! إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي، فَلَمَّا مَضَى الثَّلَاثُ أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا، فَتَحَامَاهُ النَّاسُ أَنْ يَنْزِلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنْ السَّمَاءِ، حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ تَتَابَعُوا فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الْأَرْضَ، فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمِدَةً فَسَتَّرَ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ) رواه مسلم.

ولعلك تسأل: لِمَ قُدِّمت الصلاةُ على دعاءِ الاستخارة؟

والجواب: أن المراد حصول الجمع بين خيري الدنيا والآخرة، فيحتاج إلى قرع باب الكريم، ولا شيء لذلك أنجع ولا أنجح من الصلاة لما فيها من تعظيم الله والثناء عليه والافتقار إليه مالاً وحالاً.

أخي الكريم: ألا تتفق معي أنَّ الاستخارة دليل جلي على تعلق المؤمن المستخير بربه؛ حيث اختار ربَّه سبحانه هاديًا له في حاجاته؟

ألا تتفق معي أن المستخير يتعلم من الاستخارة الرضا بالقضاء والقدر، فما يحزن على فوات نعمة، ولا يطغى عند حصولها.

ألا تتفق معي أن المستخير أسعد من غيره، حيث يوكل الأمر إلى من يرجع الأمر كلَّه له سبحانه فيزيد من توكله واعتماده عليه؟

فما أسعد المستخير يتقلَّب في الرضا، ويهنأ بالطمأنينة، ويكرم نفسه باتباع السنن، فيزيد ذلك من ثوابه وأجره، بما يفعله من الصلاة والذكر والدعاء.

زد على ذلك أن المستخير تجده أكثر ثقة في الله تعالى، فتأمل كيف تُخرج الاستخارةُ صاحبَها بإذن الله تعالى من دائرة الشك والتردد في فعل الأمور، فيعود ذلك براحة البال بالتخلص من ضغوط التفكير وازدحام الخواطر.

قال بعض أهل العلم: ((من أُعطي أربعًا لم يُمنع أربعًا: من أُعطي الشكر لم يمنع المزيد، ومن أُعطي التوبة لم يُمنع القبول، ومن أُعطي الاستخارة لم يُمنع الخيرة، ومن أُعطي المشورة لم يُمنع الصواب)).

وكلما تقيَّد المؤمن بنص الدعاء الذي علمنا إياه نبينا ﷺ كان أجدر بالإجابة، قال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((يا سبحان الله، إنَّ صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه قد اختار لنا ألفاظًا منتقاةً جامعةً لخيري الدنيا والآخرة، حتى قال الراوي للحديث: (كانَ رَسولُ

اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ) رواه البخاري، ومعلوم أن القرآن لا يجوز أن يُغَيّر أو يزاد فيه أو يُنقص منه)).

أسأل الله تعالى أن يحُبِّب إلينا سنة حبيبه ﷺ، وأن يُيسِّرها لنا، وأن يهدي قلوبنا إليها، وأن يختار لنا في ديننا ودنيانا، إنه سميع مجيب.

٩٢

(أَهْلُ إِغَاثَة)

تضيق بالإنسان أحيانًا الطرق، وتتكالب عليه النوائب، أو يفاجأ بحال شديدة، فيكون بأمس الحاجة إلى من يغيثه ويقدم له المساعدة.

والمغيث هو الله تعالى، فهو سبحانه الذي يقدِّم العون والنصرة لمن دعاه، فيكشف ما بهم من سوء، ويبدِّل ضراءهم إلى سراء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النَّمل الآية ٦٢].

غير أن الله تعالى يبتلي عباده بعباده، والحياة مليئة بالأحزان والأخطار، فمَنْ سيمد يد العون لأحدنا لا قدر الله إذا وقع في ملمة أو حادث جلل إذا لم يمد المؤمن لأخيه المؤمن يد العون والمساعدة!

إنَّ النفوس ذات العزيمة والإباء لا يقر لها قرار ولا تغمض لها جفن إذا علمت بسوء أحاط بأحد أحبابها ولم تقدم له ما تستطيعه من المعروف.

وإن إغاثة المحتاجين خلق أصيل، وهو محل تنافس عباد الرحمن، وميدان الفرسان من أهل الخير والإحسان، الذين وضعوا أمامهم قول النَّبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه مسلم.

وأمر الإغاثة يكشف عن معادن الناس في كرم نفوسهم، وليعلم من يكرمه الله تعالى بعون أخيه أن الله سيكون معه، وليعتقد ذلك بلا ريب إذا وفقه الله تعالى في نية مخلصة، فما حال من سيكون الله معه! إنَّها السعادة والطمأنينة، والسعة في الرزق، والبركة في العمر، والصحة والعافية، والأجر والمثوبة، والرفعة في الدرجات العاليات، وقل ما شئت من خيري الدنيا والآخرة.

ولنتيقظ أن من هذه الأعمال الإغاثية ما يكون أشرف عند الله تعالى وأعظم أجرًا من نوافل العبادات من صلاة وصيام، فقد قال ﷺ: (ولأنْ أَمْشِي مع أَخٍ لي في حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ من أنْ اعْتَكِفَ في هذا المسْجدِ، يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا) رواه الطبراني في الأوسط، وصحَّحه الحاكم والألباني.

وتأمَّل هذه الفهم المقاصدي الرائع لدى الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما أمر ثابتًا البناني بالمشي في حاجة، فقال: ((أنا معتكف، فقال له: يا أعمش، أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك المسلم خير لك من حجة بعد حجة!)).

ويا لفرط عجبي من أناس ييسر الله عليهم أن يعينوا إخوانهم في عسرهم، فيترددون أو يتكاسلون أو ينتحلون الأعذار! فقد قال بعضهم: ((إذا استقضيت أخاك في حاجة فلم يقضها، فذكِّره ثانية؛ فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبِّر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام الآية ٣٦])).

وهذا عبد الله بن عامر اشترى من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قال يبكون على دارهم، قال: يا غلام، ائتهم فقل لهم: إن الدار والمال لهم جميعًا.

تأمَّل هذه التوصيف الرائق من الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن مساعدة الآخرين فإنَّه قال: ((ينبغي أن تكون حاجة أخيك مثلَ حاجتك أو أهمَّ من حاجتك، وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقًا بسبب قيامك بها، بل تتقلد منه بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد)).

عن عبد الله بن الحسن بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال: إذا كانت لك حاجة إليَّ فأرسل إليَّ رسولاً، أو اكتب لي كتابًا؛ فإني أستحي من الله أن يراك ببابي)).

أما الإغاثة على مستوى عموم الناس، فهي مهمة عظيمة، تحقق بإذن الله تعالى تلك الصورة المشرقة التي رسمها النَّبي ﷺ لأمته حيث قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) رواه مسلم.

وإنَّ داء الإغاثة هو الأنانية، فإذا قصر تفكير الناس على ذواتهم دون غيرهم، اختلفت الصفوف، وتبعثرت النفوس، وتخلخل البنيان!

وإن كل كرب يساهم الناس في رفعه، لهو خير عميم عليها، وإن هذه البلاد المباركة لهي مضرب المثل في السخاء والكرم، ومد جسور الإغاثة لكل محتاج من المنكوبين والمتضررين من الكوارث الطارئة أو نحوها؛ فإن النَّبي ﷺ يقول: (في كُلِّ كَبِدٍ رَطبةٍ أَجْرٌ) رواه البخاري.

أما ترى ظلال الأمن والإيمان والرخاء والهناء تنتشر هنا وهناك؛ فإن صنعة المعروف تقي مصارعِ السوء.

ولنعلم أنّ من يحوجِ اللهُ الناسَ إليه في قضاء حوائجهم، أن هذا دليل على محبة الله وخلقه له إن كان من المخلصين لله تعالى المتبعين للنبي ﷺ؛ إذ يسوق الله إليه الأجر سوقًا، وييسره على يده، فكم سيبارك له الله تعالى في حياته وعطائه وصحته، وكم دعوة في جنح الليل أو طرف النهار سيأتيه خيرها وهو غافل عنها، وكم من البلاء سيدفعه الله عنه بهذا كلِّه.

قال علي بن أبي طالب لجابر بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ((يا جابر، من كثرت نعم الله عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإن قام بما يجب لله فيها، عرَّضها للدوام والبقاء، وإن لم يقم فيها بما يجب لله، عرَّضها للزوال)).

أسأل الله تعالى أن يغيثنا برحمته، وأن يعيننا على إسداء المعروف ابتغاء وجهه، فإنَّه سميع مجيب.

٩٣

(أَصْحَابُ أَنَاة)

إنَّك لو رأيت النتائج السلبية لكثير من أعمالنا بمختلف أشكالها لرأيت أن العجلة هي السبب في ذلك، وأن فقدان الأناة سبب رئيس في فقدان كثيرٍ مما نريد.

فالأناة تعني: عدم العجلة في طلب الشيء، والتمهُّل في تحصيله والترفُّق به.

وإن مما يستدل به في ذم العجلة قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحُجُرَات الآية ٦].

ولقد امتدح النَّبي ﷺ وفدَ عبد القيس من أرض هجر بصفة الحلم والأناة، حيث قال لأشجَّ عبد القيس رضي الله عنه: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فهنيئًا للمتأني محبة الله تعالى له، وثناء النَّبي ﷺ عليه.

لا سيما أن النَّبي ﷺ نسب التأني إلى الله تعالى، ونسب العجلة إلى الشيطان، فقال ﷺ: (التَّأنِّي من اللهِ والعجَلَةُ من الشيطانِ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

والتأني هو جزء من شخصية الإنسان الراسخة الواثقة؛ فإن صاحبه يكون أكثر نظرًا وتأمُّلاً لحاله وخطواته التي يخطوها، فتراه واثق الخطى، بعيدًا عن التردد، ليس بكثير التراجع، ولم يستمرئ الفشل، بل هو يعي ماذا يُقْدِم عليه، يُمحّصه بالدراسة والتشاور

وبُعْدِ النظر، حتى إذا ما أقدم ـ متكلاً على الله تعالى ـ كان أكثر ثباتًا ونجاحًا، ولو وقع في خطأ فسرعان ما يرجع عنه، تائبًا مستغفرًا، غير يائسٍ ولا قنوط من ربه.

ولذا قال النَّبي ﷺ: (السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدَةُ والاقتصادُ جزءٌ من أربعةٍ وعشرينَ جُزءًا من النبوةِ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وقد ذمّ النبيُّ ﷺ مَنْ يعجل في الدعاء، وعدَّه من أسباب عدم الإجابة فقال ﷺ: (يُسْتجَابُ لأَحَدِكُم مَا لَمْ يعْجلْ: يقُولُ قَد دَعوتُ رَبِّي، فَلم يسْتَجبْ لِي) متفق عليه.

وعن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ ﷺ يَقُولُ: (سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدْ اللَّهَ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجِلْتَ أَيُّهَا الْمُصَلِّي، ثُمَّ عَلَّمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يُصَلِّي، فَمَجَّدَ اللَّهَ وَحَمِدَهُ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ادْعُ تُجَبْ، وَسَلْ تُعْطَ) رواه النسائي وصحَّحه الألباني.

ما أجمل التأني تلتصق بصاحبه صفة خيّرة، تعود على قلبه بالطمأنينة، ولا تُلحق به الأذى الذي يتبع المستعجل حتى يؤذيه، ولا تؤرقه أناة في ليل، ولا تشقيه في نهار، قال أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إن العاجل لا يكاد يلحق، كما أن الرافق لا يكاد يُسبق، والساكت لا يكاد يندم، ومن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب)).

لا تعجلنّ فليس الرزقُ بالعَجَلِ ... الرزقُ في اللوح مكتوبٌ مع الأجلِ
فلو صبرنا لكانَ الرزقُ يطلُبنا ... لكنَّه خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ

وكم سيخسر التاجر حينما يتعجل في شراء بضاعةٍ مَّا وهو لا يخبرها، وكم سيتحسَّر الزوجان حينما يقدمان على الزواج من دون روية ولا مشورة ولا تأمُّل، وكم هو الضياع كبير لو عجِل الزوج بطلاق زوجته من دون أن يحاورها ويتحدث إليها بالأدب والخلق أو يسند أمرهما إلى حكمين حكيمين؟ وكم سيندم الطالب حينما لا يتروَّى في امتحانه فلا يمعن النظر في إجابته! وكم سيأسف الصديق حينما يتَّهم صديقه بريبةٍ ليس لديه فيها برهان! وهل سيوفَّق القاضي لو عجل في قضائه؟

يا للحكمة التي أنطق الله بها حبيبه ﷺ كم هي عظيمة ومباركة، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ قَاضِيًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُرْسِلُنِي وَأَنَا حَدِيثُ السِّنِّ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقَضَاءِ؟! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ سَيَهْدِي قَلْبَكَ، وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فَإِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ كَمَا سَمِعْتَ مِنْ الْأَوَّلِ؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ الْقَضَاءُ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ قَاضِيًا، أَوْ مَا شَكَكْتُ فِي قَضَاءٍ بَعْدُ) رواه أبو داود وأحمد وصحَّحه أحمد شاكر.

عليك بالأناة ـ يا رعاك الله ـ وتثبت فيما تنطق، ولا تعجل بالحديث، وما الذي يدعوك إلى المضي في شأن من غير روية ولا دراية! فإنك تملك نفسك ما دمت في مهلة النظر والتأمل، وما دامت الكلمة في خاطرك، وما دام الفعل لم يصدر منك، فإذا انطلقت الكلمة من فيك، وتحركت جوارحك بأعمالك، فأنت الآن رهن النتائج.

كن قوي الإرادة في مسك زمام نفسك عن الإقدام إلا بعد التأني وحسن التعقل، فالإقدام بعد العلم والحلم والأناة محمود.

أمَّا في مضمار الآخرة، فتعلَّم، ثم أقدم، ولا تتقهقر عن فعل الخير، بل كن سبَّاقًا مسارعًا، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (التُؤَدَةُ في كلِّ شيءٍ، إلا في عملِ الآخرةِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ويفرق الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين التأني والوقار فيقول: ((التأني في الحركات واجتناب العبث هو السكينة المحمودة، أما غض البصر وخفض الصوت وعدم الالتفات فهو الوقار)).

والتجربة تثبت أن من ابتُلِي بالعجلة ثم تنبَّه لنفسه فإنَّه يستطع أن يمرِّن نفسه على التريث؛ فإنَّه إذا وجد فائدته وطيب ثمرته بقي عليه واستمر.

وربما كانت العجلة من الصفات التي يتسم بها بعض الشباب، وهي أخطر ما تكون على نتائج أعمالهم، فما أروع أن نربيهم على حسن التدبير وطول التفكر وعدم الاندفاع نحو الظلام، فالجناية لن تكون آثارها عليهم فحسب، بل على مجتمعهم وأهليهم لا قدر الله.

اللهم ارزقنا حب كل خلق يزيننا، واشملنا برحمتك، فإنك سميع مجيب.

٩٤

(أَصْحَابُ إِيثَار)

عباد الرحمن أهل كرمٍ وإنفاق، وهم مع ذلك أهل إيثار، إنَّهم بهذه الصفات الثلاث يجندون كلَّ وسائل البذل لمحاربة شح النفس، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((البخيل من أجاب داعي الشح، والمؤْثِر: من أجاب داعي الجود)).

وإنَّ الإيثار هو أعلى منزلة في البذل، فإنَّه على ثلاثة مراتب:

الأولى: ألا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه، فهو منزلة السخاء.

الثاني: أن يعطي الأكثر، ويُبْقي له شيئًا، أو يُبْقي مثل ما أعطى، فهو الجود.

الثالثة: أن يؤثر غيرَه بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة الإيثار وعكسها الأَثَرة؛ وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ﷺ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي) رواه البخاري.

وفي الإيثار قال الحكيم العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر الآية ٩].

دعني أحدثك بأعاجيب الإيثار.. كيف وقد عجب الله منه وهو الكريم المنان سبحانه: فعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى

أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟ فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ)) متفق عليه.

وخذ إيثارًا على مستوى المجتمع، فعن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((كان بالمدينة أهل بيت ذو حاجة عندهم رأس شاة، فأصابوا شيئًا، فقالوا: لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا، قال: فبعثوا به، فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم)).

وأما على مستوى الأفراد، فحدِّث ولا حرج، فهذا قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عنهما أحد الأجواد المعروفين، مرض مرّة، فاستبطأ إخوانه ليعودوه، فسأل عنهم! فقالوا: إنَّهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلّ، فما أمسى حتى كُسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

وإن من وجهة نظري، أن الإيثار والكرم والإيثار لهي مما يمكن اكتسابه إذا لم يكن سجية في المرء، شأنه شأن العلم والحلم وسائر محاسن الأخلاق.

قيل لقيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم؛ نزلنا بالبادية على امرأة فحضر زوجها، فقالت: إنَّه نزل بك ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت، فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء

تمطر، وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مئة دينار في بيته، وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه، ومضينا فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا: أيها الركب اللئام، أعطيتموني ثمن قراي، ثم إنَّه لحقنا، وقال: لتأخذنَّه أو لأطاعننكم برمحي، فأخذناه وانصرف)).

يقول ابن الدمينة:

أَبِيتُ خَمِيصَ البَطنِ غَرثَانَ[1] جَائِعاً — وأُوثِرُ بِالزَّادِ الرَّفِيقَ على نَفسِي
وأُفرِشُهُ فَرشِي وأَفتَرِشُ الثَّرَى — وأَجعَلُ مَسَّ الأَرضِ مِن دُونِهِ لَبسِي
حِذارَ أَحادِيثِ المَحافِلِ فِي غَدٍ — إذا ضَمَّنِي يوماً إلَى صَدرِهِ رَمسِي

قال الله سبحانه: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا قَمۡطَرِيرًا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٢﴾ [الإنسان من الآية ٨ الى الآية ١٢].

قال يحيى البرمكي: ((أعط الدنيا وهي مقبلة؛ فإن ذلك لا ينقصك منها شيئًا، وأعط منها وهي مدبرة؛ فإنَّ منعك لا يبقي عليك منها شيئًا)).

والمثل الأعلى في الإيثار ما ضربه النَّبي ﷺ، فعن سَهْلٍ ﵁: (أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ فِيهَا حَاشِيَتُهَا...قالت: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لِأَكْسُوَكَهَا فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ، فَحَسَّنَهَا فُلَانٌ، فَقَالَ: اكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا! قَالَ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ! لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا

(١) الغرثان: الجائع.

يَرُدُّ؟! قَالَ: إِنِّي وَاللهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهُ إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ فَكَانَتْ كَفَنَهُ) رواه البخاري.

أيها الكرماء والكريمات: لقد تعوَّد عباد الرحمن هذا الخلق حتى غدا سجية من سجاياهم، ولكن للإيثار في حياتهم ضابط أشار إليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإيجاز فقال: ((كل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله فلا تؤثر به أحدًا، وأيُّ جهالة وسفه فوق هذا!! ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب وقالوا: إنَّه مكروه أو حرام، كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه، فيفوز به دونه)).

ولعل ذلك يتمثل فيما رواه أبو سعيد الخدري ﵁ حيث قَالَ: (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ) رواه مسلم.

اللهم ارزقنا من كرمك العظيم ما تغفر به ذنوبنا، وتلهمنا رشدنا، فإنك سميع مجيب.

٩٥

(مُجَاهِدُونَ لأَنْفُسِهِم)

يكابد الإنسان في حياته أمورًا كثيرة، تتنازع فيه عقله وبدنه ووقته، فهو يكابد في البحث عن الرزق، ويكابد في طلب السعادة، ويكابد ليعيش كريمًا، غير أن واقع هذه المكابدة إنما هو مع هذه النفس التي تعتمل بين جوانحه، هذه النفس التي تجنح للفتور ساعة، وتبحث عن الراحة ساعة، وتأنس بالدعة وتميل إلى الرفاهية، وربما سعت بصاحبها إلى المعصية، أو أردته قتيل الهوى والشهوة، إنَّها النفس التي قال الله فيها: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۞﴾ [الشَّمس من الآية ٧ الى الآية ١٠]، وإنَّها النفس التي قال الله فيها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞﴾ [يُوسُف الآية ٥٣].

والمرء في صراعه مع النفس تراه كثيرًا ما ينسى بأنَّها هي التي توردهُ الموارد، وتُلقي به في المهالك، وتضعه في أحرج المواقف، فإذا ما انساق للذاتها التي لا تنتهي، وشهواتها التي لا تنقضي، راح بعد مراجعة عقله وقلبه يندم على ما زينته له نفسه، وأخذ يتمنَّى أن لو ما أطاعها أو أخضع عقله وقلبه لها.

لقد سبر عباد الرحمن أغوار هذه النفس، وعرفوا خداعها، وانتبهوا لشغفها بالملذات، فما تركوا العنان لها تعبث بهم ذات اليمين وذات الشمال، بل أمسكوا بزمام المجاهدة، فحملوها بها على المشروع من العبادات لتحول دونه ودون الكسل أو الفتور، أو الظلم للنفس بالمعصية أو التعدي على الآخرين، وخصوصًا في حال الشهوات والملذات والقدرة عليها.

تامَّل ـ يا رعاك الله ـ هذه الوصايا النبوية التي سلَّمها عباد الرحمن قلوبهم قبل أسماعهم فارتفعت بها همتهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) رواه مسلم.

ولنشرف على صورة من صور مجاهدة النبي ﷺ، فعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: (صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ) رواه مسلم.

ولمّا ذاق النبي ﷺ لذة المجاهدة أوصى بها أصحابه وأمته، فعن رَبِيعَةَ بْنَ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ قَالَ:(كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ، فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) رواه مسلم.

ولا تعني المجاهدة لدى عباد الرحمن الجموح على النفس بتحميلها ما لا تطيق من العبادة، فليس ذلك من دين الله في شيء، بل هو دين الرحمة والوسطية، لكنها لا تعني أيضًا ترك المشروع المقدور عليه، بل إن حالهم مع النفس وحال غيرهم وصفه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكل دقة في خواطره: ((أعجب الأشياء مجاهدة النفس؛ لأنها تحتاج إلى

صناعة عجيبة؛ فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحب، فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها.

وأثر ظلمهم لها في تعبداتهم؛ فمنهم من أساء غذاءها فأثَّر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها، ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض، أو بر والدة.

وإنما الحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده؛ فإنَّه لا ينبسط إليه الغلام، فإذا انبسط ذكر هيبة المملكة، فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها)).

أخي الحبيب، دعنا نصارح أنفسنا قليلاً: إن النفس هي التي ما زلت تملأ عليك فراشك دفئًا لا لتهنأ بنوم، ولكن لتستثقل صلاة الفجر وتكسل عن قيام الليل، إن النفس هي التي تذكرك بنفقة زوجتك وأولادك حينما تريد أن تتصدق ببعض الريالات لفقير أو مسكين، إن النفس هي التي تهتز طربًا لغيبة أخيك أو سماع نميمة فيه، إن النفس هي التي تعرض لك ألف عذر في عدم الاستجابة لنداء والديك أو الصبر عليهما في الكِبَر، إنَّها النفس التي يسيل لعابها على حزم الأموال التي تتضخم بالحرام الممحوق، إنَّها النفس التي تجعل بينك وبين كتاب ربك حاجزًا لا تراه، وتضع في طريقك العوائق أمام المسجد فلا تدخله، وتنفخ في رأسك الكِبْر فلا تقبل النصيحة، وتسيطر على فؤادك فلا يبرح موسوسًا ظانًا فيمن حولك بأسوأ الظنون أو أشد الأحقاد، فلا تكاد تبصر من حولك إلا سوادًا في سواد، وظلمة فوق ظلمة!

أخي الموفق: إن الفلاح الحقيقي إنما تجده في غايته في مجاهدة النفس، لا تعتقد أنك ستعيش في مجاهدتك لنفسك في الدنيا في حال بؤس أو اضطراب أو حتى وساوس وتعقيد؛ كلا، فالله قد تعهَّد لمن جاهد نفسه بحياة مهديَّة للخير، ومعية منه ملؤها الرحمة

والسعادة، فهو الذي يقول كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكَبُوت الآية ٦٩].

فماذا تريد بعد هذه الوعود يا من جاهدت نفسك فصددتها عن الحرام وقومتها على طريق الله وصبرت وصابرت في ذلك، يهديك الله سبله، ويكون معك، وإنك لمن المحسنين.

وإذا مررت باللغو فجاهد نفسك وكن كعباد الرحمن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفُرقان الآية ٧٢]؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرُّوا ولم يتدنَّسوا منه بشيء، ولهذا قال: (مروا كراما)).

بل قل لي بربك: أيُّ جائزة أكبر من أن تفوز بجوائز هذا الحديث الصحيح الذي يرويه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) رواه البخاري.

جاهد نفسك لتعلم الحلال فتستلذ به، وجاهدها في الامتناع عن الحرام ليمتّعك الله بزوجك وأولادك وأموالك، وجاهدها في تطهيرها من دنس الحقد لتسمو بطهارة القلب ونزاهته.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا مجاهدة سوية لأنفسنا، تعيننا بعد الله على طاعته، وهجر معصيته، إنَّه سميع مجيب.

٩٦

(شَغُوفُونَ بِالعِلْمِ)

إن نظرة فاحصة إلى شيء من علومنا المتنوعة النافعة، لكفيلة بأن تشحذ همتنا إلى طلب العلم، أو تجديد العهد بتحصيله ونيله؛ وما ذاك إلا لأن صفحات هذه العلوم لتتحدث عن مآثر عباد الرحمن الشغوفين بالمعرفة، وكيف تحمَّلوا مشاق نقل العلم، وكيف بذلوا من أجله الغالي والنفيس، وتركوا من أجله أمتع اللذات، وأَنِسوا بذكر الله تعالى وذِكْر حبيبه ﷺ وأصحابه ﷺ، ولم تقْطعْهم الآلام والمتاعب، بل غالبوا به الموت إلى آخر اللحظات، وهل عهدنا علمًا ينقل بالنوم! أو بكثرة دعة وشرب وطعام! أم عهدناه ينقل بلعبٍ ولغوٍ ولهو!!

دعونا نطوف معًا في دور العلماء، نتحسس نزرًا يسيرًا من جهدهم في طلب العلم، علَّها توقظ فينا العزم والهمم.

يقول أبو زكريا يحيى بن محمد بن يحيى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((دخلت على أبي: محمد بن يحيى الذهلي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في مكتبته وبين يديه السّراج؛ لظلمة الحجرة التي هو فيها في وسط النهار، فقلت: يا أبتي، هذا وقت الصيف، ودخان هذا السّراج بالنهار يضرك، فلو نفَّست عن نفسك؟ فقال لي: يا بُنيَّ تقول لي هذا؟ وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين!)).

مجالسُهم مثلُ الرياضِ أنيقةٌ ... لقد طابَ منها الريحُ واللون والطعم

وحدَّث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((دخلت على أبي الريحان رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يجود بنفسه ـ أي في نزع الروح قد قارب الموت ـ قد حشرج نفسه، وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يومًا حساب الجدات الفاسدة ـ أي: في الميراث وهي التي تكون من قِبَل الأم ـ؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحال! قال لي: يا هذا، أُودِعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا أن أخلِّيها وأنا جاهل بها)).

وكان أسد بن الفرات القائد المسلم الذي فتح القيروان تلميذًا للإمام مالك رحمهما الله تعالى، سمع منه الموطأ بالمدينة، ثم رحل إلى العراق، فسمع من أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتفقَّه عليهم، وكان أكثر ذهابه إلى محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما حضر عنده ليتعلم على يديه، قال له: إني غريبٌ قليل النفقة، والسماع منك قليل، والطلبة عندك كثير، فما حيلتي؟ فقال له محمد بن الحسن: اسمع مع الطلبة العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك، فتبيت عندي وأُسمعك، قال أسد بن الفرات: وكنت أبيت عنده وينزل إليَّ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعستُ، ملأ يده ونضح وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه)).

ويقول ابن أبي حاتم الرازي عن أبيه: ((سمعت أبي يقول: بقيت بالبصرة ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعتْ نفقتي، فجعلت أبيع ثياب بدني شيئًا بعد شيء، حتى بقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشايخ، وأسمع منهم العلم إلى المساء، فانصرف رفيقي، ورجعت إلى بيتٍ خالٍ، فجعلت أشرب الماء من الجوع)).

لنستمع إلى جملة من تجارب الأئمة مع العلم، وكيف ينبغي أن يُحصَّل ويؤخذ: يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح)).

ويقول النضر بن شميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا يجد الرجل لذة العلم حتى يجوع وينسى جوعه)).

ولنعلم جميعًا أن من قصد بالعلم وجه الله آتاه الله الدنيا والآخرة، وبارك له في رزقه، وإليكم هذه الواقعة التي يرويها أبو علي بن شوكة حيث قال: ((اجتمعنا جماعة من الفقهاء، فدخلنا على القاضي أبي علي الهاشمي، ذكرنا له فقرنا وشدة ضرنا! فقال لنا: اصبروا؛ فإن الله سيرزقكم ويوسّع عليكم، وأُحدِّثُكم في مثل هذا بما تطيب به قلوبكم: أذكر سنة من السنين وقد ضاق بي الأمر شيئًا عظيمًا حتى بعت رحل داري، ونفد جميعه، وبعت أخشابها، وتقوَّتُّ بثمنها، وقعدت في البيت فلم أخرج سنة، فلما كان بعد السنة، قالت لي المرأة: الباب يدق، فقلت لها: افتحي الباب، ففعلت، فدخل رجل فسلَّم عليَّ، فلما رأى حالي لم يجلس حتى أنشدني:

ليسَ مِنْ شِدَّةٍ تُصِيبُكَ إلَّا سَوفَ تمضي وسوفَ تَكْشِفُ كَرْبَا
لا يَضيقُ ذَرْعُك الرحيبُ فإنَّ النارَ يعلو لهيبُها ثم تَطْفَا
قد رأينا مَنْ أشفَى عَلى الهُلكِ فوافتْ نجاتُه حينَ أَشْفَى

ثم خرج عني ولم يقعد، فتفاءلت بقوله: فلم يخرج اليوم عني حتى جاءني رسول القادر بالله، ومعه ثياب ودنانير وبغلة بمركب، ثم قال لي: أجب أمير المؤمنين، وسلم إليَّ الدنانير والثياب والبغلة، فغيّرت من حالي)).

هكذا كان حالهم، فقر وفاقة، وهمة عالية تناطح السحاب علواً وارتقاء، قد وضعوا الجنَّة نصب أعينهم، يتمثلون قول النبي ﷺ: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ) رواه مسلم.

ومع نهلهم للعلم فإنَّهم لا يشبعون منه، بل لا يفترون عن طلب الزيادة منه؛ مستلهمين ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه الآية ١١٤].

فما أجمل حياة عباد الرحمن؛ قد جمع الله لهم حب العبادة والعلم والعمل، فطابت نفوسهم، وتنورت عقولهم، وزكت أموالهم، فاستعملوها في الخير، ونفع أنفسهم وأهليهم ومجتمعاتهم.

اللهم ارزقنا علمًا نافعًا، وقلبًا خاشعًا، وعملاً صالحًا متقبلاً، إنك سميع مجيب.

٩٧

(مُحْسِنُونَ في أَعْمَالِهِم)

كما حرص عباد الرحمن على العبادة، حرصوا أن يحسنوا أداءها، ويأتوا بها على سنة النَّبي ﷺ.

إنَّها الجودة التي يعتقد بعضنا أنَّها فكرة جديدة اخترعها عباقرة العصر الحديث، والحقيقة أنَّ إحسان العمل من مبادئ الإسلام ومحاسنه.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [المُلْك الآية ٢].

إنَّه اختبار الجودة الذي تنافس فيه عباد الرحمن، وتسابقوا في مضماره؛ حتى لا يرتضي أحدهم أن يقدم بين يدي الله تعالى شيئًا لا يحسن أي أن يقدم بين يديه سبحانه، أو لا يُفْرِحه يوم يلقى الله تعالى، فليست المسألة لديهم أن يؤدي العمل هكذا أجوف من النية، خالٍ من الإتقان، فلا يترك أثرًا في أنفسهم إن كان العمل ذاتيًا، أو في الناس إن كان خيره متعديًا.

أرأيت أثر الإحسان في العمل بعد إسلام المرء وهجره للكفر كيف وصفه النَّبي ﷺ فقال: (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ يُكَفِّرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا) رواه البخاري.

بل الإحسان في العمل ليس مكفِّرًا للذنوب فحسب، بل يضاعف الحسنات أضعافًا كثيرة، يقول النَّبي ﷺ: (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا) رواه البخاري.

لقد استشعر عباد الرحمن كم للمحسن في وضوئه من الأجر العظيم، هل سمعت قول الحبيب ﷺ في جائزة ذلك؟ حيث يبشّر المحسنين في وضوئهم فيقول: (لَا يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ يُحْسِنُ وُضُوءَهُ وَيُصَلِّي الصَّلَاةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ حَتَّى يُصَلِّيَهَا) رواه البخاري.

وفي الصلاة أيضًا، التي يترك الإحسان فيها بصمات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العَنكَبُوت الآية ٤٥] ولكن متى؟ إذا جاءت على وجه الإحسان، الذي تتجسّد فيه الطمأنينة والسكينة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، ثَلَاثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلِّمْنِي، فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا) رواه البخاري.

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ تَحْبِسُهُ، وَتُصَلِّي ـ يَعْنِي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ـ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ) رواه البخاري.

وشأن النَّبي ﷺ في الإحسان في النوافل شأن عظيم، تصفه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتقول: (مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا) رواه البخاري.

وفي قراءة القرآن يحلو الإحسان بالتلاوة صوتًا وتدبرًا وخشوعًا، هذه سنة المصطفى ﷺ الذي وصفه الْبَرَاءَ ﷺ قَالَ: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ فِي الْعِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ أَوْ قِرَاءَةً) رواه مسلم.

حتى في أمور المال؛ فإنك كلما كنت أكثر إحسانًا في وفائك لدينك، توفيه في وقته وبتمامه وبالكلمة الطيبة كلما دخلت في الخيرية التي قال فيها النَّبي ﷺ: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً) رواه البخاري.

وفي الأخلاق يترك النَّبي ﷺ لنا قاعدة عظيمة في الإحسان ويجزي عليها من الله تعالى الجزاء الكريم، فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا) رواه البخاري.

ومن أروع صور الإحسان، أن تحسن إلى والديك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النِّسَاء الآية ٣٦]، فإن الإحسان هنا ليس نفلاً ولا ندبا، وإنما وجوبًا وحتما.

والإحسان في التربية مصيره الجنَّة، ألم يقل النَّبي ﷺ: (مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ) رواه البخاري.

والعلاقات الأخوية تجمل بالإحسان، حينما تحسن إلى أصحابك ورفاقك في صحبتهم إلى الخير ومنعهم من الشر، ولك في صحبة الخلفاء الراشدين بالنَّبي ﷺ خير أسوة، فإنَّه ((لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ ﷺ جَعَلَ يَأْلَمُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ـ وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ ـ يَا

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِضَاهُ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ) رواه البخاري.

وما أروع الإسلام، لم يترك أمر الإحسان حتى في شأن البهائم وذبحها، فإن النَّبي ﷺ يقول: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) رواه مسلم.

ماذا علينا نحو الإحسان؟ إن علينا أن نستشعر معناه الذي علَّمه النَّبي ﷺ أصحابه فقال: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) رواه البخاري.

فهل استشعرت أنك أمام الله تعالى وأنت تسجد بين يديه؟ وهل استحضرت عظمة الله تعالى وأنت تدعوه؟ وهل تذكرت قوة الله تعالى وأنت تريد معصيته؟ أم هل وعيت أسماءه وصفاته وأن تقوم بعملك؟ فتذكرت أنَّه السميع والبصير، وأنَّه يراك ويسمعك ويعلم حالك، بل يعلم سرك وجهرك، ويعلم خفايا نفسك، وما يحدثك به ضميرك، وأنَّه ليعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور!

أحسن في كل شيء من عملك، فإن الله يحب المحسنين.

والله تعالى أعدَّ للمحسنين أجرًا عظيمًا، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ [آل عمران الآية ١٧٢].

وليس هذا فحسب، بل إن للمحسنين على الله تعالى أن يثقل موازينهم بالحسنات، وألا تعلو وجوههم الذلة أو القتر، ولهم زيادة كريمة، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هل حدثت نفسك عن ذلك الموقف المهيب، حينما ترى الله تعالى من غير حجاب، إذًا عليك بالإحسان في أمرك كلّه.

فعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس الآية ٢٦] قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

والمحسنون ـ أيها المحسنون ـ لا ينبغي لأحد منهم أن يتمنى الموت، فإن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ؛ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ) رواه البخاري.

فاللهم أعنَّا على الإحسان في أعمالنا الصالحة، وتقبلها منا فإنك سميع مجيب.

٩٨

(صَادِقُون)

الصدق تلك الصفة النبوية التي ارتبطت بالنَّبي الكريم ﷺ قبل نبوته، حتى كان يعرف بـ(الصادق الأمين)، فما أروع دين الإسلام بُني على الصدق، ونبيه إمام الصادقين ﷺ.

الصدق هو: أن تخبر بواقع الأمر دون كذب أو افتراء، وهو فوز في الدنيا ومنجاة في الآخرة.

أما الدنيا، فإنك تكسب ثقة الناس فيك، لا يسألون وراءك، ولا يشككون في أمرك، بل يقع كلامك في قلوبهم قبل مسامعهم، حتى إذا ما حدَّثت بشيء غريب، قيل: هذا لا يكذب.

عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) رواه البخاري.

لقد تعبَّد عباد الرحمن ربهم سبحانه بالصدق، وكانوا على يقين بأنَّه منجاة لهم، تأمَّل معي صورة من صور الفوز بالحاجة بالصدق، حيث خطب بلال ﷺ لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: ((نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم

سابقته ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوِّجوا أخاه، فزوَّجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك؛ ما كنتَ تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله وتترك ما عدا ذلك، فقال له بلال: مه يا أخي: صدقتُ فأنكحك الصدق)).

وربما كان بين الصادق وصدقه حد السيف، فينجيه الله تعالى بالصدق، فقد خطب الحجاج فأطال في القوم، والحجاج من تعرفون في بطشه وهيبته، فقام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك، فأمر الحجاج بحبسه فأتاه قومه يشفعون له، فقالوا له: إنَّه مجنون، وسألوه أن يخلي سبيله، فقال: إن أقرَّ بالجنون خلَّيته، فسُئِل الرجل، فقال: معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه.

الصِّدْقُ مَنْجَاةٌ لأربابِهِ   وقُرْبَةٌ تُدْنِي مِنَ الرَّبِ

أما في الآخرة، فهو منجاة من عذاب الله تعالى، ألم يقل الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة الآية ١١٩].

إنَّها الجنات العراض، وأعظم من هذا الرضا من الكريم المنان، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ما تزيَّن الناس بشيء بأفضل من الصدق، والله عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم، منهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، كيف بالكذَّابين المساكين؟ ثم بكى، وقال: أتدرون في أي يوم يسأل الله عز وجل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام؟ يوم يجمع الله فيه الأولين والآخرين: آدم فمن دونه، ثم قال: وكم من قبيح تكشفه القيامة غدًا)).

أيها الأحبة: ألا يحب أحدنا أن يكون في زمرة هؤلاء الطيبين الذين انتجبهم الله تعالى فأكرمهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ

وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأَحزَاب الآية ٣٥].

درَّب لسانك على الصدق، وعاهد الله تعالى ألا تنطق إلا بما يرضي الله تعالى، وتذكَّر أنك تقرأ كلام رب العالمين ترطِّب به لسانك، أوَ يحقُّ لمن يتلو كتاب ربه ـ وكلُّه الصدق اليقين ـ أن يلوِّث لسانه بالكذب على الله؟! يا لسوءة الكذَّابين على ربهم! وجوههم مشروخة بالكذب، ومسودَّة بالظلمة يوم القيامة، ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزُّمَر الآية ٦٠].

قال إسماعيل بن عبيد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لما حضرت أبي الوفاة جمع بنيه فقال لهم: يا بَنِيَّ، عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق، حتى لو قتل أحدكم قتيلاً، ثم سُئِلَ عنه أقَرَّ به، والله ما كذبتُ كذبة قط مذ قرأت القرآن)).

هل علمنا حقًا أن الصدق من مصادر قوتنا ولحمتنا؟ فكم هي مصيبة أن تؤتى الأمة من كذب أبنائها، أليس فينا المعلِّم! أليس فينا الطبيب! أليس فينا المعماري! أليس فينا التاجر! فكيف لو كذب هؤلاء؟! إنَّه الخرق الذي يصعب رقعه، إلا بتقوى الله تعالى والخوف منه.

هل تصوَّر المتحدث أن الله افتتنه بالحديث ليعلم صدقه من كذبه، ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العَنكبُوت الآية ٣].

كم هي الجرأة على الله تعالى حينما يطلق المرء الكلمة لا يلقي لها بالاً، وكأنَّه يجهل إلى أين ستهوي به، يأخذ النَّبي ﷺ بلسانه ثم يقول لمعاذ: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا

نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ؛ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وليضع من امتهن لسانه الكذب عقابَ الكذَّابين نصب عينيه، ذلكم العقاب الذي قال النَّبيُّ ﷺ فيه: (وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ) رواه البخاري.

واليوم سهل انتشار الكذب والتدليس في نقل الخبر، فتراه يبلغ الآفاق بسرعة البرق، عبر برامج التواصل الحديثة، فمن لا يخاف الله تعالى في ذلك يُخشى عليه من هذا العقاب الأليم، والكذب كلما كان في شأن عظيم كان أشد جرمًا، كالكذب على الله تعالى أو الكذب على النَّبي ﷺ أو الكذب على أئمة المسلمين من الحكَّام أو العلماء، لأن آثار ذلك وبيلة وخطيرة.

قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود الآية ١٨].

وعن الْمُغِيرَةِ بن شعبة ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: (إِنَّ كذِبًا عليّ ليس ككذِبٍ على أحدٍ، مَن كَذَبَ عليَّ مُتعمّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النار) متفق عليه.

لذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يحتاط لنفسه من ذلك، فيقول للناس: ((إني قائل مقالة قُدّرَ لي أن أقولها، فمن عقلها ورعاها فليحدث بها حتى تنتهي به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها فإني لا أحل له أن يكذب عليَّ)).

هيا ادع معي هذا الدعاء القرآني الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٨٠].

اللهم تقبل منّا هذا الدعاء، واجعلنا من الصادقين، إنك سميع مجيب.

٩٩

(يَمْزَحُون)

إنَّ الاستقامة على الدين والتعبد لله رب العالمين لا يتعارض البتة مع أن يكون المؤمن مداعبًا لزوجته، أو ممازحًا لإخوانه وأصدقائه وذويه، بل كان من هدي النَّبي ﷺ أنَّه يمازح من حوله ليدخل عليهم السرور والفرحة والابتسامة.

بل إني أرى ذلك من كمال شخصية الإنسان ووسطيته، فالنَّبي ﷺ يقول: (وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إنْ لَوْ تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) رواه مسلم.

ولقد جاء في السُّنَّة ما يدل على مزاح النَّبي ﷺ مع بعض مَنْ حوله، ومن ذلك مثلاً ما رواه أبو هريرة ﷺ أنَّه قال: قالوا: (قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّكَ تداعِبُنا! قالَ: إنِّي لا أقولُ إلَّا حقًّا) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسنٌ صحيح، وصحَّحه الألباني

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: (أنَّ رجلًا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، احمِلْني، قال النبيُّ ﷺ: إنا حاملوكَ على ولدِ ناقةٍ، قال: وما أصنع بولدِ الناقةِ؟ فقال النبيُّ ﷺ: وهل تلدُ الإبلُ إلا النوقَ) رواه أبو داوود وصحَّحه الألباني.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: (ربَّما قال لي النَّبيُّ ﷺ: يا ذا الأُذُنَيْنِ، قال أبو أُسامَةَ: يعني يُمازِحُه)؛ لأن كل إنسان له أذنان، والحديث رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وروى أنس ﷺ: (أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا كَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا، قَالَ: فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَلَا يُبْصِرُهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: أَرْسِلْنِي، مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْزَقَ ظَهْرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟ فَقَالَ زَاهِرٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذًا وَاللَّهِ تَجِدُنِي كَاسِدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ، أَوْ قَالَ: وَلَكِنْ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ) رواه أحمد في مسنده، وقال محققوه: إسناد صحيح على شرط الشيخين.

وكذا هذا شأن الصحابة ﷺ، فقد كانوا يتمازحون فيما بينهم، ومن ذلك: (كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يتبادَحون بالبِطِّيخِ، فإذا كانت الحقائقُ كانوا هم الرجالَ) رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحَّحه الألباني.

وقال جابر بن سمرة ﷺ: (جالَستُ النَّبيَّ ﷺ أكثرَ من مائةِ مرَّةٍ، فكانَ أصحابُهُ يتناشَدونَ الشِّعرَ، ويتذاكرونَ أشياءَ من أمرِ الجاهليَّةِ وَهوَ ساكِتٌ، فربَّما يتبسَّمُ معَهُم) رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني.

وبين أهل النَّبي ﷺ كان ذلك المزاح الظريف فقد جاء عن عائشة وسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّهما كانتا في مجلسٍ مع الرسول ﷺ وقد صنعتْ عائشة طعامًا خزيرة وهو لحم يقطع صغارًا ثم يصب عليه الماء فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق، فقربتها وقالت لسودة: (كلي، فأبت فقالت: كلي أو لألطخنَّ وجهك! فلم تأكل سودة، فأتت عائشة فأخذت من القصعة شيئًا فلطخت به وجهها، فأرادت سودة أن تقتص منها فأذن لها النَّبي ﷺ بذلك، ففعلتْ بعائشة مثل ما فعلتْ عائشةُ بها والرسول ﷺ يضحك) رواه أحمد في فضائل

الصحابة، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن.

وكان لبعض أئمة التابعين حظه من المزاح، حتى اشتهر به بعضهم، ومن ذلك الإمام الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد كان إمامًا جليلاً وقاضيًا وثقة وحافظًا، واشتهر بالمزاح، ومن ذلك أنَّه سأله رجل عن اسم امرأة إبليس! فقال ذلك: ذاك نكاحٌ ما شهدناه! وجاء رجلٌ والشعبي جالسٌ مع زوجته، فسألهم الرجل: أيُّكم الشعبي؟ فأشار إلى زوجته، وقال: هذا!

غير أن المزاح المباح لابد أن يكون ضمن حدودٍ لا تندُّ به إلى الحرمة أو التعدي، ومن ذلك: أن يكون المزاح لا يثير مشكلةً أو غضبًا شديدًا من الآخرين، وألا يكون فيه تعدٍ على الأعراض أو فيه استهانة وسخرية بالناس، أو استغلال لضعفهم أو قلة فهمهم، وأشد من ذلك ما يقع فيه كثير من الناس اليوم وهو إضحاك الناس بالغيبة وأكل لحوم الآخرين بحجة التسلية أو قطع الوقت، فهذا من المحرمات التي لا يجوز اقترافها مهما غيَّر بعض الناس مسماها.

وأشدُّ من ذلك أن يكون المزاح أو الإضحاك منصبٌّ على الاستهزاء بالشريعة أو بشيء منها أو بالسخرية بالسُّنَّة أو بالصالحين، أو التعرض في المزاح لأولياء الأمور من الحكَّام أو العلماء، فإنَّ هذا يقلل من هيبتهم في نفوس الناس، وهذا ما لا يجوز الوقوع فيه، فضلاً أن يكون غيبة محرمة.

والمزاح مع هذا كلِّه يجب أن يكون غير متكلَّف ولا دائم، بل للجد وقته، وللمزاح وقته، والحكيم هو الذي يعرف متى يكون جادًا ومتى يكون ممازحًا.

وإذا كان الأصل في المزاح الحل والإباحة، فإن على الفرد ألا يبخل به على نفسه أو على أهله من والدين وزوجة وأولاد، وألا يقصُر ذلك على جلساته مع أصحابه أو

زملائه في العمل، فإن أهلك هم من أحق الناس بالإمتاع والإسعاد، وإن جملة من الناس تراهم أكثر مرحًا وابتسامة مع أصحابهم، غير أنَّهم يقطبون جبينهم بين أسرهم!

الإنسان بطبعه بحاجة إلى المزاح؛ ليخفف المرء على نفسه من نصب الحياة وتعبها، وليمسح به عرق الجهد والتعب، وليجدد نشاطه النفسي ليكون ذلك باعثًا له على العمل بكل حيوية وسعادة.

ونحن بحاجة إلى المزاح أيضًا لنوطِّد به علاقاتنا الأسرية خصوصًا والاجتماعية عمومًا، ولو لم يكن في المزاح إلا رسم الابتسامة على الشفاه لكفى بذلك أجرًا ومثوبة، فإن النَّبي ﷺ يقول: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

هكذا كان عباد الرحمن أصحاب قيام ليل وبكاء بين يدي الجليل سبحانه، وأسود أمام الأعداء، وابتسامة وفرحة بين المؤمنين، توازن في الشخصية، وتوسط في المنهج، فما أروع هذا الدين، وما أعظم آدابه وتعاليمه.

اللهم اجعلنا من عباد الرحمن، فإنك سميع مجيب.

(١٠٠)

(مُحْتَسِبُون)

إنَّ لعباد الرحمن صفة خفية عن أعين الناس، يبتغون بها وجه الله الكريم، في طريقها يبحثون عن الأعمال الصالحات، وخدمة الآخرين، والسعي في مصالحهم، وتنفيس كربهم، وتفريج همومهم، ويأمرون بها بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يرجون بذلك إلا وجه الله سبحانه، إنها الاحتساب للكريم سبحانه.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الاحتساب في الأعمال الصالحة أو المكروهات: هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلبًا للثواب المرجو منها)).

وإن كان الاحتساب في عرف الناس يذهب اليوم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنَّه أوسع من ذلك، حيث يشمل أنواعًا ثلاثة:

الأول: احتساب الأجر من الله تعالى عند الصبر على المكاره، وخاصة عند فَقْدِ الأولاد، ويزيد ذلك إذا كانوا كبارًا.

الثاني: احتساب الأجر من الله تعالى عند عمل الطاعات يبتغي بذلك وجه الله تعالى؛ كما في صوم رمضان وقيامه إيمانًا واحتسابًا، وكذا في سائر الطاعات.

الثالث: احتساب المولى عز وجل ناصرًا ومعينًا للعبد عند تعرضه لأنواع الابتلاء من نحو منع عطاء أو خوف وقوع ضرر، ومعناه حينئذ: الاكتفاء بالمولى سبحانه ناصرًا ومعينًا، والرضا بما قسمه للعبد إن قليلاً أو كثيرًا.

أما احتساب عباد الرحمن الأجر من الله تعالى عند الصبر على المكاره، فيتمثَّل في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البَقَرَةِ الآية ١٥٦].

وأما احتساب الأجر من الله تعالى عند عمل الطاعات يبتغي بذلك وجه الله تعالى، فيتمثَّل ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾ [الإنسَان من الآية ٨ الى الآية ١٠].

وأما احتساب عباد الرحمن المولى عز وجل ناصرًا ومعينًا عند تعرضهم لأنواع الابتلاء فتدبَّر فيه قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٧٣].

هل تأملت ما ثمرة الاحتساب؟ إنَّها أعظم من أن تحسب أثرها العظيم، فإن النَّبي ﷺ يقول: (إِنَّ رَمَضَانَ شَهْرٌ افْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامَهُ وَإِنِّي سَنَنْتُ لِلْمُسْلِمِينَ قِيَامَهُ فَمَنْ صَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَرَجَ مِنْ الذُّنُوبِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ) رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر.

وفي شأن النفقة قال النَّبي ﷺ: (إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً) رواه البخاري.

وللمحتسب على المصيبة والمكيدة النصر من الله والحفظ والعوض الكريم، ألم يقل الله تعالى في شأن المحتسبين: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٧٤].

ألم يجزل الله تعالى للمصابين المحتسبين الأجر بالجنان العظيمة، فعن أنس ﷺ قال: (أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي؛ فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ، وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) رواه البخاري.

ألم يعطِ الله تعالى المتصدقين المحتسبين العطاء الذي لا يماثله عطاء، فقال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان من الآية ١١ الى الآية ١٢].

والاحتساب يحتاج إلى صبر، صبرٍ على مخالفة الهوى والنفس الأمَّارة بالسوء، وصبرٍ على أهل الأذى، ولذا جاءت وصية لقمان عليه السلام لابنه حيث قال الله فيها: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لُقمَان الآية ١٧].

وهذا هو طريق الأنبياء والصالحين، وهم الأسوة الحسنة، فعن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ: إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟! قَالَ: الْأَنْبِيَاءُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ الصَّالِحُونَ؛ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ) رواه ابن ماجه وفي الزوائد: إسناده صحيح.

ولا تستحقر في طريق الاحتساب عملاً أو مكروهًا فتحتسب الأجر فيه، لربما كانت فيه النجاة، فهل تحب النجاة، وترغب في الفوز!!

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) رواه البخاري.

لنتدرب ـ يا أحبة ـ على الاحتساب، ليس كل مرة ننتظر الشكر والتقدير، أو الثناء والمديح، أو الأجور المادية، بل حاول أن تجعل لك مع الله خبيئة لا يعلمها أحد إلا هو سبحانه، ليبارك لك في رزقك وصحتك وحياتك، وتذوّق حلاوة الاحتساب في العمل الصالح، فإن جاءك من ذلك خير وإحسان فمن الله تعالى، وإن جاءك غير ذلك، فاحتسبه عند الله تعالى.

ولا يكون ذلك إلا للمؤمن، فقد قال ﷺ: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) رواه مسلم.

لقد جرّب كثيرون ألوانًا من سبل السعادة، حينما يغدقون على أنفسهم بالملذات واللهو، غير أن الاحتساب طريق للسعادة والراحة قَلَّ فيها السالكون، تقر فيها الأعين، ويُسَرُّ فيها الفؤاد، فلا يفوتَنَّك، وإنك لأهلٌ له، فاحزم في طريق الاحتساب حقائبك، وتوكل على بارئك، والله يحفظك ويرعاك، فإنَّه سميع مجيب.

١٠١

(أَهْلُ فِقْهٍ في الدِّين)

أعني بالفقه في الدين هنا: العلم بالأحكام الشرعية بالأدلة المعتبرة، سواء أكان الفقه في: الاعتقاد، أو الفروع، أو الآداب، أو الأخلاق.

الفقه منزلة عظيمة ترتقيها إذا أراد الله بك خيرًا، قال النَّبي ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ) رواه البخاري.

بالفقه ارتقى عباد الرحمن فكانوا أكثر الناس معرفةً بربهم، وأكثرهم له خشية، وأدراهم بشرعه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر الآية ٢٨].

وتأمل ــ فقَّهك الله في دينه ــ بماذا شبَّه النَّبي ﷺ أهلَ العلم في هذا الحديث العظيم حيث قال ﷺ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) رواه البخاري.

فالفقه في الدين نعمة عظيمة، بل جائزة كان النَّبي ﷺ يمنحها لمن يرى فيه النجابة والنباهة فيدعو له بذلك، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الْخَلَاءَ فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: مَنْ وَضَعَ هَذَا؟ فَأُخْبِرَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) رواه البخاري.

ولا ريب أن الفقه طريق ليس بالقصير، ولكن أول الألف ميل خطوة، فلتبدأ بها، وتذكَّر قول الحبيب ﷺ: (إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

وإن من أنفع ما يعين العبد على التفقه هو ملازمة العلماء الكبار الراسخين في العلم، والتدرج في سُلَّم العلم معهم، فالعلم لا يؤخذ جملة واحدة، فهو كما يقولون: بحر لا ساحل له.

ولا ريب أن العلماء الراسخين سيأخذون بأيدي طلابهم نحو الفقه بصغار المسائل لينتهوا بهم إلى كبارها، وهي صفة العلماء الربانيين، فقد أورد البخاري قولَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((كُونُوا رَبَّانِيِّينَ: حُلَمَاءَ فُقَهَاء، وَيُقَالُ الرَّبَّانِيُّ: الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ)).

والنية الخالصة خير زاد يتزود به المتفقه في الدين، حيث يقصد المتعلم وجه الله تعالى بتعلمه، لا يريد بذلك جاهًا أو سمعة أو رياء أو ليجادل به الأقران، قال ﷺ: (لا تعلَّموا العِلمَ لتباهوا بِهِ العلماءَ، أو لتُماروا بِهِ السُّفَهاءَ، أو لتصرِفوا وجوهَ النَّاسِ إليكم، فمَن فعلَ ذلِكَ فَهوَ في النَّارِ) رواه ابن ماجه وحسَّنه الألباني.

كما أنه يقصد رفع الجهل عن نفسه وعن أمته، ولذلك يعلِّم اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يدعوه فيقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه الآية ١١٤].

وإذا ما حَصَّل المتعلم علمًا فما أجمل أن ينقله إلى غيره، فإنَّها سنة الأنبياء والصالحين المصلحين، قال النَّبي ﷺ: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ) رواه الترمذي وحسَّنه.

وإن من خير ما يعين المرء على التفقه في الدين السؤال في العلم بالأدب والخلق الرفيع، قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النَّحل الآية ٤٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ) أورده البخاري معلقًا.

قال الغنوي:

فسلِ الفقيهَ تكنْ فقيهًا مِثلَهُ　　　لا خَيرَ في عِلْمٍ بِغيرِ تَدبُّرِ

لقد حُبِّبَ الفقهُ لأهل العلم حتى قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((لأن أفقه ساعة أحبُ إليَّ من أن أحيي ليلة أصليها حتى أصبح، وفقيهٌ أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء دِعامة ودعامة الدين الفقه)).

فتأمل ــ وفِّقْتَ للخير ــ كيف أعلى عباد الرحمن منزلة العلم على نوافل العبادات، غير أن نور العلم ــ أيها الحبيب ــ لا يؤتاه عاصٍ أو مفرِط، بل كلما كنت من الله أقرب جعل الله لك من نور العلم وضيائه ما تشرق به نفسُك، وينير عقلَك، ويُطَمْئِنُ قلبَك، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الفقيه الورع الزاهد الذي لا يسخر ممن أسفل منه، ولا يهمز من فوقه، ولا يأخذ على علم علمه الله حطامًا))، وقال أيضًا: ((إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير في أمر دينه، المداوم على عبادة الله عزو وجل)).

هل تعلم ــ أيها الكريم ــ أن الأرض ذلك المخلوق العظيم تنقص من أطرافها لموت العلماء، الذين عرفوا لهذه الدنيا قدرها، وأعطوا للآخرة حقها، وأيقنوا بمن خلقهم رقيبًا وعليمًا، فعبدوه حق عبادته، جعلوا الدنيا وزينتها وراء ظهورهم، ونذروا أنفسهم لله، وجعلوا توكلهم على الله، واستعانوا بالله، فحياتهم كلها لله، علم وعمل، وسماحة وتواضع، حتى ملكوا زمام القلوب، فإذا تحدثوا فإنما من القلوب، فتصغي لهم القلوب، هؤلاء الذين تهتز لموتهم القلوب، وتتجدد لفقدهم المصائب.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١﴾ [الرَّعۡد الآية ٤١]، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: ((نقصانها من أطرافها: موت علمائها وصلحائها، وقال مجاهد: موت العلماء والفقهاء)).

الأرضُ تحيا إذا ما عـــاشَ عـــالمُها	متى يمتْ عالمٌ منها يمتْ طـــــرفُ
كالأرضِ تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها	وإن أبى عادَ في أكنافِها التـــــلفُ

أيها المسلمون: إنَّه من الواجب أن تعرف الأمة واجبها تجاه علمائها كما علَّمها الله تعالى ورسوله ﷺ فضلهم ومكانتهم، فلقد خصَّهم الله تعالى بدرجة رفيعة من الشرف فقال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العَنكَبُوت الآية ٤٣]، وقرنهم باسمه وبملائكته فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٨]، وسخّر الله لهم كل مخلوقاته تستغفر لهم فقال الرسول ﷺ: (من سلَكَ طريقًا يبتغي فيهِ علمًا سلَكَ اللَّهُ بِهِ طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائِكةَ لتضعُ أجنحتَها رضاءً لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ لَهُ من في السَّمواتِ ومن في الأرضِ حتَّى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ، إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم

يورِّثوا دينارًا ولا درْهمًا؛ إنَّما ورَّثوا العلمَ، فمَن أخذَ بِهِ فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

أوَ ترى أن فَقْدَ من يرتقون إلى هذه الدرجة العالية عند الله وعند رسوله ﷺ هيّنًا على النفوس المؤمنة، أو رخيصًا على الدين الحق! كلا والله، يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار)).

وليتخذ موتُ العلماء الأجلاء في قلبك هيبته حينما تعلم ـ يا رعاك الله ـ أنَّه من أشراط الساعة وعلاماتها، يقول الرسول ﷺ: (إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا) رواه البخاري.

فهيا بنا نحيي الآمال في أبنائنا لنخرّجَ بهم العلماء والفقهاء الذي يكملون مسيرة العلماء الربانيين، فيحملون العلم، ويعملون به.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، إنَّه سميع مجيب.

١٠٢

(أَهْلُ قَنَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا)

أعجبني قول الجاحظ في القناعة حينما عرَّفها بقوله: ((القناعة هي الاقتصار على ما سنح من العيش، والرضا بما تسهَّل من المعاش، وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية، مع الرغبة في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك، والتقنّع باليسير منه)).

ومع شكوى جملة من الناس من غلاء الأسعار وصعوبة المعيشة، إلا أننا لو تأملنا قليلاً في أحوال بعضهم لوجدناهم يعبثون بالأموال في كماليات كثيرة، ويتذمرون من عدم قدرتهم على الحصول على ما غلا منها، فلا يزال المرء يتطلع إلى زخارف هذه الدنيا لا يقنع بالكفاف منها، كلما حصل على طرف منها تاقت نفسه إلى المزيد، حتى ضعف معنى القناعة في نفسه، ومن فَقَدَ القناعة فَقَدَ شيئًا ثمينًا؛ لأنه في حقيقة الأمر يفقد الرضا والسعادة والسكينة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ) رواه مسلم.

إنَّه الفلاح النفسي والمادي حيث لا تشعر بالأسف على رزق لم تحصل عليه وكنتَ تظنه أنَّه لك، مع يقينك بأنَّه لم يُقْسَم لك.

أما ترى أن المرء إذا انهالت عليه النعم وكثرت بين يديه الأموال ربما نسي خالقه أو قسى قلبه، فإذا اجتاحته الملمات عاد إلى خالقه فيدعو ويشكو إليه، وإذا أعطاه بعضها شكره وحمده وتلذذ بالقناعة ورضي بها!

وإن تعجب فاعجب ممن ينظر إلى مَنْ هو أكثر منه غنى وثراء، فلا يبرح يقلِّب كفيه حسرة وأسفًا أن لم يكن مثله! أين هذا من قول الحبيب ﷺ: (انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) رواه البخاري.

إنما ينظر المرء إلى مَنْ هو أسفل منه في الدنيا ومَنْ هو أعلى منه في شأن الآخرة، فهذا منهج عباد الرحمن؛ قناعةٌ في دار الفناء، ومسابقةٌ إلى دار البقاء.

وهذه وقفة أثارت أشجاني وحاسبتُ نفسي بسببها كثيرًا، أدعوكم إلى تأمُّلِها:

عَنْ أَنَسٍ بن مالك ﷺ قَالَ: (اشْتَكَى سَلْمَانُ فَعَادَهُ سَعْدٌ فَرَآهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَخِي؟ أَلَيْسَ قَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَلَيْسَ أَلَيْسَ؟ قَالَ سَلْمَانُ: مَا أَبْكِي وَاحِدَةً مِنِ اثْنَتَيْنِ: مَا أَبْكِي ضِنًّا لِلدُّنْيَا، وَلَا كَرَاهِيَةً لِلْآخِرَةِ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا فَمَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، قَالَ: وَمَا عَهِدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِثْلُ زَادِ الرَّاكِبِ، وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا سَعْدُ فَاتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ حُكْمِكَ إِذَا حَكَمْتَ، وَعِنْدَ قَسْمِكَ إِذَا قَسَمْتَ، وَعِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ، قَالَ ثَابِتٌ: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ مَا تَرَكَ إِلَّا بِضْعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا مِنْ نَفَقَةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ) رواه ابن ماجه وابن السني في القناعة وقال حديث صحيح.

لن نستطيع أن نشعر بالقناعة في شيء حتى نروِّض هذه الأنفس على الإيمان بالقدر خيره وشره، ونحبس أنظارنا عن التزود بالحطام، ونأخذ من الدنيا ما يعيننا على حوائجنا

وما يسعدنا في آخرتنا، فإنَّه كما قال الرسول ﷺ: (ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ؛ ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ) متفق عليه.

أحبتي: إننا لا نقصد من حديثنا هذا أن نحجم عن اللذات المباحة والأمور الكمالية، ولكن الذي يجب أن يعلم هو أنَّه ليس من السعادة اللهث خلفها أو التحسُّر على ما فات منها، أو الحكم على النفس بأنَّها مقهورة مظلومة حينما لا تستطيع الحصول على ما في مثل أيدي الناس، فإن من شعر بذلك فهو الفقير حقًا، وأنَّ الفقير الذي لا يشعر بهذا فهو الغني!!

قال الفاروق ﷺ: ((إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، إنَّه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم)).

والنفوس الطماعة لا تراها تبرح تطلب من الخلق، تستجدي المؤن منهم، ولو كانت ذا غنى؛ لأن أنفسها لا تشبع، أما من قنع برزقه، فإنَّه يطلب ما يقدر عليه من اكتساب الرزق بالطريق الحلال، ويسأل الله تعالى البركة فيه.

كتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: ((قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبِلْت، وما أمسك عني قنِعت)).

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتَها وإذا تُرَدُ إلى قليلٍ تقنعُ

ويا لكثرة شكوى من فَقَدَ القناعة في نفسه، فإنك لا تراه إلا عابسًا وذا أنين وتذمُّر، لا تكاد تراه مبتسمًا أو راضيًا، أما التفاؤل فيثقل على لسانه، قد امتدت عيناه إلى جيرانه يحسب كم لهم من أولاد وأموال، قد أتعب نفسه وعقله فيما لا يفيد، ولربما لو جلس مع نفسه يعد نعمة الله عليه لوجدها حتمًا لا يستطيع إحصاءها ولا عدها، ولكن من افتقرت نفسه كيف أنت ستغنيه؟

كُـنْ بمـا أوتِـيتـهُ مُـقـتـنِـعًـا ... تَـقْـتَفِـي عيشَ القنوعِ المُكتفِي
كســِراجٍ دُهْـنـُه قـوتٌ لـه ... فـإذا غـرقـتَـه فـيـهِ طَـفُـي

قال بعض الحكماء: ((وجدت أطول الناس غمًّا الحسود، وأهنأهم عيشًا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع)).

أما القنوع: فهو الذي يتقلب في السعادة، حيث يرضى بما قسم الله له، لسانه لا يفتر عن الحمد والثناء لخالقه، يشعر بالفرحة على كل نعمة قليلة أو كثيرة، يعلم يقينًا بأن هذه الدنيا أرزاق مُقَسَّمة، يتذكر قول الباري سبحانه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ [الزُّخْرُف الآية ٣٢].

وما رأيت وسيلة ينال بها المرء حب الآخرين مثل القناعة في الدنيا والزهد بما في أيدي الناس، ولهذا قيل: ازهد فيما عند الناس يحبك الناس.

والمرء على ما يعود في شأن القناعة، فليس من سلامة تربية الأبناء أن نعطيهم كل ما يشتهون من متع الدنيا وزهرتها، فالأحوال تتغير، والدنيا لا تبقى على حال، وتدريبهم على القناعة يغنيهم في السراء والضراء بإذن الله تعالى.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا القناعة في الدنيا، وأن يسعدنا وإياكم في الآخرة، إنَّه سميع مجيب.

١٠٣

(سَفَرُ عِبَادِ ٱلرَّحْمَٰنِ)

لسفر عباد الرحمن منهج يسيرون فيه على منهج الإسلام، وهو منهج يفيض بالسماحة واليسر والرحمة؛ لعلم الله تعالى أن السَّفر مهما بلغت سهولته إلا أن فيه تعب ونصب، فإن النَّبي ﷺ يقول: (السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ؛ يَمْنَعُ أحَدَكُمْ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ ونَوْمَهُ) رواه البخاري.

وعباد الرحمن لا يقصدون بأسفارهم معصية أو فجورًا، بل حاجة يقضونها من عبادةٍ أو علمٍ أو دعوةٍ أو تفكُّر في صنع الله تعالى في مخلوقاته، أو فسحةٍ للنفس بعد طول عمل.

وإذا أرادوا أن يودِّعوا أهلهم قبيل السفر قالوا: أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم.

وتراهم يوصون أهليهم بمثل وصايا النَّبي ﷺ لأصحابه فقد كان يقول: (عليكَ بتقوَى اللهِ، والتَّكبيرِ على كُلِّ شَرَفٍ، فلمَّا ولَّى الرَّجُلُ قالَ ﷺ: اللَّهُمَّ اطوِ له البُعدَ، وَهوِّن عليهِ السَّفرَ) رواه البخاري.

وإن أحدهم يكره أن يسافر منفردًا؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ) رواه البخاري.

وقال ﷺ: (الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ ركب) رواه الترمذي وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فالمسافر ربما احتاج إلى من يعينه على أي شيء ربما يكون التفريط فيه سببًا فيما يؤذيه لا قدر الله، فالثلاثة يعين بعضهم بعضًا، ويؤنس بعضهم بعضًا.

ولا تصلح جماعة من غير قائد يقودهم حتى لا تتفرق كلمتهم، فالفرقة ضعف وفشل، وقد قال النَّبي ﷺ: (إذا كانَ ثلاثةٌ في سفرٍ فليؤمِّروا أحدَهُم) رواه أبو داود وحسَّنه الألباني.

ولذا يجب عليهم بعد اختياره أن يطيعوه فيما شرع الله تعالى ولا يختلفوا عليه؛ لأن الاجتماع نعمة ترد عنهم الغوائل بإذن الله تعالى.

وفي شأن المرأة نهى الشارع الحكيم الرحيم أن تسافر المرأة من غير محرم؛ رعايةً ورحمةً بها من أن يصيبها أيُّ مكروه فتحتاج إلى من يعينها ممن يحلُّ له المساس بها، وهذا من كمال هذا الدين وتكريمه للمرأة، قال النَّبي ﷺ: (لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ) رواه مسلم، واستثنى بعض العلماء ذلك في الحج الفرض إذا كانت مع رفقة آمنة من النساء الثقات وغلبة الأمن.

ولأن السفر يمر المسافر فيه بعدد من المفاجآت فإن عليه أن يبدأ خطواته بالتوكل على الله تعالى مبتعدًا عن الطيرة؛ فإن الطيرة شرك، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبْرَاهِيم الآية ١٢]، فما أروع أن يبدأ المسافر سفره بهذا الدعاء: فـ(إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنْ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ، وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ) رواه مسلم.

وكان ﷺ إذا علا على الثنايا كبَّر، وإذا هبط سبَّح.

وحينما يصل إلى القرية ويشرف على دخولها يقول: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ومَا أظْلَلْنَ، ورَبَّ الأَرْضِينَ السَّبْعِ ومَا أقْلَلْنَ، ورَبَّ الشَّيَاطِينِ ومَا أضْلَلْنَ، ورَبَّ الرِّيَاحِ ومَا ذَرَيْنَ، أسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ وخَيْرَ أهْلِهَا، وخَيْرَ مَا فِيهَا، وأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وشَرِّ أهْلِهَا، وشَرِّ مَا فِيْهَا) رواه ابن السُّنِّي وسنده حسن.

وليتذكر المسافر أن دعاءه في سفره مستجاب بإذن الله تعالى، حيث يقول النَّبي ﷺ: (ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ: دَعوةُ المظلومِ، ودعوةُ المسافرِ، ودعوةُ الوالدِ على ولدِهِ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

ولذا لا تنس أن تخصَّ والديك وأهلك وأحبابك بدعوة في سفرك عسى الله أن يكرمك بالاستجابة، والله سميع مجيب.

وما أجمل أن يتعلَّم المؤمن فقه السفر في طهارته وصلاته وغير ذلك، فهذا مما لا يستغني عنه أبدًا.

ولا يفوتنَّ عباد الرحمن هذا الدعاء الذي قال فيه ﷺ: (مَن نزَل مَنزِلًا ثم قال: أَعُوذُ بِكلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم يَضرُّه شيءٌ حتى يرتحلَ مِن منزلِه ذلك) رواه مسلم.

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: ((هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلاً وتجربة؛ فإني منذ سمعت هذا الخبر عملتُ عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدبة ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات)).

وما أجمل أن يجتمع المسافرون على طعامهم، فهذا أكثر بركة، كما يستحب أن يبذل كل واحد منهم شيئًا من النفقة يساعد بعضهم بعضًا.

وإذا انتهى المسافر من حاجته فعليه أن يبادر في العودة إلى أهله، فهم في حاجته، ويستحب له أن يخبرهم بقرب دخوله عليهم ليستعدوا لاستقباله والحفاوة به، ولا يجوز أن يقصد أن يعود إليهم ليلاً يتخوَّنهم، فهذا ليس من أدب الصالحين، ويستحب له أن يصلي ركعتين في المسجد عند قدومه البلد الذي يقيم فيه.

سلمكم الله ورعاكم في حلِّكم وترحالكم، فإن الله سميع مجيب.

١٠٤

(نَومُ عِبَادِ ٱلرَّحۡمَٰنِ)

النوم أمرٌ فطري تحتاجه كل المخلوقات لضعفها وحاجتها إلى استعادة نشاطها وقوتها، وتنزَّه الخالق سبحانه عنه فهو سبحانه لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

وإنَّ لعباد الرحمن من الفطنة ما يجعلهم يحوِّلون هذه الفطرة إلى عبادة ينالون بها الأجر العظيم، حيث تبدأ خطوات نيل الأجور على نومهم من النيَّة الحسنة، فهم ينوون ببياتهم الراحة التي تعينهم على أداء مسؤولياتهم تجاه ربهم وعباده، وإنما (الأعْمَالُ بالنِّيَّةِ) كما يقول النَّبي ﷺ وجاء في صحيح البخاري.

وإنَّهم ليستشعرون هذه الآية العظيمة من آيات الله في خلقه، حيث يخلد الناس إلى فرشهم ليفقدوا شعورهم بالتعب أو النصب أو القلق، وترتاح أبدانهم من العمل المتواصل، رحمة منه سبحانه بعباده، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣﴾ [الرُّوم الآية ٢٣].

ولننطلق إلى التعاليم النبوية في تهيأة أجواء النوم المريح، فالنَّبي ﷺ يدلنا إلى ذلك فيقول: (أَطْفِئُوا المَصابِيحَ إذا رَقَدْتُمْ، وغَلِّقُوا الأبْوابَ، وأَوْكُوا الأسْقِيَةَ، وخَمِّرُوا الطَّعامَ والشَّرابَ - وأَحْسِبُهُ قالَ - ولو بعُودٍ تَعْرُضُهُ عليه) متفق عليه، وفي رواية: (خَمِّرُوا الآنِيَةَ، وأَجِيفُوا الأبْوابَ، وأَطْفِئُوا المَصابِيحَ؛ فإنَّ الفُوَيْسِقَةَ رُبَّما جَرَّتِ الفَتِيلَةَ فأحْرَقَتْ أهْلَ البَيْتِ) رواه البخاري.

وأطهر لنفس المؤمن أنه إذا أراد المبيت توضّأ وضوءه للصلاة، لقول النَّبي ﷺ: (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ) متفق عليه، وهذا من باب الاستحباب، فإنَّه إن كتب على العبد الموت مات متوضئًا، وإن كتبت له حياة كان أصدق لرؤياه وأبعد من تلاعب الشيطان به في منامه وترويعه إياه، كما قاله الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعلى المؤمن أن ينفُض فراشه ثلاث مرات ويسم اللهَ تعالى، وكلّما تركه يستحب له أن ينفضه، فإن الإنسان لا يدري ما يؤوي إلى هذا الفراش من الهوام، وهذا مما وردت به السُّنَّة الصحيحة.

ثم ينام على شقِّه الأيمن؛ فهكذا كان شأن النَّبي ﷺ؛ لأنه أسرع إلى الانتباه، وأصلح للبدن كما يذكر ذلك الأطباء، ولا مانع أن ينام أولاً على شقِّه الأيمن ثم يراوِح بينه وبين الشق الأيسر كما يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولم يكن عباد الرحمن أن يتركوا هذه اللحظات التي يودِّعون فيها يومهم من ذِكْر ربهم سبحانه، بل إنَّ لهم من بركته ما يثلج صدورهم ويشعرهم بتوديعٍ يملأ أطرافهم بالطمأنينة وقلوبهم بالسكينة.

آية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله تعالى، لا تأخذ من وقت المؤمن قبل النوم ولا نصف دقيقة، ولذا لم يكن عباد الرحمن يفرِّطون فيها، ولعلنا بعد أن نقرأ هذه القصة المثيرة في شأن فضلها لن نتركها بعد ذلك بإذن الله تعالى:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ،

مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي؛ فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٥٥] حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ؛ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ) رواه البخاري.

ثم ـ يا عبدالرحمن ـ اجمع كفيك واقرأ فيهما سورة الإخلاص والمعوذتين وانفث فيهما ثم امسح بهما ما استطعت من ظاهر جسدك، وافعل ذلك ثلاثًا كما ندب إلى ذلك النبي ﷺ.

وتيقَّظ أن تلهيك مشاهدة الوسائل الإعلامية عن ذكر ربك عند النوم، فإن النَّبي ﷺ يقول: (من قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تِرَةٌ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

وقد وردت عدة أذكار نبوية عند النوم وبعده، ومن ذلك أنَّ (النَّبيُّ ﷺ إذَا أرَادَ أنْ يَنامَ قالَ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ أمُوتُ وأَحْيَا، وإذَا اسْتَيْقَظَ مِن مَنَامِهِ قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أحْيَانَا بَعْدَ ما أمَاتَنَا وإلَيْهِ النُّشُورُ) رواه البخاري.

وتأمَّل معي هذا الحديث العظيم الذي تشرق فيه الروح المؤمنة وتلهج فيه بالتوحيد، وتودِّع فيها الدنيا على أحسن حال من الإيمان، فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ) رواه البخاري.

وإذا رأى المؤمن ما يفزعه في نومه فعليه أن يبصق عن يساره، ويتعوذ بالله من شرها ومن الشيطان، وليتحول إلى جنبه الآخر؛ فإنَّها لا تضره بإذن الله.

ويكره أن ينام المؤمن على وجهه، فهي ضجعة أهل النار، كما لا يجوز أن ينام الإنسان في مكان ليس له محيط يمنعه من السقوط لو تحرك وهو نائم، ويسن له أن يذكر الله تعالى كلما انتبه في ليله، وليستغفر الله عسى أن يجعله ممن قال فيه: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذَّارِيَات الآية ١٨].

اللهم أحينا حياة عباد الرحمن الطيبين، فإنك سميع مجيب.

١٠٥

(مُشْفِقُون)

حينما يوفق الله المسلم لعمل الصالحات فإن هذه نعمة كبرى وفضل عظيم يحمد اللهَ عليه ويسأله الثبات والاستزادة منه، غير أن شعورًا ينبغي أن ينتاب العبد الصالح في نهاية كل عمل صالح يقدمه بين يدي ربه، ذلك هو شعور الإشفاق من عدم القبول، فلا ينبغي أن تطغى الفرحة بالعمل على الإشفاق من عدم قبوله، بل ينبغي أن يبقى المرء في حذر، يستجلب بسببه الرحمة من خالقه، فيخشى ألا يكون فيه من الفائزين، ويستمطر الرحمات من الرحيم الرحمن حتى يعمه بكرمه فينجيه من كرب النار ويكرمه بالرضا والجنَّة.

الإشفاق وصف من أوصاف أهل الجنَّة الذين حكى الله تعالى حوارهم اللطيف وهم فرحين بين يدي ربهم فقال سبحانه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور من الآية ٢٥ الى الآية ٢٨].

مم كانوا يشفقون؟

إنَّهم يشفقون من أن تصير أعمالهم إلى ضياع، فيكونون ممن قال الله فيهم: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان الآية ٢٣]، وذلك حينما تكون الأعمال على غير هدى الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ. لا قدَّر الله..

وإنَّهم يشفقون أن تُرَدَّ أعمالهم في وجوههم، فقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون من الآية ٦٠

الى الآية ٦١]، فقالت: أَهُمِ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ، قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) رواه الترمذي والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وإنَّهم يشفقون أن تضيع أعمالهم المستقبلية إما بتركها وإما بالمعاصي التي تحبط العمل وتفرقه، فيذهب خسرانًا وضياعًا، فيكون حاله كحال من قال الله تعالى فيه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٦٦].

فقد قَالَ عُمَرُ ﷺ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: (فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٦٦]؟ قَالُوا: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ، فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المؤمنين! قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي: قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ، لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ) رواه البخاري.

وإنَّهم يشفقون على أوقاتهم أن تضيع في الهدر أو المعاصي أو تشدهم الشبهات أو توقعهم الشهوات في المحرمات.

وإنَّهم يشفقون على أنفسهم من العذاب الأخروي، ولسان حال أحدهم يقول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [الأَنْعَام الآية ١٥].

وإنَّهم يشفقون من عذاب الله الدنيوي بكل أشكاله وصوره، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، قَالَتْ:

وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا) رواه البخاري.

وإنَّهم يشفقون من أن تكون أعمالهم للناس رياء وسمعة، فهذه هي المهلكة، حينما لا يكون عمله خالصًا لوجه الله تعالى، فيصيبه العجب بنفسه، ويباهي بها غيره، ويحدِّث بها الناس زهوًا وافتخارًا، ويستدعي من الناس المدح والثناء، وإذا مدحوه فرح بذلك ورغب في المزيد! فالله الله ماذا أبقى لنفسه في الآخرة، يوشك أحدنا أن يأخذ حظه في الدنيا كاملاً فيزول مع زوالها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تأمل معي شفقة أبي هريرة ﷺ حينما أراد أن يحدث بهذا الحديث حيث أغمي ثلاثًا من شدة إشفاقه منه ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ) رواه مسلم.

وإنَّهم يشفقون من سوء الخاتمة، فالأعمال بالخواتيم، والنَّبي ﷺ يقول: (إِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) رواه البخاري.

وعن جبير بن نفير ﷺ قال: ((دخلت على أبي الدرداء ﷺ منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد تعوذ من النفاق، فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفرا ثلاثًا، من يأمن البلاء! من يأمن البلاء! والله إن الرجل ليفتتن في ساعة، فينقلب عن دينه)).

أسيرُ الخطايا عندَ بابك واقفٌ   على وَجَلٍ مما به أنتَ عارفُ
يخافُ ذنوبًا لم يَغِبْ عنكَ غيبُها   ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي   ومالك في فصلِ القضاءِ مخالفُ
فيا سيِّدي لا تُخْزِني في صحيفتي   إذا نُشِرَتْ يومَ الحساب الصحائفُ

فإنَّ عباد الله الصالحين يشفقون أيضًا من تقلُّب قلوبهم من الهداية إلى الضلال، فيبقون في حراسة دائمة لجوارحهم أن تقع في الفجور، أو تمس المعاصي، أو تقصِّر في الطاعات، وإذا ما رأوا أهل الغواية حمدوا الله على الهداية، وسألوا لأنفسهم الثبات ولهم الاستقامة.

لقد أيقن الصالحون أنَّ قلوبهم تتقلب، وأنَّ أنفسهم تحتاج إلى تربية دائمة على الطاعة، وأنهم في جهاد نفسي يتعاركون فيه مع مدلهمات الفتن ما ظهر منا وما بطن،

يسيرون على هدي النَّبي ﷺ الذي كان يشفق على نفسه وأمته ويردد دعاءً عظيمًا يقول فيه: (يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك) رواه أحمد وحسَّنه الألباني.

وقد وضعوا أمام ناظرهم ذلك المثل النبوي الذي يقول فيه النَّبي ﷺ: (لَقَلْبُ ابنُ آدمَ أشدُّ انقلابًا مِنْ القِدْرِ إذا استجمعتْ غليانًا) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

والمثل النبوي الكريم الذي قال النَّبي ﷺ فيه: (مثلُ القلبِ مَثلُ الرِّيشةِ، تُقلِّبُها الرِّياحُ بِفَلاةٍ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

والإشفاق الإيجابي هو الذي يحثك على مزيد العمل، واتباع هدي النَّبي ﷺ فيه، وإخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن محبطات الأعمال من النفاق والرياء وسيء الأخلاق.

اللهم اجعلنا لك شاكرين، لك ذاكرين، لك تائبين، وعلى دينك ثابتين، واجعلنا من عبادك الصالحين المصلحين واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، إنك سميع مجيب.

دُرُوبُ الحَذَر

١٠٦

(لا يَتَّبِعُونَ الهَوى)

ما الذي ميَّز عباد الرحمن عن غيرهم وجعلهم شامة بين الخلق، واستحقوا هذا التكريم الإلهي؟

إنَّه سلوك المنهج الرباني الواضح، من دون التفاتٍ إلى الهوى المضل، الذي يخطه الشيطان لأتباعه، فهم بهذا السلوك في حماية من كيد الشيطان وإغوائه، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحِجر من الآية ٣٩ الى الآية ٤٢].

ماذا نقصد باتباع الهوى؟

قال الكفوي: الهوى ((ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع)).

فالنفس حينما تنقاد إلى ملذاتها العاجلة، وتنساق نحو شهواتها المحرمة، من دون تبصُّر بآثارها الوخيمة، أو تعقُّل بما تؤديه من انحرافات عقدية أو نفسية أو فكرية أو خلقية، هنا تقع النفس في فخ اتباع الهوى، الذي ليس وراءه إلا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

يا له من بُعد عن الله تعالى، وبعد عن ولايته والاستنصار به حينما يُسلم المرء نفسه للهوى، وشتان بين الهدى والهوى، قال تعالى محذِّرًا نبيه من سلوك طريق أهل الهوى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البَقَرَة الآية ١٢٠].

بل إنَّ اتباع الهوى من أشد أنواع الظلم للنفس، فمن كان يستقبح الظلم في حق الآخرين فلئن يظلم نفسه أشدُّ قبحًا، قال الكريم سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البَقَرَة الآية ١٤٥].

ماذا بقي لأهل الهوى المغرمين بالشهوات، المبهورين بأضواء الفتن، المعرضين عن أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وهم كُلَّما قيل لهم: قال الله تعالى أو قال رسول الله ﷺ، قالوا: النفس وما تهوى! لقد غفلتْ قلوبهم، وفرطت أمورهم، قال سبحانه في وصيته لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكَهْف الآية ٢٨].

لقد فَقَدَ أهل الأهواء الوقاية المانعة لهم من غضب الله تعالى وعذابه حينما قدَّموا ضعف نفوسهم على قوته وحكمته، يأمرهم بالحق فلا يرتضون إلا الباطل اتباعًا للهوى، فأنى لهم الوقاية! هلاَّ استمعوا إلى نداء الله تعالى لحبيبه ﷺ حينما قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ

أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ [الرَّعْد الآية ٣٧].

ولقد استعاذ النَّبي ﷺ من الهوى المضل، فقال: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ) رواه الترمذي وحسَّنه، وصحَّحه الألباني.

ولقد خشي النَّبي ﷺ على أمته من مضلات الهوى فقال: (إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى) رواه أحمد وابن أبي عاصم، وصحَّحه الألباني.

إن شيئًا يخشاه النَّبي ﷺ على أمته، ويستعيذ بالله منه، أمرٌ ليس بالهين؛ وما ذاك إلا لأنه خفي، يوافق النفس الأمارة بالسوء، ويزيِّن الباطل، ويمنِّي بالعاجل الفاني، ويُغفِل عن الآجل الباقي.

انظر كيف يعبث الهوى بشخصية الإنسان وفكره، حتى يقلبه رأسًا على عقب، وتنقلب عنده الموازين، لقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كيف يكون ذلك فقال: ((صاحب الهوى يعميه الهوى ويصمُّه، فلا يستحضر ما لله ورسوله ﷺ في الأمر ولا يطلبه أصلاً، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، بل يرضى إذا حصَّل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصَّل ما يغضب له بهواه، فليس قصده أن يكون الدين كلُّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحميَّة لنفسه وطائفته أو الرياء، ليُعظَّم هو ويثنى عليه، أو لغرض من الدنيا)) نسأل الله السلامة.

وإني لأتساءل: لماذا هؤلاء الناس يقدِّمون أهواء نفوسهم على شرع ربهم، وقد علموا أن وراءهم حساب وعقاب، وجنة ونار!

الجواب: هو مرض القلب بالهوى، فقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الهوى شرُّ داءٍ خالط قلبًا)).

وماذا وجد أهل الأهواء غير الشؤم في الدنيا، والكآبة في النفس، والكدر في الحياة، والخزي في التبعات، والوعيد في الآخرة، قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إنما سمي الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه)).

إنَّ الهَوانَ هو الهوَى قُلِبَ اسمُه فإذَا هَوِيْتَ فقدْ لَقِيْتَ هَوانَا

لقد تفرَّد هشامُ بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيتٍ واحدٍ فحسبٍ قال فيه:

إذا أَنْتَ لم تَعْصِ الهوَى قَادَك الهوَى إلى كُلِّ ما فيهِ عليكَ مَقَالُ

دعونا نضع أيدينا على العلاج، لنقول بأنَّه: التفكر أولاً في عواقب الهوى، فكم فوَّت الهوى من فضيلة، وكم أوقع في رذيلة، وليوازن صاحب الهوى كم سيجني من غرضٍ بسبب هواه، وكم سينال من إثمٍ بسبب هواه.

وليعلم أن آثار الهوى على الآخرين جسيمة، وإنَّ من أسوئها تجاسره على حقوق الناس، وامتهانه لهم وما تتركه من ندم وحسرة وعواقب دنيوية وأشد منها أخروية، ولم تنشأ الفِرَق الضالة كالخوارج وأمثالهم إلا من هذه الحفرة المظلمة من الهوى، مما جعلهم لا يرعون حرمة للأنفس ولا للممتلكات، فضلوا وأضلوا، والعياذ بالله.

وفي المقابل: لنتأمَّل حياة عباد الرحمن الخيِّرين، كيف حازوا الذكر الجميل في الدنيا، وحصلوا على سلامة الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وصاروا في عداد الفائزين في الآخرة، إنها الإرادة الحازمة على هذه النفس، والوسطية في الأمر كلِّه، لقد قادوها نحو الطريق الحق، ولم يتركوها تقودهم نحو الردى.

إِذَا مـَا رأيـتَ المرءَ يقتـادُه الهوَى ... فقـد ثكلتـْهُ عنـدَ ذاكَ ثواكِلـُه
وقد أَشْمَتَ الأَعْدَاءَ جَهْلاً بنَفْســِهِ ... وَقـَدْ وجـدَتْ فيـهِ مَقـَالاً عَواذِلـُه
وما يردَعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من النـاسِ إلا حـَازِمُ الرأيِ كـامِلـُه

أسأل الله تعالى أن يقينيا شر أهوائنا، وأن يجعلنا من المتبعين لهدي خير المرسلين، إنه سميع مجيب.

١٠٧

(لا يَأْمَنُونَ مَكْرَ اللَّهِ تَعَالَى)

لا ريب أن الأمن يحتاجه كلُّ مخلوق، وصحيح أن الأمن حاجة فطرية للمرء، بها تقوم أساسيات الحياة، وبها ينهض بعمله، ويسير في طريقه، ويفرغ لما استُخلِف فيه في الأرض.

ولكن ليس كلُّ أمنٍ محمود، فهناك أمنٌ لا ينبغي للمسلم أن يقع فيه، أو يستقرَّ في قلبه، ألا هو الأمن من مكر الله تعالى.

ومكر الله تعالى: صفة حقيقية على ما يليق بجلال الله وكماله، ومن لوازمها: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه، وإمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا، واستدراجه بالطاعات فيتوهم أنها مقبولة وهي مردودة، واستدراجه بالنعمة والصحة، أو الأمن من عذابه وجزائه، ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((من وُسِّع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مُكِرَ به فهو مخدوعٌ عن عقله)).

لقد خسر مَنْ أَمِنَ مكر الله فلم يتب من ذنوبه، ولم يتوقف عن عصيانه، بل غرته دنياه، وأعمته صحته، وخدعه شبابه، وتمادى في فجوره، حتى أشغله لهوه عن ربه، وأصمتته شهوته عن نداء الحق، وكأنَّه لن يقف بين يدي ربه ليحاسبه ويسأله عن الصغيرة والكبيرة، وكأنَّه لن يمر به على الصراط، أو كأنَّه لن توضع أعماله في الميزان الذي سيزن حتى ثقل الذرة من العمل!

لقد خسر حقًا من يأمن من مكر الله، تأمَّل هذه الآيات التي تقرع القلوب قرعًا؛ لتوقظها من غفلة أمنها من مكر الله، قال الحكيم سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف من الآية ٩٦ الى الآية ٩٩].

والخسران الذي ينتظر الآمن من مكر الله تعالى ليس فقط في الآخرة، بل حتى في الدنيا، فمن الذي يأمن ألا تُخسف من تحته الأرض، أو يَسقطُ عليه كسفًا من السماء، أو يلفه الموت بالغرق أو الهدم أو الحرق، أو تنتابه الجوائح وتلم به الخسائر، أو قل ما شئت من المصائب، وأعظمها أن يستحوذ عليه الشيطان فيصده عن الهداية، أو يحمله على الكفر!!

يا للسيئات! كم لها من مكر، وكم هو الله غفور لذنوب عباده رحيم بخلقه، ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النَّحل من الآية ٤٥ الى الآية ٤٧].

هذا رسول الله ﷺ الذي غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول عن نفسه ﷺ: (وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) رواه البخاري.

وأشد ما يتركه الأمن من مكر الله جرأة العبد على ظلمه لنفسه وللناس، وتراه يستحقر الذنب، ولا يحاسب نفسه على الخطيئة، ولا يتعظ بالمصيبة، ولا تؤثّر فيه الزواجر، ولا يلين قلبه لواعظ.

قال ابن مسعود ﷺ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) رواه البخاري.

وإن معنىً خفيًا ربما استحوذ على المرء من حيث لا يشعر، وهو أنَّه يتمنَّى التوبة من الله تعالى، ويتمنَّى المغفرة والفوز بالجنَّة، ولكنَّه يقول ذلك وهو قائم على المعصية، أو وهو يعاقر الفجور! فأين التوبة النصوح، وأين الأمن من مكر الجبار!

قال إسماعيل بن رافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من الأمن لمكر الله: إقامة العبد على الذنب يتمنَّى على الله المغفرة).

إنا علينا _ أيها الأفاضل _ أن تدعونا النعم إلى حمد الباري عليها، واستعمالها فيما يرضيه ويسعد خلقه، وألا يطغينا الفرح بها حتى ينسينا من تفضَّل بها علينا، وأن نعلم يقينًا أنَّها لا تدوم، وأن زيادتها ليس بالطغيان ولا بالكفران، وإنما بعبادة الواحد الديان، وعدم الأمن من مكر الرحمن.

قال هشام بن عروة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كتب رجلٌ إلى صاحبٍ له: إذا أَصبْتَ من الله شيئًا يسرُّك، فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر؛ فإنَّه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ الله: ((المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن)).

وإذا كان الخوف من الله تعالى من سمات عباد الرحمن، فإن الأمن من مكره من صفات الفاسقين المارقين، الذين لا يراقبون الله تعالى في تصرفاتهم، فيرتعون في الدنيا بالفجور حتى يفجأهم الموت، فتستيقظ قلوبهم، ولكن بعد فوات الآوان.

وإن الأمن من مكر الله أمر خفي، يتوارى في القلوب، ويعشش في الصدور، ولا ينفض غباره إلا النصح في الله ولله، فلا ينبغي أن تمضي الأيام ونحن لا نتحدث عن نِعَم الله تعالى وكيف استعملناها، ولنتذكَّر أنَّها ربما كانت استدراجًا، والله المستعان.

فما أروع تذكُّر الآخرة، وما أجمل أن تحيا القلوب بالذِّكر، وأن تهنأ النفوس بالشُّكر، وألا تطغى بالنِّعَم، وأن يكون فرحها فرحًا بفضل الله تعالى، ممزوجًا بالخشية، وعدم الأمن منه، حتى يلقى العبد ربه وهو راضٍ عنه غير غضبان.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا له شاكرين، وله ذاكرين؛ فإنَّه سميع مجيب.

(١٠٨)

(لا يَبْتَدِعُونَ فِي الدِّيْن)

إنَّ من فضـل الله علينا وعلى الناس أننا أتباع ملةٍ كاملة، كمَّلها العزيز الكريم فقال سـبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة الآية ٣].

وما ترك النَّبي ﷺ شيئًا من أمر الدين إلا بيَّنه، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: (قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ، قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ؛ لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ) رواه مسلم.

فشـريعةٌ كاملة، ونبيٌ ناصـحٌ أمين، وقرنٌ من الأصـحاب الأمناء يختارهم الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ ليبلغوا أمانة الدعوة والعلم والشرع عنه إلى الأمم، لم يجعل لنا بعد هذا أن نبتدع في دينه ما ليس منه، ولا أن نقول هذا من دين الله وهو ليس من دينه؛ فإن الابتداع في الدين افتراء وأيُّ افتراء، كان عباد الرحمن أبعد ما يكونون عنه، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النَّحل الآية ١١٦].

إن البدعة هي كما يُعرِّفها الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشـرعية يُقصـد بالسـلوك عليها المبالغة في التعبد لله سـبحانه أو ما يقصـد بالطريقة الشرعية)).

فمهما كان قصد المبتدع من بدعته في الزيادة على دين الله تعالى من إرادة الأجر والمثوبة والتقرب إلى الله تعالى فهذا مردود عليه؛ لأن الله لا يعبد إلا بما شرع، وإلا لتعدد الشرع، ولكثرة الاختراعات التعبدية التي لا حصر لها، ولأصبح الشرع من صنع البشر، ولم يكن إلهيًا ربانيًا.

ومن هنا حذَّر النَّبي ﷺ من الابتداع في دينه خوفًا على أمَّته من الانحراف والزيغ إلى أن يبتدع المبتدعون للناس من الدين أمورًا ليست منه، فيضيفون على عباداتهم عبادات، وعلى تكاليفهم تكاليف، فتضيق نفس العبد بكثرتها، حتى لتجد المبهورين بالبدعة قد أخذت البدعة من أوقاتهم حتى تزاحم التكاليف الشرعية الصحيحة، فيقدِّموا البدعة على السُّنَّة، والمخترع على المتبع، من هنا قال الحبيب ﷺ: (إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) رواه مسلم.

ولقد (جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي) رواه البخاري ومسلم.

ومن يبتدع للناس البدعَ شيطانٌ يدعون الناس إلى سبل الضلالة، وينحرف بهم عن طريق السُّنَّة، وهذا ما وصفهم به النَّبي ﷺ في حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ أنَّه قَالَ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ

شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام الآية ١٥٣]) رواه أحمد والحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وإني لأسأل كل مبتدعٍ وبكل عجب:

أليس في شريعة الإسلام المنزَّلة من عند الله كفاية؟

أليس فيما بيَّنه النَّبي ﷺ كفاية؟

هل قمنا بكل ما أوجب الله علينا وما سنَّه النَّبي ﷺ لنا من أعمال وفضائل وبقي لنا وقتٌ نبحث فيه عن زيادة أعمال لنخترعها ونعمل بها؟

لماذا لم يفعل صحابة رسول الله ﷺ هذه الأمور المبتدعة؟

هل سنكون نحن خيرًا منهم أو أعلم منهم بما يحب الله ورسوله ﷺ؟

أو أن هذه المستحدثات فعلوها ولم ينقلوها؟ وقد رضيهم الله لرسوله ﷺ ولتبليغ رسالة الإسلام إلى الناس!

فواعجبًا ممن يتذوق طعم البدع ويستلذُّها ويحببها إلى الناس، وهو يسمع قول الحبيب ﷺ: (مَن أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما ليسَ فِيهِ، فَهو رَدٌّ) متفق عليه.

إننا لسنا بحاجة إلى دينٍ غير دين الله، فدين الله لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنَّ من يأتي بغير ما ورد فيه فقد أورد نفسه المهالك.

تأمَّل مصير أهل البدع كيف أَخبَرَ به الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ((أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

مَسْعُودٍ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَجَاءَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَعْدُ؟ قُلْنَا: لَا، فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِلَّا خَيْرًا، قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ، قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ وَانْتِظَارَ أَمْرِكَ، قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ! ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ، قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ؛ فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ مُتَوَافِرُونَ وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ، قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ» رواه الدارمي.

فيا عبدالرحمن، تعلَّم سُنَّة النَّبي ﷺ واتبعها ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا من عبادك المتبعين لا المبتدعين، فإنك سميع مجيب.

١٠٩

(لا يَنْتَهِكُونَ حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى)

إن العبد الصالح هو الذي يعلم يقينًا بأن هناك حدودًا لا يجوز له الاعتداء عليها، وحرماتٍ لا يحق له انتهاكها، حتى ليجعل بينه وبينها وقاية، بل إنه يرى النار دونها فلا يقترب منها، ويتذكَّر خالقه حينها فلا يجرأ عليها، ولذا ترى الصالحين في هناء وسعادة حينما بعدوا عن حفر المعاصي، وقدروا لله قدره في نفوسهم وفي تعاملهم مع غيرهم.

أما المنتهك لحرمات الله: فهو الذي يبالغ في خرق محارم الشرع وإتيانها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لم يقدر الله حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيَّعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم من طاعته، فلله الفضلة من قلبه وقوله وعمله، هواه مقدَّم في ذلك كلِّه، المهم أنَّه يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه وهو في قبضته، وناصيته بيده، ويعظم نظر المخلوق إليه، وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه، يستحي من الناس ولا يستحي من الله، ويخشى الناس ولا يخشى الله، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدَّمه على كثيرٍ من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه قام قيامًا لا يرضاه مخلوقٌ من مخلوقٍ مثله، وبذل له من ماله ما يستحي أن يواجه به مخلوقًا مثله، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه! وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والرجاء!)).

ما أشد جرأة من يخطو ولو خطوة واحدة إلى محارم الله، فإن البشر ـ وهم الضعفاء أمام قوة الباري سبحانه ـ لا يرضى أحدهم أن ينال عرضه أو ماله أو حاجته التي تخصه، فكيف بالله سبحانه!!

لقد كان النَّبي ﷺ أشد ما يكون حينما يرى أو يعلم بحرمةٍ لله قد انتهكت، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا) رواه البخاري.

وإن من أشدِّ ما يحمل الناس على انتهاك الحرمات الشُّح؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) رواه مسلم.

ومن أخفى الصور في انتهاك الحرمات، أن يصد المرء عن المحرمات أمام الخلق، ولكنه إذا خلى بها انتهكها، فلا يكون في قلبه تقدير لخالقه سبحانه الذي يطلع عليه ويعلم حاله.

قال النَّبي ﷺ: (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا) رواه ابن ماجه وقال في الزوائد: إسناده صحيح.

وأيُّ خير سيجمعه المنتهك لحرمات الله وحرمات خلقه، وهو يصلي وينال من أعراض الناس، ويتصدق ويأكل أموال اليتامى، ويصوم ويشتم غيره ويستنقصه!

هذا هو الإفلاس الحقيقي، قال النبي ﷺ: (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) رواه مسلم.

ولنعلم أن انتهاك المحارم عواقبه وخيمة على المنتهِك إذا كان فردًا، وعلى المجتمع إذا تواطأ على انتهاك المحارم، والله لا يبالي ربنا سبحانه أن يبدل نعمته نقمًا حينما يجاهر بالمعصية ولا يقدر له قدره.

قف معي هذه الوقفة العظيمة التي وقفها أبو الدرداء ﷺ حينما فتح الله على المسلمين قبرص، فبكى بعضهم إلى بعض، قال جبير بن نفير ﷺ: ((فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير؛ ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى)).

وإني لأسأل أما يخشى دعاة الشرك والكفر والابتداع والانحلال الذين لا يقيمون لحرمات الله في قلوبهم قدرها حتى ألفوها ووقعوا فيها وهلكوا بسببها، وأرادوا أن يهلكوا غيرهم ومجتمعهم بها، أما يخشون عذابًا يعمهم، فينتقم الله لنفسه حينما تعدى الخلقُ حرماتِه!

فالأمر جلل، ونتائجه أعظم مما يتخيله المنتهك للحرمات، وهنيئًا لعباد الرحمن الذين عرفوا لله قدره، ولشرعه حدوده، واستعذبوا الحلال، وسعدوا بالطاعات، وابتعدوا عن المحرمات، فسعدوا في الله وبالله أيما سعادة.

اللهم اجعلنا من عبادك السعداء، إنك سميع مجيب.

١١٠

(لَا يَزْنُونَ)

الطهارة في الأعراض طريقٌ من طرق الجنة، ضمنه الصادق المصدوق ﷺ فقال: (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ) رواه البخاري.

وحينما تعمى القلوب، ويلتفُّ حولها الران، وتغطيها الشهوة العارمة، لا تبالي إلا بإرضاء الشيطان بالوقوع في فاحشة الزنا، ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المُطَفِّفِين للآية ١٤]، إنها خطواتٌ بغيضة، بدأت من تلك اللحظة التي أطلقت العين زمامها لترى شناعة الفواحش عبر أي وسيلة لا تعرف قدر الحياء ولا تقيم له وزنًا!

لقد امتدح الله تعالى عباد الرحمن بأنهم لا يزنون فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٨].

بل إنهم لا يقتربون من الزنا؛ استجابة لأمر الله تعالى حيث قال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإِسْرَاء الآية ٣٢].

الزنا ـ نعوذ بالله منه ـ لذةٌ فانية قصيرة، تعقبها حسراتٌ طويلة؛ ظلمةٌ في القلب، واكتئابٌ نفسي، وانطواءٌ على الذات، وسياطٌ تجلد خاطره ليل نهار، وشياطين الإنس تضحك عليه، وفضيحة في الدنيا قبل الآخرة.

ليتذكَّر من قارب الوقوع في هذه الفاحشة عظمةَ الله، وقدرة الله عليه، كم أمهله ولم يهمله، كم حلم عليه ولم يتركه سدى، هل تصور أنه ربما انتزع روحه من جسده وهو على مثل هذه الحال! الروح التي كان يجب أن تموت على الإيمان، تموت على الفاحشة! رباه لطفك أحسن خاتمتنا في الأمور كلِّها.

وإن لم يتذكَّر خالقه واطلاعه عليه، فليتذكَّر أن له أبًا وأمًا كان يأملان فيه الصلاح، ربَّياه ليرفع رأسيهما بهدايته واستقامته، فما باله بهذه الفاحشة ينكس رأسيهما، ويسوِّد وجهيهما؟ هل جزاؤهما أن يعود إليهما محمَّلاً بالأسقام والأوجاع التي لا دواء لها! ليبثَّ سمومه بين أحب الناس إليه!

يقول المختصون: ((ويعتبر الاتصال الجنسي غير المشروع السبب الرئيس لانتقال الفيروس، ويكون احتمال الانتقال أكبر في اللواط، ولكن اتضح أنَّ الزنا يؤدي أيضاً دوراً كبيراً في انتقال الفيروس، قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء الآية ٣٢])).

وفي دراسة أخرى تقول: ((إن ٩٥٪ من المصابين بالإيدز في العالم انتقل لهم الفيروس عن طريق الاتصالات الجنسية مع أشخاص مصابين وكانت ٨٥٪ منهم من الفئة الشبابية بين سن ١٥ ـ إلى ٤٩ عامًا)).

تَفْنَى اللذاذةُ ممنْ ذاقَ صفوتَها ... مِنَ الحرامِ ويبقَى الذُّلُّ والعارُ
تَبْقَى عَواقِبُ سُوءٍ في مَغَبَّتِها ... لا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعدِها النَّارُ
وما يردَعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى ... من الناسِ إلا حَازِمُ الرأيِ كامِلُه

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: (إِنَّ فَتًى شَـابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ النبي ﷺ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُـولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَـعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَـيْءٍ) رواه أحمد، وصحَّحه الألباني.

ما أسرع مرور لذائذ الدنيا، لكن وراءها الآخرة، التي توعَّد الله فيها الزناة بتنّور نارٍ في جهنَّم، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ ﷺ قَالَ: (سَأَلَنَا رسول الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ قُلْنَا: لَا، قَالَ: لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَـةِ، قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ؛ أَعْلَاهُ ضَـيِّقٌ وَأَسْـفَلُهُ وَاسِـعٌ، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا [فبيَّن له بأنهم] الزُّنَاةُ) رواه البخاري.

فيا أيها الشـاب النبيه، يا من تحب ربك ونبيك ﷺ ودينك، إذا أمرتْك نفسُـك بالسـوء أو بالفحشـاء فذكِّرها بقول النبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) رواه البخاري.

التفت بقلبك وقالبك إلى حياة السـعداء من عباد الرحمن، كيف يعيشـون عيشـة الهناء والسـعادة، مع أنفسـهم وأهليهم ومجتمعهم حينما لم يلطخوا أعراضـهم بالفحش،

ولم يدنسوا أرداهم بالسوء، ألا تحب أن تسعد معهم؟ ألا تحب أن تكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المُؤْمِنون من الآية ٥ الى الآية ٧].

والفرصة أمامك سانحة، وباب التوبة أمامك مفتوح، يبدِّل الله به السيئات إلى حسنات، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠﴾ [الفُرْقان الآية ٧٠].

استفق الآن، وانهض من رقدتك، وانفض غبار المعصية عن قلبك، فإن فيه بذرة الإيمان، اسقها بالصلاة والبر والخير والطاعات، وترفَّع عن مجالس المنكرات والمخدرات، والمسكرات والخبائث، واحفظ نظرك وسمعك عن الحرام؛ فإن سماع الحرام والنظر إليه بريد الزنا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) رواه البخاري .

وضع لنفسك هدف الزواج الحلال، وخطط له، واجمع له من مالك الحلال ما يغنيك الله به عن الحرام، واشغل وقتك بالخير ونفع الناس وخدمة دينك ووطنك، وزاول الرياضة المباحة، واستعن بعد الله بالأصدقاء الطيبين، وكن قويًا في إرادتك لقطع كل صلاتك مع رفقاء السوء الذين يزيّنون لك المعصية، أو يشجعونك عليها، واعلم أن لك ربًا رحيمًا حليمًا كريمًا يقبل التوب، ويعفو عن الخطيئة.

اللهم دلنا على ما يرضيك عنَّا، واعف عنَّا وسامحنا، إنك سميع مجيب.

(١١١)

(لا يُهْمِلُونَ صَلاتَهم)

هل لدينا شأن أعظم في عبادتنا من الصلاة! هل تصفو نفوسنا إلا بالصلاة! هل تطمئن قلوبنا بدون الصلاة! وما حالنا إذا علمنا عن شخص لا يصلي! ألا نأسى لحاله! ونخشى على مصيره! كم يغالبني الحزن إذا اشتكت إحداهن من زوجها فقالت: إنه لا يصلي، وكم أَرِقُّ لحال الوالد حينما يخبرني بأن ولده لا يصلي، فماذا بقي من الدين إذا ضُيِّعَت الصلاة!

إن ألوانًا قاتمة من تضييع الصلاة كل واحد منها يزيد في ظلمة القلب ووحشة النفس، فإن هناك من يصليها ولكنه يؤخرها عن وقتها، وهناك من يصليها ولكن بتثاقلٍ وتكاسل، وهناك من يصليها ولكن لا يعرف صفتها على وجهها الصحيح، وهناك من يصليها ولكن من دون نية خالصة لله تعالى، وهناك من يصليها من غير طمأنينة ولا خشوع، وهناك من يصليها تارة ويتركها تارة تهاونًا بها، وهناك من يتركها جحودًا بها، نعوذ بالله من ذلك.

قال سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

[البَقَرَةِ الآية ٢٣٨].

أرعِ سمعك لكلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن الصلاة: «لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى الآفاق: إن

أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه)).

وإن الله تعالى توعَّد من تركها بأصناف من العذاب لا قِبَلَ للعبد بها، فهل تذكَّر من ضيَّع الصلاة قولَه سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مَرْيَم الآية ٥٩] .

وتوعَّدهم بسقر فقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾

[المُدَّثِّر من الآية ٣٩ الى الآية ٤٣].

وتوعَّدهم بويلٍ فقال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [المَاعُون من الآية ٤ الى الآية ٥].

وإنها العهد الذي بين الإسلام وبين الكفر، فاحذر ذلك؛ فالمسألة في غاية الخطورة، قال النَّبي ﷺ: (إنَّ العَهْدَ الذي بيننا وبينهمُ الصَّلاةُ، فمَنْ ترَكَها فقد كَفَر) رواه النسائي وصحَّحه الألباني.

وإنَّ تركها طريق إلى غضب الله تعالى، فمن منا يريد أن يلقى الله وهو عليه غضبان! نعوذ بالله من ذلك.

قال النَّبي ﷺ: (مَنْ تَركَ الصَّلاةَ لقيَ اللهَ وهو عليه غَضْبَان) رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن.

واليوم نجد بعض الناس _ هدانا الله وإياهم _ يتشاغلون عن الصلاة بالنوم تارة، وبالأعمال تارة، ويجعلون ذلك عذرًا لهم في الاستمرار على تفويت بعض الفرائض كالعصر والفجر أو غيرهما، وإننا لا نشك أبدًا أنه لو كان لديهم حاجة من حاجات الدنيا المادية لهبوا إليه مسرعين، ولم يعتذروا بأي شيء! فأين ذلك في شأن الصلاة! بل أين هم من حديث رسول الله ﷺ: (من فاتتْهُ صلاةُ العصرِ فكأنَّما وُتِرَ أهلَهُ ومالَهُ) متفق عليه.

وأين هم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا يَؤُمُّ النَّاسَ، ثُمَّ آخُذَ شُعَلًا مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لَا يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ بَعْدُ) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري.

لا يزال جملة من الناس يعيش الضنك النفسي والضيق الروحي والاكتئاب مما يلم به من نوائب الحياة، وتراه يبحث هنا وهناك عن الحلول، ولكنه _ للأسف الشديد _ أبعد ما يكون عن الحل الأصيل وهو: الصلاة، يبذل كل وسيلة من وسائل الدنيا، ويضل عن طريق السعادة الحقيقي، وعن سبيل الراحة الباقية في الدنيا والآخرة!

ما لهذا لا يتذكر قول النَّبي ﷺ: (يَا بِلالُ أَرِحْنَا بالصَّلاة) رواه أحمد ورجاله ثقات.

هل نما إلى سمعه قول علي بن أبي طالب ﷺ: ((من ترك صلاةً واحدةً متعمدًا فقد برئ من الله، وبرئ الله منه)).

فيا للعجب من أناس قد ضربوا موعدًا مع الصَّلاة ولكن إذا بلغوا الأربعين! أو اختاروا صلاة الجمعة دون غيرها أن يصلوها فحسب! أو إذا كانوا مع غيرهم صلوا وإذا انفردوا تكاسلوا، فما أبلغه من زهد في أجور وأرزاق عظيمة تفوتهم، وما أبعدهم عن الله، كيف يحتملون متاعب الدنيا متتالية عليهم لا تقطعها الصلاة! ماذا سيورِّثون لأبنائهم إن

لم يورِّثوا لهم الحرص على الصلاة! أيُّ نعمة يتقلبون فيها وهم لا يشهدون الصلاة! كيف يأكلون من رزق الله وهم لا يصلُّون، وكيف يرفعون أيديهم بطلب ما يحبون وهم لا يصلُّون، وكيف يرجون السلامة من الأمراض والحوادث والجوائح وهم لا يصلُّون!! وماذا سيفعلون بالسيئات المتراكمة وهم لا يكفِّرونها بالوضوء والصلاة!

استمع إلى هذه الوصية ولنحاسب أنفسنا بها: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود ﷺ قَالَ: ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ)) رواه مسلم.

اللهم اهد قلوبنا وقلوب أحبابنا إلى الصلاة، وتقبلها منا يا رب العالمين، فإنك سميع مجيب.

١١٤

(لا يَعُقُّونَ والدِيهِم)

إذا كانت غاية البِرَّ طيبة ألا هي رضا الرحمن والفوز بالجنان، فإنَّ العقوق غايته بئيسة وحسرته في الدنيا والآخرة.

هل أدرك العاق لوالديه أنَّه من أهل اللعنة التي وصف الله أصحابها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٧].

أم هل علم العاق أن العقوق من أكبر الكبائر؛ فإن النَّبي ﷺ قال: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ) متفق عليه.

وإنَّ للعقوق أشكالًا قبيحة لابد أن نتعرَّف عليها حتى نقي أنفسنا منها، وإنَّ من أشهر مظاهره ما يلي:

أن يفعل الابن ما يبكي والديه حزنًا أو يقول قولاً يحزنهما، كيف والله قد نهى عن (أُفٍّ)، وأمر بالقول الكريم، فقال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الإِسۡرَاء الآية ٢٣].

اختر أيها المؤمن أجمل العبارات، وأرق الكلمات وقدمها بجناح الذل بين يدي والديك مهما سمعت منهما ما يجرحك، فكل شيء لك مكتوب، إما لك وإما عليك، وتذكر أنَّهما والداك.

ومن العقوق أيضًا: زجرهما ورفع الصوت عليهما، فما أعتا هذه النفس التي تتطاول على الوالدين، يا للمصيبة العظيمة، ويا للجرم الكبير، والله لو كانا مشركين ما يحق لك ذلك، فكيف بمن ربياك على الإيمان، وعلماك الإسلام، ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العَنكَبُوت الآية ٨].

وصورة تتكرر بألوان قاتمة مظلمة، تقشعر منها جلود العقلاء فكيف بالمؤمنين الخاضعين لله رب العالمين، وذلك حينما ترى أبًا أو أمًا يتوسَّلون في ابنهم أن يلبي لهم حاجة من حوائجهم وهو يتبرَّم ويتأفَّف، أو يؤجِّل أو لا يرد، أو يعطي والديه ظهره بكل استكبار وغطرسة، الله أكبر؛ ما أسرع الأيام، وما أسرع دورتها، صورة ينبغي أن يضع العاق فيها نفسه مكان والديه، فكيف ستبدو له نفسه، وقد انكسر أمام أولاده ضعفًا ومسكنة، يرضيه هذا ويرده هذا! هذا نتاج العقوق، فاحذره وأنت في فرصة البِرِّ بوالديك الحبيبين، ابحث عن أيِّ حاجة يريدان قضاءها؛ فإنَّها الغنيمة، قدِّمها لهما بروح البار المؤمن المحب محتسبًا أجرك على الله الكريم.

قال المأمون: ((لم أرَ أحدًا أبرَّ من الفضل بن يحيى بأبيه وهما في السجن، فقد بلغ من برِّه له أنَّه كان لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه، قام الفضل إلى وعاءٍ نحاسٍ فملأه ماءً وأدناه من المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده إلى الصباح، حتى استيقظ أبوه من نومه)).

ولعلكم تذكرون معي قصة أصحاب الغار الذين أغلقت عليهم الصخرةُ غارَهم، فتوسَّل كل واحد منهم إلى الله تعالى بصالح أعمالهم حتى فرَّج الله عنهم ما هم فيه، فإنَّ أحدهم قال: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَتِي وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ) رواه مسلم.

وقال رجل لعمر بن الخطاب ﷺ: ((إنَّ لي أمًا بلغ منها الكِبَرُ أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أديت حقها؟ قال: لا؛ لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنَّى بقاءك، وأنت تصنعه لها وأنت تتمنى فراقها)).

وانتبه ــ يا رعاك الله ــ أن تعبس في وجه أحدهما، أو تقطِّب جبينك له، أو أن تنظر إليه باستحقار أو استعلاء، أو توجِّه لهما أمرك، بل استعطفهما إن أردت منهما شيئًا، وتخيَّر من الطرق ما يرضيهما ولا يزعجهما، وابحث عن الأوقات ما تشعر بأنَّه الأنسب لراحتهما؛ فإنَّهما والداك وحسبك هذا تذكير وموعظة.

ومما يغفل عنه كثيرون اليوم من العقوق: عدم الإصغاء للوالدين في حديثهما أو بما يجول في خاطرهما، فإذا كان هذا من سوء الأدب مع الناس، فبأي وصف نصفه إذا كان في حق الوالدين! يقبلان عليه، ويدبر عنهما؟ علَّماه نطق الحروف حتى استقام لسانه، ثم إذا فرحا به متحدثًا بخل بحديثه إليهما! وبسمعه عن حديثهما! قيل: ((إن محمد بن سيرين كان يكلِّم أمه كما يكلم الأمير الذي لا ينتصف منه)).

وإن من أبشع العقوق: هو أن يجرأ الابن على والديه يذمهما في غيبتهما أمام الآخرين، أمام أولاده، أمام زوجته، أمام زملائه! يا للخيبة والخسران! كانا يؤمّلان أن يكون أحسن الناس فيمدحانه أمامهم، ويفتخران به، فيقابلهما بسوء الطوية والغيبة المحرمة! فما أشنع الجرم!

ومع هذا: ما أقرب المؤمن إلى التوبة، فيعود بها إلى ربه؛ فإنَّه تواب رحيم.

فإذا كان التهجم عليهما علنًا وسِرًّا بغيضًا، فما أشدَّ شناعة تقديم المال والشهرة ومصالح الدنيا عليهما، فانتبه أن تضعف أمام إلحاح أي شخص في عقوقك لوالديك، بل ابذل جهدك أن تتعامل مع والديك بالبر، ومع أهل بيتك بالحكمة والروية، وكلها حقوق، فلا تضيعها، ولكن عليك أن ترتبها.

ترفَّع ـ وفقك الله ـ من دنس البخل وخصوصًا في حق الوالدين؛ فإنَّه لؤم لست به خليق، فقد منحاك من أنفسهما ما لا تقابله الأموال، ولا تعادله المهج، بل أكرمهما بجميل الإحسان، وبعطاء تشعر بأنَّه يدخل السرور عليهما، وافتح لهما دارك وبيتك وقبل ذلك روحك وقلبك.

وإن من صور العقوق: البعد عن الوالدين كثيرًا من دون أن يكون هناك استئذان منهما أو استرضاء لخاطرهما، فهذا يقلقهما ويجعلهما في دوامة من التفكير والخوف على فلذة كبدهما مهما كبر سنه أو قوي شبابه أو عظم جاهه، وعجيب حال بعضنا يشعر بأن بر الوالدين بمثل ذلك منقصة في رجولته أو تدخُّل من والديه في خصوصياته، والجواب هو ما سيشعر به الشاب إذا غدا أبًا، فماذا سيصنع لقلبه إذا حنا على أبنائه؟ وإن مما يفري الكبد كمدًا وحسرة ما تسمع من بعض الأمهات والآباء أنهم لم يرو أولادهم منذ أيام أو أسابيع أو شهور، وكيف بمن لم يره أبواه منذ سنوات! فما أبغضها من قطيعة تغضب الله ولا ترضيه.

وليربأ المؤمن بنفسه أن يكون سببًا في إغواء والديه بتحسين المعصية لهما، فهذا من أشدِّ العقوق.

هذه بعض مظاهر العقوق وليس كلها، ولعلكم تلمحون أنني لم أتحدث عن ضرب الوالدين أو سرقة أموالهما أو قتلهما ولا غير ذلك من عظائم العقوق والعياذ بالله، فهذه الكبائر يترفع عنها العقلاء من المسلمين وغيرهم، وهي أمور لا أقول بأنَّها غير موجودة بل هو موجودة ونسأل الله أن تكون نادرة وخصوصًا في مثل بلادنا وبلاد المسلمين حرسها الله تعالى.

اللهم إنا نبتهل إليك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تغفر لوالدينا، وتحسن عاقبتهما في الأمور كلها، اللهم امنن عليهم بعفوك ورضاك، وبارك اللهم في عمريهما، وصحتهما، وامنن عليهم من جودك وفضلك العميم، اللهم إنا قصَّرنا في حقك وحقهم، وما لنا أحد غيرك نرجوه العفو والصفح، فاللهم مالك الملك، يا ذا الجلال والإكرام، يا واسع المغفرة، يا قابل التوب، تقبَّل منا توبتنا، واستر حوبتنا، واجعلنا من الراشدين، إنك سميع مجيب.

١١٣

(لا يُطْلِقُونَ أَبْصَارَهَم في المُحَرَّمَات)

البَصَـــرُ تلك النعمة العظيمة التي غُبِن فيها كثير من الناس، فهل تفكَّروا في عظمة هذه النعمة وحقها؟ وهل أدركوا أنهم سيسألون عنها؟

إن أردنا الاختصار والإيجاز؟ فليس أوفى من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ [الإِسْرَاء الآية ٣٦].

لقد أطلق جملة من الناس اليوم أبصارهم فيما حرَّم الله، وبرَّروا ذلك بتبريراتٍ كثيرةٍ لا تغني عنهم من الله شيئًا.

لنقف وقفة تأمل ومحاسبة ونحن نتلو قول الكريم سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ١٨ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غَافِر من الآية ١٨ الى الآية ١٩].

فقد ذكر في تفسيرها: النظرة بعد النظرة إلى ما نُهي عنه.

والمصيبة حينما لا نقيم لهذه النظرات وزنًا في تأثيرها في نفوسنا، وهذا أخطر؛ لأنَّه لا يخلو من حالين:

إما أن هؤلاء استحلوا النظر الحرام فلا يرونه حرامًا، وهذا تكذيب لله ولرسوله ﷺ وعدم تصديق لما جاء عنهما، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النَّحل الآية ١١٦].

وإما أنَّه قد مات الإحساس بالذنب، فما عادت النفوس تشعر بالخطيئة، وهذا نذير لارتكاب ما هو أشد، فإذا استحقرت الأنفسُ الصغائر، فهي أقرب ما تكون من الكبائر.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ، مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ؛ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ) رواه البخاري.

وعَنْ ابْنِ شِهَابٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ: (أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِدْرًى يُرَجِّلُ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ طَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ؛ إِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ الْإِذْنَ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ) رواه البخاري.

دعونا نتأمَّل كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حينما أراد أن يحلل إلى أين تصل نتائج النظر بالمرء؛ حيث قال: «إن النظر يولِّد المحبة، فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة ينصب إليه القلب بكليته، ثم تقوى فتصير غرامًا يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم تقوى فيصير عشقًا وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفًا وهو الحب الذي وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تيتُّمًا وهو التعبُّد فيصير القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدًا له، وهذا كلُّه جناية النظر، فحينئذٍ يصير القلب أسيرًا بعد أن كان مَلِكًا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقًا، فيتظلَّم من الطرف ويشكوه، ويقول: أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتني، فيُبتَلى بطمس البصرية فلا

يرى الحق حقًا ولا الباطل باطلاً، وهذا أمر يحسُّه الإنسان من نفسه؛ فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خَلُصت من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي، وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات)).

وماذا وجد من يطلق بصره في الفتن إلا أوجاع التعلُّق، وتعب العجز عن تحقيق مراده:

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفك رائدًا — لقلبِك يومًا أتعبتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه — ولا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صابرُ

عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (رَأَى امْرَأَةً فَأَتَى امْرَأَتَهُ زَيْنَبَ وَهِيَ تَمْعَسُ مَنِيئَةً لَهَا [أي: تدلك وتدبغ جلدًا]، فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ:إِنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ) رواه مسلم.

ولعلك تلحظ كيف يريد النبي ﷺ أن يقطع الطريق على الشيطان بحيث لا يواصل وسواسه على العبد ليطغيه عن الاعتصام بالله تعالى والثبات على دينه؛ لأن الشيطان لا يباغت المرء ليأمره بالزنا وهو صاحب صلاةٍ وصيامٍ وقرآن، وإنما له خطوات تتلوها خطوات؛ لأن هذا هو عمله الذي تفرَّغ له؛ قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النُّور الآية ٢١].

قال ابن مسعود ﷺ: ((حفظ البصر أشد من حفظ اللسان)).

والذي أريد أن أوصله إلى كل من تعوَّد النظر إلى ما لا يحل أُذكِّره بأن هذا الدَّاء لا يظن أنَّه سيضره هو فحسب، بل إنه داء يسري في القلب، لينتقل إلى قلب المحبوب، ومنه إلى كل من يريد الشيطان أن يوقعه في شباكه، لتنتشر الفاحشة بهذا الدَّاء، وإن دواءه يحتاج إلى إرادةٍ قوية.

كلما استعمل عبد الرحمن بصره في النظر إلى القرآن الكريم، وإلى سنة النَّبي ﷺ، وإلى سطور العلم، وإلى مشاهد المعروف، وإلى الطبيعة الغَنَّاء، وإلى الكون الفسيح، كلما استنكرت عيناه رؤية الحرام، وكلَّما تذكَّر نظر الله إليه ومحاسبته له كان أبعد ما يكون عن استعمال بصره في الحرام.

فوا أسفًا على قلوب تكاد تفقد حياتها بحياة بصرها:

أَلَم ترَ أنَّ العينَ للقلبِ رائدٌ   فمَا تألف العَينانُ فالقلبُ يألفُ

اللهم استعملنا وجوارحنا فيما يرضيك، واغفر لنا تقصيرنا وخائنة أعيننا، فإنك سميع مجيب.

(١١٤)

(لا يُصِرُّونَ على الذُّنُوب)

كلنا ذلك الذي تزل به الأقدام بالمعصية، فكلنا من بني آدم، وكل ابن آدم خطَّاء، ولكن خير الخطائين التوابون.

وإنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين من ينسجم مع العصية ويأنس بها ولا يفارقها، بل يتمنَّى تكرارها، أولا يشعر بمأساة المكث عليها، ولا يؤنبه ضميره بحسرتها، فرق كبير بين هذا وبين من تهوي به قدمه في المعصية، فإذا ما وقع فيها شعر بضيق الذنب وحسرة المعصية، وأحسَّ بسياط الخطيئة تجلده، فاستفاق تائبًا إلى ربه، منيبًا إلى خالقه، راجعًا إلى مولاه، عازمًا على عدم العودة إلى المعصية مرة أخرى، فهؤلاء هم المتقون.

قال الكريم سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عِمۡرَان من الآية ١٣٥ الى الآية ١٣٦].

الإصرار على الذنب: هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه.

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الجاهل ميِّت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصِرُّ هالك، والإصرار هو: التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غدًا، وغدًا دعوى النفس، كيف يتوب غدًا، وغدًا لا يملكه! وأشد من هذا المعنى أن ينوي ألا يتوب، بل أن من ينوي التوبة وهو مُصِرٌّ، فإنَّه يخادع نفسه)).

وإن مما يخفى على كثير من المصرِّين على الذنوب، حينما يبقون على صغائرهم، مستشعرين أنَّها لممٌ فحسب، وأن الديمومة عليها أمرٌ هين، والأمر أعظم من هذا بكثير، فإن الصغائر ربما تحولت إلى كبائر حينما يُصرُّ المرء عليها.

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((الإصرار على الذنوب يجعل صغيرها كبيرًا في الحكم والإثم، فما الظن بالإصرار على كبيرها !!)).

قال سبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩﴾ [الجاثية من الآية ٧ الى الآية ٩].

هكذا جاءت (ويل) في القرآن للمصرِّين، وجاءت لهم أيضًا على لسان رسول الله ﷺ، فقال: وهو على المنبر (ارْحمُوا تُرحَمُوا، واغْفِروا يُغفَرْ لكُمْ، ويْلٌ لأقماعِ القولِ، ويلٌ للمُصِرِّينَ الذين يُصِرُّونَ على ما فعلُوا وهمْ يَعلمُونَ) رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني.

إن الإصرار على الرذائل سنة قبيحة من سنن قوم نوح، فما أشد إصرارهم وإعراضهم عن منهج التوحيد، وعن الطريق المستقيم، هذا الإصرار الذي تلوَّن بأشكال مختلفة، واتخذ سبلاً متعددة، حتى شكا نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى ربه إصرارهم فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ [نُوح من الآية ٥ الى الآية ١٠].

فما أشدَّ غفلة المصرين عن السعادة، التي يدعوهم إليها ربهم وخالقهم سبحانه، ونبيهم ﷺ، وإني لأتساءل: لماذا الإصرار على بلاء الذنب، وما وراءه إلا التعاسة والحسرة؟ لماذا الإصرار على الخطأ بعدما تبيَّن الصواب؟ ألا يتذكر أولئك ماذا جرى لذلك المصرُّ بين يدي رسول الله ﷺ؟ فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال: (إنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ بشِمَالِهِ، فَقالَ: كُلْ بيَمِينِكَ، قالَ: لا أَسْتَطِيعُ، قالَ: لا اسْتَطَعْتَ، ما مَنَعَهُ إلَّا الكِبْرُ، قالَ: فَما رَفَعَهَا إلى فِيهِ) رواه مسلم.

بل إنك تعجب ممن يجاهر بالمعصية، فييسِّرُ الله تعالى له من يوجهه ويذكِّره به سبحانه، ويدعوه إلى الاستغفار، ولكنه لا يستجيب، بل تُصرُّ عليه شهوتُه، وتركسِهُ أمنياتُه الدنيوية، فيبقى في مصيبته!

عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ، فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ، قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ) رواه مسلم.

سبحان الله، لا يزيد الإصرارُ على الذنب العبدَ إلا وحشة بينه وبين خالقه، فإن أمثال هؤلاء المقلين من الاستغفار، المصرين على الخطايا، لا يأنسون بالمساجد، ولا يتلذذون بالقرآن، ولا تنشرح صدورهم بالعمرة.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((ربما كان العقاب العاجل معنويًا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب، كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقيل له: كم أعاقبك ولا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟)).

والمصرِّون تتسلط عليهم شياطين الإنس والجن، وهم أثقل الناس عن الطاعات، وأكثر الناس انقباضًا في قلوبهم، فلا يكادون يشعرون بسعادة حقيقية تمازج قلوبهم، ولا تراه إلا لاهثًا خلف سراب الدنيا لا يشبع منها، ولا يرضيه منها شيء، وأشدُّ الحسرات أن يمضي العمر على الإصرار، فيفاجئهم الموت وهم على ذلك، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((إياكم والإصرار؛ فإنما هلك المصرون الماضون قُدُمًا، لا ينهاهم مخافة الله عن حرام حرَّمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه حتى أتاهم الموت وهم على ذلك)).

دعونا نسأل أنفسنا مرة أخرى: لماذا الإصرار على الذنب، وهل جربنا الإقلاع عنه والاستغفار منه، ولو تكرر الذنب، وتكرر الاستغفار، فإن الله غفَّار لمن تاب، وما يدريك، فلربما إذا تعوَّد لسانك على التوبة والاستغفار أن تكون الخاتمة مغفرة من ربك الغفور، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه الآية ٨٢]، ويقول ﷺ: (فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ) رواه البخاري.

فلترحل من دنيا الذنوب المحزنة، إلى ميدان الطاعة المبهجة، وستجد فيها لذة ما خطرت على بالك، وسوف تحقق بها آمالك، وسيفرح بك أهلك وخلانك، وستجد أبواب الرزق أمامك مشرعة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق من الآية ٢ الى الآية ٣].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((يعلمون أن من تاب تاب الله عليه، ثم لا يستغفرون!)).

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، واعف عنا، وأكرمنا بالتوبة النصوح، إنك سميع مجيب.

١١٥

(لا يُجْرِمُون)

إنَّ طريق الســـلامة الحقيقي هو الطريق الذي لا يعتدي فيه المرء على حدود الله تعالى، ولا حدود خلقه أينما كانوا، فإذا ما وقع في ذلك، وقع في جرم كبير، وتعرض لآثاره الوخيمة.

كثيرًا ما نســمع عن الجريمة، فما معنى الجريمة، إنها: فعلٌ أو تركٌ حكمت الشـريعة بتجريمه والعقاب عليه، ويكون ذلك عن معرفة وقصــد، ســواء أكان ذلك في حق الله تعالى أو حق عباده.

لقد حكى القرآن الكريم ســير المجرمين، وكيف كانوا عقبةً كؤودًا في ســبيل نشـر الإســلام، مع ما أصــابهم من عقاب الله تعالى أو ما أصــاب مَنْ كان قبلهم، فلا هم يرتدعون ولا هم يتعظون.

وإن أول دوافع الإجرام هو الاستكبار والكبرياء والانبهار بالقوة البشرية ونسيان قوة الله تعالى، قال ســبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥﴾ [يُونُس الآية ٧٥].

وإنك لترى هؤلاء المجرمين بكل أشـكالهم ســواء أكانوا مجرمين في أموال أو أعراض أو أنفس أو خونة للأمانة أو غير ذلك تراهم أولي كيد ومكر، ويحســبون أنَّهم بكيدهم قد حققوا أهدافهم، وبمكرهم بلغوا غاياتهم، ولكنه الشـيطان يضــل أولياءه، فلا يلبث إلا ويفضحهم ويسقطهم في مهاوي الخزي والفشل.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأَنْعَام الآية ١٢٤].

وسمةٌ لا تنفك عنهم هي الإعراض عن الذِكر والتذكير والخير وأهل الخير، حتى لتضيق نفوسهم بهم، فلا تأنس أرواحهم إلا بأمثالهم، فما أشد ظلمهم لأنفسهم! قال العزيز سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السَّجْدَة الآية ٢٢].

وربما تتساءل: كيف ينشأ المجرم في المجتمع؟

إنها الخطوات الشيطانية التي تبدأ بتزيين الشيطان للجرم، ثم استحقار الإثم فيه، وربما استحلاله، وحب ثمرته الفانية، حتى قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا) أورده البخاري في صحيحه.

وتأمَّل كيف يغلب الوهمُ المجرمَ حتى يرى في نفسه القوة والعلم وكأنَّ العلم انتهى إليه ولا أحد أقوى منه، وتلك فخاخ ينصبها الشيطان للمجرمين، وبهذا التعبير عبَّر قارون عما في نفسه من أوهام فماذا كان جزاؤه؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصَص من الآية ٧٨ الى الآية ٨٣].

إن مجتمع عباد الرحمن هو المجتمع الآمن الذي ينبذ الإجرام بكل أصـــنافه، ليأمن الناس على كل حقوقهم، فيبيتون بأمن، ويصبحون على أمن، ويعيشـون في أمن، انظر كيف وصف الله تعالى فرعون الطاغية الذي لم يسلم منه حتى الرضع والنساء فضلاً عن الرجال والأموال، ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القَصَص الآية ٤].

ولقد أرانا الله تعالى في المجرمين آيات عظيمة في الدنيا لنتعظ ونعتبر، فهلا تذكَّرنا قوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأَعۡرَاف الآية ١٣٣].

وإذا زهت الدنيا في ظاهرها للمجرمين، فنالوا منها ما نالوا، فإنَّه ربما أجَّل الله لهم العقاب في الآخرة نكاية بهم ومضـــاعفة في عقابهم، وهل أشـــد من جهنم لهم عقاب وعذاب!

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ٨٦﴾ [مَرْيَم من الآية ٨٥ الى الآية ٨٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزُّخْرُف من الآية ٧٤ الى الآية ٧٦].

أما إذا دخلوا النار، فإن شأن النار بهم عظيم، قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾ [إبْرَاهِيم من الآية ٤٩ الى الآية ٥١].

وعباد الرحمن أبعد ما يكونون عن سبيل الإجرام، فقد امتدحهم الله تعالى ببعدهم عن أعظم الجرائم فتكًا بالبشرية فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ [الفُرْقَان من الآية ٦٨ الى الآية ٦٩].

بل إنهم لا يتولون المجرمين ولا ينصرونهم، وهذا من برائهم من الشرِّ وأهله، ومِنْ شُكرِهم لخالقهم على نعمة الهداية والتوفيق، قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ [القَصَص الآية ١٧].

وإنه لابد أن نعلم أن الإجرام حبله قصير وأن العاقبة للمتقين، مهما كبر المجرمون في أنسابهم أو أعراقهم أو أموالهم أو تسلطهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأَنفَال الآية ٧].

فلتستيقظ النفوس من إجرامها في حق نفسها وحق الله وحق العباد والبلاد عليها؛ فإنَّ الجناية تسري فتجرف في مسيلها المعالم الخيرة، وتهدم في طريقها ما بناه الصالحون، فهلاَّ تراجعت الأنفس عن غيها، واشتغلت بما ينفعها وينفع أهلها وديارها!

أرجو ذلك، اللهم اهدنا إلى ما تحب وترضى، فإنك سميع مجيب.

١١٦

(لا يُحْبَطُون)

حينما يضع المرء له هدفًا في حياته ويستعد له وينطلق إليه، تراه يطلب العون من الله تعالى، ثم يود أن يلقى ممن حوله المساعدة والتحفيز، ويبتعد بطبيعته عمَّن يثبطه أو يقلِّل من همته، ويتمنى أن لا تصدَّه العراقيل ولا تضعف قوته المشكلات، وهذه أمنيات، غير أن واقع الدنيا أنَّها لا تصفو لأحد، ولو صفت لأحد لصفت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن الناظر والمتأمِّل في حياتهم يجد كم لاقوا من الأوصاب، وكم حوربوا من الأقارب والأباعد، لكنهم لم يزدهم هذا إلا صلابة وعزمًا في أداء مهمتهم النبيلة على الوجه الأكمل، لم تلن لهم عزيمة ولم تنكسر لهم قناة؛ لأنَّهم أيقنوا بنصر الله لهم، ولأنَّهم وضعوا هداية الناس نصب أعينهم، حتى لو خالجت الهزيمةُ أتباعَهم؛ ليقينهم بأنَّ النصر حليفهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

[يوسف من الآية ١٠٩ الى الآية ١١٠].

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: (أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَرَأَيْتِ قَوْلَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُوا﴾ أَوْ كُذِبُوا؛ قَالَتْ: بَلْ كَذَّبَهُمْ قَوْمُهُمْ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ وَمَا هُوَ بِالظَّنِّ، فَقَالَتْ: يَا عُرَيَّةُ، لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ، قُلْتُ: فَلَعَلَّهَا أَوْ كُذِبُوا، قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ، لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بِرَبِّهَا، وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ

وَصَدَّقُوهُمْ وَطَالَ عَلَيْهِمْ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَتْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ) رواه البخاري.

إنَّ عباد الرحمن لا يعرفون في طريقهم الإحباط، الذي نعني به بأنَّه: **مجموعة من المشاعر المؤلمة تنتج عن عجز الإنسان عن الوصول إلى هدف ضروري لإشباع حاجة عنده.**

والإحباط درجات، قد يطل الإحباط على صاحب الهمة، ولكن صاحب الهمة لا يلتفت إليه ولا يسلمه نفسه، بل يتجه إلى الله تعالى ويحسن التوكل عليه، ويملأ قلبه يقينًا بأنَّه سيفرج همَّه مهما بلغت به الهموم، ومهما ضاقت به الدروب، تأمَّل روعة دفع الشعور بالإحباط في قصة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ابنيه: يوسف وبنيامين، لم يزده غياب الآخر إلا أملاً في لقائهما معًا، وهذا هو الذي تحقق له، قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يُوسُف من الآية ٨٤ الى الآية ٨٧].

إن الإحباط مرض يقعد بالمحبط عن العمل الدؤوب، ويجعله أسير الأفكار والأوهام والحسرات، فهلاّ نفض المحبط عنه غبار اليأس، وانطلق في ميدان العمل من غير تردد أو كسل، فعن حبة وسواء ابني خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا: (دخلنا على النَّبي ﷺ وهو يعالج شيئًا فأعنَّاه عليه، فقال: (لَا تَيْئَسَا مِنْ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) رواه ابن ماجه وفي الزوائد إسناده صحيح.

ولِمَ الإحباط ونحن مسلمون، لنا رب يفرح بتوبة عبده مهما بلغت ذنوبه، قال النَّبي ﷺ: (لَلَّهُ أَشَـــدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْـتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَـرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَـدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ) رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر الآية ٥٣].

وقراءة تأمُّلٍ في ســـيرة النَّبي ﷺ يجد الناظر فيها كيف حدت الآمال العراض بالنَّبي الكريم ﷺ الذي يحمل في كل خطوة من خطواته الأمل والفأل، لا يلتفت إلى الآلام بقدر ما ينظر إلى الآمال، ولا يترك الجراح تفتُّ في عضـــده وإن كانت مؤلمة أو محزنة، فعن عَائِشَـةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَـــدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْـتُ نَفْسِـي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْـتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِـي فَإِذَا أَنَا بِسَـــحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِـئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَـبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْـلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) رواه البخاري.

فما علاج الإحباط إذن؟ إنَّ علاجه أن تتوكَّل على الله تعالى، وتوقن بأنَّه الرزاق والرحيم، ثم تنمِّي لديك الإيمان بالرضا بقضائه وقدره، ثمَّ تعرف إمكانياتك وقدراتك، وتقيس على ضوئها خطواتك، وتعرف جيدًا ما تستطيع فعله، وما هو من عند الله تعالى، فتنهض بما عليك، وتسأل الله تعالى من فضله، وعليك كذلك أن تدرس العوائق والعقبات، وتشاور أهل العلم والخبرة في تذليلها، وتبحث عما يساعدك في ذلك بعد الله تعالى، وتتلذذ بالصبر والمصابرة، فهي طريق الفلاح، وتتذكَّر قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عِمْرَان الآية ٢٠٠]

لا تجعل الإحباط بوابة حديدية أمام سعادتك وفرحتك وابتسامتك؛ فإن الدنيا مهما طالت بهمومها فما هي إلا طريق إلى الآخرة، وهي دار لا يعرف أهلها الصالحون اليأس من ربهم الرحيم المنان، فعلِّق قلبك بها، وستجد الفرحة والسعادة.

أسأل الله تعالى أن يشرح صدورنا، وأن ييسِّر أمورنا، فإنَّه سميع مجيب.

(١١٧)

(لا يَحْتَكِرُون)

عباد الرحمن الأخيار قومٌ لا يتنكرون لمجتمعهم الكريم، ولا يخونون عهده، ولا يستغلون أزماته لينالوا منه ومن أهلهم وذويهم، فما أبشع أن تكشف الأزمات عن أنياب الأنانية والأثرة؛ لنرى من بعض التجار السقوط في مهاوي الاحتكار المحرم، الذي عرّفه العلماء بأنَّه: ((أن يمسك ما اشتراه لوقتٍ في الغلاء لا الرخص من القوت ونحوه، مثل: التمر والزبيب بقصد أن يبيعه بأغلى مما اشتراه به عند اشتداد الحاجة إليه، ويلحق بالقوت كل ما يعين عليه كاللحم والفواكه)).

ولقد خصَّ بعض أهل العلم الاحتكارَ المحرم بالطعام فقط، وبعضهم عمم ذلك في كل الضرورات والحاجات التي يحتاجها الإنسان والحيوان، ولا يستغنى عنه، أو في تركه حرج، فهذا لا يصح احتكاره أو استغلاله.

فالمسلم الحق لبنةٌ صالحةٌ ضمن لبنات المجتمع المسلم، يمسك بعضها بعضًا في الرخاء، فما بالك في الشدة! فإنَّ الانتهازية دناءة في النفس غير متوقعة من النفس المؤمنة، وسوء خلق لا تليق بأهل الصلاة، الذين يقفون صفوفًا في الجماعة لا يتقدم أحدهم عن الآخر، فحريٌ بالمؤمن أن يجمع فكره لينفع أحبابه، ويسهم في رفع الغلاء عنهم، أو يوفر لهم ما يمكن توفيره من الغذاء ليسد جوعتهم ويروي عطشهم ويواسي خواطرهم، فيكون معينًا لهم في كرباتهم ليكون الله في كربته، فالأيام دول، والغني في هذه الدنيا المتقلبة ما أسرع أن يكون فقيرًا.

قال النَّبي ﷺ: (لا يَحْتَكِرُ إلا خَاطِئ) رواه مسلم.

إن هذه النهمة في الحرص على الدنيا والتي يتلبس بها بعض التجار _هدانا الله وإياهم _ حينما تقترب بعض الجوائح، أو يحدث بعض الغلاء تنبئ عن تفكك خطير في بعض صفوف المسلمين، وتعطي تصورًا واضحًا عن ضعفهم، وتغري الأعداء بهم.

فواعجبًا ممن أكرمه الله تعالى بالكثير من النعم، وأغدق عليه من الخيرات، وقلَّبه في الرفاهية، فإذا ما احتاج الناس إليه، قلب لهم ظهر المجن، فراح يحوجهم إلى ما عنده من الحاجات الماسة لهم، ويدَّخرها من أجل أن يغليها عليهم، وهو يعلم أنَّهم سيدفعون فيها ما جمعوه في سني حياتهم، ولربما تسبب في حرمانهم من الاستفادة من أموالهم في علاج مرضاهم أو دراستهم أو نفقاتهم على من يعولون! فما أشد هذا الحرمان! إنه حرمانٌ حقيقي من فضل الله تعالى، الذي كان يجب عليه أن يطلبه في الإحسان إلى خلقه؛ ليحسن الله إليه.

أيُّ نفسٍ جشعةٍ هذه التي ترى غيرها يتضوَّر جوعًا، وتشتد بها الحاجة إلى ما في يدها، فلا تبذله لها، لا لحاجة إليه، أو لعدم قدرة على بذله، وإنما هو الاحتكار فحسب، والأنانية المفرطة ليس إلا!

لقد استحق المحتكرُ المستغلُ لحاجة المسلمين براءةَ الله تعالى منه، قال النَّبي ﷺ: (مَنْ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى) رواه أحمد وصحح إسناده أحمد شاكر.

ثم كيف سينظر الناس إلى هذا المحتكر، وهو يبيعهم بأغلى الأثمان، نعم سيشترون منه، ويأخذون حاجتهم مرغمين من محله، ولكنهم ربما دعوا عليه بالخسارة والبوار؛ تظلُّمًا من فعلته النكراء، وماذا سيكون حال من يتولاه الناس بدعائهم وفيهم الصالحون!

فهل يرضى أن يكون المحتكر في مثل هذه الحال من الكره والضغينة عليه، ولربما وقع أسير الحاجة يومًا من الأيام، فيشمت به أهله وذووه.

أما على الصعيد العام، فالأمة في أمس الحاجة إلى قلوب متحدة مؤتلفة، لا قلوب متفرقة متشاحنة، تؤثر نفسها على غيرها، فأيننا من حديث النَّبي ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخاري.

قف وقفة تأمل مع أحد المواقف الكريمة في حياة عباد الرحمن، يحدث به ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فإنَّه قال: ((قحط المطر على عهد أبي بكر الصديق، فاجتمع الناس إلى أبي بكر فقالوا: السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، والناس في شدةٍ شديدة، فقال أبو بكر: انصرفوا واصبروا؛ فإنكم لا تمسون حتى يفرج الله الكريم عنكم، قال: فما لبثنا أن جاء أُجراء عثمان بن عفان ﷺ من الشام، فجاءته مائة راحلة بُرًّا، فاجتمع الناس إلى باب عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم عثمان في ملأٍ من الناس، فقال: ما تشاءون؟ قالوا: الزمان قد قحط، والسماء لا تمطر، والأرض لا تنبت، والناس في شدةٍ شديدة، وقد بلغنا أن عندك طعاماً، فبعنا حتى نوسّع على فقراء المسلمين، فقال عثمان: حبًّا وكرامة ادخلوا فاشتروا، فدخل التجار، فإذا الطعام موضوع في دار عثمان، فقال: يا معشر التجار كم تُربحونني على شرائي من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر، قال عثمان: قد زادني، قالوا: للعشرة خمسة عشر، قال عثمان: قد زادني، قال التجار: يا أبا عمرو، ما بقي بالمدينة تجار غيرنا، فمن زادك؟ قال: زادني الله تبارك وتعالى بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإني أشهد الله أني قد جعلت هذا الطعام صدقة على فقراء المسلمين، قال ابن عباس: فرأيت من ليلتي رسول الله ﷺ في المنام وهو على برذون أبلق عليه حُلَّة من نور، في رجليه نعلان من نور، وبيده قصبة من نور، وهو مستعجل، فقلت: يا رسول الله، قد اشتد شوقي إليك وإلى كلامك فأين تبادر؟ قال:

يا ابن عباس، إن عثمان قد تصدَّق بصدقة، وإن الله قد قبلها منه وزوَّجه عروساً في الجنَّة، وقد دُعينا إلى عرسه)).

فيا كُل من يملك نفعًا للمسلمين، كيف تضرهم؟ ويا كُل من يملك فرصة لفعل الخير، كيف تقصـِّر؟ ويا كل من سوَّلت نفسه أن يحتكر الخير بين يديه ليغليه على مجتمعه، تذكَّر أن الله أعطاك، وإن شاء منعك، والله يقبض ويبسط، فأعط ليزيدك الله من خيره، وليضاعف لك الأجر والمثوبة، وتذكَّر قول الباري سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البَقَرَة الآية ٢٤٥].

وعاهد الله ألا تحتكر طعامًا أو حاجة، ليبارك الله لك في رزقك وصحتك وعافيتك وأهلك.

أسأل الله أن يهدينا إلى كل عمل صالح يرضيه، فإنَّه سميع مجيب.

١١٨

(لا يُؤْذُون)

إنَّ عباد الرحمن يحبون الآخرين، ويسعون في إسعادهم، ولا يرضون بأذيتهم، بل يتأذون بما يتأذى به المسلمون، ويعرضون عمن يؤذيهم.

إلحاق الأذى بالطيبين من مهن الكفار والمنافقين، فهم لا يبرحون يخططون ويفعلون ليؤذوا المؤمنين والمؤمنات؛ حسدًا من عند أنفسهم، ولا يقابلهم المؤمنون إلا بالصبر والتقوى؛ لأنَّه ابتلاء عظيم، واختبار وتمحيص، قال سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٨٦].

والأذى يكون باللسان واليد والكيد والكذب والبهتان، والطعن في الأنساب والأعراض، وإفساد ذات البين، ونشر الرذيلة في أوساط المجتمع، وبث الشُّبَه، وتمويه الانحرافات العقدية بمسميات برَّاقة، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وغير ذلك مما ينشط له أهل الأذى.

لكن أين هم من وعيد الله تعالى لهم حينما توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٥٨﴾ [الأَحْزَاب من الآية ٥٧ الى الآية ٥٨].

ولقد توعَّدهم النَّبي ﷺ في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ، قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكِ) رواه الترمذي وإسناده حسن.

إن صاحب الأذى يضجر منه أقرباؤه، وتضيق به الأرض، ويبتلى به الناس وبأذاه، فيتعوذون بالله منه كما يتعوذون من الشيطان، حتى يتمنوا هدايته، أو الاستراحة منه ومن أذاه، فما أثقله على النفوس، وما أبغضه إلى صدورهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ) رواه البخاري ومسلم.

فإذا كان إلحاق الأذى بالناس عمومًا حرام يبغضه الله تعالى ورسوله ﷺ، فكيف بمن يُلحق الأذى بأهله، أو يؤذي جاره، أو يكيد لبلاده أو بلاد المسلمين، فيمقته أقرب الناس إليه، قال النَّبي ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) رواه البخاري ومسلم.

وإذا كان النَّبي ﷺ حذَّر من أذى التناجي أمام الآخرين فكيف بما هو أشد، فإنَّه قال ﷺ: (لَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ) رواه الترمذي وقال: حديث

حسن صحيح، وفي رواية رجالها ثقات: (فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ أَذَى الْمُؤْمِنِ).

غير أن من أصيب بالأذى، عليه أن يتحاور مع من آذاه، فقد أوذي موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصَّف الآية ٥].

كما يشرع له الإعراض عنهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأَحْزَاب الآية ٤٨].

وعليه أن يستشعر أن الأذى إذا كان لسانيًا فإنَّه لا يضره بإذن الله إذا صبر واحتسب في الصبر عليه، قال سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ [آل عِمْرَان الآية ١١١].

وما أجمل أن يتبع المؤمن المتأذي ذلك بالتفاؤل بأن يدفع الله عنه ما يسوؤه، فقد شكى قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ له ما أصابهم، ففتح لهم بابًا من التفاؤل، وقد حكى الله تعالى ذلك بقوله سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأَعْرَاف من الآية ١٢٨ الى الآية ١٢٩].

ويكمل عباد الرحمن مسيرتهم في دفع الأذى أو رفعه، فلا يصلُّون إلا في ثياب نزيهةٍ من الأذى، ولا يأتون زوجاتهم في حال الحيض لأنَّه أذى، وإذا مرُّوا في طريقٍ رفعوا

الأذى عنه، ولا يمكثون في المسجد وقد أكلوا ما يؤذي المصلين أو يؤذي الملائكة من البصل والكرَّاث أو نحوهما، وإذا تصدقوا لوجه الله تعالى لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى.

فلنعلم إذاً أنَّ كل أنواع الأذى مرفوضة بالفطرة السليمة، ولا يستسيغها عرفٌ ولا عقلٌ فضلاً عن الدين الحنيف الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ليكون منهج حياة كريمة.

ولذا فإن على العقلاء وأولياء الأمور سواء أكانوا أصحاب ولاية عامة كالحكام ومن ينوب عنهم، أو ولاية خاصة كالآباء والأمهات أن يمسكوا على أيدي أهل الأذى ليمنعوهم عن أذية المسلمين، أو الكيد لهم، أو زرع الأحقاد بينهم؛ لأن ترك ذلك يمكِّن أهلَ الشر من شرهم، ويسهِّل للأعداء السطوة على بلاد المسلمين بسبب تفرقهم، وهذا بلا ريب من التعاون على البر والتقوى.

أما الأذى الذي يلحق المؤمن في سبيل الله تعالى، فهذا امتحان لإيمانه، وتمحيص لدينه، وتربية له على الثبات على المنهج الحق؛ حتى لا تنحرف به الأهواء أو تهزُّه النوائب، وليتذكَّر قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [العَنكبُوت الآية ١٠].

اللهم اجعلنا هدين مهديين، وادفع عنَّا الأذى والوباء والمحن والفتن ما ظهر منها وما بطن، إنَّك سميع مجيب.

١١٩

(لا يُعْرِضُونَ عَنِ الخَيْر)

لا يزال العالم الإسلامي اليوم بفضل الله تعالى تنتشر في أوساطه نسمات الخير، وتكثر فيه بحمد الله وسائل العلم، وتتعطر بيوت الله فيه بحِلَق الذِكر والدعوة والإرشاد، وخصوصًا في هذه البلاد الكريمة حرسها الله، والناس في إقبال كبير على هذا الخير، يسعدون بالذكر وينتفعون بالذكرى، وهذا هو الوصف الرائع لعباد الرحمن في كتاب الله تعالى حيث يقول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ [الفُرْقَان الآية ٧٣]، فالحمد لله كثيرًا كما ينعم كثيرًا.

غير أن جملة من الناس ما زالت تتثاقل أقدامهم عن حضور الخير، وتصم آذانهم عن سماع التذكير، وتعرض قلوبهم ـ قبل أسماعهم ـ عن كلمة المعروف، فلا تكاد تراهم في مجلس ذِكر أو عِلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويتخذ الإعراض المذموم عن الخير أشكالاً غاية في السوء، منها ـ نعوذ بالله منها ـ:

ــ الإعراض عن الطاعات والتغافل عنها، قال سبحانه: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ [سَبَإ الآية ١٦].

ــ والإعراض خصوصًا عن ذكر الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه الآية ١٢٤].

ـــ والإعراض عن التفكر في آيات الله تعالى، فيمرُّ عليها من غير تدبُّر ولا تأمُّل في خلقها وخالقها سبحانه، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يُوسُف الآية ١٠٥].

ـــ والإعراض عن تذكر يوم القيامة وما سيجري فيه من الحساب، قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾ [ص من الآية ٦٧ الى الآية ٦٨].

والإعراض عن طاعة الله ورسوله ﷺ كبيرة من الكبائر، وهي أشدُّ بلاءً من السرقة والزنا، لإنَّ وراءها مفاسد جسيمة، ويقع المرء بها في وحل المعاصي لإيغاله في الإعراض، فلا يكاد يستجيب لما يحيي قلبه أو يعيد الحياة إليه من جديد؛ فإن القلوب تشغلها الدنيا، فتجف ينابيع الهداية في عروقها، فإذا ما أعرضت وزادت في إعراضها ماتت، وإذا ما تذكرت وتعرضت إلى نفحات الله بالذكر عادت غضةً بصيرةً مستنيرةً بالهدى والنور.

قال العليم الخبير سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال من الآية ٢٠ الى الآية ٢٤].

هل سمعت بخبر النفر الثلاثة؟ اسمع خبرهم من الصادق المصدوق ﷺ، فعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﵁: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ

نَفرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ) رواه البخاري.

وأيُّ نفسٍ مؤمنةٍ هذه التي إذا ما وقعت في المعصية ـ وكلنا ذلك الذي يعصي ـ إذا نُبِّهت إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ أعرضت عنه إرضاءً لهوىً في نفسها، واستجابة لإغواء الشيطان! أينها من نداء الله لها إذ قال: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى الآية ٤٧].

قال لقمان الحكيم لابنه: ((يا بني: اختر المجالس على عينيك، فإذا رأيت قومًا يذكرون الله فاجلس معهم؛ فإنك إن تكن عالمًا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلاً يعلموك، ولعل الله أن يطلع عليهم برحمة فيصيبك بها معهم، وإذا رأيت قومًا لا يذكرون الله فلا تجلس معهم، فإنك إن تكن عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تكن جاهلاً زادوك غيًا أو عِيًّا، ولعل الله يطلع عليهم بعذاب، فيصيبك معهم)).

وإني أرسل تحية مباركة لعباد الرحمن الطيبين، الذين تشتاق نفوسهم كلَّ جمعة إلى أن يكونوا في الصف الأول من الجامع؛ ليكونوا أقرب إلى الموعظة والذِّكر، قد تهيأوا في نفوسهم وأبدانهم وملابسهم وعقولهم وأرواحهم، وكأنهم يقولون: قل يا ربنا نسمع، وأمر نطع، فيغسلون درن الإعراض عن نفوسهم، ويعودون بإيمان رفيع، يتقوون به بعد الله تعالى على فتن الدنيا وأوصابها ومتاعبها، مستجيبين لنداء التبكير، وحائزين على التقرب للواحد الكبير، قال ﷺ: (مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا

قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ) رواه البخاري.

فما الذي يحول لعدد من المسلمين دون هذا الفضل؟ وما الذي يحرمهم هذه اللذة؟ ولماذا بعدها يشكون من ضعف الإيمان؟ وقد أعرضوا عن منابعه، فكم ساعة في يومنا من أربع وعشرين ساعة جعلناها لذكر الله تعالى، وما مقياس الفرح في قلوبنا حينما يمنُّ الله علينا بحضور مجلس علم وذكر مع العلماء الربانين!!

ولقد يسَّر الله تعالى على يدي هذه الإذاعة المباركة: إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية، وقناة القرآن الكريم وقناة السُّنَّة النبوية أن يتصف الإنسان بالإصغاء إلى ذلك بأن يكون من الذاكرين لله تعالى، مقبلين عليه غير معرضين، فهنيئًا لمن اشتغل بالاستماع إلى وسائل الإعلام المذكرة بالله تعالى، عسى الله أن يكتبه من الذاكرين له.

عمر الله قلوبنا وقلوبكم بذكره، وألبسنا وإياكم لباس التقوى، إنه سميع مجيب.

(لا يَفْتَرُون)

الكذب والافتراء كلمتان تتنافسان في البشاعة، لكن الافتراء أشد وأنكى، فهو العظيم من الكذب، وهو افتعال واختلاق ما لا يصح أن يكون، وهذا أعم مما لا يجوز أن يقال وما لا يجوز أن يفعل، وإذا كان بحضرة المقول فيه: سُمي بهتانًا، ويتحقق الافتراء إذا كان عن غير بصيرةٍ بالمخبر عنه.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عِمرَان من للآية ٢٣ الى للآية ٢٤].

وكم يسعى المفتري في إضلال الخلق بنشر الافتراءات، ليلبِّس عليهم الحقائق، ويجعلَها في صورةٍ مخالفة للواقع، فما أشد ظلمه لنفسه وظلمه للآخرين، قال الكريم سبحانه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأَنْعَام الآية ١٤٤].

وإن كان المفتري سيشقى بافترائه في الدنيا، فإن أول مرحلة للآخرة سيكون الجزاء على افترائه يناسب استطالته في الافتراء، قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ

أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنعام الآية ٩٣].

إنه الافتراء على الله تعالى أشد أنواع الافتراء جنحًا وبلاءً؛ إذ إنه الكفر البواح الذي يشهد به على نفسه حينما تحين ساعةُ الحساب، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ [الأعراف الآية ٣٧].

وفي ساعة العرض على الخالق سبحانه يوم القيامة، ماذا سينال المفترين من النكال؟

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ [هود الآية ١٨].

شقيٌ ذلك الذي يتفوه بالافتراءات، ويشيع الإشاعات، أو يكتبها، أو يصوغها أفكارًا ضالة؛ ليفسد بها أخلاق الناس، أو يحاول أن يحلل ويحرم في الدين بالجهل، أو يهدف إلى زعزعة الأمن في الأوطان، أو يضعف من عزيمتهم نحو الغيرة على الأعراض أو الديار، وكثيرًا ما يتصدَّر لذلك بثياب الناصح الأمين، فما ظن أولئك أن يصنع بهم يوم القيامة؟ اتلُ يا رعاك الله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ [يونس الآية ٥٩].

أيها الأحبة: لقد أخذ النَّبي ﷺ على أصحابه البيعة على عدم الافتراء في الدين، وعدم الوقوع في البهتان، عن عبادة الصامت ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ـ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ـ: (تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، قَالَ فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ) رواه البخاري.

هذه حضارة الإسلام، فهل ستقوم حضارة على خواء الافتراء، أم ستنتصر أمة وهي تصغي لأبواق التزييف، ظهر داؤه أو أم كان داؤه مبطنًا؟

ما أجمل الحقيقة، وما أروع الصفاء، وما أجلَّ النفس المؤمنة حينما ترافق الصدق، حتى ليكون لها سجية، فما تتحدث إلا صادقة، وما تصف إلا بصدق، ولا تفتري على الخالق والخلق فرية، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التَّوْبَة الآية ١١٩].

إن مما يؤسف حقًا أن جملة من الناس الذين تمرَّسوا على الافتراء حتى عُرِفوا به يعتقدون أن هذه ميزة لهم؛ لأنهم يستطيعون أن يتحايلوا على غيرهم بأخذ أكثر من حقوقهم بالافتراء، أو النيل ممن يحقدون عليهم بالافتراء عليهم، وإلحاق التهم بهم، أو تفسير أقوالهم وأفعالهم على ما يشينهم، فما أبعد قلوبهم عن الله تعالى، الذي يعلم خفايا نفوسهم وما يدبرونه في ليلهم ونهارهم.

والله لا يفلحون، حكم إلهي لمن افترى الكذب على الله، نتأمله في قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [يُونُس الآية ٦٩].

إن لم يشعر المفتري بشقاوته، فإن الناس يشعرون بها، فلا يثق به أحد حتى من كان على شاكلته، وسيتفرق الناس عنه حينما يكون في أمس الحاجة إلى غيره.

فهل من رجعة إلى حياض الوضوح وأمانة الكلمة، وهل من أوبة عن كل فرية وقع فيها اللسان، أو خطَّها البنان؟

قال النبي ﷺ: (مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا وَلَيْسَ بِنَافِخٍ) رواه البخاري.

فإذا كان هذا جزاء المفتري في الرؤى والأحلام، فكيف بمن يلقِ التهم بالآخرين، ويقدح في نياتهم، أو يطعن في أعراضهم أو أنسابهم، أو ينال من أمانتهم! فالأمر أفظع وأشنع.

ولنتذكر أن المنافع الدنيوية التي تتقلب بين ناظري المفتري والتي يحترف من أجلها الفرية بعد الفرية أنَّها فقاعة صابون، تغره بألوانها، ولكن سرعان ما تنفجر في الهواء، غير أن المصيبة أن لها بين يدي الله تعالى أشد الجزاء.

قال العليم الخبير: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس الآية ٣٠].

والافتراء إذا بنى عليه المفتري أكله وشربه ورزقه، فخالطت آثارُه دمَه وأمشاجه فهذا سحت، ربما خرجت عواقبه محقًا ومرضًا وقلقًا نفسيًا وخلافًا اجتماعيًا، حتى لتتحول حياة المفتري إلى شقوة تتبعها شقوة.

وأكثر من هذا إذا ورَّث المفتري هذه الصفةَ البغيضة إلى ذريته من بعده، فيعلمهم عليها، ويربيهم على خداع الآخرين والتقول عليهم.

وإن مما يخفيه جملة من الناس عن أرض الحقيقية والواقع أن ينتصر بعضهم لبعض بالافتراء، فيجمعون أمرهم على الطعن في الآخرين لعداوتهم له، وربما شهدوا عليه زورًا وبهتانًا.

أما لنا فيما جرى لإخوة يوسف عليه الصلاة والسلام عظة وعبرة، فإن الله تعالى قال عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يُوسُف من الآية ١٧ الى الآية ١٨].

فقد أحوجهم الله تعالى لأخيهم بعد زمن، ووقفوا أمامه بضعف يطلبون رضاه وإحسانه، لتعلم النفوس أنَّ حبل الافتراء قصير وإن طال الزمان به، ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يُوسُف من الآية ٨٨ الى الآية ٩٠].

فلنعلنها توبة نصوحًا من الافتراء والكذب؛ لنكون من أهل الله المفلحين الصادقين، وإن الله ليتوب على من تاب، ولنتذكر أولئك الذين افترينا عليهم فتسببنا في أذيتهم،

أو ضياع حقوقهم، أو القدح في أعراضهم، فلنتحلل منهم قبل أن يفوت الأوان، فتثقل الظهور بالأوزار.

اللهم اختم لنا بخير الأعمال، وارض عنا وعن والدينا، وعن أحبابنا، وحبب إلينا الطاعات وأعنا عليها، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، فإنك سميع مجيب.

١٢١

(لا يُعَسِّرُون)

إن الله تعالى أكرمنا بدينٍ هو أسمح الأديان، بل هو رحمة في كل تعاليمه وشعائره، وبهذا بُعِث النَّبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء الآية ١٠٧].

ولقد وضع النَّبي ﷺ قاعدة عظيمة للمجتهدين والعامة يقول فيها عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا) رواه البخاري.

وليس ضد التيسير إلا التعسير الذي يراد به: ((أن يشدد الإنسان على نفسه أو غيره في أمر الدين بالزيادة على المشروع، أو في أمر الدين بترك الأيسر ما لم يكن إثمًا)).

وهل ستعجب مثلي حينما يكون العبد يؤمن بالشريعة الغراء التي جاءت من عند القوي سبحانه سمحة ميسَّرة ومع ذلك يشدد على نفسه ويبحث عن التعسير فيها، فيشق على نفسه بما لم يأمر الله تعالى به، ويفعل من الأفعال ما لم يفعله النَّبي ﷺ وهو أكمل الخلق وأتقاهم عنده عز وجل! فماذا سيجد من يصنع ذلك بنفسه؟

أترك الجواب للعلامة ابن القيم ﷺ حيث قال: ((نهى النَّبي ﷺ عن التشدد في الدين بالزيادة على المشروع، وأخبر ﷺ أن تشدد العبد على نفسه هو سبب لتشديد الله عليه بالقدر أو بالشرع: فبالقدَر: كفعل أهل الوسواس؛ فإنَّهم شددوا على أنفسهم فشُدِّد عليهم، حتى استحكم وصار صفة لازمة لهم، وأما التشديد بالشرع كمن شدَّد على نفسه بالنذر فشدد الله عليه فألزمه الوفاء به)).

ورابة التيسير يحمّلها النّبي ﷺ دعاته أينما ذهبوا، فبها سارت الركبان المباركة، وانفتحت لها الآفاق، وانشرحت لها الصدور، فإنَّه يوصي أصحابه ﷺ فيقول: (يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وسَكِّنُوا ولا تُنَفِّرُوا) رواه البخاري.

بل حتى في حالات الخطأ الصريح، يقف النَّبي ﷺ موقف الداعية الميسِّر الذي يتعامل مع الخطأ ليكون بوابة إلى الصواب، وجذب القلوب إلى الطريق الصحيح؛ مراعاة للنفوس وما جبلت عليه من حب السكينة والهدوء في معالجة الأخطاء دون فضيحة أو تشنيع، فالخطأ وارد من الناس، ولكننا في حاجة إلى تعلُّم كيف نُيسِّر معالجته لننجح في تطوير ذات المخطئ، ألا تذكر معي حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّه قَالَ (قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) رواه البخاري.

ولنعلم أن الوصية كما هي أنَّها للدعاة والمفتين والمجتهدين بالتيسير دون التعسير، فإنَّها وصية كذلك للعامة، وذلك في سؤالهم أهل العلم، فلا ينبغي لهم التمحُّل والتشدد في السؤال بإرادة الوصول إلى التحريم والمنع، فترى أحدهم يضيِّق على العالِم حتى يفتيه بأن ما سأل عنه حرام!

ولهذا بيّن النَّبي ﷺ جرم هذا السائل بقوله: (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ) رواه البخاري.

وأما المعسِّر على نفسه أو على الناس فإنَّه يخشى عليه من الملل والسآمة، وربما الانتكاسة والبعد عن الهداية؛ لأنَّه وضع نفسه في دائرة الشدة التي لم يفطر عليها، ولا تتقبلها نفسه أو لا يستطيعها جسده؛ فإنَّه إن شدد على نفسه بزيادة العبادة بغير شرع الله فسرعان ما سيمل من طريقه الخاطئ، وتراه بعد ذلك كلما اقتربت أعماله الشديدة التي افترضها على نفسه يأتيه شعور بالكره لها والتثاقل عن أدائها.

استمع إلى هذه اللفتة النبوية الرائعة من كلام خير البرية حينما قال ﷺ: (إِنَّ هذا الدينَ متينٌ، فأوْغِلُوا فيه بِرِفْقٍ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

قال ابن حجر رَحِمَهُ الله: ((لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغلب)).

هذا صحابي يقال له أبو إسرائيل الأنصاري رضي الله عنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبي ﷺ: (مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ) رواه البخاري.

فأقرَّه النَّبي ﷺ على المشروع ونهاه عن غيره مما لا يأتي له بالنفع والفائدة.

ولنتيقظ لأمر في غاية الأهمية، فإن تبيين ما حرّم الله تعالى للناس، أو الفتوى به، أو إقامة حدود الله تعالى، ليس ذلك كله من التعسير في شيء، بل هي حدود الله تعالى التي يجب أن تقام، ويجب على الناس الوقوف عندها، ويحرم عليهم تعديها، وأن مِنْ يقوم بها ليس معسِّرًا بل هو الوقّاف مع أمر الله تعالى، فإن النَّبي ﷺ مع وصيته بالتيسير وترك التعسير يبيّن الحلال من الحرام، تأمل معي هذا الحديث الجامع في وصيته ﷺ لأبي مُوسَى وَمُعَاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِلَى الْيَمَنِ فإنّه قال لهما: (يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ أَرْضَنَا بِهَا شَرَابٌ مِنْ الشَّعِيرِ الْمِزْرُ وَشَرَابٌ مِنْ الْعَسَلِ الْبِتْعُ؟ فَقَالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ) رواه البخاري.

والتعسير ربما جرَّ إلى ضلالات كثيرة، تأخذ بالعقل نحو الانحراف العقدي أو الفكري، وهنا تأتي كارثة التكفير التي وقعت لدى فئام من الناس قديمًا وحديثًا، حينما يرون أن مرتكب الكبيرة كافرًا مثلاً، أو مرتكب الصغيرة غير المُصرِّ عليها فاسقًا أو مارقًا من الدين، ولربما ازداد الأمر عُسرًا حينما يوجهون غيرهم إلى تفسيق الناس أو تبديعهم أو

تكفيرهم من غير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير، وبضاعتهم في ذلك لا تذكر، فانظر إلى هذه الهاوية السحيقة التي تهوي بالجاهل إلى أدنى الدركات.

والتشديد أمرٌ يحسنه كل أحد، ويبقى الفقه في الأخذ بالأيسر بضوابطه التي يتقنها العالِمون دون غيرهم.

فالحمد لله الذي بعث محمدًا ﷺ بالحنيفية السمحة، لا إفراط فيها ولا تفريط.

فاللهم أحينا عليها، وأمتنا عليها، وابعثنا عليها، إنك سميع مجيب.

١٢٢

(لا يُنَفِّرُون)

بعث الله النَّبي ﷺ بشيرًا للناس ونذيرًا، وحمل لواء البشارة للناس، يَعدهم إذا أسلموا وأخبتوا بجنة عرضها السموات والأرض، ويبشّرهم برضا الله عنهم، ويخبرهم بسعادة لا تعادلها سعادة، وهي سعادة الإيمان التي يفرح بها المؤمن في الدنيا، ويسعد بها في الآخرة.

والنَّبي ﷺ أسوة الصالحين، وقدوة عباد الرحمن الطيبين، ولما كان مبشِّرًا بالخير والفلاح، بيّن لهم أنَّهم كذلك مبشّرين وليسوا منفّرين، فجاءت توجيهاته محذّرة من التنفير الذي يتسم صاحبه بقسوة المعاملة والشدة والغلظة، حتى ينفِّر من يعرفه من الدين بسبب جفوته وسوء تعامله.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: (بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا) رواه البخاري.

بل حتى في أعظم العبادات وأكثرها وقوعًا ـ وهي الصلاة ـ منع النَّبي ﷺ أن تكون بوابة تنفير من الدِّين وذلك بإطالة الإمام الصلاة على المأمومين بحجة التعبد ونيل الأجر، فالأمر لما اشترك الناس فيه واختلفت أحوالهم الباطنة والظاهرة حثَّ النَّبي ﷺ على التخفيف ترغيبًا لهم في صلاة الجماعة، فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ، فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ) رواه البخاري.

والتنفير ربما وصل أثره السلبي إلى حد الفتنة التي لا يعرف مدى أخطارها إلا الله تعالى، فربما صدر العمل المنفِّر بحسن قصد، ولكنه في الغالب لا يخلو من جهل، وإنما شفاء العي السؤال.

عَنْ جابرٍ بن عبدالله ﷺ قَالَ: (كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ، فَصلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ، فَقَالُوا لَهُ: أَنَافَقْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَأُخْبِرَنَّهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ! اقْرَأْ بِكَذَا وَاقْرَأْ بِكَذَا، قَالَ سُفْيَانُ: فَقُلْتُ لِعَمْرٍو: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ حَدَّثَنَا عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ: اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، فَقَالَ عَمْرٌو نَحْوَ هَذَا) رواه البخاري.

بل لما حصل الخطأ الجلي في أداء إحدى الصلوات عالجه النَّبي ﷺ من دون قسوة ولا جفوة، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ﷺ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ؛ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) رواه مسلم.

لنعلم يقينًا أن التنفير أسلوب لا يأتي بخير، ولا ينتج عنه إلا الخسارة فيمن يقع عليه، ولربما كان أثره أبلغ من هذا بكثير، حيث يشيع معنى التنفير بين الناس، فلا تكاد تنشرح

الصدور للموعظة، ولا تلين القلوب للتذكير، وتدبر الأنفس عن حياض الدين، فيا لها من خسارة عظيمة.

لعلك تذكر معي موقف النَّبي ﷺ من ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد، فواجه نوعين من ردة الفعل، فعن أنس بن مالك ﷺ قَالَ: (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَهْ مَهْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَأَمَرَ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ فَجَاءَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَشَنَّهُ عَلَيْهِ) رواه مسلم.

إننا في أحايين كثيرة نستطيع أن نكون في الموقف الشديد أو العنيف أكثر رقة وأكثر كرمًا في أخلاقنا، ولكن قد يغلب الطبع بالغضب على السلوك الإيماني من الرفق والسكينة، ولو حاسب الإنسان نفسه على ما صدر منه من عنف وتنفير ضد صاحبه وما تبعه من نفرة نفسية وشحناء وبغضاء للام نفسه ووبَّخها على تصرفه!

تأمل هذا الموقف وكيف أنهاه النَّبي ﷺ برفقه وحكمته، عَنْ عَبَّادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ ﷺ قَالَ: (قَدِمْتُ مَعَ عُمُومَتِي الْمَدِينَةَ فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا فَفَرَكْتُ مِنْ سُنْبُلِهِ، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ فَأَخَذَ كِسَائِي وَضَرَبَنِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْتَعْدِي عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ دَخَلَ حَائِطِي فَأَخَذَ مِنْ سُنْبُلِهِ فَفَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا وَلَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا! ارْدُدْ عَلَيْهِ كِسَاءَهُ، وَأَمَرَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَسْقٍ أَوْ نِصْفِ وَسْقٍ) رواه النسائي وقال محقق جامع الأصول: حديث صحيح.

أيها الأحبة الكرام: يجب أن نحذر من التنفير في كل شيء، وأن نحذره مع كل إنسان، لا نستثني من ذلك أحدًا، مسلمًا أو كافرًا، رجلاً أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا، من نعرف ومن لا نعرف، فنحن أصحاب رسالة، ملؤها الرحمة والخير والتخفيف، لا الغلظة والشدة والتعنت.

فلنبحث عن أجمل الكلمات، وأرفق التعامل، وأكرم المواقف، مع كل من نتعامل معه، فإننا لن نسع الناس بأموالنا، ولكن نسعهم بأخلاقنا، فلنكن دعاة بصبرنا، وحلمنا، وأناتنا، وابتسامتنا، وحسن تعاملنا، تأسيًا بحبيبنا وقرة أعيننا محمد ﷺ.

اللهم ألهمنا الرشد، وعودنا على حسن الخلق، وجملنا بالإيمان، فإنك سميع مجيب.

١٢٣

(لا يَتَهَاونُون)

إن النفس التواقة إلى الخير والمنافِسة في ميدان التقوى، لا تعرف التهاون ولا التكاسل، بل تراها كالخيل المضمَّرة التي أُعدت للفوز في كل سباق.

ولو تأملنا أسباب التهاون عن أداء الفرائض والواجبات بكل أشكالها، لرأيناه ناتجًا عن عدد من الأسباب:

منها: استحقار الأجر العظيم المترتب على الطاعات.

ومنها: الغفلة عن الآثار الوبيئة للتهاون، والغفلة عن الآثار الخيِّرة للمبادرة نحو الخير والمسابقة إليه.

ومنها: الشغف بالدنيا وزهرتها، والاغترار بما فيها من بهرج سرعان من يزول وينتهي.

ومنها: الجهل بأحكام الشريعة والانشغال بتوافه الأمور دون أساسها.

فالتفريط في المسؤول عنه وراءه خسارة كبيرة يبدأ أثرها على الفرد بعدم التوفيق، وينتهي على المجتمع بالتأخر والفشل والفساد.

إن ميزان العظمة والهون ميزان يجب أن يصدر عن الشريعة وليس من ذات الإنسان، فإنا ما يستحقره المرء أحيانًا بجهله أو تفريطه يكون في حقيقته عظيمًا، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عمَّن تكلم في الإفك فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧﴾ [النُّور من الآية ١٥ الى الآية ١٧].

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُهْدِيَتْ لَهُ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ فَرَكِبَهَا، فَأَخَذَ عُقْبَةُ يَقُودُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعُقْبَةَ: اقْرَأْ، فَقَالَ: وَمَا أَقْرَأُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١﴾ [الفلَق الآية ١]، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى قَرَأَهَا، فَعَرَفَ أَنِّي لَمْ أَفْرَحْ بِهَا جِدًّا، فَقَالَ: لَعَلَّكَ تَهَاوَنْتَ بِهَا! فَمَا قُمْتَ تُصَلِّي بِشَيْءٍ مِثْلِهَا) رواه أحمد وله شاهد عن النسائي بإسناد حسن.

ولعل من أكثر ما يتهاون به الناس اليوم هو ما تلقيه ألسنتهم من سهام جارحة من الغيبة والنميمة والسباب والشتائم والطعن في الأعراض أو النوايا، ووالله يغفل كثير منا عن خطرها وما تودي به من رزايا، وما تفعله من تشقيق لصف المجتمع، وتفكيك للحمته واجتماع القلوب فيه على قلب واحد، أما جزاؤها عند الله تعالى فقد حدَّث به أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) رواه البخاري.

والتهاون إذا بلغ الفرائض والواجبات فهذه مصيبة من المصائب، فماذا يبقى للمرء إذا ضيَّع ذلك! بل إنها صفة من صفات المنافقين والمراوغين، ألا تذكر معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ

هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ [النِّسَاء من الآية ١٤٢ الى الآية ١٤٣].

أما إذا كان التهاون في غير ذلك فالأمر إذا استمرَّ عليه العبد ربما وصل إلى حد التعدي إلى الواجبات، فإن من يتأخر عن الحضور المبكر لصلاة الجمعة مثلاً متعللاً أنَّه لم يفعل محرمًا تراه لربما ضيع بعضها، وشيئًا فشيئًا حتى تذوب هيبة الحضور عن الجمع في قلبه فيتركها، وهنا أخشى أن يصاب بوعيد النبي ﷺ حيث قال: (مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ) رواه أبو داود، وقال محقق الأصول: صحيح بشواهده.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه لبعض التابعين: (إنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أعْمالًا، هي أدَقُّ في أعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إنْ كُنَّا لَنَعُدُّها علَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقاتِ) رواه البخاري.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ((لولا ثلاث لأحببت أن لا أبقى في الدنيا: وضعي وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار أقدمه لحياتي، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة، وتمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه في مثقال ذرة، حتى أن يترك بعض ما يرى أنَّه حلال خشية أن يكون حرامًا، وحتى يكون حاجزًا بينه وبين الحرام، وإن الله قد بيّن للناس الذي هو يصيّرهم إليه، قال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزَّلزَلَة من الآية ٧ الى الآية ٨].

وما زلنا مع هاتين الآيتين الكريمتين فإنَّهما أصلٌ في التحذير من التهاون أو التهوين والتقليل، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسَان الآية ٨]، كان المسلمون يرون أنَّهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه الثمرة

والكسرة والجوزة ونحوَ ذلك فيردُّونه ويقولون: ما هذا بشيء؛ إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه، وكان آخرون يرون أنَّهم لا يلامون على الذنب اليسير: الكِذْبة والنظرة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغَّبهم في القليل من الخير أن يعملوه فإنَّه يوشك أن يكثر، فنزلت: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزَّلْزَلَة من الآية ٧ الى الآية ٨].

أسأل الله تعالى أن يدلنا على ما فيه خير لنا في دنيانا وآخرتنا، إنه سميع مجيب.

١٢٤

(لا يَتَهَرَّبُونَ مِنْ مَسْؤُولِيَّاتِهِم)

يستوقفني كثيرًا ذلك الحديث العظيم الذي يُحمِّل فيه النبيُّ ﷺ المسؤوليةَ على كل مَنْ كان أهلاً للمسؤولية بين الخلق وعند الخالق سبحانه، وذلك حينما يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) رواه البخاري.

إنَّ التزام الإنسان بمسؤولية مَّا يعني تعهده أن يقيمها على وجهها لا يفرط من أمرها شيئًا إلا ما لا يستطيعه، وهذه هي التقوى فيها، والله تعالى يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التَّغَابُن الآية ١٦]؛ فإن الشاب حينما يعقد بامرأة فإنَّ عليه مسؤولية إسعادها ورعايتها والإنفاق عليها وإسكانها وجميع حقوقها، والمرأة كذلك تنهض بحق زوجها فتحفظ عليه بيته، وتصون عرضه، وتطيعه في الطاعات والمباحات، وإذا رُزِقا بالذرية كانت مسؤولية أخرى تجاههما، وقل مثل في كل مَنْ يتقلد عملاً، ويأخذه بالعهد على أدائه على وجهه، وينال على ذلك مالاً أو منفعة، سواء أكان ذلك في الولايات العامة أم الخاصة، فالإمام والجندي والمعلم والمهندس والطبيب والداعية والقاضي وأصحاب الحرف المختلفة والمتعددة من دون حصر كلنا جميعًا تحت طائلة المسؤولية ليس فقط أمام الله تعالى بل حتى من ولاة الأمر، فلهم الحق في ذلك لأننا ننوبهم فيه، وقد جعلونا محل

الثقة والأمانة، وأمسكنا بزمام أمر ونلنا عليه مقابلًا، فالتخلف عنه من دون سبب لا حجة لنا فيه هو تخلف عن أداء الأمانة.

وأقبح ما يكون التهرب إذا كان خفية أو احتيالاً، ويشتد قبحه إذا انتحل المرء من أجل ذلك الأعذار الواهية أو المكذوبة.

والجرم يشتد حينما يكون التنصل من أعظم عهد وهو عهد الله على بني آدم بأن يؤمنوا به لا يشركون به شيئًا، فإذا وقع الإنسان في الكفر والعياذ بالله وقع في إخلاف العهد مع الله، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف الآية ١٧٢].

والتنصل من المسؤولية سلوك شيطاني؛ فالشيطان هو الذي يخدع المرء بتعهده بإسعاده ونصره وهو أول من يخذله، ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال الآية ٤٨].

وعلى مثل هذا السلوك سار المنافقون الذي يظهرون من التعهد بالمسؤولية، وحرصهم على أدائها، وهم أبعد ما يكونون عنها، ولهذا لا ينبغي أن يعتمد عليهم في مصالح المسلمين العامة أو الخاصة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ: (أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا

قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّ يُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٨٨]) رواه البخاري ومسلم.

إن التنصل من المسؤولية خرم في مروءة الإنسان يدل على: قسوة في القلب، وقلة في احترام للآخرين، وضعف في مراقبة العبد لله تعالى، واستعلاء على الخلق، وعدم ولاء للبلد ومسؤولياته.

لماذا لا نبث نروح المسؤولية الدنيوية والأخروية في النشء لينطلقوا في ميدان العمل مخلصين أمناء مقدِّرين هذه النعم التي أنعم الله بها علينا، محافظين عليها، غير عابثين بها ولا بمقدراتها!

لعلك تأسف مثلي لبعض الفئات المخذِّلة عن التقدم في مضمار العطاء المثمر، حيث لا تسمع منهم إلا الأنَّات والآهات، أو الإحباط والنقد اللاذع غير البنّاء، وتراهم لا يجيدون إلا لغة التشاؤم، ثم يزيدون الطين بلة حينما ينقلون هذه المشاعر المتقهقرة إلى شباب الأمة وفتياتها ليقعدوا بهم عن التطلع إلى القمم، ويقنعونهم بالتراجع والكسل!

فهم إذن متنصِّلون عن المسؤولية ويبثُّون هذه الروح غير الإيجابية في أنفس الناس وإعلامهم.

فالمتهربون عن مسؤولياتهم في السلم والأمن والطمأنينة كيف يُعتمَد عليهم في حال البأساء والضراء لا قدر الله!

إننا يجب أن نتعامل مع هذا النوع في مجتمعاتنا بأنَّه مصاب بالمرض ويحتاج إلى علاج ناجع، حتى لا تؤتى الأمة من قبله، ولا يساء إلى البلاد من خلاله، أيًا كانت مسؤوليته،

نأخذ بيده بالنصح الهادف، والتدريب المتميِّز، والتعليم المستمر، والتعزيز والتشجيع، والتذكير والتحفيز، فصلاح الفرد صلاح للمجتمع، والحب الحقيقي للدين هو الإخلاص لله تعالى في العمل له، والحب الحقيقي للوطن هو العمل بالجد في وظائفه، والحب الحقيقي للأسرة هو النصح لها بالتربية والرعاية.

وإنَّ أداء المسؤولية على وجهها لون آخر من السعادة يفوق أضعاف السعادة التي ينالها في المأكل والمشرب والشهوات العابرة؛ لأن سعادته متعدية إلى الآخرين، وتبقى على مر السنين، ويتضاعف أجرها إن أحسنَّا النيات، وقصدنا رب البريات، وسرنا على نهج حبيبنا ﷺ، وطمعنا في الأجر العميم، وخدمة الناس أجمعين، فكلما انتفع أحد منهم نلنا الأجر، فكم من الأجور سنحصد من تحمل المسؤولية!

إنها البركة الحقيقية التي تنالها بذلك، ستجدها في صحتك، وعافيتك، ورزقك، وانشراح صدرك، وأنسك مع أهلك وذويك، وراحة ضميرك، وعز بلادك.

فلننبذ عن أنفسنا الكسل، ولنقلع عن مجالس البطَّالين المهملين، فالأمر جد، والأمم تسابق الزمن، ونحن بالله تعالى أقوياء، وبديننا أعزة، وباجتماعنا وتوحدنا بإذن الله تعالى منتصرين، وبإخلاصنا في أعمالنا منتجين.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا إخلاصًا نسعد به في الدنيا والآخرة، وأن يبارك لنا في حياتنا الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

١٢٥

(لا يَجْحَدُونَ نِعَمَ رَبِّهِم عَلَيهِم)

الأصل في المسلم أنَّه يذكر نعمة ربه عليه، ويتحدَّث بها، ولكن المحك هو ما يتميَّز به الصالحون من أنَّك تراهم في الرخاء شاكرين وفي حال الضراء صابرين، لا ينكرون من نِعَم الله شيئًا، بل يتذكرونها مهما بلغت بهم البلايا ومهما أرهقتهم الرزايا.

فليس من خلقهم الجحود أو التنكر للخالق الكريم، لا قولاً ولا فعلاً.

فمن أين إذًا تسلط الجحود على بعضنا، يجيب الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ذلك فيقول: ((لم يقصِّر بالخلق عن شكر النعم إلا الجهلُ والغفلة، فإنَّهم مُنعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النِّعَم، ولا يُتصور شكرُ النعمة إلا بعد معرفة كونها نعمة، ثم إنهم إن عرفوا نعمةً ظنوا أن الشكر عليها [فقط] أن يقولوا باللسان: الحمد لله والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان)).

والجاحد لنعمة الله تعالى ظالم لنفسه، مكذب بحقيقة يقر بها في داخله ولو كذب بها لسانه، وهو في حاله مغالط ليقين قد استقر في عقله، ولهذا وصفهم الله تعالى بالظلم فقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام الآية ٣٣].

وماذا كان جزاء الجاحدين؟ قال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هُود من الآية ٥٩ الى الآية ٦٠].

والله تعالى قد مكَّن الإنسان من شكر النعمة فجعل له من الحواس ما تعينه على ذلك، أفلا يبصرها، أفلا يسمعها، أفلا يعقلها؟ فمن لم تأخذ بيده هذه الحواس إلى الإيمان بنعمة الله عليه فإنَّه لم ينتفع حق الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ [الأَحْقَاف الآية ٢٦].

وبئست عاقبة الجاحدين النار؛ لأن الجحود خلق يجمع كل ألوان اللؤم القاتمة، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾ [فُصِّلَت الآية ٢٨].

ما أقبح الجحود؛ لأنَّه خلق في الغالب يكون ردة فعل عكسية تنم عن خِسَّةٍ في الطبع، ودناءةٍ في التصرف؛ إذ كيف يقابل الكرم بالبخل، وكيف تقابل النعمة بالنكران، إننا لا يكفي أن نصف الجحود بالخطأ العابر أو غير المتعمد أو الزلل اليسير الذي يعفى عنه؛ لأن فيه معنى الترصُّد والتعمُّد، ويزيده تعاسة نسيان الفضل والإنعام وأهلهما.

والجحود كما أنَّها صفة ذميمة في حق الله تعالى فهي صفة ذميمة في حق الكرماء من خلقه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا [أي: أصابهم سقم فيها] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى

إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرُّعَاةِ فَقَتَلُوهُمْ وَارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا) رواه مسلم.

وكلما كان الكرم مضاعفاً كان جحده مضاعفًا أيضًا، فما أشد من جحد نعمةَ الله؛ إذ أنَّه أكرم الأكرمين، وما أشد جحود فضل الوالدين، أو الفضل بين الزوجين، أو فضل المعلم، أو فضل من قدم لك مساعدة أو عونًا، لنتذكر قول الله تعالى في حق الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾

[الإِسْرَاء الآية ٢٣].

واتل معي أيضًا قول الله تعالى في حق الزوجين: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾ [البَقَرَة الآية ٢٣٧].

ولعلي أختم بهذه القصة النبوية فمن تأملها علم ما أثر الجحود على صاحبه، قال النبي ﷺ: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى بَدَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ؛ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ قَالَ الْبَقَرُ_ هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ إِنَّ الْأَبْرَصَ وَالْأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا الْإِبِلُ وَقَالَ الْآخَرُ الْبَقَرُ_ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا؛ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ: قَالَ: فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا، وَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ

فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ بَقَرٍ وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ غَنَمٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْحُقُوقَ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ! فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَرِثْتُ لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ) رواه البخاري ومسلم.

فليتأمَّل كلٌ منا عاقبة الجحود والاعتراف بالفضل في هذا القصة العظيمة، ولنعوِّد أنفسنا ونربي أولادنا على خلق رد الجميل، ونحذِّرهم من نكرانه؛ ليحيوا حياة الكرماء الأسخياء الذين يفرحون بالكرم ويجازون عليه بأكرم منه.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الكرماء العارفين بالله تعالى والشاكرين له على نعمه، إنه سميع مجيب.

١٢٦

(لا يُجَادِلونَ إِلَّا بِالتِي هِيَ أَحْسَن)

الجدل هو: دفع المرء خصمَه عن إفساد قولهِ بحجةٍ أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وربما وصل إلى حد المنازعة والخصومة.

والجدال قد يكون محمودًا إذا تعلق بإظهار الحق، وقد أمر الله به نبيه ﷺ في قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النَّحل الآية ١٢٥].

وقد يكون مذمومًا إذا شغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، وهذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦﴾ [الكَهۡف الآية ٥٦].

الجدال صفة ربما كانت من طبع الإنسان، ولذا يحتاج فيها المرء إلى معالجة وتدريب على التخفيف منها حتى ينزعها من طبعه؛ ليكون أكثر قدرة على التواصل الإيجابي بين أفراد مجتمعه، وخصوصًا أسرته وألصق الناس به، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكَهۡف الآية ٥٤].

وإذا كان الأمر كذلك فعلى المربي أن يستعين بالله تعالى في تربية من يعول على حسن التحاور والتذكير، ولا يعجل بالتغيير، بل عليه ألا يقابل الجدل بجدل مثله، ولكن يقابله بحسن التنبيه والتذكير.

لنقف هذا الموقف النبوي الذي أخبر به عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﵁ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلام لَيْلَةً فَقَالَ: أَلَا تُصَلِّيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ٥٤﴾ [الكهف الآية ٥٤]) رواه البخاري.

فالحسنى ركن ركين في الجدل ليكون محمودًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت الآية ٤٦].

ولعل أكثر ما يعين المرء على تجنب الجدل المذموم ـ بعد الله تعالى ـ هو تحسين قصده ونيته، فإن من حسنت نيته لم ينتصر لنفسه بالباطل؛ فإن الانتصار بالجدل في نصرة الباطل هو شأن الأقوام الذين كذَّبوا الرسل فحق عليهم العقاب الرباني، أفلا نقرأ قول الله تعالى في شأن قوم نوح ﵇: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف من الآية ٧٠ الى الآية ٧٢].

ولخطورة الجدال وأثره البالغ في تفكيك بنية المجتمع، جاءت التعليمات الشرعية في الصيام والحج بأن يحذر المرء هذا النوع من الخصام؛ لتكون مواسم الصيام والحج مدرسة يتعلم فيها كيف يوطِّد له علاقة خيّرة مع الآخرين، فيتحاور معهم من دون تشنج ولا رفع أصوات، ولا تكلف ولا استبداد برأي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ، وَإِنْ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ) رواه البخاري.

وفي الحج يسلك العبد الصالح الذي يتجنب الجدال بالباطل مسلك أهل الجنَّة في استجابته لنداء الرحمن حيث قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة الآية ١٩٧].

وأشنع ما يكون الجدال أن يقتطع به المرء مالاً حرامًا، أو ينال نصيبًا ليس له فيه حق، يناله بقوة الحجة وسلاطة اللسان وطول الجدل، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ وَرَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا قَدْ غَلَبَنِي عَلَى أَرْضٍ لِي كَانَتْ لِأَبِي، فَقَالَ الْكِنْدِيُّ: هِيَ أَرْضِي فِي يَدِي أَزْرَعُهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَقٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْحَضْرَمِيِّ: أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَكَ يَمِينُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّ الرَّجُلَ فَاجِرٌ لَا يُبَالِي عَلَى مَا حَلَفَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ يَتَوَرَّعُ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ: لَيْسَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا ذَلِكَ، فَانْطَلَقَ لِيَحْلِفَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أَدْبَرَ: أَمَا لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ) رواه مسلم.

ولعل أكثر من يتعرض للجدل هم أصحاب العلم والثقافة؛ حيث تدور بينهم رحى النقاشات والمناظرات العلمية، فلابد أن يتيقظوا إلى هذا الشأن حتى لا يجرهم الجدال

إلى القطيعة أو الازدراء أو نحو ذلك، ولنتذكر قول النَّبي ﷺ: (مَنْ تعلَّمَ العلْمَ ليُباهِيَ بِهِ العلماءَ، أوْ يُمارِيَ بِهِ السفهاءَ، أوْ يصرِفَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه، أدخَلَهُ اللهُ جهنَّمَ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وليحذر المحاور الأديب أن يقع في نفسه أنَّه إذا ترك الجدل العقيم أنَّه يتسم بالضعف وقلة العلم وفقدان الحجة، بل ليعلم أنَّه سالك مسلك أهل الجنَّة، قال النَّبي ﷺ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَهُوَ بَاطِلٌ بُنِيَ لَهُ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ فِي وَسَطِهَا، وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ بُنِيَ لَهُ فِي أَعْلَاهَا) رواه الترمذي وحسَّنه.

قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي بعض تلامذته: (إياك والخصومة والجدال في الدين، ولا تجادلن عالمًا ولا جاهلاً، أما العالم: فإنَّه يخزن عنك علمه ولا يبالي ما صنعت، وأما الجاهل: فإنَّه يخشِّن بصدرك ولا يطيعك).

قال مسعر بت كِدام يوصي ابنه كِدامًا:

إنِّي مَنَحْتُك يا كِدامُ نَصِيحَتي ... فاسمعْ لقولِ أَبٍ عليكَ شَفِيقِ
أمَّا المزاحةُ والمراءُ فدعْهُما ... خُلُقانِ لا أرضاهما لصَدِيقِ
إنِّي بلوتُهما فلم أَحمدْهما ... لمجاورٍ جارًا ولا لرفيقِ

وهو يقصد هما المزاح الثقيل المزعج.

فما أروع أن نتخلق بحسن الحديث، وجميل الإنصات، وكريم التحاور، أسأل الله أن يكرمنا بذلك، فإنَّه سميع مجيب.

١٢٧

(لا يَجزَعُون)

جُبِلت الدنيا على الأكدار مهما أرادها المرء فَرِحَةً سعيدة، والحزن ليس بالشيء المستغرب على ما يفوت منها؛ لأنَّه من فطرة الإنسان، فليس من الصحيح أن نمنع الحزن، ولكن الممنوع هو المبالغة فيه حتى يصد المرء عن واجباته، أو يبلغ به مبلغ السقوط في كفر النعمة، أو عدم الإيمان بالقضاء والقدر، وهو ما نحن بصدد الحديث عنه هنا وهو الجزع الذي لم يكن خُلُقًا لعباد الرحمن.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المَعَارِج من الآية ١٩ الى الآية ٢٣].

وقد ذكر الماوردي للجزع أسبابًا، منها:

١-تذكُّر المصاب حتى لا يناساه، وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: ((لا تستفزّوا الدموع بالتذكُّر)).

٢-الأسف وشدة الحسرة، فلا يرى من مصابه خَلَفًا، ولا يجد لمفقوده بدلاً، فيزداد بالأسف ولَهًا، وبالحسرة هلعًا، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحَدِيد الآية ٢٣].

إذا بُلِيـتَ فـثِقْ باللهِ وارضَ بـهِ   إنَّ الذي يَكْشـفُ البلوى هو اللهُ

إذا قَضَى اللهُ فاستسلمْ لقدرتِهِ	ما لمرئٍ حيلةٌ فيما قضى اللهُ
اليأسُ يَقْطَعُ أحيانًا بِصاحبِهِ	لا تيأسنَّ فإنَّ الصانعَ اللهُ

٣- كثرة الشكوى وبث الجزع، فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المَعَارِج الآية ٥]، إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث، وحكي أنَّ أعرابيةً دخلت من البادية، فسمعت صراخًا في دار فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم إنسان، فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، وبقضائه يتبرمون، وعن ثوابه يرغبون، وقد قيل في منثور الحكم: من ضاق قلبه اتسع لسانه.

٤-ومن أسباب الجزع أن تشتد ملاحظته لمن حُرِسَت نعمته، وظهرت عليه علامات الأمن والدعة، فيزيد حسرة على حسرته والعياذ بالله.

ولا ريب أن المرء مهما بلغت أحزانه إلا أنَّ النِعَم تلفُّه لفًا، وتحيطه من كل جانب، ولو أنَّه لا يملك إلا نعمة الإيمان لكفاه ذلك نعمة يحمد الله تعالى عليها في ليله ونهاره، فهي النعمة الحقيقية الباقية له في دنياه وآخرته، وهي التي بها بإذن الله تعالى تنقشع عنه أحزانه، ويحل محلها الفرح والسرور بلقاء الرب الغفور، وهي التي سيحمد الله عليها يوم تبتهج النفوس بجنة الفردوس، ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٤٣].

ولا يحل محل الجزع مثل الصبر، والصبر ليس طلبه مستحيلًا، أو أمر يجب أن يتأخر في التنبُّه إليه في الملمات، بل في أولى الأولويات، وكم أتمنى أن نتأمَّل في كتاب الله تعالى كم مرة أمر الله تعالى أولياءه بالصبر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ [طه الآية ١٣٠].

ولعلنا نلحظ كذلك أن الله تعالى أمر بالصبر وقرن ذلك بالعمل وهو التسبيح الذي يملأ القلب سكينة وطمأنينة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرَّعْد الآية ٢٨].

والصبر مفتاح الفرج، فكم من إنسان ذاق لذة الصبر فجاءته فتحققت أمنياته، وفاز بما يرجوه، ولقد أحسن من قال:

اصبِري أَيَّتُها النفسُ ... فإنَّ الصَّبْرَ أَحجى
ربمَّا خابَ رَجاءٌ ... وأَتَى ما ليسَ يُرْجَى

عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتَلاهم، فمَن رَضي فله الرِّضَى، ومَن سخِط فله السَّخطُ) رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني.

وإن من مظاهر الجزع المؤسفة أن تلقى الجزوع وقد شحب وجهه، وأصيب بالاكتئاب والقلق، وسرعة الغضب، والانقطاع عن الناس أو الانعزال عن العمل والاكتساب، ولربما نظر إلى الدنيا بمنظار أسود، وقد يزيد على ذلك فيصل به إلى أن يقتل نفسه، والمطلع على نسب الانتحار في العالم الغربي يجدها أضعاف أضعاف وجودها في العالم الإسلامي؛ لضعف الوازع الديني لديهم، ولغياب الإيمان الحقيقي عن قلوبهم.

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (كانَ فِيمَن كانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ به جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فأخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بهَا يَدَهُ، فَما رَقَأَ الدَّمُ حتَّى مَاتَ، قالَ اللَّهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عليه الجَنَّةَ) رواه البخاري.

وقال كذلك: (الَّذِي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يَخْنُقُهَا في النَّارِ، والذي يَطْعُنُهَا يَطْعُنُهَا في النَّارِ) رواه البخاري.

أيها القارئ الكريم..أيتها القارئة الكريمة: إن على المؤمن أن يملأ قلبه بحسن الظن في الله تعالى، وأن يسعد بحبه، وأن يعلم يقينًا أن الصبر هو خير للصابرين، وأن يشغل نفسه بما هو أنفع له من التحسُّر على شيء لا يستطيعه، ويتمعَّن في سيرة المختار ﷺ كيف هي حياة مليئة بالأخطار، محفوفة بالأكدار، ولكن النَّبي ﷺ سار فيها سير المتوكلين على ربهم، الراجين عفوه ورحمته، فآتاه الله النصر بعد الصبر، وهو الأسوة العظمى بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام.

وإن من أروع وسائل دفع الجزع هو أن يخطط المؤمن الذكي ليومه وليلته، ليملأه بما يطور قدراته، ويصقل مواهبه، ويدفعه نحو مستقبله بنجاح وفلاح، وبهذا يندفع عنه الشعور باليأس، وينكشف عنه تسلط الشيطان، ويكون حينها أقوى من وسواس الشيطان الحريص على تكدير صفوه وعرقلته عن التقدم، وليجعل عمله في خدمة دينه ووطنه وأسرته، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وليمسح الغبار الذي يعلو منظاره، وليجعله ناصع البياض، مهما ادلهمت حلكة الأحزان، والله يتولى إسعاد عبده في الدنيا والآخرة، فإنَّه رحيم ودود، وسميع مجيب.

١٢٨

(لا يَجْفُون)

المتصل بالناس والمخالط لهم في أحوالهم مع اختلاف مشاربهم وطريقة تعاملهم يجد بوضوح كيف يعاني بعضنا من الجفوة في طبعه، وأقصد بالجفوة: الغلظة في العشرة وترك الرفق واللين فيها، مع سرعة في اتخاذ القرارات وشراسة فيها.

والجفوة إنما هي مظهر من مظاهر القسوة المتوارية خلف أضلاع المرء، تبرز في أشكال مختلفة، منها: اعتياد تقطيب الجبين، وعدم الفرح بما يفرح به الآخرون من الخير والنعم، والنفور من الأهل والأصحاب، وعدم الرفق بالنساء والأطفال، ولربما تعدَّى ذلك إلى الفقراء والمساكين، وتسري هذه الجفوة إلى اللسان فلا تراه ينطق بما يستعذب من الكلام، ولا يتردد في الحديث بما يسوء مَنْ يقابله أو يجرحه أو يحرجه، وإنه ليفقد براعة الاستقبال وجمال التوديع، ويحرم نفسه لذة الابتسامة الصافية على شفتيه.

يحزنني كثيرًا مَنْ هذه حاله؛ لأنَّه في حقيقة الأمر سيفقد الكثير من الأجور، وسيفقد الكثير من النفع لنفسه أو لربما لمن يعول، وسيفقد الكثير من ألوان التواصل التي لو ربحها لربح الشيء الذي ليس في حسبانه.

بل إننا لابد أن نعلم أن من أنجع وسائل النجاح: القدرة على نبذ الجفاء، وتحويل كل ما يملك من جوارح ومهارات وقدرات إلى أدواتٍ للتواصل المخلص الذي يحقق به الود مع أطراف مجتمعه الأقرب كالأسرة، أو القريب كالمجتمع، أو البعيد كالأمة بأسرها.

وهذه الوصية الربانية إلى النَّبي الحبيب ﷺ أراها قد أخذت مكانها من ذهنك الآن، قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٥٩].

وإني لأرى أن جفوة النفس تدعو المرء إلى التباعد عن مصادر الهداية، فيضل الطريق؛ فربما دعته نفسه الجافية إلى انتهاك الحرمات، والاعتداء على الآخرين وما يملكون، حتى لكأني به لا تؤثِر فيه المصائب، ولا تثنيه البلايا، ولا تذكِّره المواعظ، وما ذاك إلا لتراكم القسوة على قلبه حتى غدت طبقات من الران والغلظ، قال سبحانه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأَنۡعَام الآية ٤٣].

وإني لآسى كثيرًا لحال بعض الزوجات اللواتي يعانين معاناة شديدة من جفوة أزواجهم وقسوتهم عليهنَّ، فلا يقدِّر فيها تعبًا أو مرضًا أو حاجة وضعفًا، وربما اعتدى عليها بالضرب الشديد المبرح، ولربما أيضًا نالت قسوته وجفوته أبناءه وبناته، حتى يغدو وجوده جحيمًا لا يطاق، يخاف أحدهم من الخطأ اليسير، أو الزلل غير المتعمد؛ لأنَّه يعلم أن الحساب عليه سيكون عسيرًا!!

إنني لا أريد أن أستغرق في وصف الجفوة التي تكتوي منها بيوت كثيرة، وإنما أريد أن أقف وإياكم على معالم العلاج لهذا المرض العضال.

فإن أول خطوة في هذه الشأن هو العزم على التغيير، والبحث عن مواطن الحل، والاستشارة فيه، فلعل أكبر مشكلة تواجه الجفاة هو الشعور بأنَّ هذا طبع لا يمكن تغييره!

هاك أخي الحبيب هذه الوصفة النبوية، وكن كصاحب هذا العزم على التغيير نحو الأفضل مهما كان طبع المرء أو عادته، عَنْ أَبِي جُرَيٍّ جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ ﵁ قَالَ: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُحْتَبٍ بِشَمْلَةٍ لَهُ وَقَدْ وَقَعَ هُدْبُهَا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَقُلْتُ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ أَوْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَفْسِهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَفِيَّ جَفَاؤُهُمْ فَأَوْصِنِي، فَقَالَ: لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تَشْتُمْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ أَجْرُهُ وَعَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنْ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَلَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا، فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ أَحَدًا وَلَا شَاةً وَلَا بَعِيرًا) رواه أحمد وصحَّحه محققو المسند.

يجب ألا يستحقر الإنسان قضية الجفاء، بل عليه أن يتذكر أن الاحتراس من الجفاء منطلق له إلى كل فضيلة في الدنيا، ونجاة له من النار، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (الْحَيَاءُ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنْ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني.

وإني لأعلم أن جملة من الناس يعانون في ذواتهم من جفوتهم على من حولهم كما يعانون من صعوبة التغيير، إلا أنني أفتح لهم بابًا من الأمل الحقيقي، فهاهم أولاء أصحاب رسول الله ﷺ كيف كان حالهم قبل الإسلام من الجفوة والقسوة حتى ليقتل بعضهم ابنته بيديه، وتأمل هو حالهم بعد هدايتهم إلى الإسلام السمح الكريم، فغدو رحمة على أزواجهم وأولادهم وجيرانهم بل والناس كافة.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ

فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح الآية ٢٩].

عن سعيد بن عبد الرحمن الزبيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ((يعجبني من القرَّاء كلُّ سهل طلق مضحاك، فأما من تلقاه ببشر ويلقاك بضَرَس [أي بشراسة] يمن عليك بعمله فلا كثَّر في الناس أمثال هؤلاء)).

وكتب عالم إلى من هو مثله: ((اكتب لي بشيء ينفعني في عمري، فكتب إليه: استوحشَ من لا إخوان له، وفرَّط المقصِّر في طلبهم، وأشد تفريطًا من ظفر بواحد منهم فضيعه)).

فالآن عد أيها المؤمن بروح البشاشة، وانثر عبق الحب بين أفراد أسرتك، وتفنَّن في زرع الألفة بينهم، وتودد إليهم، وعلمهم كيف يكون الصفاء، ولنبدأ بالسلام المصحوب بالابتسامة، ولنختم بالسلام، فإن الله هو السلام ومنه السلام.

اللهم اشرح صدورنا، وألِّف على الخير قلوبنا، فإنَّك سميع مجيب.

١٢٩

(لا يَحْقِدُون)

إن الاختلاط بالناس والاشتراك معهم في أحاديثهم وأعمالهم وكثير من شؤونهم ربما أورث بعض المشكلات أو كان سببًا في اختلاف وجهات النظر، وهذا أمر طبعي، والعاقل التقي هو الذي يعطي كل أمر حقه من حسن التعامل، والقدرة على إنهاء الاختلاف بكل ود واحترام، فالإنسان لابد له من الناس، وإلا كيف تقضى حاجته! وكيف يأنس مِنْ دونهم! وإنه في حال الإحسان في التصرف فيما يتولد من خلافات ينال بذلك الأجر العظيم والدرجات العلا من الجنَّة.

أما من وضع غيره في دائرة التهمة دائمًا، حتى حوَّل الخلافات المعتادة إلى قضايا أبدية، وشكَّلها على أشكال الضغائن، فلا يبرح يفكر فيها، ويكيد لغيره المكائد، مطيته في ذلك سوء الظن وتضخيم الأخطاء، فإنَّه قد وقع في شباك الحقد الذي ينتج عنه الغضب أولاً، وربما كظم غيظه ليس طلبًا للأجر، وإنما لعدم قدرته على التشفي في الحال، وتأجيل ذلك إلى وقت إمكان الانتقام، والعياذ بالله.

والسؤال العجيب: هل يمكن أن تكون هذه الضغائن موجهة من مسلم نحو أخيه المسلم! هل إلى هذه الدرجة يضعف المرء أمام وساوس الشيطان ليمكِّنه من قلبه، فيتسلَّط عليه ويوقد نار العداوة بين الأحبة والأصدقاء والأهل والعشائر!

إن خطر الحقد أكبر من أن يوصف، فما أزهقت الأنفس البريئة إلا من جراء الحقد، وما تفرقت الأرواح إلا بسبب الحقد، وما ضعفت الأمم إلا إذا نهشها الحقد بأنيابه المسمومة.

أين سلامة الصدر التي أثنى الله تعالى بها على أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ ٨٤﴾

[الصَّافَّات من الآية ٨٣ الى الآية ٨٤].

ولقد أحبَّ النَّبي ﷺ هذه الصفة فلا يحب أن يتعامل مع غيره إلا بها، فقال عليه الصلاة والسلام: (لَا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ) رواه أبو داود وقال محقق الأصول: حديث صحيح.

وعلى هذا النور سار عباد الرحمن الأخيار، الذين لا يعرف الحقدُ إلى قلوبهم طريقًا، بل الحب والوئام والسلامة والصفاء، قال زيد بن أسلم دُخل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: (ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملِ شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، أما الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا).

قال عنترة:

لا يحمِلُ الحِقدَ مَنْ تعلو به الرتبُ ... ولا ينالُ العلا مَنْ دأبُه الغضـــبُ

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضـغْنَ بعد الضـغْن يفشـُو ... عليـكَ ويُخرِجُ الـدَّاءَ الـدَّفينـا

وقال الهيثم من الأسود النخعي:

بني عمّنـا إنَّ العـدواةَ شــــأنُهـا ... ضـــَغائنُ تبقى في نفوسِ الأقارِبِ

ثم إنك لترى الحقود يعيش حياة كئيبة، مملوءة بالقلق والتوتر؛ لأنَّه قد نزع من الرضا، وحلَّ محله الحنق والحقد، فلا يهنأ له نوم، ولا يستشعر لذة في صلاة، وربما فاته من التدبر والتأمل في كتاب الله تعالى الشيء الكثير؛ لانشغال ذهنه بالضغائن والأحقاد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((من أراد صفاء قلبه فليؤثر اللهَ على شهواته؛ إذ القلوب المتعلقةُ بالشهوات محجوبة عن الله تعالى بقدر تعلقها، القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقُّها وأصلبها وأصفاها، وإذا غُذَي القلب بالتذكُّر وسقي بالتفكُّر ونُقِّي من الدَّغل رأى العجائب وألهم الحكمة)).

وذكر الذهبي أن أبا إسحاق الشيرازي رحمهم الله نزع عمامته وكانت بعشرين دينارًا وتوضَّأ في دجلة، فجاء لصٌّ فأخذها، وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبسها، وما شعر حتى سألوه وهو يُدرِّس، فقال: لعل الذي أخذها محتاج.

فهلاَّ التفتَ من بُلي بالحقد إلى قلبه يُنظِّفه من هذا الدغل المميت، ويُخلِّصه من شوائبه؛ ليسعد بلذة النقاء، فيصفو له قلبه في صلاته وفي تدبره لكتاب ربه، وليكون أكثر سكينة وبهجة بأهله وذريته، وأقدر على أداء أعماله ومهماته من دون كدر، وزد على ذلك كلِّه عافيته وصحته التي سيرى فيها النشاط والقوة حينما ترتاح روحه من أغلال الضغائن، ومهما قلنا فلن نستطيع أن نحذِّر من الحقد أكثر من حديث النَّبي ﷺ حينما قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) رواه مسلم.

وليحاول المرء المصاب بالحقد أن ينشغل عمن يحقد عليه؛ ليرى فيه المحاسن ما استطاع، وأن يعوِّد نفسه أن يدعو له في ظهر الغيب، وأن يمسك لسانه عن غيبته، وأن لا يفرح بذكر غيره له بسوء، وإذا ما بادره بالصلح فليسعد بذلك وليمد له يد المصافحة

والسلام، وإذا ما ناله خير فليفرح له وليبادر له بالتهنئة والدعاء له بالبركة، وليتذكَّر قول الحبيب ﷺ: (لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ)، وليتذكَّر أيضًا أن كل واحد منا لبنة في بناء هذا المجتمع الطيب، يسند بعضنا بعضًا، حتى لا ندع للشيطان ولا لأعداء الدين مطمعًا فينا، ولنتذكر أن الله محيط بكل شيء علمًا وأنَّه لا تخفى عليه سرائرنا، والله رحيم يغفر الذنب، ويستر الخطيئة.

اللهم اغفر لنا ولإخواننا ما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منَّا، إنك سميع مجيب.

١٣٠

(لا يُرْهِبُونَ إلا الأَعْدَاء)

ماذا فهم عباد الرحمن من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال الآية ٦٠].

إنه الاستعداد الحقيقي لمواجهة أي اعتداء على أمة الإسلام، بجمع العتاد، وتدريب رجال الأمن على فنون القتال، وشحذ الهمة في الدفاع عن مقدرات البلاد ومقدسات المسلمين، وغرس محبة الدين وبلاد الإسلام وتعظيم ولاة الأمر في القلوب، حتى يصل ذلك الاستعداد لأعداء الإسلام، فيصيبهم الرعب من المسلمين، فلا يفكرون حينها أن يعتدوا على أرضهم، أو يستبيحوا حرمتهم، أو يدنسوا مقدساتهم.

فالإرهاب إذا كان بهذا المعنى القرآني الذي يحمل معنى تخويف الأعداء والمجرمين والمتربصين بقصد ردعهم عن بلاد المسلمين وكف أذاهم عن الناس فهذا محمود، بل هو من فطرة الإنسان، الذي فطر على حب دينه، والدفاع عن وطنه، والانتصار لأهله، خلف ولي أمر المسلمين.

أما إذا كان الإرهاب يُقصد به الإجرام والاعتداء على الآمنين، وإزهاق أرواح الغافلين، ودب الرعب والفزع في قلوبهم في سبيل الحصول على حطام الدنيا من زعامة أو أموال أو إرضاء لأفكار حزبية ضالة منحرفة، أو تغرير من أعداء المسلمين أو

الحاقدين، ليذهب ضـحية ذلك النسـاء والشـيوخ والأطفال، أو تدمير الممتلكات، والإفسـاد في الأرض بغير الحق، وتعطيل مصـالح الناس الضـرورية أو الحاجية أو حتى التحسـينية فهذا ما لا يرتضيه أي دين سماوي، فضـلاً أن يقره شـرع الله الحنيف الذي نزله على عبده وحبيبه ﷺ الرحمة المهداة للخلق أجمعين، قال سبحانه: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾﴾ [مُحَمَّد من الآية ٢٢ الى الآية ٢٣].

ما أمرَّ طعم الإفسـاد في الأرض، وما أنتن ريحه، يعيش صـاحبه ماصـًا للدماء، لا تشبعه إلا جثث القتلى الأبرياء، ولا يسعد إلا بحرمانهم من حق الحياة الكريمة السعيدة، أبدلاً من أن يكون آمرًا بالوصل والتآلف، يكون ممزقًا لوصلهم، ناثرًا لجثثهم، فأينه من قول الحكيم سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٢٧].

نعم: خاسرون؛ خاسرون لأهليهم، ولدينهم، ولوطنهم، ولأمنهم وطمأنينتهم، لقد كان لهؤلاء فسحة من أمرهم أن إذا اشتبهت عليهم الأمور، أو تسامعوا بعض الحجج أن يردوا ذلك إلى أهل العلم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾ [النِّسَاء الآية ٨٣].

فما أرحم الله بخلقه إذ بعث فيهم محمدًا ﷺ، وما أرحم النَّبي ﷺ بأمته إذ منع أحدهم أن يشير إلى أخيه ولو بحديدة حتى لا يخيفه أو يؤذيه، قال النَّبي ﷺ: (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى يَدَعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ) رواه مسلم.

ويعلل ذلك بقوله ﷺ: (لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ) رواه البخاري.

ونهى كذلك أن يُتعاطى السيف مسلولاً، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ: (أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ، فَأَخَذَهُ فَفَزِعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

بل لقد دعا النَّبي ﷺ على السالكين مسلك التخويف للعباد فقال متحدثاً عن المدينة: (اللَّهمَّ مَن ظلمَ أهلَ المدينةِ وأخافَهُم؛ فأخِفْهُ، وعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجمعينَ، ولا يُقْبَلُ منهُ صرفًا ولا عدلًا) رواه المنذري في الترغيب، وصحَّحه الألباني.

لقد أدرك عباد الرحمن أن طريق الإرهاب طريق مظلم، بدايته نزوة، وأوسطه قسوة، وآخره حسرة، لا يفي بشيء، ولا يوصل إلى شيء، سوى أنَّه تنفيذ لمخططات الحاقدين، وعون لتدبير المعتدين، ولذلك نبذوه وحذَّروا منه.

فإن النفس البشرية خلقها الله تعالى وكفل لها حقوقها ولو كانت على غير ملة الإسلام من المعاهدين والمستأمنين، فلم يبح الله تعالى الاعتداء عليهم، أو النيل منهم، أو الانتقام مما يفعله أقوامهم في المسلمين، بل إن النَّبي ﷺ قال: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) رواه البخاري.

وأي مفاسد عدها ونحصيها حينما تسود لغة القتل والتخريب والإفساد في المجتمع، وكل ينادي بالإصلاح، أو يدَّعي نصرة الدين، أو يزعم بأنَّه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والحقيقة أن هذه الشعارات لو تركت لكل زاعم أو ناقم لسادت الفوضى في بلاد المسلمين، وعمهم العنف، وانتشرت بينهم المصائب، وحل بدارهم الفقر، وتفشت

فيهم الفواحش، فإن الأمن عمود الأمة، إذا سقط فلا يبقى لها دعائم تنهض بها، أو تستند إليها.

وأشد من ذلك أن تتبعثر جهود الأمة، وتبذل طاقتها في غير محلها، بدلاً أن تكون مهابة عند أعدائها، فهل فكر الإرهابيون في جنايتهم على أمتهم بهذا الخروج على أئمتهم، وانحيازهم عن جادة الحق، وهل تراجع العقلاء إلى الصواب ولو تاهت بهم السبل، فإن الحق أبلج، وإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

قال النبي ﷺ: (أَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ) رواه الترمذي وحسَّنه، وصحَّحه الألباني.

فهلا رجعة صادقة إلى الله تعالى، تؤوب فيها القلوب إلى رشدها، وتأتلف النفوس مع أحبابها، تنبذ فيها الترويع، وتدبر عن سفك الدماء البريئة، وتساهم في إعمار الأرض بالخير والمعروف، وتلغي من قاموسها الإفساد والتناحر، وتنضم في سلك جماعة المسلمين، وتجدد الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين، تنصح لهم، وتدعو لهم بالبطانة الخيرة التي تعينهم على الخير وتدلهم عليه؛ لنبقى مجتمعًا متكاتفًا متحابًا، تجمعنا الطاعات، ونستظل فيه بظل الأمن والأمان والطاعة والمعروف والتطور والازدهار.

اللهم اهد قلوب المسلمين إليك، فإنك سميع مجيب.

١٣١

(لا يَبْخَلُون)

إن من الأمور التي قد تغيب عن جملة منا أن المال مال الله تعالى وهو من فضله تعالى، يهب منه لعباده ما يشاء، بالقدر الذي يشاء، وهو الحكيم القدير، وقد فطر الإنسان على حبه فقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفَجر الآية ٢٠].

غير أن منا من يتعدّى هذه الفطرة، فيغرم به غرامًا شديدًا، ويحرص عليه حتى ليشعر أنَّه لا قيمة له إلا به، وأنَّه إذا لم يلهث نحوه لم ينل منه، وإذا نال منه لم يشبع، ويبقى في منافسة شديدة في مضماره، حتى إذا أخذ منه نصيبه لم يحمد ولم يشكر، وتراه ينظر إلى ما في يد غيره أكثر مما في يده، ويزيد على ذلك كله أنَّه يمسكه عن الحقوق الواجبة عليه، ولا يطهره بالزكاة، ولا ينميه بالصدقة، ولا يحن ببعضه على محتاج، سروره إذا قلَّبه بين يديه، وفرحته إذا تابع أرصدته وهي تتنامى بين ناظريه، يشعر بهذا كلِّه وهو يظن أنَّه سيبقى له، أو أنَّه سيلج معه في قبره، أو أنَّه سيؤنسه في لحده، أو أنَّه سيشفع له بين يدي ربه!

إنه البخل داء مقيت للفرد، وتسري جنايته إلى المجتمع.

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البخل ضربان:

أحدهما: بخل الإنسان بمقتنيات نفسه، وبخل الإنسان بمقتنيات غيره، وهو أكثرهما ذمًا: قال الكريم سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٣٧﴾ [النِّساء الآية ٣٧].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((قد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة _ وإن كان ذريعة إلى كل مذمَّة ـــ أربعةُ أخلاق _ ناهيك بها ذمًا _ وهي: الحرص، والشَّرَه، وسوء الظن، ومنع الحقوق، وإذا آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير موجود ولا صلاح مأمول)).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((اعلم أن السخاء والبخل درجات: فأرفع درجات السخاء والإيثار هو: أن تجود بالمال مع الحاجة إليه، وأشد درجات البخل: أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة إليه، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل، فكم بين البخل على نفسه مع الحاجة وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله عز وجل حيث يشاء)).

لماذا يبخل الإنسان عن نفسه أو عن غيره؟

إن هناك اعتقادًا خاطئًا يخالجه في التعامل مع هذا المال، وهو أنَّه يظن بهذا البخل أنَّه قد فعل الخير لنفسه، أو احتاط كثيرًا لحياته، أو أنَّه بذلك يكون أمَّن نفسه من جوائح الزمان، وهو لا يعلم أنَّه بهذا يقع في المحق الشديد، والإفساد الحقيقي لما جمعه، فإنما المال يزكو بالعطاء، وينمو وبالبذل والسخاء.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٨٠].

واعتقاد آخر يسيطر على ضمير البخيل حينما يعتقد أن الفقراء والمحتاجين هم أحوج ما يكونون إلى المال الذي بين يديه، وأنَّه بعطائه لهم قد تفضَّل عليهم، والحقيقة أنَّه إن أعطى فقد أعطى نفسه، وإن أمسك فقد حرم نفسه أيضًا.

قال سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد الآية ٢٠].

لقد كان النَّبي ﷺ من بغضه الشديد للبخل يستعيذ بالله منه فيقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ: الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) رواه مسلم.

والبخل ليس ضرره على البخيل ذاته، بل إنَّ أذاه يتعدَّى لأسرته التي تراها تتضور جوعًا وتلبس ثوب المسكنة والفقر والحاجة ووالدهم يكتنز الأموال الطائلة لا يروا منها إلا النزر اليسير وبالحال العسير، فتصيبهم بذلك المهانة والذلة بين الناس، ولربما طال الحال بهم، واشتدَّت بهم المأساة، وزيَّن لهم الشيطان طرق الغواية من أجل أن يحصلوا على المال ولو بالحرام، وطريق الحرام طريق لا يعرف الحدود الشرعية ولا الأعراف المرعية، من هنا تنتشر الفواحش ويزداد الفجور.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: (خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

قالت أم البنين أختُ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أفٍ للبخيل، لو كان البخل قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته)).

وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا أدري أيهما أشد غورًا في جهنم: البخل أو الكذب)).

وقال بشـر الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((النظر إلى البخيل يقسـي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين)).

وإن من ألدِّ أعداء الصلاح البخل، فهل يكون صالحًا مَنْ يكون بخيلاً!

قال حبيش بن مبشـر الثقفي الفقيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((قعدت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والناس متوافرون فأجمعوا أنَّهم لا يعرفون رجلاً صالحًا بخيلاً)).

ليتذكَّر البخيل هذا الحديث ليرى نفسه أين هو منه:

قال النَّبي ﷺ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصـبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا) رواه البخاري.

وإن من أشدِّ أنواع البخل أن يبخل الإنسان حتى بالسلام على المسلمين؛ إذ لا يكلفه الأمر شـيئًا وهو مع هذا يبخل به، وإذا سـلَّم نال أجرًا عظيمًا، وهو مع هذا يبخل به! قال النَّبي ﷺ: (إنَّ أبخَلَ النَّاسِ مَن بخِل بالسَّلامِ، وأعجزَ النَّاسِ مَن عجز عَنِ الدُّعاءِ) رواه الطبراني وإسناده حسن، وصحَّحه الألباني.

وأعظم منه من يُذْكَرُ النَّبي ﷺ في مجلسه فيستثقل السلام والصلاة عليه ﷺ، فهل هناك أشـدُّ بخلاً منه! قال النَّبي ﷺ: (البخيلُ الَّذي مَن ذُكِرتُ عندَهُ فلم يصـلِّ عليَّ) رواه الترمذي وقال: حديث حسـن صـحيح، اللهم صـل على محمد وعلى آل محمد وصحبه أجمعين.

اللهم إنا نعوذ بك من البخل، فإنك سميع مجيب.

١٣٢

(لا يَتَسَوَّلُون)

إنَّ الوقوفَ عَلى الأَبوابِ حِرْمَانُ ... والعَجْزُ أَنْ يَرْجوَ الإنْسَانَ إنْسَانُ
مَتَى تؤمِّل مَخْلُوقًا وَتَقْصِدُهُ ... إنْ كانَ عِنْدَكَ بِالرْحْمنِ إيمَانُ
ثِقْ بالذِي هو يعطي ذَا ويَمْنَعُ ذَا ... فِي كلِّ يومٍ لهُ في خَلْقِهِ شَانُ

أيها القارئ الكريم: لابد أنك مثلي تستوقفك مناظر المتسوِّلين، ولربما تعجبت كذلك من أنواع الوسائل والأساليب والكلمات والقصص التي يحدثونها أثناء تسوِّلهم وسؤالهم، وتزيد على ذلك كلِّه أنَّك ترى بعضًا منهم يجيد فنونًا ومهارات عالية في السؤال، سواء أكان من الفصاحة والبيان أو القدرة على جذبك وشد انتباهك، وإني حينما أراهم على هذه الحال المزرية تزدحم عليَّ الأسئلة فأقول: أين من يعول هؤلاء؟ ولماذا لا يذهبون إلى الجمعيات الخيرية المنتشرة في بلادنا المباركة؟ ولماذا يعرِّضون أنفسهم وأولادهم وأعراضهم للخطر بل أحيانًا حتى للموت وخصوصًا في الطرقات السريعة ونحوها؟ ولماذا يقفون هذا الموقف المذل وجملة منهم يستطيعون بلا ريب أن يملكوا من الأموال ما الله به عليم لو عملوا الأعمال الشريفة التي تغنيهم بعد الله تعالى؟ أين كرامتهم؟ ولم لا يستحون من مواجهة الناس؟ وكيف استساغوا هذه المهانة؟ وكيف أنسوا بها؟ وكيف تعوَّد أهلوهم عليها ورضوا بها؟

وتزيد الأسئلة ممزوجة بشيء من العطف أحيانًا حينما أرى الأطفال الصغار وعليهم آثار التعب والإعياء وقد تسلَّطت عليهم الشمس من جهة، وقسوة الراعي المتسوِّل من جهة أخرى!

إننا أيها الأحبة نقصد بالتسول على وجه التحديد: طلب الصدقة في الطرق العامة.

والمتسوِّل هو الشخص الذي يتعايش مع التسوُّل، ويجعل منه حرفةً منه ومصدرًا وحيدًا للرزق، ويُعتبر التسوُّل في بلادنا وبعض البلاد جريمة يعاقب عليها، وتتضاعف جريمة التسوُّل إذا هدَّد المتسوِّل أمنَ المجتمع بأيِّ طريقةٍ كانت.

فهل التسوُّل حرام؟ قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((السؤال حرام في الأصل، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، وإنما قلنا: إن الأصل فيه التحريم؛ لأنَّه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأمر الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى؛ إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى.

الأمر الثاني: أنَّ فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه، فإن فيه عزة، فأما سائر الخلق فإنَّهم عباد أمثاله، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى إيذاء المسؤول.

الأمر الثالث: أنَّه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالبًا؛ لأنَّه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلبٍ منه، فإن بَذَلَ حياءً من السائل أو رياءً فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذَّى في نفسه بالمنع؛ إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله، وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء، والسؤال حرام إلا بضرورة)).

لقد وضع النَّبي ﷺ أُسسًا في حِل المسألة، فتأمل ذلك جيدًا في هذا الحديث: ((فعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ ﷺ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ

ثَلاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنْ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا) رواه مسلم.

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البلَى فإنمَّا الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما موتٌ ولكنَّ ذا أشدُّ من ذاكَ لذُلِّ السؤال

إن التسوُّل بوابةٌ مشينةٌ لانحطاط الذوق العام، وطريقٌ مظلمٌ للفقر، وخندقٌ مزرٍ للفضائل، وسدٌ منيع لطلب الرزق الحلال، واستمراءٌ للخداع والكذب، وسبيلٌ للمحق وقلة البركة.

عن حَكِيمِ بْنَ حِزَامٍ ﷺ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ﷺ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ) رواه البخاري.

إن من المحزن حقًا أن ترى المتسوّل يأخذ صفة الاحتراف والتخطيط، حتى وصل إلى مرحلة أن ينطلي على كثير من الناس خداعه، فما عدنا نتفاجأ بعد القبض على هؤلاء أن نسمع بتضخم أرصدتهم في البنوك، وأنهم يملوك الممتلكات الكبيرة والمراكب والمنازل

الفارهة، أو أنَّهم يموّلون الإرهاب أو الأعداء، ولذا لنعلم أن إنهاء التسوُّل في الديار هو مسؤولية الجميع حتى لا يعبث هؤلاء بأموال الناس ولا بأمنهم، يتعب الناس في جلبها بالجد والمثابرة، ويأخذها هؤلاء بالبهتان والمراوغة.

فقلد سمع عمر بن الخطاب ﷺ سائلاً يسأل بعد المغرب، فقال لواحد من قومه: ((عَشِّ الرجل، فعشّاه، ثم سمعه ثانيًا يسأل، فقال: ألم أقل لك عَشِّ الرجل؟ قال: قد عشَّيتُه، فنظر عمر: فإذا تحت يده مِخلاة مملوءة خبزًا، فقال: لست سائلاً، ولكنك تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة، وضربه بالدرة وقال: لا تعد)).

إن عباد الرحمن أبعد ما يكونون عن موقف السؤال المهين؛ لعلمهم بأنَّ كسب التسول من دون حاجة حرام، وإذا احتاجوا فإنَّهم لا يلحُّون في السؤال، حتى قال الله تعالى عنهم: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البَقَرَة الآية ٢٧٣].

ولذا نجد عباد الرحمن أشد الناس حذرًا من التسول خشية الإثم وحرمان البركة وعدم إجابة الدعاء وسوء الخاتمة، أجارنا الله وإياكم من ذلك، فإنَّه سميع مجيب.

١٣٣

(لا يَتَطَيَّرُون)

لا مكان للتشاؤم في حياة عباد الرحمن، ولا مقام للتطيُّر في قلوبهم ولا عقولهم، بل ينبذون ذلك، فهو من بقايا الجاهلية الجهلاء، وتسربات الفساد العقدي الذي جثم على الكفرة والمشركين.

التطير: هو التشاؤم بما يرى من مجيء الطير والظباء ونحو ذلك ناحية الشمال أو بما يُسمع من صوت طائر، كائنًا ما كان وعلى أيِّ حال كان، هذا هو التطير عند العرب.

أما تطيُّر الأعاجم وتشاؤُمهم فهو عندما يرون صبيًا يُذهب به إلى المعلم بالغداة، أو برؤية السقَّاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، أو بالحمَّال المثقل بالحمل، والدابة التي عليها حمل ثقيل.

ولقد عدَّ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ التطير من الكبائر، وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((اعلم أنَّه ليس شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِيَرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدورًا فقد جهل)).

وإنَّ للتطير تاريخًا مع أهل الشرك والإعراض عن الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف الآيتان ١٣٠ ـ ١٣١].

وهو الشأن نفسه في قوم ثمود، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝٤٧﴾ [النَّمْل من الآية ٤٥ الى الآية ٤٧].

تأمَّل حال النَّبي ﷺ في إنكار التطيُّر، وحب التفاؤل، وسر على منهجه وطريقه، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلًا سَأَلَ عَنْ اسْمِهِ فَإِذَا أَعْجَبَهُ اسْمُهُ فَرِحَ بِهِ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِذَا دَخَلَ قَرْيَةً سَأَلَ عَنْ اسْمِهَا، فَإِنْ أَعْجَبَهُ اسْمُهَا فَرِحَ وَرُئِيَ بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهَا رُئِيَ كَرَاهِيَةُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ) رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وقضية التطيُّر أخطر مما يتصوره الناس من التساهل فيها، بل هي تمس عقيدتهم وتوكلهم على الله والعلم بقدرته وعلمه، بل إنها شِرْك بحكم النَّبي ﷺ حيث يقول: (الطِّيرةُ شِركٌ، ثلاثًا، وما منَّا إلَّا [أي: إلا وقد يعتريه التطير وتسبق إلى قلبه الكراهية] ولكِنَّ اللَّهَ يُذهِبُهُ بالتَّوَكُّلِ) رواه أبو داود والترمذي وصحَّحه الألباني.

ولقد دلَّ النَّبي ﷺ المسلم على ما يقوله حينما يحوم حوله التطير أو يكاد أن يقع في قلبه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ) رواه أحمد وصحَّحه الألباني.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف، أما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئًا لم يضره البتة، ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سماعه [ثم ذكر

الدعاء السابق ثم قال علَّل ذلك بقوله:] وذلك لأن الطيرة باب من أبواب الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، وهذا يعظم شأنه على من أتبعها نفسه واشتغل بها وأكثر العناية بها، فتكون إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، فيفتح له الشيطان من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يفسد عليه دينه وينكد عليه عيشه)).

ولقد كان عباد الرحمن من أحزم الناس على أنفسهم في ترك التطير والتشاؤم، بل والإنكار على من سقط في هاويته، قال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((كنَّا جلوسًا عند ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لا خير ولا شر؛ مبادرة منه بالإنكار عليه لئلا يعتقد أن له تأثيرًا في الخير أو الشر)).

وخرج طاوس رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع صاحب له في السفر فصاح غراب فقال رجل: ((خير، فقال طاووس: وأي خير عنده! والله لا تصحبني)).

وقال ابن عبد الحكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لما خرج عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المدينة: قال مزاحم: فنظرت فإذا القمر في الدبران [وهو منزلة من منازل القمر] فكرهت أن أقول له: فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة! قال: فنظر عمر فإذا هو في الدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر في الدبران، إنا لا نخرج لا بشمس وبقمر، ولكن نخرج بالله الواحد القهار)).

الزجرُ والطيرُ والكهّانُ كلُّهم   مضللونَ ودونَ الغيبِ أقفالُ

أيقن ـ يا رعاك الله ـ أن التطير لا يرد شيئًا ولا يسهل شيئًا، وهل عاقل يجعل قدره بين يدي طير أو نحوه! أين حسن التوكل على الله تعالى الذي يجعل من المسلم شخصية

مقدامة غير مترددة ولا خوارة، مقبلة غير مدبرة، لا تعرف الخذلان ولا التراجع عن فعل الخير وصنيعة المعروف، قد امتلأت معرفة بالله وصفاته، لا تعطل من مساعيها الخيرة شيئًا من أجل التشاؤم البغيض، ولا تعود بعد حلاوة الإيمان متقلبة في الجاهلية الظلماء، بل مؤمنة بقضاء الله تعالى وقدره، لا بأفكار الدجالين ولا خرافات الكهنة، مستنيرة بالهدى والنور.

وما عَاجلاتُ الطيرِ تُدني من الفَتَى نجَـاحـًا ولا عَنْ ريثهنَّ قُصـــُورُ

أكثر من الكلمة الطيبة، واستفتح يومك بذكر الله تعالى، وتذكَّر حديث النَّبي ﷺ: (لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ) رواه البخاري.

فإذا عزمت على أمرك، وتوكلت على خالقك، واستشرت أهل العلم والخبرة، وتفاءلت بالنجاح، فتوكل على الله تعالى، تلقى منه الفلاح والنجاح بإذنه سبحانه.

وإن كان من شؤم فإنَّه في ثلاثة ذكرها النَّبي ﷺ فقال: (إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الْفَرَسِ، وَالْمَرْأَةِ، وَالدَّارِ) رواه البخاري.

اللهم زيّنا بالتوكل عليك، فإنك سميع مجيب.

١٣٤

(لا يَحْتَقِرُونَ الآخَرِين)

إن من أروع شيم الإسلام ـ وكل شيم الإسلام رائعة ـ هذا التكريم للإنسان، وحمايته من الأذى بكل أنواعه، فإذا كان الإنسان له تكريم رباني، فإنَّه بذلك لا يجوز لأحد أن ينال من كرامته، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسۡرَاء الآية ٧٠].

ولهذا منع كل المنع من أن تمتد الألسن باستحقاره أو النيل منه.

وإنا نقصد بالتحقير: هو أن يستصغر شخص شخصًا آخر في ذاته أو ما يصدر عنه من معروف يسديه أو نحو ذلك.

ولقد ذمَّ الله تعالى الكفرة والملحدين لاحتقارهم للمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هُود الآية ٢٧].

والدفاع عن الذات المؤمنة هو دأب الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ

وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ [هُود الآية ٣١].

وإن من قواعد الإسلام أن جعل الناس كأسنان المشط، ليس أحد أفضل من الآخر إلا بالتقوى، فهي المضمار الحقيقي الذي ينبغي أن يتسابق الناس في مضماره وبه يتفاضلون، فهل سنتذكَّر قول النبي ﷺ: (لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ) رواه مسلم.

وإن من أشد أنواع الربا المحرم أن يستطيل المرء في أعراض الناس وينهش في لحومهم، ويشيع عيوبهم، وينشرها بين الملأ، فقد قال النبي ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الِاسْتِطَالَةَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

فما أبغض استحقار الناس، إنه يأخذ بالمرء إلى العجب والزهو بالنفس، وما أسرع ما تدور الدنيا، فترى العزيز ذليلاً، فيحوجه الله تعالى إلى من كان يستحقره ويراه في عينه حقيرًا!

فواعجبًا ممن يأنفون أن يصافحوا عُمَّالهم أو يتحدثوا إليهم، أو يمازحوهم أو يؤاكلوهم، وكأنَّهم خلقوا من غير التراب، أو مآلهم إلى غير التراب!

وليس استحقار ذات المؤمن أو شيئًا من خلقه ممنوعًا فحسب، بل حتى ما يصنعه المرء لنفسه أو لغيره من المعروف ولو قلّ، فإن العظيم ما عظّمه الله تعالى، ولو بدا يسيرًا في أعيننا.

قال النّبي الكريم ﷺ: (لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا...، وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنْ الْمَعْرُوفِ وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ الْمَعْرُوفِ، وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنْ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ؛ فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ) رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

ولنعلم أن مقاييس البشر ذات النظر القاصر ليس بشيء أمام عطاء الله تعالى وكرمه على عباده، وإنه قد يبدو لنا بعض الناس أنَّهم أقل منا عملاً أو عبادة أو صلاحًا، ولكن ربما كانوا إلى الله تعالى أقرب بعمل صالح بينهم وبين الله تعالى، فكيف نحتقرهم!!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ) رواه البخاري.

تيقظ لكل فرصة لاحترام الآخرين ولا تتأخر عنها، كبارًا كانوا أو صغارًا، من أهلك أو من غيرهم، من بلدك أو من خارجه، فكلما كنت موقرًا لغيرك كسبت من حب الله لك الكثير، ونلت من إقبال الناس عليك ما ترى فيها سعادة غامرة لك، ويزين ذلك كله إخلاص لله تعالى في الاستجابة لدينه والتسليم لشرعه.

قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((لا تكون عالمًا حتى يكون فيك ثلاث خصال: لا تبغ على من فوقك، ولا تحقر من دونك، ولا تأخذ على علمك دُنيا)) سنن الدارمي.

وأعظم وزرًا من يحتقر العلماء أو القرَّاءَ أو أهلَ الخير أو ينال من أعراضهم أو يدخل في نياتهم بسوء، فهذا قد دخل في دائرة الخطر التي حذَّر منها النَّبي ﷺ وتوعَّد عليها الله تعالى في كتابه العزيز.

فعن عبد الله بن عمر ﷺ أنَّه قال: (قال رجال في غزوة تبوك في مجلس: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلاَ أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلاَ أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر ﷺ: وأنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التَّوْبَة الآية ٦٥])، أورده ابن جرير في تفسيره.

وفي ذلك إشارة إلى ما أنزله الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التَّوْبَة من الآية ٦٤ الى الآية ٦٧].

وإن استحقار الآخرين لا يصدر في الغالب إلا عن كِبْرٍ وغطرسة واستعلاء على الخلق، وإنك لو أمعنت النظر في هؤلاء الذين يبحثون عن السقطات ويذيعون الزلات ويضحكون على الخلق امتهانًا لهم لرأيتهم الذين يستثقل الناس مجالستهم؛ لأن من لا يؤمن على عرضٍ ولا كرامة إنسان، كيف يؤمن على سِرٍ، وكيف يُحْرَص على أخوَّته والتعامل معه!!

فليتذكر كل منَّا ضعف نفسه وعيوبه، ولينشغل بها عن عيوب الناس وأخطائهم ونقصهم، فكلنا ذلك الذي تعتريه النقائص وتنال منه العيوب، ومن أراد أن يستر الله عليه، فليستر على إخوانه.

اللهم استر علينا بسترك الجميل، واغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات، إنك سميع مجيب.

١٣٥

(لا يَخْذُلُونَ المُسْلِمِيْن)

النصرة من شيم العرب الفرسان قبل بزوغ فجر الإسلام، فجاء هذا الدين العظيم فهذَّب هذه الصفة، وجعل الممدوح منها ما كان في نصرة من يستحق النصرة من المستضعفين.

إذ أن الخذلان ليس من الصفات السوية في المرء، فالنجدة عزةٌ وكرامةٌ وشهامة، وأول من استحق وصف الخذلان هو الشيطان؛ لكثرة ما يخذل الإنسان، فكم يمنِّيه بالأماني الكاذبات، ثم يسقطه في مهاوي الرذيلة والخذلان، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفُرْقَان الآية ٢٩].

وإنَّ الشيطان يخدع المرءَ بإغوائه بفعل الفجور في الدنيا ثم يخذله خذلانًا شديدًا في الآخرة، وليس وراء خذلانه إلا الحسرة والندامة، تأمَّل هذا الموقف في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إِبْرَاهِيم الآية ٢٢].

وإن من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير أنَّه نصير المؤمنين ما نصروا دينه حق النصر، قال سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [مُحَمَّد الآية ٧].

وإنَّ أعظم نصرة هي نصرة الله تعالى لعباده، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٦٠].

وما أجمل التناصر بالحق بين عباد الرحمن، حينما يعين بعضهم بعضًا على أداء الواجبات، وترك المنكرات، والتواصي بالحق، هذه هي النصرة التي تزيد بين ألفة القلوب، وتثمر في الدنيا قوة وصلابة ونجاحًا وفلاحًا، قال سبحانه: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزُّخۡرُف الآية ٦٧].

فواعجبًا ممن لا يحتمي من الصداقة المنحرفة التي لا تجتمع إلا على الباطل، ولا تتنادى إلا إلى اللغو، ولا تتناصر إلا على ظلم النفس بالمعصية أو ظلم الآخرين بالاعتداء، تأمَّل موقفها المملوء بالحسرات والخذلان يوم القيامة: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفُرۡقَان من الآية ٢٧ الى الآية ٢٩].

وفي مواقف الوفاء للإخوة الإسلامية وللبلد الكريم، تتبين النفوس الذليلة من النفوس الأبية، حيث تظهر النصرة في أجل معانيها من أصحاب الهمة العالية، الذين لا يضرهم من خذلهم، بل يتمثَّلون قول النَّبي ﷺ: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ) رواه مسلم.

ففي الوقت الذي سينصر هذا الدينَ وأهلَه وديارَه قومٌ من أهل العلم والدين، سيخذله أقوام كانت بغيتهم في الدنيا، ونظرتهم دنيا، وحاجتهم في مصالحهم الشخصية

دون المصالح العامة، قد لعبت بهم الأهواء، وتأرجحت بهم المآرب، فهؤلاء هم أولى الناس بالخذلان في وقت النصرة.

والأُخوَّة ليست ادعاءً لا يسنده عمل، بل إن لم يتبع الأُخوَّةَ صدقُ التناصر في الله تعالى فلا تتصف بالصدق والأمانة، قال النَّبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه البخاري.

ولكن لا يعني ذلك ما يفهمه بعض الناس أن المرء يعين أخاه على الظلم أو الاعتداء على الآخرين أو الاستنقاص منهم أو الاشتراك معه في الانتقام ممن آذاه ولو كان أخوه معتديًا، فهذه جاهلية جهلاء نبذها الإسلام وحذَّر منها، ولهذا بيّن النَّبي ﷺ مقصده في حديثه الذي يقول فيه: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ) رواه البخاري؛ أي تمنعه من ظلمه فهذا من نصرته له، فلا تأخذك الحمية أو النسب أو المصاهرة أن تقع معه فيما لا يحل من أعراض الناس وحقوقهم.

والأمة مطالبة بالانتصار لحقوقها الخاصة والعامة، والذب عن أصولها وشريعتها ونبيها ﷺ وعن كل مستضعف منها على وجه الأرض، فإن لم تفعل ذلك فقد وقعت في الخذلان، وتنكبت عن طريق النصر الحقيقي، أما السبيل إلى ذلك فيقدّره أولوا العلم وولي أمر المسلمين، ومن وضعهم من أهل الرأي والمشورة؛ لتأتي النصرة على وجهها الصحيح، فتتحقق بذلك المصلحة وتدرأ المفسدة، فإذا ما نادى ولي أمر المسلمين بالنصرة والجهاد في سبيل الله تعالى لم يحل القعود لمن وجب في حقه؛ إذ أن هذا تخاذل في وقت النفرة، وتثاقل مصيره الفشل والهزيمة، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ

لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة الآية ٣٨].

وإن لنصرة الحق لذةً لا يشعر بها إلا من ذاق حلاوتها، ويظل المتخاذل عن ذلك محرومًا يعيش دناءة النفس وتقهقرها عن مصاف الشجعان وأهل العزائم.

أسأل الله تعالى أن ينصر عباده الصالحين في كل مكان، إنه سميع مجيب.

١٣٦

(يَنْبُذُونَ الفُرْقَة)

كم ينتابني شــــعور بالفرحة الغامرة حينما أرى أخوين متآلفين، وزوجين متحابين، وصـديقين متلاحمين، وأسرةً متوادة، ومجتمعًا متكافلًا، وشعبًا مجتمعًا على كلمة واحدة، والله إن هذا الشعور لديَّ أجمل من أن يوصف، فما أروع أن نكون صفًا واحدًا لا نأبه إلى العصـــبية أو اللون أو الجنس، بل مهما ابتعدت بنا هذه الأمور تجمعنا كلمة واحدة وهي قول: لا إله إلا الله محمد رســـول الله، بها نحيا وعليها نموت، وبها نبعث، وعليها نلتقي مع الحبيب ﷺ وصحبه الكرام على الحوض، وندلف بها إلى جنة الخلد، ونلقى الله بها وهو عنا راض غير غضبان.

فلماذا الفرقة بيننا في بيوتنا أو في أحيائنا أو في مجتمعاتنا ونحن مســلمون نســمع قول الله تعـالى وهو ينـادينا فيقول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٠٣].

ونفس السياق يحذرنا ربنا من الفرقة المشينة فيقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٠٥].

وإننا لو أمعنا النظر في كثير من أسباب التفرق لا تعدو أن تكون منافسة على دنيا زائلة، أو ســوء ظنون يبثها الشــيطان في نفوس الناس بالوســواس الخناس، فينفخ فيها

فتكبر في صدورهم، فيبيتون وقد أوغرت الصدور وامتلأت النفوس حقدًا ربما تحوَّل إلى سلوك عدواني خطير، فما أسعد الشيطان حينها وما أبهجه بذلك.

عَنْ جَابِرِ بن عبدالله ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ، قَالَ الْأَعْمَشُ: أُرَاهُ قَالَ: فَيَلْتَزِمُهُ) رواه مسلم.

ويقول النَّبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ) رواه مسلم.

ليس التفريق بين الجماعة أمرًا هينًا، إن من يراه أمرًا هينًا لهو قصير النظر، قليل البضاعة، فهل اطَّلع أدعياء الفرقة وزعماؤها على قول النَّبي ﷺ: (مَنْ فَارقَ الجمَاعة واستذلَّ الإمارة، لَقِيَ اللهَ ولا حجةَ له عِنْدَ الله) رواه أحمد وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

إنَّ الاستجابة إلى دعوة الفرقة بين الصفوف لهي استجابة منكرة يتزعمها الشيطان ويتبعه أولياؤه، قف معي مع هذا الحديث النبوي الشريف فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام الآية ١٥٣]) رواه أحمد وصحَّحه أحمد شاكر .

وقل مثل ذلك على مستوى الأفراد، فإن من الناس من ليس له سعي إلا في الوقيعة بينهم، سعادته في تفرقهم، وأخشى ما يخشاه هو تآلفهم، تلك هي الأنفس المريضة البغيضة، التي تسير في مسار الشياطين، وتحقق بذلك آمال الأعداء، فهل ترك النَّبي ﷺ هذا الصنف من التحذير والترهيب! أرع سمعك لقوله ﷺ: (خِيَارُ عِبَادِ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللَّهُ، وَشِرَارُ عِبَادِ اللَّهِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ، الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ [أي: الطالبون العيوب القبيحة للشرفاء المتنزهين عن الفواحش]) رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد وبقية رجاله رجال الصحيح.

فأيُّ سعادة ننشدها إذا تفرقت الصفوف، وأيُّ نجاح ننشده إذا تعددت الرايات، وأيُّ أمنٍ نبتغيه إذا كثرت الزعامات!

خطب عمر بن الخطاب ﷺ يومًا فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِينَا، فَقَالَ: أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ، أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ) رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وهذا نداء من القلب إلى كل مَنْ تمادت نفسه في التحريض على التفريق بين الناس، أو إيغار صدر أحد الزوجين على الآخر، أو صديق على صديقه، أو أخ على أخيه، أناديه من قلبي أن يتوقف عن الإفساد بين القلوب، وليعلم أن الكاسب الوحيد من أيِّ فرقة كبرت أو صغرت هو الشيطان وأولياؤه الذين يسرهم أن نتفرق؛ لأنهم

على يقين أنَّ التنازع لا يخلِّف إلا الفشل، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام الآية ١٥٣] .

وهذه تحية تقدير وعرفان أقدمها إلى عباد الرحمن الساعين في إصلاح ذات البين، والتأليف بين المتخاصمين وجمع شملهم، والسعي في التخفيف من نسب الطلاق، فالشكر لهم موصول، ونسأل الله تعالى لهم مزيدًا من التوفيق والسداد، فإنَّه سميع مجيب.

١٣٧

(لا يَتَنَاجَشُون)

ربما ظنَّ بعض الناس أن الأمة لا تكون قوية إلا بقواتها العسكرية فحسب، أو بكثرة عدد جيشها، وهذا بلا ريب من أسباب القوة والنصر، ولكن لنعلم أن قوة تماسك أفراد المجتمع فيما بينهم هي أقوى الأسباب في منعتها ودوام سلطانها وبث روح التهيُّب منها، فمتى كان أفرادها متماسكين فيما بينهم، يحب أحدهم ما يحب لأخيه، ولا يرضى بأذيته في حديثه معه أو بيعه وشرائه وغير ذلك، كانت الأمة قوية مهابة.

من هنا حرص الإسلام على الوضوح والأمانة والصدق في التعامل، ونبذ كل التعاملات التي تخرم بناء الثقة بين النفوس، ومن ذلك حرَّم التناجش في المعاملات وأحوال الأسرة.

والتناجش له صور عديدة، من أبرزها: أن يشترك الناجش والبائع للسلعة في خداع المشتري بأن يتواطأ كلاهما على ذلك.

الثانية: أن يقع الإغراء من دون علم البائع؛ بأن يبادر الناجش من تلقاء نفسه برفع ثمن السلعة.

الثالثة: انفراد البائع بعملية الإغراء؛ بأن يزعم بأنَّه اشترى بأكثر مما اشتراها به، وربما حلف على ذلك ليغرَّ المشتري، وقد يقع ذلك منه بأن يخبر بأنَّه أعطي في السلعة ما لم يعط.

الرابعة: أن يأتي شخص إلى ولي أمر الفتاة وقد حضر من يخطبها فيذكر مهرًا أعلى ليغرَّ الخاطب بذلك أو يذمها.

الخامسة: أن يمتدح شخص سلعة ما كي تباع، أو يذمها كي لا تنفق على صاحبها وذلك كما في بعض الإعلانات المغرضة التي لا تتفق مع الواقع.

قال ابن بطال: أجمع العلماء على أن الناجش عاص بفعله.

فإذا كان عاصيًا بفعله بسبب نجشه فكيف لو زاد على ذلك بكذبه وافترائه وحلف على ذلك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عِمۡرَان الآية ٧٧].

عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن عمران بن حصين رضي الله عنه كان يقول: ((من حلف على يمين فاجرًا يقتطع بها مال أخيه فليتبوأ مقعده من النار، فقال له قائل: شيئًا سمعته عن رسول الله ﷺ؟ قال لهم: إنكم لتجدون ذلك في كتاب الله، ثم قرأ الآية السالفة الذِكر)).

ولقد نصَّ النَّبي ﷺ على تحريم التناجش فقال: (لَا تَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلَا تُصَرُّوا الْغَنَمَ، وَمَنْ ابْتَاعَهَا فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ بَعْدَ أَنْ يَحْتَلِبَهَا، إِنْ رَضِيَهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ سَخِطَهَا رَدَّهَا وَصَاعًا مِنْ تَمْرٍ) رواه البخاري.

وحرصه ﷺ على زرع الأخوَّة في قلوب أمته هو الذي جعله يمنعهم من هذا كلّه، وقد بيّن هذا في حديث آخر يقول فيه ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) رواه البخاري.

والحزن حقًا أن ترى من يتمادح بالتناجش وألوانٍ أخرى قاتمة من الخداع والمكر بالناس، وأنَّه يستطيع أن يستجلب أموالهم بسبلٍ ملتوية، ويظن هذا مفخرة له، وما علم أن هذا الأمر ليس بالعسير على الأتقياء، ولكن العسير عليهم حسابُ ربهم لو فعلوا ما فعل أو اقترفوا ما اقترف!

عن قيس بن سعد بن عبادة ﷺ قال: (لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: المكر والخديعة في النار، لكنت من أمكر الناس) رواه الطبراني في الصغير وصحَّحه الألباني.

والسؤال: هل يقبل الناجش هذا على نفسه، أو لمن يحب؟ ما الشعور الذي سينتابه حينما يعود وقد أحسَّ بالخديعة من غيره، هل سيحب مَنْ خدعه؟ ألا يخاف أن يدعو عليه؟ لأنَّه ظلمه واستبد بماله من غير حق، وأوقعه في فخ الخسارة عمدًا.

ألا يخاف أن يكون أحد الثلاثة الذين قال فيهم النَّبي ﷺ: (ثَلَاثٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ لَأَخَذَهَا بِكَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ) رواه مسلم.

ماذا سيبقى للمجتمع إذا فَقَدَ الثِّقة بين أفراده، فغدا كل واحد منهم يغش الآخر أو يخدعه؟ ماذا سيحدث في المجتمع حينما تستولي عليه الشراهةُ المالية المغرقة في ماديتها، فما عاد يعيش أهل النجش إلا للمال، فيفقدون لذة التآخي وصفاء الحب والتآلف؟

وليس الأمر يتعلق بالمال فحسب، بل حتى في النكاح، حيث تتحول الفتاة عند بعض الناس إلى سلعة يساومون عليها، ويتكاثرون في صداقها مباهاةً ونجشًا وإلحاقًا

بالضرر على من يريد زواجها خداعًا له، لتُعْمَل له فصول مسرحية مكذوبة ليستنفدوا جيبه، ويأخذها وكأنَّه قد اشترى أيَّ سلعة ما!

قال النَّبي ﷺ: (لا يَسِم الْمُسْلِم عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، ولا يخطُبُ على خِطْبَتِه) رواه مسلم.

ولقد أرشد النَّبي ﷺ مَنْ يشعر بأنَّه يُخْدَع في البيوع بقوله: (إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ: لا خِلَابَةَ) رواه البخاري.

وإني لأجدها فرصة تربوية أن أنبِّه الآباء إلى أن يعلِّموا أولادهم كيف يتبايعون على شرع الله وهدي النَّبي ﷺ وألا يمكر بهم الماكرون، وأن يدربوهم على الأخذ والعطاء المالي الحلال، ويشرفوا عليهم من قرب، ويوجهوهم نحو الصواب، وذلك بدفع بعض الأموال إليهم ليمارسوا بعض ألوان التجارة الحلال، ويساندوهم على الانطلاقة نحو الرزق المبارك، مع تنبيههم على الأخطاء التي تزل فيها الأقدام، فالبركة كل البركة في الحلال الطيب والبعد عن الحرام الخبيث.

أسأل الله تعالى أن يهدينا جميعًا إلى ما يحبه ويرضاه، فإنَّه سميع مجيب.

(١٣٨)

(لا يُطَفِّفُونَ في المِكْيَال)

لم يكن الأمن يختص بصنف محدد من حاجيات الإنسان وضروراته في الحياة، بل إنَّ كل ما يحقق للإنسان عمارته للأرض فهو يحتاج إلى الأمن، وإن من ذلك: الأمن في البيع والشراء، بحيث يأمن المرء بأن يأخذ سلعة صحيحة يشتريها من رجل أمين لا يخدعه ولا يكيد له ولا يُنقصه شيئًا من حقه، فتستقر الثقة في النفوس، وينتشر العدل بين الخلائق، ويسعد الناس بعضهم ببعض، ويبتعد الشك وسوء الظن في تعاملاتهم.

وإننا إذ نتحدث عن التطفيف فإننا نقصد به: الاستيفاء من الناس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير التي يتعامل بها الناس.

ولقد عدَّه ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكبائر؛ لأنَّه من أكل أموال الناس بالباطل، بل هو من جنس السرقة والخيانة، ويدل على عدم الخوف من الله وقلة المروءة، ولهذا كان الجزاء عليه بالويل الذي هو شدة العذاب، أو هو الوادي في جهنم الذي لو سُيِّرت فيه جبال الدنيا لذابت من حرارته، قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المُطَفِّفِين من الآية ۝١ الى الآية۝٦ ﴾ [المُطَفِّفِين من الآية ١ الى الآية ٤].

إن لحظة التطفيف التي يظلم فيها المطفِّف نفسه ويظلم فيها إخوانه هي لحظة ينسى فيها أنه سيقف بين يدي الله تعالى فيسأله عن جرأته على المال الحرام، وسوء طويته، وكدر نيته، وعدم صدق معاملته مع من استأمنوه على أموالهم، واستنصحوه في بضاعته، فماذا سيقول للباري سبحانه إذا وقف بين يديه في يوم عظيم الأهوال، هل نسي هؤلاء تلك اللحظات الرهيبة بين يدي الخالق سبحانه! ماذا سيجدي لهم المال حينها، وماذا ستنفعهم الحِيَلُ في ساعتها!!

والأمر يعظم حينما نعلم أن هذا الداء إذا تفشَّى في المجتمع، وانتشر داؤه، عمَّ البلاء به وحق الجزاء.

قال النَّبي ﷺ: (خمسٌ بخمسٍ، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: ما نقض قومٌ العهدَ إلَّا سلَّط عليهم عدوَّهم، وما حكموا بغيرِ ما أنزل اللهُ إلَّا فشَا فيهم الموتُ، ولا منعوا الزَّكاةَ إلَّا حُبس عنهم القَطْرُ، ولا طفَّفوا المكيالَ إلَّا حُبِس عنهم النَّباتُ وأُخِذوا بالسِّنين) رواه الهيثمي والطبراني وصحَّحه الألباني.

فلنتأمل كيف كان الجزاء من جنس العمل، فحينما يزداد الحرص على الدنيا، وتستطيل اليدُ في الحرام، وتمتهن الأنفسُ الأنفسَ، وتستغفل العقولُ العقولَ يكون الجزاء حينها أن يحرم هؤلاء من نعمة الأمن، ومن نعمة الغيث، ومن نعمة النبات، ويقع بدارِهم الفقر، فهل هذا ما يريده المطففون والجشعون!

فالنَّبي ﷺ لما قدم المدينةَ (كَانُوا من أَخْبَثِ الناسِ كَيْلًا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المُطَفِّفين الآية ١]، أَحْسَنُوا الكَيْلَ بعدَ ذلكَ) كما روى ذلك الحاكم في المستدرك وصحَّحه ووافقه الذهبي وحسَّنه الألباني.

وأمْرُ التطفيف أمرٌ ليس بالجديد على النفس، بل إنه موجود ما وجدت المغالاة في الحرص على الدنيا، أو حينما تقِلُّ الرقابة الذاتية على شح النفس، أو حينما يزيد الطمع وتقل المروءة، فهل سنذكر ما حلَّ بقوم مَدْيَن، مع النصح المتتابع من نبي الله تعالى شعيب عليه السلام لهم، ولكنهم قوم طاغون، لم يستمعوا نصحه الذي حكاه الله تعالى في كتابه فقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود من الآية ٨٤ الى الآية ٨٦].

فلما أعرضوا عن نصحه حلَّ بهم ما حلَّ، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود من الآية ٩٤ الى الآية ٩٥].

والسؤال الذي ينبغي أن يضعه المطفِّف في ذهنه: هل يُحِبُّ أن يُعامَلَ بمثل ما يعامِل الناس؟ هل يحب أن يرى نفسه مخدوعًا مكذوبًا عليه؟ ماذا سيولِّد هذا التطفيف في نفسه إلا الحقد والكراهية والبغضاء لإخوانه!

إن ديننا يرفض هذا حتى مع الكافر فكيف بالمسلم! فهذه قِيَم وموازين قامت عليها السموات والأرض، وبها تعتدل حياة الناس وتستقيم شؤونهم ويقترب بعضهم من بعض، ألا نتذكر قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرَّحْمَٰن من الآية ٧ الى الآية ٩].

إن عباد الرحمن في حذر دائمٍ من أن يطغى على أحدهم حب المال فيجرفه نحو الجشع، أو يضعه في زاوية لا تليق بإيمانه وسمو خُلُقِه، وليخش المطفِّف من دعوات المشترين حينما يكتشفوا عبثه بأموالهم، فهم هنا مظلومون، وهو من ظلمهم، فليتق دعوة المظلوم؛ فليس بينها وبين الله حجاب.

قال الإمام النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((صدَّر الله تعالى سبحانه سورة المطففين بالنعي على قوم آثروا الحياة الزائلة على الحياة الباقية، وتهالكوا في الحرص على استيفاء أسبابها حتى اتسموا بأخسِّ السمات وهي التطفيف)).

إنَّ الأمة بحاجة فعلاً إلى الصادقين الذين يقفون مع إخوانهم موقف الناصح الأمين، وإنَّ وجود ثغرات الخيانة والغش والتطفيف في المجتمع لهي ثغرات تمكِّن الأعداء من صفوفنا لتفرقها، ومن قلوبنا لتخالف بينها.

وأشد من ذلك سوءًا من يورِّث هذا الخلق الذميم لأبنائه في حرفتهم وفي بيعهم وشرائهم، فليعلم أنه يتحمل وزرهم ووزر من يعمل بعملهم إلى يوم القيامة؛ فإنَّ حقوق الناس مصونة بالشرع، وإن لهم من واجب الأمن على الأموال ما يجب أن يدافع عنه، ويعاقب على الإخلال به.

وأجمِل بالمرء المؤمن أن يلقى الله تعالى وقد تميَّز عن غيره بإكرام إخوانه ومكافأتهم والزيادة على ما يطلبونه، لنحقق الجسد الواحد الذي يؤلمه ما يؤلم بعضه، ويبهجه ما يبهج بعضه.

أسأل الله تعالى أن يبارك لنا في عطاياه، وأن يهدينا إلى سبيله، فإنَّه سميع مجيب.

١٣٩

(يَتْرُكُونَ ما لا يَعْنِيهِم)

أمر الله تعالى العبد بتكاليف شرعية، وقلَّده مسؤوليات كثيرة تتعلق بذاته وبأهله وبمجتمعه وبدينه، مما لو شُغل بها على الوجه المطلوب ليؤديها الأداء الصحيح لما بقي له وقت يتدخل به فيما لا يعنيه.

وهكذا كان دأب عباد الرحمن، لا يشغلون أوقاتهم إلا فيما يعنيهم وفيما سخرهم الله تعالى له، آخذين بالقاعدة النبوية العظيمة: (مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرءِ تركُهُ مَا لا يَعْنِيه) رواه الترمذي وحسَّنه النووي وصحَّحه الألباني.

قال ابن رجب: ((وهذا الحديث يدل على أن ترك ما لا يعني من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كله، فقد كمل حسن إسلامه، وقد جاءت الأحاديث بفضل من حسن إسلامه، وأنَّه تضاعف حسناته وتُكفَّر سيئاته، والظاهر أن كثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام، ففي صحيح البخاري أن النَّبي ﷺ قال: (إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكَفِّرُ اللَّهُ عنه كُلَّ سَيِّئَةٍ كانَ زَلَفَهَا، وكانَ بَعْدَ ذلكَ القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بعَشْرِ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، والسَّيِّئَةُ بمِثْلِهَا إلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا))).

ولذا حسن إسلام عباد الرحمن، وأثمرت جهودهم، ولم يبددوا أوقاتهم في القيل والقال، وكثرة السؤال فيما لا ينفعهم، فنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة.

فإن مما لا يعني المرء المسلم: المحرمات، والمكروهات، واللغو، وفضول الكلام، والتطلع على العورات، وتلمس العثرات، والتجسس على الخلق، والشماتة بهم، والاستهزاء عليهم، والنميمة بينهم، والنيل من أعراضهم، والاستنقاص من أقدارهم، أو الطعن في أنسابهم، أو الكيد بهم، أو نحو ذلك مما لا يعنيه، ولا ينبغي الانشغال به؛ لأن مغبته أولاً تعود عليه ثم على المسلمين.

فإن من أراد الوصول إلى الإحسان في أعماله الواجبة والمندوبة والفاضلة لا يبقى له من وقته شيء يجعله في التدخل فيما لا يعنيه.

وإذا تأملت في شأن من لزم هذا الأدب الرفيع، وجدته أكثر الناس سمتًا، وأكثرهم وقارًا، وأصدقهم حديثًا، وأحكمهم قولًا، قال عمرو بن قيس الملائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((مرّ رجل بلقمان والناس عنده، فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني)).

ومن ترك ما لا يعنيه وجد راحة البال، وطمأنينة النفس؛ لأنَّه لم يُشغِل نفسه بحوادث غيره، ولم يلزمها التطلع إلى أحوالهم.

ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((أنَّه دخل بعضهم على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل، فسألوه عن سبب تهلل وجهه، فقال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين)).

ولك أن تعجب ممن يدسون أنفسهم في كل أمر، سواء أفقهوا فيه أم لم يفقهوا، ولربما ترى أحدهم يسألك عن كل شيء، وهو في غنى عن ذلك، فلا يترك أهلاً ولا مالاً ولا وظيفة، ولا ذهابًا ولا إيابًا إلا ويتحرى فيه إجابة منك، وأسوء من ذلك أن يكون التدخل

فيما لا يعني بالأفعال، باستطالة النظر في البيوت، أو في الممتلكات الخاصة كالهواتف النقالة أو نحو ذلك، فإن من بلي بهذا البلاء تراه لا تهدأ نهمته من التطلع المذموم إلا حين يمتلأ بأخبار الناس وأحوالهم مما لا يفيده بشيء.

فإذا أضاف إلى ذلك السعي بما سمع، والنشر له في كل وسيلة متاحة إليه، فهذا أدهى وأمر، وخصوصًا في زمن سهلت فيه نقل الأخبار بالصوت والصورة، وبأيسر السبل والوسائل.

كثيرًا ما يندم هؤلاء على جنايتهم على أنفسهم بهذا التدخل فيأسفون لما فعلوا، ويعرِّضون أنفسهم للاعتذار.

ولا يدخل في ذلك البتة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، والإصلاح بين الناس وإرشادهم، والدعوة إلى الله، والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إنه هذا مما يحسن الانشغال به ولكن بالضوابط الشرعية التي شرعها الإسلام لإقامتها، وإذا كانت الدولة المسلمة أقامت هيئات ومؤسسات خاصة تنهض بهذا العبء فالأكمل هو الانطلاق منها والتواصل معها، فهذا أدعى إلى الإحسان والانضباط في الوصول إلى النتيجة المرجوة.

قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّسَاء الآية ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾

[التَّوْبَة الآية ١٢٢].

وليس من التدخل فيما لا يعني: السؤال عن أحوال المحتاجين لمساعدتهم والوقوف معهم، فقد قال ﷺ: (تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى) رواه البخاري.

فليراجع كلنا نفسه في شأن الانشغال بإصلاح ذاته والمساهمة في مساعدة من حوله، وكلّما كنا أبعد عن التربص بالناس كلّما كنا أكثر محبة لهم، وأكثر تلاحمًا وترابطًا وإنتاجًا.

اللهم استعملنا فيما يرضيك عنّا، فإنّك سميع مجيب.

الخَاتِمَة

(عُقْبَى عِبَادِ الرْحمن)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفُرْقَان من الآية ٧٥ الى الآية ٧٦].

١٤٠

(أَصْحَابُ الجَنَّة)

لقد عشنا في رياضٍ كريمةٍ مع صفات عباد الرحمن الأخيار، وحان الوقت للحديث عمَّا أعدَّه الله لهم رحمةً منه وفضلاً وجزاءً بما صبروا وعملوا من الطاعات والقربات، تلكم الجنَّة مقام النَّبيين والصدِّيقين والصالحين والشهداء وحَسُنَ أولئك رفيقًا، فما شأنهم في الجنَّة؟ وكيف حالهم في تلك الغُرَف العالية؟

فإنَّ الله تعالى بشَّرهم بعد أن وصفهم بصفاتهم الرائعة فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفُرقان من الآية ٧٥ الى الآية ٧٦].

فما أشدَّ الشوق إلى تلك الجنان، التي سنعيش في أفيائها عددًا من الصفحات، نحلِّق في ذِكر ذلك النعيم الأبدي، والخلود السرمدي، نسأل الله أن نكون من أهلها.

فما أكثر ما يُبْهَر المرء حينما تقع عينه على قصر من قصور الدنيا، فيرى فيه ما لم ير في بيته: من الحدائق الغناء، والمروج الجميلة، والمياه المتدفقة، والإضاءات المبتكرة، والفرش الوثيرة، والمجالس الفسيحة، فكيف إذا انضم إلى ذلك الخدم والحشم، والاستقبال والتوديع، هنا تجد أن بعضنا يتمنَّى أن لو كان له مثل ما لهذا الثري من القصور الفارهات، والمراكب الفخمة، وربما أصابه الأسى لقصور ذات يده، أو لقلة حيلته، فما أقصر نظر الإنسان، وما أشد تشبثه بالدنيا، وما أكثر ما تعلَّق قلبه بها، حتى إنه ليحزن إذا فاته شيء منها، أو تطغيه إذا كثرت زهرتها، الله أكبر! فكيف لو رأى المرء ما أعدَّه الله لعباد الرحمن في جنات النعيم!

متى قرأنا عن الجنَّة؟ متى تحدَّثنا عنها؟ كم مرة نذكرها في اليوم؟ متى شعرنا بتجدد الشوق إليها؟ هل تلذَّذنا بذكر وصفها حينما نسمعه في كلام مَنْ خلقها وأوجدها سبحانه؟ هل هفت قلوبنا إلى نعيمها الدائم؟ هل وصفناها إلى أبنائنا وبناتنا؟ إنها الجنَّة التي قال فيها خالقنا سبحانه في الحديث القدسي: (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجْدَة الآية ١٧]) رواه البخاري.

وهل تصحُّ الموازنة بين نعيم الدنيا الفاني، وبين نعيم الجنَّة الباقي!

إنَّ تلك البهارج الدنيوية التي يتكئ عليها المترفون، وتشرئب له أنفس المحتاجين لا تساوي شيئًا أمام العظمة الأخروية في الجنَّة العليَّة، قال النَّبي ﷺ: (مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) رواه البخاري.

إنها جنة الله التي تنتظر الصالحين ليست مسكنًا فحسب، بل هي الفوز العظيم، قال الكريم سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٨٥] .

أرأيتم أننا في غرور من أمرنا حينما نذهل من فتنة الدنيا وأهلها؟ لأنَّها بصيحةٍ واحدة سترحل من غير رجعة، فما أشد غرورنا بها، وما أكثر عملنا من أجلها!

فهل حق الجنَّة أن نقصِّر في العلم بما أعدَّه الله فيها؟ أليست هي التي وعدنا ربنا لنفوز بها فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوْبَة الآية ٧٢].

أليست هي التي سيساق المؤمنون إليها زُمَرًا معززين مكرمين، تغمرهم سعادة لا توصف، وفرحة لا تحد، حتى إذا وصلوا إليها وفُتِحت أبوابها، واستقبلتهم الملائكة الكرام، يهنئونهم بفوزهم بها، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزُّمَر الآية ٧٣].

ذاك موقف عظيم يحدث بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط على قنطرة بين الجنَّة والنار، ثم يهذَّبون وينقَّون بأن يقتص بعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا، حتى لا يدخلوا الجنَّة وإلا وقد صاروا أطهارًا أبرارًا، ليس لأحدٍ عند آخر مظلمة، ولا يطلب بعضهم بعضًا شيئًا، كما صحَّ عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: (إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا)؛ أي يعرف منزله في الجنَّة أكثر من معرفته بمنزله في الدنيا، والحديث رواه البخاري.

ويغلب الشوق عباد الرحمن إلى دار النعيم، ويحيط بهم التطلع إليها، كيف وقد أمضوا حياتهم في عبادة الله تعالى، والسير على منهج حبيبه ﷺ، وعمروا أوقاتهم بالخير والبرِّ والإحسان، فقد جاء وقت الجائزة، فيجيئون وقد أحسنوا الظن في خالقهم، وأيقنوا أن الجنَّة لن يدخلها المرء بعمله وإنما يدخلها برحمة ربه.

تخيَّل نفسك وقد وقفت على أعتاب الجنَّة، مع والديك الطيبين، وزوجتك المؤمنة، وأحبتك الصالحين، وأولادك الأخيار، وجيرانك من أهل الصلاح والعبادة، وقفتم هناك وما أجمل الوقوف على أعتاب الجنَّة لانتظار أن تُفتح أبوابها.

ومن سيفتح أبوابها؟ يخبرنا حبيبنا ﷺ بهذا الحدث وهو الصادق المصدوق ﷺ فإنَّه قال: (يَجْمَعُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجنَّة، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ! ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، قَالَ: وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ، وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا) رواه مسلم.

فيكون النَّبي ﷺ أول من يقرع باب الجنَّة، فأي فضل هذا! فضلٌ على فضل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ) رواه مسلم.

وبفضل الله الكريم أمة الإسلام أول الأمم دخولاً الجنَّة، قال النَّبي ﷺ: (نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ) رواه مسلم.

وليتذكَّر من تتثاقل خطواته عن المسجد، أو تبخل يده عن الإنفاق في سبيل الله، أو استمرأت نفسه المعصية، أو أَنِستْ روحه بأهل الذنوب والمعاصي، فليتذكر الجنَّة، فإنَّها سلعة تحتاج إلى ثمن، والثمن الطاعة والاستسلام لأمر الكريم المنان، سعادة يفرح بها في الدنيا، وكرامة يعتز بها في الآخرة.

وإنَّ الكرم يتضاعف من الكريم سبحانه على سبعين ألف من قوم من المؤمنين، على قدر عظيم من الإيمان والتقى والعمل الصالح والاستقامة على الدين، سيدخلون الجنَّة من غير حساب ولا عقاب، صفًا واحدًا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ومع كل واحد سبعين ألفًا.

قال النَّبي ﷺ: (أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا) رواه أحمد وصحَّحه الألباني بشواهده.

ولعلك تطلَّعت إلى صفات هؤلاء الأصفياء الأنقياء، فقد وصفهم النَّبي ﷺ فقال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي قَالَ لَا وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ قُلْتُ وَلِمَ قَالَ كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ) رواه البخاري.

***

أيها الأحبة: ويسبق الفقراءُ من المؤمنين غيرهم في الدخول إلى الجنَّة، فيا بشرى للفقراء المعوزين الصابرين، سوف تسبقون أهل الرفاهية والغنى بأربعين عامًا، وفي حديث آخر بخمسمائة عام.

أما الجهنميون، فهم عصاة المؤمنين الذين سيدخلون النار ثم يخرجون منها إلى الجنَّة، حكى النَّبي ﷺ ذلك فقال: (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ [جماعات جماعات] فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ) أي ما يحمله السيل من الطين، رواه مسلم.

وقال ﷺ: (إِنَّ قَوْمًا يُخْرَجُونَ مِنْ النَّارِ يَحْتَرِقُونَ فِيهَا إِلَّا دَارَاتِ وُجُوهِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) رواه مسلم.

وإنما يكون خروج هؤلاء بشفاعة الحبيب ﷺ _ لا حرمنا الله وإياكم منها _ فقد قال ﷺ: (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ) رواه البخاري.

والله أكبر ما أعظم السجود لله رب العالمين، فإنَّ أثره ـ ولو كان صاحبه من أهل المعاصي ـ لا يذهب خيره حتى في الآخرة، فقد قال النَّبي ﷺ: (حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا [أي: احترقوا]،

فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ) رواه البخاري؛ أي: فيَنبُتونَ كما تَنبُتُ البَذرةُ المَزروعةُ في جانبِ ماءِ السَّيلِ وتُربتِه، فيَنبُتُ نباتُها في سُرعةٍ مع ضَعفٍ، فتَخرُجُ مِن الأرضِ عندَ بِدايتِها صَفراءَ اللَّونِ، جَميلةَ المنظَرِ، مُنعطِفةَ الأوراقِ، ثمَّ تَتمدَّدُ وتَتفتَّحُ أوراقُها بعدَ ذلك، وهذا ممَّا يَزيدُ الرَّياحِينَ حُسنًا.

وقال النَّبِيّ ﷺ: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ) رواه البخاري.

ورأى النَّبي ﷺ الجنَّة، فقال: (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ) رواه البخاري.

أيها الطيبيون والطَّيِّبات: لو استذكر المؤمن هذا النعيم ما جرأت نفسه أن يفرط منه شيئًا، وما جرأت نفسه على ارتكاب المعصية التي تباعده عنه، ولما ألهته دنياه الزائلة عن آخرته الباقية، ولما شغفت نفسه باللهو، أو تعلق قلبه باللغو، بل تراه مشغول البال برضى الديان في عبادته وحسن خلقه وأداء ما يجب عليه من الحقوق والواجبات غير مبالٍ بفتنة الدنيا وشهواتها الفانية.

وما بالكم برجل يأمر الله تعالى ليكون آخر من يخرج من النار حتى لا يبقى فيها إلا الكفار والمشركون، إنه الأخير الناجي حقًا، فهل بعد النجاة من النار نجاة! أي فرحة هذه! وأي سعادة هذه! تأمَّل بمجامع قلبك لحكاية هذا الرجل، فمن يدري من يكون هذا الرجل!

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النَّبي ﷺ: (آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهْوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ

الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ؛ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ [أي: ما الذي يقطع مسألتك ويرضيك]؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ) رواه مسلم.

وفي رواية لمسلم أيضًا: (وَيُذَكِّرُهُ اللَّهُ: سَلْ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ هُوَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ،

فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ).

فيا هناء المتقين، ويا فرحة الصابرين، صبروا على فعل المعروف، وصبروا على ترك المنكر، وصبروا على البلاء، وشكروا في السّراء، وعبدوا ربهم حق عبادته، فهناك الجزاء الكريم، والفرحة العظمى؛ حيث تنسى الهموم، وترفع الغموم، ويرضى الحي القيوم.

***

إنها الجنَّة الخالدة، وأهلها الخالدون، نعيمها يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقَّى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا بالنسبة لنعيم الآخرة، فالجنَّة: نورٌ يتلألأ، وريحانةٌ تهتز، وقصرٌ مشيد، ونهرٌ مطَّرِد، وفاكهةٌ نضيجة، وزوجةٌ حسناءُ جميلة، وحُللٌ كثيرة، في مقامٍ أبدًا، في حبْرةٍ ونضرة، في دورٍ عاليةٍ سليمةٍ بهية.

وإنَّ أبوابها ثمانية، وإنَّ أحدها يقال له: الريان، وهو خاصٌ بالصائمين، فقد قال رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ) رواه مسلم.

وهناك بابٌ لأهل الصلاة، وبابٌ لأهل الصدقة، وبابٌ لأهل الجهاد في سبيل الله، فقد قال ﷺ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا

عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ؛ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ) متفق عليه.

فرضي الله عن أبي بكر الصديق وأرضاه، ما عُرِف إلا طموحًا، وما سابقه أحدٌ إلا كان هو الأسبق.

وأنت أيها المؤمن أما اشتقت أن تُفتَح لك الأبواب الثمانية كلها، فتدخل من أيها تشاء؟ إنه عملٌ يسير بقلبٍ مخلص، يقول فيه الحبيب ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ) رواه مسلم.

كما أخبرنا النَّبي ﷺ أنَّ الذين يدخلون الجنَّة من غير حساب ولا عقاب لهم بابٌ خاصٌ يدخلون منه دون غيرهم وهو باب الجنَّة الأيمن، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة: (فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى) رواه البخاري.

وقال ﷺ: (أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنْ الزِّحَامِ) رواه مسلم.

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص من الآية ٤٩ الى الآية ٥٤].

فضـــل من الله تعالى على عباده الأتقياء الأنقياء، يرحمهم ويســـترهم ويغفر لهم ذنوبهم، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام الآية ٥٤]، وســيفرحهم بدخول الجنَّة زمرًا وجماعات مزدحمة، يستقبلون الحياة الأبدية السعيدة، التي لا يشقون فيها أبدًا، ولا يحزنون فيها أبدًا، فما أغناهم بفضل ربهم، وما أسعدهم بمغفرته.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا
٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ
ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مَرْيَم من الآية ٦١ الى الآية ٦٣].

وإن كان الناس يتفاوتون في درجاتهم الدنيوية، فإن تفاوتهم في درجات الجنَّة أكبر، وإنما يكون ذلك بتفاوتهم في العمل الصـــالح والإخلاص فيه، والمداومة عليه، والمجاهدة في الاسـتقامة عليه، قال الله تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا
كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّـــلۡنَا بَعۡضَـــهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ
أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسْرَاء من الآية ٢٠ الى الآية ٢١].

فما أبخل بعضـــنا في حق نفســـه، شـــغلها بحب درجات الدنيا والترفع فيها، وربما الافتخار والاعتزاز بها، وما علم أنَّه كلَّما ارتفع شأنه في الدنيا فقد اقترب موعد حسابه في الآخرة، فنهاية درجات الدنيا قبرٌ وســـؤال، ونهاية درجات الجنَّة الفرح والســـعادة والرضا.

وإن درجات الجنَّة مائة درجة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَســـُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي ســـَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ

الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) رواه البخاري.

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ: (أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ؟ ــ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ ــ فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى) رواه البخاري.

وإن في الجنَّة غرفًا لأصحاب المنازل العليا من أهل التقى، وإنَّ نعيمهم أبلغ من نعيم من دونهم، ينظر إليهم أهل الجنَّة كما ينظرون إلى الكوكب البعيد، قال النَّبي ﷺ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ) رواه البخاري ومسلم.

***

ولقد سأل موسى عليه الصلاة والسلام ربه عز وجل عن أعلى مَنْ في الجنَّة وأدنى من الجنَّة؟ فقال ـ عمن هو أدنى أهل الجنَّة ـ: (هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ،

قَالَ: وَمِصْـــدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السَّجْدَة الآية ١٧]) رواه مسلم.

أما أعلى منزلة في الجنَّة فهي منزلةٌ لشخصٍ واحد تُسمى الوسيلة، سينالها النَّبي المصطفى المختار خيرة خلق الله من خلقه نبينا محمد ﷺ، فما أعظم التكريم من الكريم، وما أعلى المنزلة لصاحب المقام الأرفع، والجبين الأزهر، من حمل همَّ أمته في الدنيا ولم يتركهم حتى في الآخرة، قال النَّبي ﷺ: (إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ) رواه مسلم.

وإذا كان هذا للنبي ﷺ فإن لنا الفضل العميم من الرحمن الرحيم، فإن من الذين ينزلون المنازل العليا من الجنَّة كافل اليتيم، فقد قال النَّبي ﷺ: (كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) رواه مسلم.

ومنهم كذلك الآباء الذين يستغفر لهم أبناؤهم، فترتفع درجاتهم بهذا الاستغفار، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إنَّ الرَّجلَ لتُرفَعُ درجتُه في الجنةِ فيقولُ: أنَّى هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ ولدِك لكَ) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني.

فما أروع كفالة الأيتام والإحسان إليهم، وما أجمل بِر الوالدين والإحسان إليهما، والتفاني في إرضائهما، وأبشروا بالسَّعد في الدنيا، والفرحة معهم في الآخرة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وإذا كانت النفوس تعشق مناظر الرمال الجذَّابة، وتتعلق بالترحال فيها، ويأسرها تموُّجها العجيب، فما بالكم بتربة الجنَّة! قال النَّبي ﷺ: (أُدْخِلْتُ الجنَّة، فإذا فيها جَنَادِلُ اللؤلؤ، وإذا تُرَابُها المِسْك) رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر: (ملاطُها المسكُ الأذفرُ، وحصباؤُها اللُّؤلؤُ والياقوتُ، وتُربتُها الزَّعفرانُ، مَن دخلَها ينعَمُ ولا ييأسُ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

أما أنهار الجنَّة ـ سقانا الله وإياكم منها ـ فقد بشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بأنَّها تجري من تحتها الأنهار، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [البَقَرَةِ الآية ٢٥].

وهي أربعة أنهار، ففي إسرائه ﷺ: (رَأَى أَرْبَعَةَ أَنْهَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الْأَنْهَارُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ) رواه مسلم.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (سَيْحانُ وجَيْحانُ، والْفُراتُ والنِّيلُ كُلٌّ مِن أنْهارِ الجَنَّةِ) رواه مسلم.

ومن أنهار الجنَّة: الكوثر الذي أعطاه الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكَوثَرِ الآية ١]، قال النَّبي ﷺ: (بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ) رواه البخاري.

وجاء في بعض أوصافه: أن ترابه المسك، وماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طيور أعناقها مثل أعناق الجزور، وأن خيره كثير.

وأنهار الجنَّة ليست كلها ماء فحسب، بل منها ما هو ماء، ومنها ما هو لبن، ومنها ما هو خمر، ومنها ما هو عسل مصفًّى، قال الكريم سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [مُحَمَّد الآية ١٥].

ولقد حرص عباد الرحمن على أكل الحلال، والبعد عن الطعام الحرام، رجاء أن يستلذِّوا بأنهار الجنَّة التي أعدت للمتقين.

وهم المتقون الذين أعدت لهم العيون المختلفة في مطعمها ومشربها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحِجر الآية ٤٥].

وفيها عينان لمن خاف مقام ربه، فامتنع عن المعاصي، وأقلع عن الذنوب، وقام بالواجبات، ولم يتأخر عن الحقوق، ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾ [الرَّحۡمَٰن الآية ٥٠]، ووصف الجنتين اللتين دونهما فقال سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾ [الرَّحۡمَٰن الآية ٦٦].

ومن عيونها: عين مزاجها الكافور، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾ [الإنسَان الآية ٥]، وعين مزاجها التسنيم، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المُطَفِّفِين من الآية ٢٧ الى الآية ٢٨]، وعين مزاجها السلسبيل، قال تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨﴾ [الإنسَان من الآية ١٧ الى الآية ١٨].

فما أعذب عيون الجنَّة، وما ألذَّ مذاقها، وما أحلى تدفقها الذي يسلب الألباب، تذكَّرها جيدًا حينما تستعذب كل مشروب تحبه، وأيقن بأن الفارق لا يمكن أن يطرأ على بالك، أو تتوقعه نفسك، إنما ستجده في لذة ركعة تخفيها في السَّحَر، وصدقة سخية تعطيها يمينك خفية عن شمالك، وبرٍّ في والديك تحتسبه عند ربك، وعفوٍ كريم تطلب به رضا ربك.

هذه عيون الجنَّة فما قصورها؟ إنها المساكن الطيبة، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبَة الآية ٧٢]، وهي الغرفات الآمنات من كل اضطراب أو خوف أو قلق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سَبَإ الآية ٣٧].

فيا هناء أهل الإيمان، وهناء أهل الصلاح، ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزُّمَر الآية ٢٠]، مبنية: طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات، قال النَّبي ﷺ في وصفها: (إنَّ في الجنَّةِ غُرفًا تُرى ظُهورُها من بطونِها وبطونُها من ظُهورِها، فقامَ أعرابيٌّ فقالَ: لمن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ فقالَ: لمن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيامَ، وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

تلكم الغرف التي تشتاق إليها نفوس الأتقياء الأصفياء، فحي هلاً إلى طريقها طريق الاستقامة والصلاح، فهل نعجز عن أن ننال غرفة من غرف الجنَّة بحسن الكلام، أو إطعام الطعام، أو الصلاة لله والناس نيام!

***

ولمن يعشق الخيام وجمالها، ففي الجنَّة خيامٌ وأيُّ خيام، فهل نتحدث عن داخلها أو خارجها! تحتار الأرواح كيف تبدأ وكيف تنتهي! قال تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ [الرَّحۡمَٰن الآية ٧٢]، وهي ـ أيها الطيبون ـ خيامٌ عجيبة، فهي من لؤلؤ، اللؤلؤة الواحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً، قال ﷺ: (فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ؛ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُ) رواه مسلم.

ولقد فاز بعض صحابة رسول الله ﷺ ببشرى النَّبي ﷺ ببيتٍ في الجنَّة، وعلى رأسهم أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا حيث جاءتها البشرى الكريمة من الكريم سبحانه، ونقلها جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ) رواه البخاري.

ومنهم عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ؛ فقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشَفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعُمَرَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ عُمَرُ: بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعَلَيْكَ أَغَارُ!) رواه البخاري.

ومن أراد بيتًا في الجنَّة فعليه ببناء المساجد، فقد قال ﷺ: (مَنْ بَنَى مَسْجِدًا ـ قَالَ بُكَيْرٌ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: ـ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ) رواه البخاري.

والأمر أسهل من هذا بكثير ممن لم يقدر على هذا، فإن النَّبي ﷺ قال: (مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ، قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) رواه مسلم، فكم واحدٍ منا الآن سمع بهذا الحديث وعزم

ألا يتركها حتى يموت، ليبني الله له بيتًا في الجنَّة! فكم تشغلنا الدنيا، وتثقلنا همومها، ويضيّعُ لهوُها علينا كثيرًا من الأوقات لتفوت علينا مثل هذه الركعات! عجبًا لهذه النفس؛ لا تزال في لهث خلف سراب الدنيا، حتى إذا أتاها الموت عرفت ما ينفعها وما يضرها!

أمَّا نور الجنَّة، فهو دائمٌ أبدًا، والجنَّة ليس فيها شمس ولا قمر، ولا ليلٌ ولا نهار، ولكن تُعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش كما ذكر ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويعرف مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

أما رائحة الجنَّة، فما أزكاها من رائحة، فإنَّها تملأ جنباتها عبقًا وطيبًا، يجدها المؤمن من مسافات بعيدة، فقد قال النَّبي ﷺ: (مَن قَتَلَ مُعاهَدًا لَمْ يَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وإنَّ رِيحَها تُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ أرْبَعِينَ عامًا) رواه البخاري، وفي رواية: (من قَتَل رجلًا من أهلِ الذِّمَّةِ، لم يَجِدْ رِيحَ الجنَّة، وإن رِيحَها لَيُوجَدُ من مَسِيرَةِ سبعين عامًا) رواه النسائي وصحَّحه الألباني.

وإنَّ هذه الرائحة الزكية أخبر النَّبي ﷺ أن هناك من يُحرَم منها حينما يقتل ذميًا أو معاهدًا في بلاد المسلمين، ويحرم منها من يطلب العلم لغير وجه الله تعالى، أو امرأة تسأل زوجها أن يطلقها من غير بأس والعياذ بالله.

وإن سألتموني عن أشجار الجنَّة، فهي طيبة ومتنوعة، ففيها أشجار العنب والنخل والرمَّان، كما أن فيها أشجار السِّدر والطَّلح، ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ٣٢﴾ [النَّبَإِ من الآية ٣١ الى الآية ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾ [الرَّحۡمَٰن الآية ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨

وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الوَاقِعَة من الآية ٢٧ الى الآية ٣٣].

وأمر الأطعمة أمرٌ لا يمكن تصور لذَّته ولا الشبع منه في الجنَّة، فقد قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُّخرُف من الآية ٧٠ الى الآية ٧١].

وهذه الأشجار دائمة الإثمار والعطاء ليس لها موسم محدد لا تعطي دونه، فقد قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرَّعْد الآية ٣٥].

ومن لطائف ما يجده أهل الجنَّة أنَّهم إذا أعطوا الثمرة وجدوها متشابهة في الشكل مع ما كانوا يأكلونه في الدنيا، فيقولون: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البَقَرة الآية ٢٥]، أو أنَّه يتشابه عليهم الطعام في الجنَّة في شكله، ولكن طعمه مختلف، حتى يقول لهم الولدان المخلدون: كُلْ، فالشكل واحدٌ، والطعم مختلف.

وإنَّ أشجار الجنَّة ذات فروع وأغصان نامية باسقة، وإنها لمن خاف مقام ربه؛ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الرَّحْمَن من الآية ٤٦ الى الآية ٤٨]، وإنَّها لشديدة الخضرة والاشتباك؛ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ [الرَّحْمَن من الآية ٦٢ الى الآية ٦٥]، وقطوفها دانية؛ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرَّحْمَن الآية ٥٤]،

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان الآية ١٤]، وظل هذه الأشجار ممدود؛ فقد قال الكريم سبحانه: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠﴾ [الواقعة الآية ٣٠].

حتى قال النَّبي ﷺ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا) رواه البخاري.

وفي الجنَّة سدرة المنتهى، وهي عند جنة المأوى، ونبقها مثل قلال هجر، وورقها مثل آذان الفيلة، تكاد ورقتها تغطي هذه الأمة، رآها النَّبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النَّجم من الآية ١٣ الى الآية ١٧].

وإنَّ: (سيد رَيْحانِ أهْلِ الجنَّةِ الْحِنَّاءُ) كما أخبر النَّبي ﷺ في حديثٍ رواه الطبراني وصحَّحه الألباني.

وهل علمنا أن سيقان أشجار الجنَّة من الذهب؟ قال النَّبي ﷺ: (ما في الجنَّةِ شجرةٌ إلّا ساقُها مِن ذهَبٍ) رواه ابن حبَّان وحسَّنه الأرناؤوط.

وجاء السؤال: كيف يكثر الإنسان من أشجار الجنَّة؟

لقد أجاب النَّبي ﷺ عن ذلك فقال: (لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

فيا بركة الأوقات لدى المستثمرين من المؤمنين الذين لا يزال لسانهم رطبًا بذكر الله، حتى غرسوا لأنفسهم من أشجار الجنَّة ما لا يحصيه إلا الله سبحانه، ذلك لأنهم لم يشغلوا

ألسنتهم بالقال والقيل، أو اللغو واللهو، بل بقولٍ يحبه الله ورسوله، ويعود على قلوبهم بالطمأنينة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعۡد الآية ٢٨].

***

وإنَّ الطريق إلى الجنَّة ليس محفوفًا بالدعة، ولا بالأماني الكاذبة، ولا بالزيف ولا المخادعة للنفس، وإنما محفوف بالمكاره وبالابتلاءات، قال النَّبي ﷺ: (حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) رواه مسلم.

أن تترك لذائذ المحرمات، وتصبر على ذلك، وتفعل الطاعات وأنت تجاهد نفسك، كلها وأمثالها طرق لكسر حجاب المكاره والوصول إلى الجنات، أما من أرخى لنفسه العنان، فاستجاب لغريزته فمتَّعها بالحرام، أو لبَّى وسواس الشيطان فسقط في الخنى، فقد سقط في خنادق الشهوات التي تحفها النيران.

عباد الرحمن سيفوزون بالجنَّة برحمة الله تعالى، وهم الذين يعتقد بعض الناس أنَّهم متخلفون رجعيون حينما منعوا أنفسهم من لذة الحرام، ووالله إنهم ليعيشون عيشة الهناء والبركة والطمأنينة والرخاء، أما المغترون بسراب المعصية، والمتبعون للشبهات، فهؤلاء لا استغنوا بها في الدنيا، ولا هم ينصرون بأهلها في الآخرة.

ولنعلم ـ أيها الأبرار ـ أن الضعفاء هم أكثر أهل الجنَّة، الضعيف الذي لا يأبه به الناس، وتراهم يحتقرونه ويزدرونه، ويتأففون من مقاربته، أو يسخرون منه، لربما كان هذا المسكين أقرب إلى الله منا، بحسن عبادته، أو بصبره على بلائه، أو بإحسانه على قدر استطاعته، قال النَّبي ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ؛ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ) رواه البخاري.

وسيِّدا كهول أهل الجنَّة هما أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسيِّدا شباب أهل الجنَّة: الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسيِّدات نساء أهل الجنَّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون رضي الله عنهنَّ.

والعشرة المبشرون بالجنَّة هم: الخلفاء الرشدون الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهناك عدد من الصحابة بشرهم النَّبي ﷺ في أحاديث متفرقة بأنَّهم من أهل الجنَّة.

و(إنَّ أوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ علَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ علَى أشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السَّمَاءِ إضَاءَةً، لا يَبُولونَ ولَا يَتَغَوَّطُونَ، ولَا يَتْفِلُونَ ولَا يَمْتَخِطُونَ، أمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، ورَشْحُهُمُ المِسْكُ، ومَجَامِرُهُمُ الألُوَّةُ الأنْجُوجُ، عُودُ الطِّيبِ وأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، علَى خَلْقِ رَجُلٍ واحِدٍ، علَى صُورَةِ أبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا في السَّمَاءِ) رواه البخاري.

ومن جمال صورتهم وصفهم النَّبي ﷺ فقال: (يدخلُ أهلُ الجنَّة الجنَّة جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ، بَنِي ثلاثٍ وثلاثِينَ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وهم كذلك لا ينامون، قال ﷺ: (النومُ أخو الموتِ، ولا يموتُ أهلُ الجنَّةِ) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ولقد سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ عن فضلات الطعام؟ فقال: (جُشاءٌ ورَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ) رواه مسلم.

وأما آنيتهم فهي من الذهب والفضة، ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزُّخْرُف الآية ٧١]، وقال سبحانه: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩﴾ [الوَاقِعَة من الآية ١٧ الى الآية ١٩].

أما لباسهم فهو الفاخر من اللباس والحلي والأساور، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾ [الكَهْف الآية ٣١].

أما أمشاطهم فهي من الذهب والفضة أيضًا، قال النَّبي ﷺ: (آنِيَتُهُمْ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمْ الْأَلُوَّةُ؛ قَالَ أَبُو الْيَمَانِ: يَعْنِي الْعُودَ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ) رواه البخاري.

أمَّا الشَّهيد فله عند الله تعالى ستُّ خصالٍ؛ قال فيها النَّبي ﷺ: (يُغفَرُ لَه في أوَّلِ دَفعةٍ، ويَرى مقعدَه منَ الجنَّةِ، ويُجارُ مِن عذابِ القبرِ، ويأمنُ منَ الفَزعِ الأكبرِ، ويُوضعُ علَى رأسِه تاجُ الوقارِ؛ الياقوتةُ مِنها خيرٌ منَ الدُّنيا وما فِيها، ويزوَّجُ اثنتَينِ وسبعينَ زَوجةً منَ الحورِ العينِ، ويُشفَّعُ في سبعينَ مِن أقاربِه) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وأما فُرُش أهل الجنَّة: فهي بألوان فاخرة أُعدت للجلوس والاتكاء، فهي راقية وعظيمة بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يَسُرُّ الخاطر ويبهج النفس، والزرابي مبثوثة على شكل منسقٍ متكامل، قال تعالى:

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغَاشِيَة من الآية ١٣ الى الآية ١٦]، فالنمارق هي الوسائد والمخاد، والزَّرابي هي: البُسط.

أما خدم أهل الجنَّة، فهم في غاية الجمال، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

[الإنسَان من الآية ١٩ الى الآية ٢٢].

أما طيور الجنَّة ودوابها ففيها ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الوَاقِعَة الآية ٢١]، وفيها من الطيور نَعام، فقد سُئِلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ (ما الكوثَرُ؟ قالَ: ذاكَ نَهْرٌ أعطانيهِ اللَّهُ ـ يعني في الجنَّةِ ـ أشدُّ بياضًا منَ اللَّبنِ، وأحلَى منَ العسَلِ، فيه طيرٌ أعناقُها كأعناقِ الجُزُرِ، قالَ عمرُ: إنَّ هذهِ لناعمةٌ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: أَكَلَتُها أنعَمُ مِنها) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

وفيها من النُّوق ما فيها، فقد (جَاءَ رَجُلٌ بنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقالَ: هذِه في سَبيلِ اللهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: لكَ بهَا يومَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ، كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ) رواه مسلم.

أما ريح الجنَّة فهي تزيد من جمالهم وحسنهم، فقد قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا) رواه مسلم.

ولعباد الرحمن في الجنَّة لجلسات وزيارات يتبادلون فيها الأحاديث الطيبة الحسنة، التي ليس فيها لغو ولا كذب ولا افتراء، قال الكريم سبحانه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطُّور من الآية ٢٥ الى الآية ٢٨].

وإنَّ بعض أهل الجنَّة ليتمنى بعض الأماني، فتتحقق على نحو غير معهود لنا في الدنيا، فهذا واحد من أهل الجنَّة يستأذن ربه في الزرع، فيأذن له، فما يكاد يلقي البذر حتى يضرب بجذوره في الأرض، ثم ينمو ويكتمل وينضج في نفس الوقت، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن النَّبي ﷺ كان كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ ـ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ـ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ) رواه البخاري.

وآخر يشتهي الولد في الجنَّة، فيقول الرسول ﷺ عنه: (الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ويجمع الله تعالى العبد الصالح بزوجته في الجنَّة إن كانت من الصالحات، فإن الله تعالى وعدهم بذلك فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرَّعْد الآية ٢٣].

***

وإنَّ الله تعالى يزوّج عباده الصالحين في الجنَّة بزوجات جميلات، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدُّخَان الآية ٥٤]، وهنَّ الكواعب التي برزت ثُدِيُّهُنَّ، والأتراب المتقاربات في السن، والأبكار اللواتي لم يقربهنَّ إنسٌ ولا جان، والعُرُب: الغنجات المتحببات لأزواجهن، وإنهنَّ كأمثال اللؤلؤ المكنون، وكالياقوت والمرجان، وإنهنَّ قاصرت الطرف؛ بمعنى اللواتي قصرن بصرهنَّ على أزواجهنَّ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ، وإنهنَّ مطهرات من الحيض والنفاس، والبصاق والمخاط والبول والغائط، قال سبحانه: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النِّسَاء الآية ٥٧].

قال ﷺ: (لِكُلِّ امْرِئٍ منهمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ واحِدَةٍ منهما يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِن وراءِ لَحْمِهَا مِنَ الحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وعَشِيًّا) رواه البخاري.

وهل ستذكر ما يقول النَّبي ﷺ عن نساء أهل الجنَّة؟ فإنَّه قال عليه الصلاة والسلام: (وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) رواه البخاري.

وإنَّ لهؤلاء الحوريات من حسن الصوت في الغناء ما يأسر الألباب ويأخذ بالعقول، فقد جاء في الحديث الصحيح: (إنَّ أزواجَ أهلِ الجنةِ ليغنِّين أزواجَهنَّ بأحسنِ أصواتٍ ما سمعها أحدٌ قطُّ، إنَّ مما يُغنِّين: نحن الخيراتُ الحسانُ*أزواجُ قومٍ كِرامُ*ينظُرْن بقُرَّةِ أعيانٍ، وإنَّ مما يُغنِّين به: نحن الخالداتُ فلا يَمُتْنَه*نحن الآمِناتُ فلا يَخَفْنَه*نحن المقيماتُ فلا يَظْعَنَّه) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

ولتعلم النساء في الدنيا أن الحوريات يغرن على أزواجهنَّ في الدنيا إذا آذته زوجته، فقد قال النَّبي ﷺ: (لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا) رواه الترمذي وصحَّحه الألباني.

وإن المؤمن في الجنَّة له قوة مئة رجل، فقد قال النَّبي ﷺ: (يُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ قُوَّةَ كَذَا وَكَذَا مِنْ الْجِمَاعِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ: يُعْطَى قُوَّةَ مِائَةٍ) رواه الترمذي وحسَّنه الألباني.

***

وفي الجنَّة يضحك المؤمنون من الكافرين الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المُطَفِّفِين من الآية ٣٤ الى الآية ٣٦].

ويعرف المؤمن ــ وهو في الجنَّة ــ نعمة الله عليه إذ أنقذه من ذلك الصاحب والقرين الذي كاد أن يفسد عليه دينه أو يغويه، أو يضله عن طريق الاستقامة أو يشده إلى بؤر الفساد والمعاصي حينما رآه في سواء الجحيم يصرخ من شدة العذاب، فيقول: ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصَّافَّات من الآية ٥٤ الى الآية ٥٧].

ويعيش أهل الجنَّة في هناء وأيُّ هناء، قد ودَّعوا النصب والشقاء والهمَّ والغمَّ، رُفعت عنهم جميع التكاليف الشرعية، فاليوم جزاء ولا عمل، ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس من الآية ٥٥ الى الآية ٥٨].

وإنَّ أهل الجنَّة وهم كذلك متنعمون؛ إذ يناديهم ربهم فيقول: (يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؛ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا

رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا) متفق عليه.

فيا لها من لحظة كريمة من رب كريم على عباد الرحمن الذين أيقنوا بكرمه وحلمه وسعة رحمته، أن يرضى عنك الله! ألا يسخط عليك أبدًا! هذا أقصى أمل المتقين في رب العالمين، ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٥].

ويزداد الفضل ويعظم الكرم من الله الرحيم بخلقه؛ إذ يمنحهم مزيدًا لا مزيد بعده، ونعيمًا لا يفوقه نعيم، ينسى به أهل الجنَّة كلَّ لذة، ويشغلهم عن كلِّ شاغل، فلا أحب لهم منه، ولا أجل نعمة منه، إنه ما تلهج به ألسنتهم بالدعاء للفوز به، وما تهتف به حناجرهم أن ينالوا فضله، قال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

[ق من الآية ٣١ الى الآية ٣٥].

فما هذا المزيد؟ قال الرسول ﷺ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ) رواه مسلم.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يُونُس الآية ٢٦].

إنها الرؤية الحقيقية للرب سبحانه من غير إحاطة ولا كيفية، ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾ [القِيَامَة من الآية ٢٢ الى الآية ٢٣].

نعم، سينظر عباد الرحمن إلى من خلقهم، وأوجدهم، وراقبهم، وعفا عنهم، سينظرون إلى من أعطاهم السمع والبصر، وأنعم عليهم بنعمة الإسلام والصحة والأمان، سينظرون إلى من حنوا له ظهورهم في ليلهم ونهارهم، وبرُّوا من أجله آباءهم وأمهاتهم، وأخلصوا له عباداتهم.

سينظرون إليه من غير شك ولا ريب ولا تعب.

الله أكبر، ما أحلاها من ساعة، وما أعزَّها من نظرة، ففي حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنظَرَ إِلَى الْقَمرِ لَيْلَةً ـ يَعْنِي الْبَدْرَ ـ فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ٣٩﴾ [ق الآية ٣٩]، قَالَ إِسْمَاعِيلُ: افْعَلُوا لَا تَفُوتَنَّكُمْ) رواه البخاري.

فيا أهل صلاة الفجر، هنيئًا لكم، ويا أهل صلاة العصر هنيئًا لكم، فأين النائمون عن الصلاتين الغاليتين! أين الكسالى عن هذا الفضل العظيم؟ أين المسوِّفون؟ متى تفيقون؟ فاز المصلون، فاز من يتقلَّبون على فرشهم خشية فوات الأجر العظيم، والموقف الكريم، هناك يُعْرَف من يصلي الفجر ومن لا يصليها، ومن يصلي العصر ومن لا يصليها، تذكروا وصية إسماعيل: (افْعَلُوا لَا تَفُوتَنَّكُمْ).

***

حياة أهل الجنَّة حياة أبدية، مملوءة بالملذات والمسرَّات، لا تشغلهم الأحزان، ولا تقلقهم الغموم، ويلهمون التسبيح كما يلهمون النَّفس، ويحمدون الله على العيشة الهنية السعيدة، تتبدد فيها الأحقاد، ولا مكان فيها للضغائن، ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر من الآية ٣٣ الى الآية ٣٥].

لقد صدقهم الله الوعد الكريم، فحمدوه عليه؛ وهو المستحق للحمد في الدنيا والآخرة، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزُمَر الآية ٧٤].

أما تحيتهم فهي: السلام، وأما آخر دعواهم فهي: سبحانك اللهم، قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يُونُس الآية ١٠].

وإن الجنَّة والنار يتحاجان عند ربهم فقد قال النبي ﷺ: (تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؛ فَقَالَتْ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا) رواه البخاري ومسلم.

قال إبراهيم بن العباس الصولي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعملْ لدارِ البَقَا، رِضــوانُ خازنُها ... الجـارُ أحمـدُ والـرحمـنُ بانِـيهـا
أرضٌ لها ذهبٌ والمسـك طِينَتُها ... والزعفرانُ حشـيشٌ نابـتٌ فيها
أنهارُها لَبَنٌ محضٌ ومِن عسـلٍ ... والخمرُ يجري رحيقًا في مجَاريهـا
والطيرُ تجرِي على الأغصانِ عاكفةً ... تسـبّحُ اللهَ جهرًا في مَغـانيهـا
مَن يشـترِي قُبّةً في العدنِ عاليةً؟ ... في ظـلِّ طُوبَى، رفيعـاتٍ مَبـانِيهـا
دَلّالهُـا المصطَفى، واللهُ بائعُها ... وجبرئيـلُ ينـادي في نَـواحِيهـا
مَن يشـتري الـدارَ في الفِردوسِ ... بركعـةٍ في ظلامِ الليـلِ يُخفِيهـا
أو سـدِّ جَوْعَةِ مِسـكينٍ بِشـبَعَتِه ... في يومِ مَسـغبَـةٍ، عَمَّ الغَلَا فِيهـا
لا دارَ لِلمرءِ بعد الموتِ يَسـكُنُها ... إلا التي كـان قبـل الموتِ يبنيهـا
فمَن بنـاهـا بخيرٍ طاب مَسـكَنُه ... ومَن بنـاهـا بشـرٍّ خـاب بانيهـا

أيا عباد الرحمن: ما أقصر العمر وإن طال، سلوتنا في ديننا أن الصلاح بعده فلاح، وأن الصبر معه النصر، وأن الله يستر عباده يوم القيامة بستره، ويغفر لهم، ويُشفّع فيهم حبيبه ﷺ، ويدخلهم جنّته، فما أعظمك يا رب، وما أحلمك يا رب، نعصي فتغفر، ونسيء فتحلم، ونقصّر فتكْرِم، لا إله إلا أنت سبحانك إنَّا كنَّا من الظالمين، فَتَحْتَ أبوابَ التوبة للتائبين، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٣٥].

فما أجمل نفوس عباد الرحمن؛ نفوس خيّرة، مسارعة في الخيرات، متطهرة من دنس العداوة والبغضاء للمؤمنين، سامية بالحب والإخاء، باذلة نفسها للطاعة، ولبلادها وبلادها بالعمل الجاد، ولوالديها بالبرِّ والإحسان، ولمن حولها بالتعاون والتآلف، قد

أغلقت على النفس حُبَّ الأثرة والانتقام للنفس، تحب لغيرها ما تحب لنفسها، استقامت على السُّنَن، ونبذت البدع، وانتصرت للحق، واجتمعت مع جماعة المسلمين لا تفرِّقهم ولا تدعو لتفريقهم، واعتقدوا بأن الله حق، والرسول ﷺ حق، والقرآن الكريم حق، والجنَّة حق، والنار حق، فما أطيب الحياة بالإيمان، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

[النَّحْل الآية ٩٧].

هذا بعض ما ذُكِر في وصف الجنَّة ورياضها وأهلها، فلنقرأ عن الجنَّة، ولنتذاكر ما أعدَّه الله فيها من النعيم، ولنحدِّث به الناس، ونأخذ أجيالنا نحو التطلع إليها، وإلى رضوان الله فيها، فالنفوس جُبِلت على الفتور، والكلام عن الجنَّة يحيي في القلوب الإيمان، ويزهِّد في الدنيا، ويوقف المرء على حقيقة الحياة الأولى؛ ليعرف بها حقيقة الآخرة، إنه يجب ألا تشغلنا الحوادث مهما جلَّ شأنها عن آخرتنا؛ لأن إليها معادنا، فلا يزال عباد الرحمن يتذاكرونها؛ لأن الله تعالى قال في ختام صفاتهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

[الفُرْقَان من الآية ٧٥ الى الآية ٧٦].

فليعمل العاملون، وليتنافس المتنافسون، وليسارع المسارعون، وليتسابق المتسابقون، فجنَّة الفردوس تنتظر أهل الإحسان، وأهل الصفاء، وأهل النقاء.

فاللهم اجعل آخر كلامنا من الدنيا: شهادة ألا إله إلا الله، محمَّد رسول الله، واجعلنا من عباد الرحمن الذين تحبهم ويحبونك، وتأمرهم فيطيعونك، اللهم إنَّا نسألك الجنَّة ونعيمها، ونعوذ بك من النار وجحيمها، اللهم أسعدنا بجنانك، وأسبغ علينا رضوانك، وأفض علينا من فيوض رحمتك ما تستر به ذنوبنا، وتغفر به خطايانا، اللهم أفرحنا بصحبة النَّبي ﷺ في جنتك، والنظر إلى وجهك الكريم، ورفقة النَّبيين والصدِّيقين والشهداء

والصالحين، ووالدينا وأزواجنا وذرياتنا وأحبابنا أجمعين، اللهم بلِّغنا ما وعدتنا، وأعنَّا على ما به كلَّفتنا، وتقبل منا أعمالنا، واختم بالصالحات أعمارنا، فإنك سميع مجيب.

اللهم هذا جهد المُقِلّ، رجوتُ به وجهك الكريم، وابتغيت به أن أحثَّ نفسي المقصِّرَةَ على ما يرضيك عنِّي، وأن تنفع به عبادك، فاللهم إن علمتَ فيه الخير والصلاح فاكتب له القبول، وإن علمتَ فيه غير ذلك، فاستر خطيئتي، واغفر زلتي، وارحم ضعفي، فإني أستغفرك وأتوب إليك مما أخطأ قلمي، أو زلَّ به لساني، فإنَّك غفور رحيم.

وجزى الله خيرًا كل من أسدى إليَّ نصحًا، أو نبَّهني إلى خطأ، أو دلَّني إلى ما يثري الكتاب في طبعات قادمة بإذن الله تعالى.

وشكر الله كلَّ من كان سببًا في كتابة هذا الكتاب حينما كان برنامجًا إذاعيًا في إذاعة القرآن الكريم إلى أن خرج مكتوبًا منشورًا.

والحمد لله على التمام، ولله الحمد كلُّه، وله الشكر كلُّه، فأهلٌ سبحانه أن يُحمَد، وأهلٌ سبحانه أن يُعْبَد.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصَّافَّات من الآية ١٨٠ الى الآية ١٨٢].

وصلى الله على نبينا وقرة أعيننا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وكتبه:

الفقيرإلى عفو ربه، الراجي سِتر خالقه، الراغب في جنة مولاه:

فيصل بن سعود بن عبدالعزيز الحليبي

عفا الله عنه، وسامحه، وغفر له،

ولوالديه ولزوجه ولذريته ولأحبابه.

كان ختمه في مساء يوم العشرين من شهر ذي القعدة، من عام ١٤٤٣هـ، والتاسع عشر من شهر يونيو ٢٠٢٢م.

والله المستعان، وعليه التكلان.

□

المحتويات

مقدمة ٦

دُرُوبُ الأَمَان.................................. ١٤

(مُوحِّدُون).. ١٥

(مخلصون) ١٩

(مؤمنون بالقرآن الكريم) ٢٤

(مستقيمون) ٢٨

(محبون للنبي ﷺ متَّبعون له)........................ ٣٧

(أصحاب سُنَّة لا بدعة) ٤٢

(محبون لآل النَّبي ﷺ ورضي الله عنهم)................ ٤٧

(محبون لصحابة النَّبي ﷺ ورضي الله عنهم) ٥٦

(أهل صلاة).. ٦٠

(قانتون لله تعالى)................................... ٦٥

(أهل دعاء).. ٧٠

(ينادون الله في الكروب) ٧٥

(أهل تضرع وخشوع)................................. ٨٠

(يخشون ربهم سبحانه) ٨٥

(أهل بكاء من خشية الله تعالى)................................ ٩٠
(يفرّون إلى الله تعالى).. ٩٤
(أهل تسبيح لله تعالى) ٩٨
(مؤمنون بالقدر خيره وشره)................................... ١٠٢
(يستعيذون بالله تعالى)... ١٠٧
(يستعينون بالله العظيم).. ١١٢
(يرجون رحمة الله تعالى)....................................... ١١٦
(يطمعون فيما عند الله من الخير) ١٢٠
(يعترفون بالفضل لصاحب الفضل)............................... ١٢٤
(يطيعون ولي أمرهم في المعروف)............................... ١٢٨
(يبرون الوالدين).. ١٣٣
(يودُّون أزواجهم)... ١٣٩
(يرعون أولادهم).. ١٤٤
(أصحاب صلة الرحم)... ١٥٢
(يُبَشَّرون ويُبِشِّرون) ١٥٦
(يفشون السلام)... ١٦٠
(أهل بشاشة).. ١٦٤
(يصلحون ذات بينهم)... ١٦٨
(يألفون ويؤلفون)... ١٧٣

(يحسنون العِشْرَة).. ١٧٧
(محسنون لخدمهم).. ١٨١
(يحفظون حق جيرانهم) ١٩١
(محبوبون من أهل الخير).. ٢٠٤
(أهل بصيرة).. ٢٠٨
(أهل ورع).. ٢١٢
(أهل زُهدٍ).. ٢١٦
(أهل سماحة).. ٢٢٠
(أهل شجاعة) ٢٢٤
(أهل شورى).. ٢٢٨
(أهل وقاية).. ٢٣٢
(يقظون).. ٢٣٦
(أهل يقين) ٢٤٠
(أهل نظام).. ٢٤٥
(يكتمون السِّر) ٢٤٩
(يحاسبون أنفسهم).. ٢٥٣
(يحبون التيمُّن).. ٢٥٧
(أهل الطيِّبات).. ٢٦١
(متفائلون).. ٢٦٥

(أهل وسطية).. ٢٦٩
(مُيَسِّرون).. ٢٧٣
(رحماء).. ٢٧٧
(دعاة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة)........................ ٢٨١
(أصحاب رفق).. ٢٨٦
(أهل صبرٍ على مَنْ خالفهم).. ٢٩٠
(ثابتون على دينهم).. ٢٩٥
(حكماء).. ٢٩٩
(مطمئنون).. ٣٠٤
(متطهرون).. ٣٠٨
(أهل عِزَّة).. ٣١٣
(أهل اقتداء وقدوة).. ٣١٧
(يعظمون حرمات الله وشرائعه).. ٣٢١
(تكريم الله تعالى لهم).. ٣٢٥
(يُكرِّمون أنفسهم ويكرِمون غيرهم).. ٣٢٩
(ذوو خُلُقٍ حسن).. ٣٣٣
(ذوو سَمْتٍ حسن).. ٣٣٧
(يحفظون ألسنتهم).. ٣٤١
(يعودون مرضاهم).. ٣٤٨

(يغضون أبصارهم عن المحرمات) ٣٥٢

(نساؤهنَّ محتشمات) ٣٥٦

(يعمرون المساجد).................................. ٣٦٠

(يكرمون ضيوفهم) ٣٦٤

(يتثبَّتون) ٣٦٨

(أهل شرف).................................. ٣٧٢

(أصحاب حياء).................................. ٣٧٦

(أهل مروءة).................................. ٣٨٠

(أمناء) ٣٨٥

(أصحاب سَكِينَةٍ ووقار).................................. ٣٩٠

(أهل ستر).................................. ٣٩٥

(يعادون الشيطان ويتعوذن بالله منه) ٣٩٩

(يحفظون النعم ويشكرون الله عليها).................................. ٤٠٨

(أهل كرمٍ وإنفاق).................................. ٤١٢

(متوسطون في الإنفاق).................................. ٤١٨

(يطلبون الرزق) ٤٢٣

(آمنون) ٤٢٨

(يعتذرون حينما يخطئون).................................. ٤٣٤

(يعتبرون ويتعظون) ٤٣٨

(يستخيرون الله تعالى).. ٤٤٢
(أهل إغاثة).. ٤٤٦
(أصحاب أناة).. ٤٥٠
(أصحاب إيثار).. ٤٥٤
(مجاهدون لأنفسهم).. ٤٥٨
(شغوفون بالعلم).. ٤٦٢
(محسنون في أعمالهم) ٤٦٦
(صادقون).. ٤٧١
(يمزحون) ٤٧٦
(محتسبون).. ٤٨٠
(أهلُ فقهٍ في الدِّين) ٤٨٤
(أهل قناعة في الدنيا).. ٤٨٩
(سَفَر عباد الرحمن).. ٤٩٣
(نوم عباد الرحمن).. ٤٩٧
(مشفقون).. ٥٠١

دُرُوْبُ الحَذَر.. ٥٠٦

(لا يتبعون الهوى) ٥٠٧
(لا يأمنون مكر الله تعالى).. ٥١٢
(لا يبتدعون في الدين).. ٥١٦

(لا ينتهكون حرمات الله تعالى) ٥٢٠
(لا يزنون) ٥٢٣
(لا يهملون صلاتهم).. ٥٢٧
(لا يعقُّون والديهم)... ٥٣١
(لا يطلقون أبصارهم في المحرمات)................................ ٥٣٦
(لا يصرُّون على الذنوب)....................................... ٥٤٠
(لا يجرمون)... ٥٤٤
(لا يحبطون)... ٥٤٩
(لا يحتكرون).. ٥٥٣
(لا يؤذون).. ٥٥٧
(لا يُعْرِضون عن الخير) ٥٦١
(لا يَفْتَرُون)... ٥٦٥
(لا يعسّرون).. ٥٧١
(لا يُنَفِّرون) ٥٧٥
(لا يتهاونون) ٥٧٩
(لا يتهربون من مسؤولياتهم).................................... ٥٨٣
(لا يجحدون نعم ربهم عليهم).................................... ٥٨٧
(لا يجادلون إلا بالتي هي أحسن) ٥٩١
(لا يجزعون)... ٥٩٥

(لا يجفون).. ٥٩٩
(لا يحقدون) ٦٠٣
(لا يُرْهِبُون إلا الأعداء) ٦٠٧
(لا يبخلون) ٦١١
(لا يَتَسَوَّلُون).. ٦١٥
(لا يتطيَّرون).. ٦١٩
(لا يحتقرون الآخرين).. ٦٢٣
(لا يخذلون المسلمين).. ٦٢٨
(ينبذون الفُرْقَة) ٦٣٢
(لا يتناجشون).. ٦٣٦
(لا يُطَفِّفُون في المكيال).. ٦٤٠
(يتركون ما لا يعنيهم).. ٦٤٤

الخاتمة.. ٦٤٨

(أصحاب الجَنَّة).. ٦٤٩

فهرس المحتويات ٦٨٣

مؤلفات صاحب الكتاب المطبوعة:

الرسائل العلمية:

١- مقاصد المكلفين عند الأصوليين (رسالة ماجستير).

٢- الشامل في شرح أصول الفقه للإمام فخر الإسلام علي البزدوي، تأليف: قوام الدين أبي حنيفة أمير كاتب بن أمير عمر العميد الفارابي الإتقاني (٦٨٥ ــــ ٧٥٨هـ)، الجزء السابع، من باب تقسيم السُّنَّة في حق النَّبي ﷺ حتى آخر الشرط الثاني من شروط القياس دراسة وتحقيقًا) (رسالة دكتوراه).

الأبحاث العلمية المُحَكَّمة:

٣- المقاصد الوهمية وأثرها على الفتوى.

٤- تجديد الاجتهاد في الواقعة بعد تكرارها.

٥- مخالفات المستفتي وأثرها على الفتوى.

٦- حكم الاستفتاء في الأحكام الشرعية العملية.

٧- خلو العصر من المجتهد وآثاره الأصولية.

٨- الأسماء الشرعية العملية، حقيقتها ودلالتها وأثرها في الأصول والفروع.

٩- الزيادة على القدر المجزئ من الواجب عند الأصوليين وآثارها الفقهية.

١٠- دلالة حكاية الصحابي فعل النَّبي ﷺ بلفظ ظاهره العموم دراسة تأصيلية تطبيقية.

١١- سقوط الواجب المؤقت بفوات وقته.

١٢- الأمر بالأمر بالشيء هل يُعَدُّ أمرًا؟ دراسة أصولية تطبيقية.

كتب أخرى:

١٣- علم مقاصد الشريعة الإسلامية، (كتاب تعليمي).

١٤- حدائق المعروف (باللغة العربية، وباللغة التاغالوغية الفلبينية).

١٥- حدائق الفضيلة باللغة الإنجليزية.

١٦- حينما ابتلي الحبيب ﷺ.

١٧- نبتة حب.

١٨- حوارك مع زوجك.

١٩- الفتور أسبابه ومظاهره وعلاجه.

٢٠- صفات عباد الرحمن (هذا الكتاب).